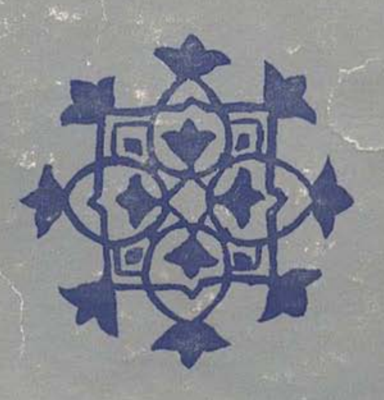
المناهل



9

المناهل



تصدرها
وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية
الرباط - المغرب

العدد التاسع
السنة الرابعة

رجب 1397
يوليو 1977

تهنئة "المناهل"
بعيد الشباب

يصدر هذا العدد التاسع من مجلة "المناهل"، والمغرب بجميع أفراده وهيآته ومنظماته يتأهب مبتهجاً مغتبطاً للاحتفال بعيد الشباب المجيد، احتفالاً يناسب ما في قلوب المغاربة أجمعين لعاهلهم المفدى من إعزاز وإكبار.

وتغتنم أسرة مجلة "المناهل" فرصة حلول هذه الذكرى العزيزة، لترفع آيات التهاني والتبريك إلى قائد المغرب الحكيم، وصانع أمجاده، صاحب الجلالة الملك المعظم الحسن الثاني نصره الله.

وإذ ترفع أسرة "المناهل" أسمى عواطف محبتها وولائها وتعلقها الملكي بشخص جلالته. فإنها تضرع إليه سبحانه أن يعيد عليه هذا العيد، وعلى أسرته بأعظم وأقوى المسرات، وأن يطيل عمره، ويقر عينه الكريمة بولي عهده صاحب السمو الملكي الأمير الجليل سيدي محمد، وبصنوه الأمير المحبوب مولاي رشيد، وبأخواتهما الأميرات المبجلات، وأن يحقق بسديد رأيه، وجميل تيسيره ما يطمح إليه شعبه من واسع الآمال.

المناهل

الفهرس

صفحة

من شعر منويل متشادو



الاندلس ــ كما قال ابن خفاجة ــ «ماء وظل وأنهار وأشجار» والزهور فيها ــ لاسيما البهار والياسمين والنرجس والورد ــ معطرة بالحنين والنشوة .

والاندلس فى قلوب الشعراء قصيدة تتألف من كلمات : عيون سود تؤلقها البسمات وتطهرها الدموع ، وحب يذكيه الصد والغيرة، وشموخ يطبع هامات الرجال وملاحة تذوب فى رشاقة النساء .

وحينما ينساب الماء فى الانهار المتعطفة المحجوبة بالظلال وتزهر أشجار اللوز نورا أبيض موردا تترنم الاندلس بتواشيح تهتز بها الشفاه ولا تذكر قائلها .

وفى الربيع ، حينما تتجاوب الجداول مع همس الطيور عند نهاية الظهيرة يرسل فتى أسمر « موالا » يتموج ويضطرب فى حلقه

كوجيب الغيرة فتتحلى النساء بأزهى ثيابهن ويضعن فى مفارقهن ـــ دلالا واختيالا ـــ قرنفلة وينطلقن لحضور «لافييستا» حيث ينتيه المصارعون الفارعون زهوا وفحولة وهم يرمقون الفاتنات يغازلن الساحة بمراويحهن الزاهية وأمشاطهن الصدفية المغــــروزة فى شعورهن السوداء .

تلك هى الاندلس التى عصر لها الموسيقيون قلوبهم ألحانا ، وصبغ الرسامون مرابعها بدهان قلوبهم ، ورتلها الشعراء مزامير وآهات ، تذوب فى شفاه الناس ريقا من زلال .

* *

« منويل مانتشاور » * من الشعراء الذين بعثوا فى القصيدة الاسبانية نفسا جديدا من غير أن يجردوها من روحها المتميــزة

---

* ولد منويل ماتشادو فى اشبيلية سنة 1874 ، وتوفى فى مدريد سنة 1947.
درس الفلسفة والادب . وعمل مديرا لخزانة الصحف وللمتحف البلدى بمدريد .
- اسس عدة مجلات . وساهم بقلمه فى صحف اوربية وامريكية شتى .
- الف ، بالاشتراك مع اخيه أنطونيو ماتشادو ، عدة اعمال مسرحية ناجحة منها :
دوقة بناميخى ـــ الرجل الذى مات فى الحرب . الدفلى ـــ تعاسات الثروة ـــ ابنة العمة فرناندا .
- له ديوان شعر مكنه من الشهرة التى ادركها باعتباره شاعرا مجــددا رقيق الخيال ، شعبى المزاج والاحاسيس والعبارة . ويتغنى شعب الاندلس بكثير من موشحاته وقصائده .
قال عنه الكاتب المفكر « أونامونو Unamuno » بأن قصيدته التى عنوانهـــا « قشتالة » تكفى وحدها لتخليد اسمه فى ديوان الشعر الاسبانى.

بالايقاع الموسيقى وبتراقص الكلمات والعبارات مع الاحـــلام والعواطف .

ولد « ما تشادو » فى اشبيلية ذات النهر « الكبير » والصومعة السامقة الصامتة ، وحى « لاتريانا » الذى تتعانق فيه الظـــلال وأشعة الشمس . وأحب الشاعر الاندلس على طريقته البوهيميـــة فخلدها فى شعره بألفاظ شعبية رشيقة وعبارات حية مقتضبة تحس وكأنها تغنى وترقص .

وقد رسم الشاعر جغرافية الاندلس ، كما رآها ، معطلة الجيد خالية من القلائد البراقة فقال :

« قادس : صفاء ذو ملوحة .. وغرناطة :
ماء غور يبكـــى .
وقرطبة ، الرومانية العربية ، صامتة .
ومالقة صداحة بالغناء ،
والمريـــة ذهبيـــة ..
وجيان فضية .. ووالبة : شاطىء القوارب الثلاثة .
واشبيلية » .

لم يخلع الشاعر على اشبيلية أي وصف . انها روى القصيدة ، وحسبها ذلك !

تلك هى جغرافية الاندلس فى خيال الشاعر ، أما روحهـــا فتنطوى على كل الاسرار : أصوات لا تمل الغناء ، وعيون دائمـــة

السواد ، وشفاه من عقيان ، ونساء تكويهن لواعج العشق والغيرة، وبين كل ذلك ظلال باردة وقيثارة تئن وتذرف الدمع تحت عرائش الكروم الطيبة .

يقـــول الشاعــر :

« المدامة والعاطفة والقيثارة والشعر

تصنع غناء بلادى .

غنــــاء ..

ومن يقول : غناء فهو يعنى الاندلس » .

الغناء والاندلس اذن كلمتان مترادفتان ، متعاطفتان . والغناء لغلة القلب والاحاسيس ، وهو يقول كل شىء ، ويصمت حينما يشاء عن كل شىء .

فماالذى تحكيه أغانى الاندلس ؟ يقول الشاعر انها :

« تحكى عن العيون السود ،

عن الشفاه الحمر ،

عن الثأر والنسيان والهجران ،

عن الحب والخديعة .

عن الوفاء ،

عن الحسنات والسيئـــــات ،

عن الامل والغيرة ، عن أمور الرجال والنساء » .

والقيثارة رفيقة الغناء الاندلسى ، بل حلقه الثانى ، وهى ، مثله ، تبكى وتضحك ، تقول وتصمت ، تحن وتقسو ، فى أوتارها أسماء النساء ونعوت الرجال ، وأوصاف العشق ، وترانيم الامل والشجن والانتظـــار .

يقول الشاعر ماتشادو على لسان القيثارة :

« أتكلم ، أنتحب ، أهذى ..
أعرف الضحك والدمـــوع .
مع الافواه القانية ، أغنـــى .
مع العيون السود ، أنظر .
مع العاشقين أتأوه
وأضحك مع المازحين .
أنغامى قطـــرات غليظـــة
من ماء شبم فى شجيرة ورد .
وملاحة اسبانيا كلهـــا
تجمعت فى دموعى » .

وتتحدث القيثارة فى قصيدة أخرى فتقول :

« أوتارى ، المشدودة كأعصاب بشرية ،
صرخة ألم وآهة عاشق ،
ترعى عوالم من حنان شاسعة
كالقلب الخفـــاق .

وأنغامى ، التى تنهمر من بين الاغاريد العجيبة
وتتحدث عن الحظ والحزن والحب والموت ،
عبرات ساخنة
من دم قان يتدفق من صدرى » .

وحيثما يكون الغناء والقيثارة يكون الحب ، وتكون المرأة المعشوقة ، وبينهما من ظلال الامل والوصال ولفحات الصد والغيرة عوالم تعطى للاوتار والانشاد روحا ومعنى .

يقول الشاعر :

« ألثم فمك القانى النـــدى
فلا ينطفىء عطشى ،
وأود عند كل قبلـــة
أن أشرب روحك بكاملها .

لقد عشقتـــك
وانه لبئس الداء
لا يشفى منه حتى الـــردى
ـ كما يقول من عشقوا ـ

قد يعترينى الجنون وأنا أسمع
حفيف مئـــــزرك .
ولمس يـــدك
يحيينـــى ثم يميتنـــى .

ربما تمنيت أن أكون نسيما
يعانق جسدك كلــه
وأن أكــون الــدم
الذى يجرى فى أحشائك .

أنا بــك سقيــم
ولا أمــل فى شفائــى .
وأنت أنت ، فى ظما هذا الغرام المجنون ،
عطشى ومائــى .

ألا تبا لتلك الساعــة
التى دخلت فيها دارك
ورمقت عينيـــك
ولثمت ثغــرك القانــى .

ألا تبــا للظمــا
وتبا للمــاء
ألا تبــا للســم
الذى يسرى ولا يقتـــل » .

والنساء الاندلسيات ، العاشقات والمعشوقات ، يتعهدن فى قلوبهن المرهفة رياضا منزهور ورياحينمختلفات العطر والالوان: الورد الاحمر الذى يحكى لون العشق وطهارته، والياسمين الابيض الذى تتفتح فى مياسمه المرهفة براعم الامل ، والنرجس «الغض

الذكى ولونه لون الحبيب 'ذا جفاه حبيب» كما قال شاعر أندلسى عربـــى .

وقد صور « منويل مانتشادو » العاشقة الاشبيلية فى ثلاث قصائد تحمل كل منها اسم امرأة .

فهذه « كارمن » التى يبلغ من سواد شعرها أن يبدو للناظر أزرق ، « وفى عينيها يزهر الحب ويثمر » ، و «أنطونيو» معشوقها يبـــدو :

« ملتحفا بهالة من بهاء تجلـــل
الرجل حينما تعشقه امرأة حسناء ،
ويمر « انطونيو » فيلقى نظرة طويلة
تضرم نارا فى فؤاد « كارمن » وخديها
وتراه وهو يبتعد فتحس فى صدرها بخفقان
يختلط بوقع خطاه المعروفة » .

والعاشقة الثانية : « روساريو » تعرف :
« أن الرجال هم الرجال . وفى الحياة أشياء .. »

وتقتنع بهذه الحقائق الاولى فتنكب على ما تخيطه « مائلة برأسها الشامخ الذى تتألق فيه وردة تحسد جمالها » .

« وتفكر روساريو فى بيتها النظيف كالمرآة
اذ تتعهده بنفسها فتضفى عليه من سحر ملاحتها .

وهى لا تعلم من أمور الدنيا شيئا .
فحينما يأتى « خوان » تضحك . واذا تأخر تبكى .
وخوان ، الذى يحبها كثيرا ولو أنه
لا يبوح بذلك الا قليلا ، يعود دائما الى ظلال
الحب الحقيقـــى .

أما هى فتنتظر وهى ترعى العش الحبيب الحلو ،
حيث ينمو نبت الحب الاحمـــق .
ويصادف ألا يأتى خوان فى تلك الليلة ، ولكن ..
الرجال هم الرجال . وفى الحياة أشياء .. »

أما الثالثة : « آنه » فقد حيا فيها الشاعر الجدة العجوز التى تحفظ فى قلبها ذكريات عطرة من حب مضى وبقيت آثاره . يقول مانشادو :

« أتعرفون الاسطورة التى تعزى الى القديسة آنه
اختراع القدر؟ .. وآنه الاخرى ، تلك التى
تطفح شذى وظرفا ، وهى من عشبة طيبة
تباهى عشبة أطيب ؟

أما فكرتم، وأنتم ترقبون قطرات المطر تنحدركالدموع
على القشرة الخشنة للبلوط الشامخ ،
أما فكرتم فى الوجوه المتغضنة النبيلة
للجدات ، الملكات ــ الامهات ، اللاتى عشقن كثيرا؟

كل هذا يثيره فى النفس منظر هذه العجوز القديسة،
التى تحيط بها هالة من نور بيت لا يخبو
تحت سماء اشبيلية البهيجة الصاغية ..

وانها ما تزال تسحر أحفادها الصغار بحكايات مرحة ، وما تزال ، وهى فى خريف العمر ، تحافظ باباء على ابتسامة فى الثغر ووردة فى الشعر » .

***

ان الشاعر « ماتشادو » قد أضفى على الاغنية الشعبية جمالا ورونقا فترنمت بها الشفاه ، وتغنت القلوب ، وانتقلت من فم الى فم كالمثل السائر أو الحكمة المأثورة ، فبقيت بذلك شعلة الاندلس الغنائية متأججة ، وواصلت القيثارة المحمومة ارتعاشها فى ايقاع ونغم .

وقد اتفق لماتشادو أن سمع بعضا من موشحاته تهتز بها الشفاه وتترنح الحناجر فى ليلة مقمرة ، فكان يحس بالفخر الممزوج بالتواضع حينما يعلم أن الغجرية التى تتغنى بشعره أو الفتى الاسمر الذى يردد احدى مقطوعاته لا يعرفان أو لا يذكران اسم صاحب القصيدة . يقول ماتشادو عن الاغنية التى يجهل الناس قائلها :

« حينما يجهل الناس
أنها كانت مكتوبة على الورق

ويبكى الذى يغنيهـا
كما لو كانت من نظمـه
حينئـذ ستكونـين
ـ يأغنية غرامى ويأنشودة آلامى ـ
أغنيـة حقـا ،
فتطيريـن بعيـدا .
وفى شفـاه أى النـاس
سوف تنسينـى »

وفى قصيدة أخرى يقول الشاعر :

« التواشيح ليست تواشيـح
حتى يغنيها الشعب ،
وحينما يغنيها الشعـب
لا يذكـر أحـد قائلهـا

هذا هو مجد الذين يكتبون الاغانـى ..
أن يسمعوا الناس يقولون :
هذه الاغانى لم يكتبها أحـد » .

لقد غنى « مانتشادو » وأنشد للشعب ، فأعرب عن همومـه الصغيرة وعن آماله وحبه وأشجانه ومرحه بأسلوب رقيق يطفح ايقاعا وبساطة ، وترك ثروة من الاهازيج والموشحات الشعبية ما تزال الشفاه تتناقلها فى كل ربوع الاندلس .

وقد تحدث «مانتشادو» عن نفسه ، بنفس البساطة والدماثة واللوعة ، فقال فى قصيدة « الاسى » :

أساى جـد قبيـح
لانه أسـى لسـت أريـده
أن يذهب عنـى .
أتى ، من غير أن أعلم من أيـن
كما تأتى المياه الى البحار ، والزهور الى الربيع ،
والرياح الى الاحـراج .

أتى وسكـن
فى فـؤادى
كمرارة القشـر الاخضـر
لليمـونـة الخضـراء » .

ونختتم هذا العرض بقصيدة « الدفلى » التى تعتبر مـن روائع شعر « مانتشادو » وهى بمثابة ترجمة ذاتيـة مكتوبـة بالاسلوب الذى أحبه الشاعر :

أ ناكالاقوام الالى أتوا الى بلادى
ـ أنتمى الى السلالة العربية ، صديقة الشمـس القديمة ـ
أولئك الذين كسبوا كل شىء وأضاعوا كل شىء .
لى روح من بهار ، روح العربى الاسبانى .

مشيئتى ماتت فى ليلة مقمرة
حين كان جميلا ألا أفكر ولا أحب ..
مناى أن أتمدد دون أى أمل ..
بين الفينة والفينة قبلة واسم امرأة .

روحى ، شقيقة المساء ، ليس بها منعطفات
والوردة الرمزية لهواى الوحيد
زهرة تولد فى بقاع مجهولة
فلا يكون لها أريج ولا شكل ولا لون .

قبلات ، لكن لا أمنحها ! مجد.. ما هم مدينون به لى!
ألا فليقبل على كل شىء كالنسمة الخفيفة !
ولتحملنى الامواج تغدو بى وتروح
فلا أجبر قط على سلوك نهج لا اختار سلوكه .

الطموح ! ليس لى منه شىء ، الحب ! لم أحس به .
لم أكتو قط بنار الايمان وعرفان الجميل
كان لى بالغن هوى غامض .. فأضعته .
الرذيلة لا تغرينى ، والفضيلة لا أعبدها .

ما ارتاب أحد قط فى نبل محتدى .
الوجاهة والحسب الرفيع لا يكتسبان بل يورثان ..
بيد أن شعار البيت ورمز الدرع
سحابة باهتة تحجب شمسا وهمية .

لا أسألكم شيئا . لا أحبكم ولا أكرهكم . وحسبى
أن تتركونى أصنع من أجلكم ما تستطيعون صنعهمن
أجلـــى..
ولتحمل الحياة مشقة قتلـــى ،
ما دمت لا أتكلف من أجل أن أحيا عناء ! ..

مشيئتى ماتت فى ليلة مقمـــرة
حين كان جميلا ألا أفكر ولا أحب ..
بين الفينة والفينة قبلة بدون أمل ،
قبلة سخية لا يكون على أن أردها .

الربـــاط **محمد العربى الخطابى**

اللغة السواحلية
وأثر العربية فيها حاليا

محمد الفاسي

الكل يعلم أن اللغات الاسلامية من فارسية وبربرية وتركية ولغة الاوردو وغيرها تأثرت كلها بالاساليب العربية ودخلها عدد كبير من المفردات العربية يتراوح ما بين الخمسين والستين فى المائة ولقد جعلتنى اسفارى المتعددة فى نواحى العالم اتصل مباشرة بهذه اللغات واهتم بهذه الناحية من الاشعاع الحضارى واللغوى للغة القرآن وقد قدمت لكم فى السنين الاخيرة دراستين عن أثر اللغة العربية فى البربرية وفى التركية ولى دراسة أخرى عن الفارسية وهى أكثر اللغات العجمية تأثرا بالعربية . وقد آثرت فى هذه الدورة أن أحدثكم عن لغةأخرى يتكلمها اهالىافريقيا الشرقية وهىالسواحلية اللغةالرسمية لطانزانيا ويتكلمها كل السكان المسلمون منهم وغيرهم من الوثنيين والمسيحيين فى كل بلاد افريقيا الشرقية من الاوغاندا الى شمال الموزامبيق . بل ويستعملها كذلك بعض أهالى عمان .

ولقد أمكننى ان أدرس هذه اللغة خصوصا من ناحية المفردات عند مقامى بنايروبى عاصمة الكينيا للمشاركة فى المؤتمر التاسع عشر لليونسكو فى شهرى أكتوبر ونومبير الماضيين وانتهزت هذه الفرصة فذهبت لدار السلام حيث

استعمال اللغة السواحلية عام فى الحياة اليومية والادارية واقتنيت كتبا فى النحو وقواميس مختلفة وانكببت فى هذه الاشهر الاربعة على استخراج المفـــردات العربية الموجودة حاليا فى السواحلية واقول حاليا لان فتـــرة الاستعمار الانكليزى جعلت الفاظا انكليزية وهندية كثيرة تحل محل مفردات عـــربيـــــة .

ويظهر من دراسات المتخصصين ان عرب عمان واليمن كان لهم اتصال متين ببلاد الزنج قبل الاسلام ونزح منهم كثيرون الى هذه البلاد للتجارة اولا ثم للاستيطان حيث تزوجوا من النساء الزنجيات ونتج عن ذلك امتزاج بين العنصرين وتاثير كبير للغة العرب على لغة البانتو الاصلية لسكان السواحل الشرقيـــــة .

ومن اقدم النصوص العربية التى نجد فيها استعمال لفظة السواحل ما ذكره ابن بطوطة فى رحلته حيث قال : « ثم ركبت من مدينة مَقَدَشَو (وقد ضبطها هكذا) متوجها الى بلاد السواحل قاصدا مدينة كلوا من بلاد الزنوج فوصلنا الى جزيرة مَنْبَسَى » . واللغة التى نتجت عن امتزاج العرب بالزنوج فى هذه السواحل سميت السواحلية .

واصل السواحلية من لغة البانتو التى تتفرع الى عدة لغات تستعمل فى وسط افريقيا وجنوبها من الكامرون الى بلاد السواحل الشرقية وتمتاز بكونها لا تقبل السكون فى مقاطعها وكل مقطع ينتهى بحرف محرك . وهذا ما جعل الالفاظ العربية التى دخلت هذه اللغة تتكيف حسب هذه القواعد . ومن مميزاتها ايضا ان لها عددا كبيرا من الزوائد فى اول الكلمات (سوابق) وفى آخرها (لواحق) (Préfixes - Suffixes) للتعبير عن عدة معان فى الاسماء والافعال مما يجعل مثلا احيانا الكلمة العربية عائمة وسط هـــذه المقاطع كما سنراه . وتمتاز كذلك بعدم وجود اداة للتعريف ولا فرق فيها بين المذكـــر والمؤنـــث .

والملاحظ ان التأثير العربى لم يتعد المفردات اما النحو والصـــرف فانهما بقيا على اصلهما الا ما كان من دخول بعض حروف الجر والعطف ونحوها وبعض الظروف مثل حتى ، لاكن ، ولا ، بعد ، بـــلا ، كما ، او .

ومن البديهى ان نطق كثير من اصوات الحروف العربية تغير كما هو الشأن فى اللغات الاسلامية الاخرى باستثناء البربرية التى هى لغة سامية كما كنت شرحته فى دراستى عنها .

وهكذا نرى أن الحاء والخاء والهاء تنطق كلها هاء وتكتب اليوم H بعد أن عدلوا عن الحروف العربية الى الحروف اللاتينية تحت تأثير الارساليات المسيحيـــــــــــــة .

والعين تنطق همزة حسب حركتها فيقولون للعسل اسلى . وللعمارة إمـــارا ، وللعـــذر أذرُو .

والقاف تنطق كافـــا : كابيلا = قبيلـــة . كافلا = قافلة . كلامـــو = قَلَـــم . وتـــرد أحيانا معقـــودة نحـــو GALME = قلـــب .

اما الطاء فتكتب مثل التاء اى بحرف وحده فيكتبون Taibu = طيـــب و Tabiru تعبيـــر .

وفى الكتابة بالحروف اللاتينية يميزون بين التاء والثاء بكتابة المثلثة بحـــرفـــى Th

ويميزون فى الكتابة اللاتينية الذال عن الدال بكتابته بحرفى Dh كما يكتبون الضاد كذلك بهذين الحرفين .

وتقلب الباء أحيانا ميما مثـــل Galme بمعنى قلـــب .

وتقلب الخاء أحيانا غينا نحو غافى = خفيف بمعنى اهميته خفيفة اى ضعيفـــــة .

وينقلب الدال احيانا تاء مثل دقـــة = Tike وبارود = Baruti

وينقلب الضاد احيانا صادا والطاء دالا نحو ضبط = Sabidi

تقدمنا أن الالفاظ العربية التي دخلت السواحلية تكيفت حسب قواعد هذه اللغة وهكذا حيث أن السواحلية لا تكاد تقبل سكونا فكلما اقتبسوا مفردة فيها سكون الا وعوضوه بحركة وكثيرا ما تكون كسرة مثال ذلك :

أولا : تعويض السكون بالكسرة :

مَرْجان	= مَرِجاني	Marijani
مَطْلَب	= مَطِلَبا	Matilaba
صِنْف	= صَنِيفو	Sanifu
سِتْر	= سِتِيري	Sitiri
مَجْرَى	= مَجِيرَا	Majira
وَسْوَاس	= وَسِوَاسِي	Wasiwasi
فِتْنَة	= فِتِينَا	Fitina
أَجْرَة	= أَجِيرا	Ujira
حَسْرَة	= هَسِيرا	Hasira

ثانيا تعويض السكون بالضم :

صِفْر	= صِفُري	Sifuri
حُرْمَة	= هُرُما	Huruma
حُزْن	= هُزُنِي	Huzuni
قَصْد	= كُسُدي	Kusudi
بُغْض	= بُغُوضا	Bughuda

ثالثا : تعويض السكون بالفتح :

مدرسة	= مَدَرَسا	Madarasa
قهوة .	= كَهَاوا	Kahawa
وقت (بمعنى أثناء)	= وَكَتِي	Wakati

ومن التغييرات التى تطرأ على الكلمات العربية عند دخولها فى السواحلية أن وزن فَعْل يصير فُعَلي مثل فَتْح = فُتَهِي ، وفَسْخ = فُسَهي . وكذلك فِعْل يصير فُعْلِي نحو فِطْر = فُطَرِي .

ومن الامثلة عن الكلمات العربية التى تدخل عليها زوائد تجعلها غامضة وكأنها عائمة وسط تلك الحروف والمقاطع العربية أورد ما يلى :

جُمْليشا	=	اى جَمَعَ وهذه اللفظة مأخوذة من مادة جملة
شُغُليكا	=	اى شَغَل
صافيشا	=	اى نظيف من الصفاء
تشاكولا	=	اى أكَل
ماجيبو	=	اى جواب
إليميشا	=	اى علَّمَ من إليم = عَلِيمَ .

والسواحلية من اللغات المسماة ذوات الطبقات وذلك أنهم يجعلون حروفا او مقاطع فى اول الكلمات للتعبير عن الافراد والجمع وعن التصغير وعن أسماء حيوانات ونباتات وهكذا فيقولون مثلا أن كلمة متى اى شجرة وجمعها ميتى من طبقة Mi - M وكلمة مْتُو اى شخص وجمعها واتو من طبقة wa .M

وهذه الطبقات سبع وهى :

الطبقة الاولى : Vi. Ki كي ــ بى مثالها : كيتو = شىء : بيتو = أشياء .
الطبقة الثانية : Mi. M مْ ــ مى مثالها : مْجى = مدينة : ميجى = مدن .
الطبقة الثالثة :Wa. M مثالها : مْطوطو : ولد . واطوطو : أولاد .
الطبقة الرابعة : N (ويتفق فيها المفرد والجمع)
الطبقة الخامسة : Ma (وهى كالتى قبلها)
الطبقة السادسة : U ولها استعمالات كثيرة .
الطبقة السابعة : Pa لبعض الاسماء و ku للافعال .

ومن الطريف انهم اذا اقتبسوا كلمة عربية تبتدىء بكاف مكسورة اعتبروا هذه الكلمة من الطبقة الاولى وجمعوها بحذف ك وتعويضها بالمقطع Vi مثال ذلك كتابو وجمعه عندهم ڤِتابو اى كتب .

وتدل الكاف المكسورة ايضا عندهم على التصغير نحو كْسوماري وهو تصغير مْسوماري اى مسمار ، ويلاحظ انهم اعتبروا لفظ مسمار لابتدائه بالميم من الطبقة الثانية فلما أرادوا تصغيره حذفوا الميم من اوله لاعتبارها من الزوائد وجاؤوا بالكاف المكسورة للتصغير فصار كِسوماري لاكِمْسوماري .

وعندما يأخذون كلمة يجعلونها حسب أذواقهم من طبقة معينة فأرْز الشجر المعروف مثلا قالوا فيه مْويريزى Mwerizi ووردة قالوا فيها مْويريدِى Mweridi وهكذا .

ومن أساليب اخذهم عن العربية انهم يكررون بعض الكلمات جاعلين من المجموع كلمة واحدة فيقولون مثلا هالا هالا اى حالا وسواسوا اى سواء وكأنهم سمعوا العرب يؤكدون المعنى بتكرار اللفظ فاعتبروا ذلك كلمة واحدة .

ومنها انهم يأخذون جملا كأنها لفظ واحد وذلك كقولهم كُنْ راضى Kunradhi بمعنى اعذرنى لا تؤاخذنى وكقولهم للتشكر أسنت اى أحْسَنْتَ وكثيرا ما يقولون أسَنْتِ صَنًا اى احسنت صنعا ولاكنهم يعنون بذلك شكرا جزيلا ظنا منهم أن صنعا معناها كثيرا . ومن هنا استعملوا لفظة صَنًا بمعنى كثيرا حتى فى غير الشكر . فالعبارة السابقة مثلا يضمون لها صنا للزيادة فى الاعتذار فيقولون كُنْ راضى صَنا : kunradhi Sana (اى كن راضيا جدا بمعنى اعذرنى كل العذر) .

ومن هذه العبارات قولهم ما دام بنفس المعنى العربى ويكتبونها بالحروف اللاتينية هكذا Maadam وحرف a الثانى بعد الميم للدلالة على المد .

* * *

ومما ينبغي التنبيه عليه أن كثيرا من المفردات العربية عندما تدخل اللغة السواحلية يطرأ على معانيها تغيير يبعد بها عن المعنى الاصلى كثيرا او قليلا . ومن الامثلة على ذلك الالفاظ الآتية حيث يبعد معناها عن المعنى الاصلى .

كَبْلا (اى قبلا) ومعناها باكرا .

صَدِيكي (اى صَدَقَ) ومعناها ظن .

صَرَفُو (اى صَرَفَ) ومعناه النقود .

فِكِيرِي (من فَكَّرَ) ومعناه اعتبر .

فُروضا (من الفرض) ومعناه مكتب الديوانة اى الكموك باللغة التركية

دَواتِي (من الدواة) ومعناها ما يكتب عليه .

مْفِرجِي (من الفرج) ومعناه الخندق (لانه منفرج) .

تَرَاتِبُو (من الترتيب) ومعناه ظريف .

دَسْتُورِي (من الدستور) ومعناه المنهاج .

لازِما (من اللزوم) ومعناه الواجب .

لابْدا (من لابُدَّ) ومعناها ربما .

زَوَادِي (من الزيادة) ومعناها الهدية .

هَفيفو (من خفيف) ومعناه لا قيمة له .

ومن الكلمات التى لا يبعد معناها كثيرا عن المعنى الاصلى ما يلى :

أمانى (من الامان) ومعناه السلم .

فَسيري (من التفسير) ومعناه تَرْجَمَ .

فَهالي (اي فَحْل) ومعناه ثــــور .

هَبــا (أى حبـــة) ومعناه شيء قليـــل .

هَرَكــا (اى حركـــة) ومعناها السرعـــة .

واليكم الآن أمثلة من مفردات لم يتغير كثيرا لا مبناها ولا معناها فتظهر عربيتها لاول وهلة بدون اعمال نظر مع العلم أن السواحلية تزيد فى آخـــر الكلمة اما حركة مضمومة او حركة مكسورة واذا كانت اللفظة العربيـــة مفتوحة الآخر تركوها على حالها :

بارِدي	=	بـــارد	سُكارِي	=	سُكَّـــر
لِجامو	=	لجـــام	إِلْفـــو	=	أَلْـــف
دَمـــو	=	د م	فَهَمـــو	=	فَهِـــمَ
صَنْدوكو	=	صنـــدوق	جِراهـــا	=	جراحـــة
رصاصي	=	رصاصـــة	أَ ذ ا	=	أ ذ ى
غالـــى	=	غـــال	أَصِلِـــي	=	أَصْـــل
طَبيبـــو	=	طبيـــب	بَرَكـــا	=	بركـــة
سَمَكِـــي	=	سمـــك	بَطَـــا	=	بَطَّـــة
فرســـى	=	فـــرس	بِلَـــوْرِي	=	بِلَـــوْر
أرضـــى	=	أ ر ض	بُنْدُكِـــى	=	بندقيـــة
دَ و ا	=	د و ا ء	دينـــى	=	ديـــن

تَكيكـا	=	دقيقـة	نَضِلِيـي	=	نَضْـل
مَسْكينـي	=	مِسكـين	هكيكـا	=	حقيقـة
زَبيبـو	=	زبيـب	كَنيسـا	=	كنيسـة

ومن الكلمات التى لم يتغير معناها وانما تغير اما مبناها او نطق حروفها بسبب عدم وجود بعض الاصوات فى السواحلية كالعين والحـاء والخاء والقاف مثلا هـذه الامثلـة :

جيبـو	=	أجـاب
هميـرا	=	خميـرة
جبنيـي	=	الجبنـة
نسـو	=	نصـف
آفيـا	=	عافيـة
آينـا	=	عينـة
بَهـارِي	=	بحـر
كُفولِـيِ	=	قُفْـل
رهوسـا	=	رُخْصـة
بِريكـا	=	بِـرْكـة
هِمَـا	=	خيمـة

* * *

وقد عمدتُ الى احصاء الكلمات العربية الدخيلة فى السواحيلية استنادا علـى قاموس سواحلـى انكليزى فوجـدت أنهـا تفـوق الاربعـين فى المائة ولم اعـد الكلمات المشتـقـة من مـادة واحـدة ، ولـم يخصص لها غالبا مؤلف القاموس محلا فى ترتيبه العام وانما اكتفى بمـا ورد منها فى المادة المعنية على غرار ما يفعله أصحاب القواميس العربيـة القديمة ويظهر لـى ان لو جمعت تلك المفردات كلها لاصبح عدد الكلمات العربية فى السواحلية خمسين فى المائة .

وفى الختام أريد أن أنبه الى ظاهرتين الفتتا نظرى أثناء الدراسـة : أولاهما أن كثيرا من الكلمات العربية المستعملة فى السواحلية لها شبه كبير بالاستعمالات المغربية وذلك نحو قولهم للتجارة بياشرا اى البيع والشرا وهى العبارة السائرة عندنا لهذا المعنى فان كنا نقول التاجر فلا نستعمل فى لغة التخاطب لفظ التجارة وانما نقول : البيـع والشراء .

ومن ذلك قولهم : وادى ناسى اى ولد الناس وهذا هو الاستعمال الشائع فى المغرب للتعبير عن الانسان الفاضل المتخلق بالاخلاق الحميدة .

ومن ذلك تسميتهم الرسالة بلفظ باروا وهى بالمغرب برا من اللفظ العربـى بـراءة .

ومن ذلك تسميتهم الاسكاف مْهَرْزِي اي مخرزي وهو مـا نسميه بالمغرب خـزار .

وكذلك تسميتهم الحبل الصغير كامبا وهو ما نسميه بالمغرب قنبـة .

وكذلك تسميتهم الاسبوع جوما اى جمعة مثل ما نقول بالمغرب ولعل هذا الاستعمال يوجد فى لهجات عربية اخرى .

ومن ذلك قولهم حُضُورْيو للحضور فى الكتاب القرآنى وفى المغرب المحضرى هو تلميذ المسيد اى المدرسة القرآنية .

وهذه الظاهرة كان لاحظها ابن بطوطة عند أهل اليمن وبالاخـص فى مدينة ظفار . وقد قدمنا أن عرب اليمن وعمان هم الذين كانوا ينزحـون

الى بلاد السواحل للتجارة وللاستيطان . قال ابن بطوطة : (1) « ومن الغرائب ان أهل هذه المدينة أشبه الناس بأهل المغرب فى شؤونهم . نزلت بدار الخطيب بمسجدها الاعظم وهو عيسى بن على الكبير القدر الكريم النفس فكان له جوار مسميات بأسماء خدام المغرب احداهن اسمها مَاخِتة والاخرى زاد المال (2) ولم أسمع هذه الاسماء فى بلد سواها . . . وفى كل دار من دورهم سجادة الخوص معلقة فى البيت يصلى عليها صاحب البيت كما يفعل أهل المغرب . وأكلهم الذرة . وهذا التشابه كله يُقوِّي القول بان صنهاجة وسواهم من قبائل المغرب أصلهم من حمير . » اهـ.

وهذا ما يجرنا الى الكلام عن الظاهرة الثانية التى الفتت نظرى فى اللغة السواحلية وذلك أننى لمحت كذلك شبها مع البربرية فى أصول هذه اللغة .

أولا : فى كون الاشياء التى ليست صلبة كالسوائل لا تستعمل الالفاظ التى تعبر عنها الا جمعا كما هو الشأن فى البربرية وفى العبرية وهكذا فى السواحلية :

ماجى = المياه

مازيوّا = الحليب

مافوتا = الزيت . وكل هذه الالفاظ على صيغة الجمع .

ثانيا : فى مفردات لم تؤخذ عن العربية وتعتبر اصيلة فى السواحلية ومنها :

---

1) طبعة المكتبة التجارية الكبرى القاهرة 1967 ج 1 ص 165
2) وهذان الاسمان لازالا معروفين بالمغرب ويقال للاسم الثانى اليوم : زيد المال .

فيسـى = الضبع وهى فى البربرية افيـس .

و ا = ابن وهو فى البربرية ا و .

ز و ر ى = جميل وهو فى فى البربرية زيل ـ واللام تقلب راء فى كثير من اللغات . وهذا يقع كذلك فى السواحلية

فهم يقولون إنكْريزا للانكْليز . ومن وجوه الشبه كذلك أنهم يزيدون همزة محركة بالضم هكذا u فى اول الكلمات من أسماء وصفات كما يزيد البرابرة همزة مفتوحة . وهكذا نجد فى السواحلية اريو (اى أُعَرّبوا) ويقصدون به العربى فى حين يقول البرارة للعربى اعَرّبي وفى السواحلية كذلك افوكارا اى الفقير وفى البربرية أفقير .

ومن أوجه الشبه أن السواحلية ليست فيها اداة للتعريف كما هو الشأن فى البربرية وقد كنت ذكرت فى بحثى « البربرية شقيقة العربية » أن الهمزة فى اول الاسماء والصفات بقية من أداة التعريف القديمة . ولاشك أن أ فى اللغة السواحلية كذلك .

هذه لبنة أخرى اضعها بين أيديكم فى بناء هذا النصب الهائل لاشعاع اللغة العربية فى العالم شرقا وغربا تحت لواء الاسلام الذى لولاه لبقيت منحصرة فى جزيرتها المنقطعة من بقية العالم والسلام عليكم ورحمة الله .

الرباط محمد الفاسي

المولدُ النبوي
في الأدب المغربي

د. عباس الجراري

تغمرنا فى هذه الايام بشائر الفرح والسعادة بحلول ذكري مناسبتين عزيزتين علينا جميعا ، هما عيد المولد النبوى الشريف وعيد العرش المجيد .

نعم ، حلت هذه الذكرى المزدوجة الغالية ، وصاحب مناسبتها النبوية رسول كريم حمل النور الى البشرية كافة ، وصاحب مناسبتها العرشية ملك ملهم يقود مسيرة شعب عظيم ، فأبت الوزارة المسؤولة عن الثقافة — وعلى رأسها عالم كبير وأديب فذ — الا أن تجعل منها فرصة اشعاع علمى يلقى بضيائه على جميع ربوع بلدنا العزيز ، بما يتفق وهذه الذكرى العظيمة وما صدر فى شأنها من أوامر سامية .

والموضوع الذى اتشرف بتناوله معكم فى هذا الجمع الموقر (1) هو : « المولد النبوي فى الادب المغربى » . وسأعرض فيه لظاهرة أدبية تتسم ملامحها بالغنى والطرافة وتكشف ابعادها عن رباط عضوى وثيق يلحم بين

(1) القيت هذه المحاضرة ببلدية مراكش مساء الجمعة 13 ربيع الاول 1397 موافق 4 مارس 1977 .

الابداع الفنى والضمير الدينى فى انصهار بين الذاتية الفرديـــة لأدبائنا والذات الجماعية لجماهير شعبنا خلال التاريخ .

* * *

فى البداية تواجهنا قضية لا مناص من اثارتها والبت فيها ، وهى قضية ذات شقين : احدهما متعلق ببداية المدائح النبوية فى الادب العربى عامة والادب المغربى خاصة ، والثانى متصل بتاريخ الاحتفال بالمولـــد النبـــــــوى .

اما بالنسبة للشق الاول فان الدارسين ظهروا مختلفين ، على قلتهم وقلة اهتمامهم بهذا الموضوع . بعضهم ذهب الى أن فن المدائح النبوية نشأ فى ركاب الدعوة الاسلامية ، والرسول عليه السلام ينشر الدين ويجاهد فى نشره . وعند هؤلاء أن القصائد التى انشأها حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة فى مواجهة الكفار والمشركين ، وفى الدفاع عن الاسلام وصاحب الرسالة ، تعد فى صميم هذا الفن .

وذهب باحثون آخرون الى أن مديح الرسول صلوات الله عليه فن مستحدث فى القرن السابع الهجرى على يد شعراء مصريين فى طليعتهم البوصيرى وابن دقيق العيد .

فى اعتقادنا أن ما قاله شعراء الرسول يمكن أن يعد ارهاصا لفن جديد فى الادب العربى طارىء مع الاسلام ، هو مديح الرسول . بل نستطيع أن نعتبر منه البيتين اللذين يقال ان عبد المطلب انشدهما فى لحظة ولادة محمد عليه السلام ، وهما (2) :

وانـــت لمـــا ولـــدت أشـــرقــت	الارض وضـــاءت بنـــورك الافـــق
فنحـــن فى ذلـــك الضيـــاء وفـــى	النـــور وسبـــل الرشاد نختـــرق

(2) ذكرهما القادري فى حاشيته على شرح الازهري لبردة البوصيري (مطبوع على الحجر)

وقد نعتبر من الارهاصات كذلك لهذا الفن القصيدة التى قالها الاعشى ميمون بن قيس ، والتى اولهـــا :

الـــم تغتمـــض عينـــاك ليلـــة أرمـــدا وبت كما بات السليم مسهدا

وفيهـــــا يقـــــول :

وآليـــت لا آوى لها مـــن كلالـــة ولا من وجـــى حتى تلاقى محمـــدا
نبيـــا يـــرى مـــا لا ترون وذكـــره أغـــار لعمـــرى فى البـــلاد وانجدا

الى آخر الابيات (3) التى يشم منها النفس الاسلامى ، وان كان الاعشى لم يسلم ، على الرغم من انه كان قد عقد العزم على ذلك ثم تأخر فى قصة مشهورة لا يسمح المجال بعرضها .

وسيزيد مديح الرسول تبلورا على يد شعراء الشيعة الذين تغنوا بآل البيت ، سواء فى العهد الاموى او العباسى ، امثال الكميت والسيد الحميرى ودعبل الخزاعى ، وكذلك على يد الشعراء الذين مدحوا العباسيين واشادوا بانتسابهم للبيت النبوى ، كمروان بن ابى حفصة وابى دلامة زند بن الجون ومطيع بن اياس وسلم الخاسر .

وفى اعتقادنا كذلك ان فن المديح وجد صيغته المكتملة حين احتك بالتصوف بعد ان ازدهر هذا الاخير وانتشرت مذاهبه وطرقه .

حقا اننا فى القرن السابع نلتقى فى المشرق — ومصر خاصة — مع تيار أدبى متأثر بالفكر الصوفى الـــذى حمله فى هذه الفترة وقبلها بقليـــل متصوفة مغاربة وأندلسيون ، كمحيى الدين بن عربى وابى الحسن الشاذلى وأبى العباس المرسى وأحمد البـــدوى .

---

(3) انظر « شعراء النصرانية قبل الاسلام » للاب شيخو الذي عد الشاعر متاثرا بالنصرانية (ص 358 — الطبعة الثانية) وانظر راينا فيه حيث اعتبرناه من طائفة شعراء الرسول في كتابنا «من أدب الدعوة الاسلامية» (ص 36 ط. دار الثقافة — الدار البيضاء 1974)

وحقا كذلك اننا فى هذا العصر نلتقى مع البوصيرى ومع بردته أو برءته التى تعد ــ وبعدها همزيته ــ أشهر ما قيل فى هذا الباب ، دون أن ننسى أن البوصيرى ، وان ولد فى مصر ، مغربى أصله من صنهاجة ، واسمه محمد بن سعيد الصنهاجى ، ودون أن ننسى كذلك انه تلمذ على ابى العباس المرســى .

ولكن فن المديح النبوى كان قد اكتمل وصار غرضا قائم الذات قبل ذلك بنحو قرنين وقد اشتهرت فيه قصائد كالقصيدة المعروفة بالشقراطيسية ، واولهــــا :

الحمــد لله منــا باعث الرســل هدى بأحمــد منــا احمد السبــل

وهى للشيخ ابى محمد عبد الله بن يجيى الشقراطيسى التوزرى المتوفى سنة 466 هـ .

ومثلها القصيدة المسماة : « معراج المناقب ومنهاج الحسب الثاقب » ، وهى لابى عبد الله بن ابى الخصال المتوفى سنة 540 هـ ، وكان كاتبـــا بمراكش لعلى بن يوسف بن تاشفين . وفى مطلعها يقول :

اليــك فهمــى والفــؤاد بيثــرب وان عاقنى عن مطلع الوحى مغربى

هذا بالنسبة للشق الاول المتعلق بنشأة المدائح النبوية ، أما بالنسبة للشق الثانى الخاص بتاريخ الاحتفال بالمولد النبوى ، وهو المناسبة التــى أصبحت بها المدائح مولديات او ميلاديات ، فقد شاع أن الفاطميين فى مصر وتونس كانت لهم عناية خاصة بمولد الرسول عليه السلام وبمولد آل البيت على وفاطمة والحسن والحسين ، حتى ظن انهم كانوا أسبق من غيرهم للاحتفال بالمولد النبوى ، فى حين أن حقيقة التاريخ غير ذلك .

من المعروف أن الخلفاء الراشدين لم يحتفلوا بهذا المولد حتى لا يبتدعوا شيئا لم يرد فى الكتاب والسنة ، وان زعم أصحاب بعض الموالد أن الرسول أوصى بأن يحتفل بذكرى مولده . كما أن الامويين لم يحتفلوا به ، ولعلهم

قصدوا الى ذلك لموقف آل البيت المعارض لدولة بنى أمية ، ولكن من المؤكد ان العباسيين احتفلوا به طوال مختلف عهودهم ، وأن العلويين والشيعة عامة قد احتفلوا به حتى قبل قيام الدولة العباسية .

وعن فترة متأخرة بعض الشىء يتحدث ابن خلكان فى وفياته (4) فيذكر ان ابن دحية السبتى — وهو من كبار علماء المغرب فى عصر الموحدين ، رحل الى المشرق فأنشأ له الكامل الايوبى المدرسة الكاملية للحديث فى القاهرة سنة 622 هـ وولى أمرها من بعده لاخيه أبى عثمان ثم لابنه شرف الدين — أقول يذكر ابن خلكان أن ابن دحية حين قدم الى اربل سنة أربع وستمائة وهو متوجه الى خراسان رأى صاحبها الملك مظفر الدين بن زين الدين مولعا بعمل المولد النبوى عظيم الاحتفال به ، فألف له كتاب « التنوير فى مولد السراج المنير » وقرأه عليه بنفسه .

اما فى المغرب فيمكننا أن نعتمد على كتاب « الدر المنظم فى مولد النبى المعظم » ، وكنا قد وقفنا على مخطوطته فى مكتبة ينى جامع بالسليمانية فى اسطنبول (5) ثم على نسخة بالمكتبة الملكية . بدأ تأليفه ابو العباس العزفى السبتى المتوفى سنة 633 هـ ثم أكمله ابنه ابو القاسم . فى مقدمة هذا الكتاب اشارة الى أن هؤلاء العزفيين هم أول من دعا الى الاحتفال بالمولد النبوى فى المغرب وأول من احدثه . وفيها كذلك أن هذا الاحتفال بدعة ولكنها بدعة مستحسنة ، لاسيما وأن النصارى يحتفلون بمولد المسيح .

ويبدو أن الموحدين فى أواخر عهدهم قد احتفلوا بالمولد ، اذ يحكى ابن عذارى أن المرتضى وهو الخليفة ما قبل الاخير (6) فى سلسلة الموحدين « كان يقوم بليلة المولد خير قيام ويفيض فيه الخير والانعام ، وكان أشار له بذلك الفقيه أبو القاسم العزفى لانه لما ألف كتابه (الدر المنظم فى مولد النبى المعظم) بعث به اليه واشار بذلك الراى عليه » (7) .

---

(4) ج 1 ص 481 (ط. بولاق) .
(5) رقمها 851 .
(6) بويع سنة 646 وقتل سنة 656 .
(7) ج 3 ص 452 (ط. معهد مولاي الحسن) .

وفى مصادر التاريخ ان المرينيين كانت لهم عناية فائقة بالمولد ، بل انا نجد الحسن الوزان المعروف بليـون الافريقى يذهب فى كتابه « وصف افريقيا » (8) الى أن الشعراء الشعبيين فى العهد المرينى كانوا يتبارون لاظهار براعتهم الشعرية فى مناسبة ذكرى المولد النبوى حيث يتجمعون صباح يوم العيد فى الميدان الرئيسى ويعتلون المنصة واحدا تلو الآخر لالقاء اشعارهم وقد تجمهر عليهم الناس . ثم ينصب اميرا للشعراء من أحرز منهم قصب السبق . ويذكر كذلك أن السلطان المرينى كان يقيم حفلا بهذه المناسبة يستدعى له رجال العلم والادب ، وأن الشعراء كانوا يلقون القصائد أمامه فينعم على الفائز الاول بمائة دينار وفرس ووصيف وحلته التى يكون لابسا فى هذا اليوم ويمنح سائر الشعراء خمسين دينارا لكل واحد .

ولم يلبث أن أصبحت لهذا الاحتفال تقاليد عند السعديين ، ولاسيما فى عهد المنصور تحدث عنها الفشتالى باسهاب فى « مناهل الصفا » (9) . وقد تطورت هذه التقاليد فى ظل ملوك الدولة العلوية ، على حد ما فصل المؤرخ ابن زيدان فى « العز والصولة » (10) ، وعلى حد ما زلنا نعيش فى عهد جلالة الملك الحسن الثانى أيده الله .

* * *

اذا أردنا بعد هذا أن ننظر فيما ابدع المغاربة بوحى من هذه المناسبة الكريمة ، وأن نتتبعه لنرصد اهم معالمه وأبرز ملامحه ، فاننا سنجد المجال أوسع من أن يستوعبه البحث فضلا عن محاضرة محدودة . ذلكم أن تمسك المغاربة بالاسلام وتشبثهم به وتعلقهم بالرسول عليه السلام وتفانيهم فى حبه وحب آل بيته ، كل ذلك شحذ عاطفة العلماء والأدباء وامدها بشحنات وطاقات لم تلبث أن فجرت ابداعا غزيرا ومتنوعا لا حدود لابعاده وآفاقه ، حيث نجدهم تتبعوا مراحل السيرة النبوية الزاخرة ، بدءا من الحديث عن

---

(8) Description de l'Afrique p.p 214 - 215 (Adrien Maisonneuve Paris 1956)

(9) مختصر الجزء الثاني ابتداء من ص 221 (تـ جنـون ـ المطبعة المهدية 1964) .

(10) ج 1 ص 172 فما بعـد (المطبعـة الملكيـة) .

نسب الرسول ومولده الى الحديث عن وفاته وآل بيته ، ملحين داخل هذا الاطار على شمائله ومعجزاته ومواقفه وغزواته . بل انا نجد المغاربة ــ كتابا وشعراء ــ عنوا عناية خاصة بموضوعات كالمعراج والهجرة والنعال النبوية والشوق الى زيارة البقاع المقدسة . وهى كلها تشكل جوانب منطلقة من فيض الحب الذى يكنه هذا الشعب للرسول صلوات الله عليه ومغذية له ومتجاوبة معه ، سواء ما جاء فى ذلك من النثر او الشعر .

بالنسبة للنثر ، لابد أن نشير الى أهم ما كتب العلماء المغاربة فى السيرة النبوية او بعض جوانبها العلمية والادبية منذ القرن السادس الهجرى حتى العصور المتأخرة . واقسمه الى ثلاثة فنون :

أولا : السيرة :

واذكر فيها :

1 ــ الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضى عياض المتوفى سنة 544 هـ .

2 ــ نهاية السول فى خصائص الرسول (11) لابن دحية السالف الذكر .

3 ــ الآيات البينات فى خصائص أعضاء رسول الله (12) . له كذلك

4 ــ العقد المنضد بجواهر مفاخر محمد للمهدى الفاسى المتوفى سنة 1109هـ

5 ــ كفاية المحتاج من خير صاحب التاج واللواء والمعراج له أيضا .

6 ــ سمط الجوهر الفاخر من مفاخر النبى الاول والآخر لنفس المؤلف .

7 ــ فخر الثرى بسيد الورى لمحمد بن عبد الرحمن الدلائى .

---

(11) مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 612 حديث .
(12) مخطوط فى الجزائر رقم 1679 .

8 ــ زهر الحدائق وخلاصة الحقائق من سيرة سيد الخلائق وما يستتبع ذلك من النكت والدقائق له كذلك (13) .

9 ــ الزهر الندى فى الخلق المحمدى (14) للمؤلف نفسه .

10 ــ الذخيرة فى السيرة النبوية لمحمد المعطى الشرقاوى المتوفى سنة 1180 هـ .

ثانيا : الموالد :

وقد اشتهر المغاربة بتأليفها وقراءتها فى مناسبة المولد النبوى ، ووقفت منها على أزيد من أربعين مولدا ، منها :

1 ــ الدر المنظم فى مولد النبى المعظم للعزفى السبتى السالف الذكر .

2 ــ مولد المعطى الشرقاوى .

3 ــ التمر المنشق وحتيقة الحقائق بمولد الشفيع المشفع وخير الخلائق لجعفر بن ادريس الكتانى المتوفى سنة 1323 هـ .

4 ــ هداية المحبين الى ذكر مولد سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه فى كل حين (15) لمحمد بن التهامى جنون المتوفى سنة 1331 هـ .

5 ــ اسعاف الراغب الشائق بخبر ولادة خير الانبياء وسيد الخلائق (16) لمحمد بن جعفر الكتانى المتوفى سنة 1345 هـ .

6 ــ فتح الله فى مولد خير خلق الله (17) لفتح الله بنانى المتوفى سنة 1333 هـ .

---

(13) مخطوط بخزانة الرباط العامة رقم 306 ك .
(14) مخطوط بخزانة الرباط العامة رقم 157 د .
(15) مطبوع على الحجر .
(16) مطبوع على الحجر .
(17) مطبوع فى مصر (المطبعة المحمدية 1323 هـ) .

7 ـ مولد أحمد بن محمد العلمي المتوفى سنة 1358 (18) .

8 ـ مولد أحمد بن العياشي سكيرج المتوفى سنة 1363 هـ .

9 ـ النور اللائح بمولد الرسول الخاتم ـ الفاتح (19) لعبد الرحمن بن زيدان المتوفى سنة 1365 هـ .

10 ـ الرحمة العامة في مولد خير الامة (20) لمحمد بن الموقت المراكشي المتوفى سنة 1369 هـ .

ثالثا : الشروح والحواشي :

ونقصد بها الشروح والحواشي التي وضعت على اشهر قصائد المديح النبوي ، وهي كثيرة نذكر منها (21) :

1 ـ شرح الشقراطيسية (22) لمحمد الحضيكي المتوفى سنة 1189 هـ .

2 ـ شرح البردة (23) لسعيد بن سليمان السملالي الكرامي المتوفى سنة 882 هـ .

3 ـ شرحها لمحمد بن عبد السلام بناني المتوفى سنة 1163 هـ .

4 ـ شرحها لاحمد بن عبد الوهاب الوزير الغساني المتوفى سنة 1146 هـ واسمه : « الجواهر السنية في شرح الكواكب الدرية » .

---

(18) مطبوع

(19) مطبوع

(20) مطبوع

(21) نشير الى انه توجد شروح بالبربرية على هذه القصائد كشرح البردة لعبد الله بن يحيى الحامدي ، وهو ضمن مجموع مخطوط في خزانة الرباط العامة رقمه 1098 د

(22) ذكر المرحوم المختار السوسي في « سوس العالمة » أنه كان يدرس به (ص 193 مطبعة فضالة 1960) .

(23) مخطوط بخزانة الرباط العامة ضمن مجموع رقمه 1372 د .

5 ــ شرح البردة لاحمد بن محمد الفاسى المتوفى سنة 1021 هـ .

6 ــ نسيم الوردة فى شرح البردة لمحمد المكى البيطاورى المتوفى سنة 1355 هـ .

7 ــ شرح الهمزية لمحمد بن زكرى المتوفى سنة 1144 هـ .

8 ــ شرحها (24) لمحمد الحضيكى السالف الذكر .

9 ــ شرحها لاحمد بن الوزير المشار اليه آنفا .

10 ــ شرحها لاحمد بن محمد الفاسى المتقدم الذكر .

11 ــ شرحها لمحمد جنون المتوفى سنة 1302 هـ .

12 ــ لمحات المزية من نفحات الهمزية للبيطاورى المذكور من قبل .

13 ــ شرح بانت سعاد لابن الحسن بنانى .

14 ــ شرحها للحضيكى السالف الذكر .

15 ــ حاشية محمد بن قاسم القادرى على شرح الازهري للبردة ، وقد سبق ذكرها .

ونضيف هنا الاشارة الى شرح عبد العزيز الفشتالي وعبد الواحد الفلالى من العصر السعدى لمقصورة عبد الرحمن المكودى النحوى المشهور المتوفى سنة 807 هـ ، وهى التى يقول فى أولها :

أرقنى بارق نجد اذ سرى　　يومض ما بين فرادى وثنى

---

(24) مخطوط بخزانة الرباط العامة رقم كـ 1478 و 1658 د .

كذلك نشير الى ان حمدون بن الحاج المتوفى سنة 1232 هـ كان قد وضع نظما على حرف الميم يقع فى نحو أربعة آلاف بيت وانه شرح هذا النظم بنفسه ولم يتمه فأكمله ابنه محمد (25) ، واوله قوله :

هبت قمارى بين البان والعلم تملى شمائل اقمار بذى سلم

ماذا يمكننا ان نقول عن هذا الانتاج النثرى الغزير ؟

اكتفى بلفت النظر الى أمرين اثنين :

أولهما : ان هذه الشروح غنية من حيث المعارف الدينية والمعلومات التاريخية والفوائد الادبية والنحوية والبلاغية . وهى بذلك تكتسى صبغة تعليمية ، فى الوقت الذى تنم عن ثقافة أصحابها وهى ثقافة موسوعية فى غالب الاحيان . وتجدر الاشارة الى أنه كانت للعلماء المدرسين عناية خاصة بتناول قصائد المديح المشهورة بالشرح والتحليل مع الطلبة فى حلقات الدرس بمناسبة المولد . وربما كانت هذه المناسبة هى الفرصة الوحيدة التى تتاح لدراسة الادب وفنونه فى نظام الدراسة التقليدية .

الثانى : أن الموالد النبوية جاءت فى أسلوبها اقرب ما تكون الى الكتابة الشعرية ، من حيث ترتيب فقراتها وتنسيق جملها والالحاح فيها على السجع ، ومن حيث الاعتماد على الصور والاخلية فى كثير من المواقف ، والتوسل فى بعض الاحيان بالشعر . ونمثل لذلك أو لبعضه بفقرة من مولد الشيخ فتح الله بنانى يتحدث فيها عن بعض العلامات التى ظهرت عند ولادته عليه السلام ، قال : « . . . ظهرت عند ولادته صلى الله عليه وسلم خوارق وآيات ، ودلائل وعلامات ، تمهيدا لنبوته ، واعلاما بعلى رتبته . منها ارتجاج ايوان كسرى ، وتحركه

(25) يقع في خمسة اجزاء طبع الاول منها على الحجر وبقيت الاجزاء الاخرى مخطوطة مبعثرة

واهتزازه المرة بعد الاخرى ، وسقوط أربع عشرة شرفة من شرفاته ، اعزازا لنبيه واذلالا لعداته ، والايوان بناء عظيم فى غاية الاتقان ، يعدونه للملوك والحكام ، كان يظن انه لا تهده الا نفخة الصور عند القيام . . . » (26)
ولكن هذه الموالد جاءت فى ثناياها محشوة بغير قليل من الخرافات والمنكرات ، شأنها فى ذلك شأن العديد من السير . ولقد نبه العراقى فى الفيته الى ذلك حين قال :

وليعلم الطالب ان السير تجمع ما صح وما قد أنكرا .

وهذه لا شك ظاهرة مؤسفة يزيد فى وقعها السىء على النفوس المومنة أن هذه الموالد تلقى على الجماهير فيكون لها أعظم الاثر على عقيدتهم وثقافتهم وعقليتهم وذوقهم كذلك .

وانى من هذا المنبر أقترح على المسؤولين عن الشؤون الاسلامية ان ينظروا فى معالجة هذه الظاهرة بتكوين لجنة من العلماء المتخصصين ، يسند اليهم امر مراجعة الموالد المتداولة وتنقيحها وتصفيتها من كل الشوائب ، وربما وضعوا مولدا موحدا يكون صالحا لكى ينشر ويعمم وربما يغنى عن بقية الموالد .

* * *

اذا انتقلنا الى الشعر وهو أغزر من ان يستوعب ، فاننا نستطيع أن نميز هذه الانواع :

أولا : نظم كتب مشهورة فى السيرة :

وعلى سبيل المثال اذكر :

---

(26) ص 136 .

1 ــ ارجوزة ابى على حسن الرهونى المراكشى المتوفى سنة 661 هـ ، وهى طويلة تنيف على ستة آلاف بيت (27) . وقد نظم فيها كتاب « الاحكام لسياق ما لسيدنا محمد عليه السلام من الآيات البينات والمعجزات الباهرات والاعلام » وكان قد الفه ابن القطان للمرتضى الموحدى (28) .

2 ــ نظم لسيرة ابن هشام وضعه فتح بن موسى بن حماد القصرى المتوفى سنة 663 هـ وهو على حرف الميم وعنوانه : « السول فى نظم سيرة الرسول » (29) .

3 ــ مورد الصفا فى محاذاة الشفا لاحمد سكيرج ، وهو نظم لشفا القاضى عياض ، يقع فى ازيد من سبعة آلاف بيت (30) .

ثانيا : المعارضات والتخميسات وما اليها :

وهى كثيرة ، منها معارضة حمدون بن الحاج لوتريات ابن رشيد البغدادى بوتريات أولها : (31)

صلاة وتسليم على المصطفى الذى   بذكر له تندى القلوب وتهدا

والبغدادى من القرن السابع ، وكان قد أقام بالمغرب ، ووترياته عبارة عن تسع وعشرين قصيدة على عدد حروف المعجم ، فى كل قصيدة واحد وعشرون بيتا ، مع بدء الابيات بحرف الروى . وقد تأثر بوترياته معاصره مالك بن المرحل السبتى (المتوفى سنة 699 هـ) فى « الوسيلة الكبرى المرجو نفعها فى الدنيا والاخرى » . وهى على عدد حروف المعجم ، فى كل حرف عشرون بيتا يلتزم افتتاحها بحرف الروى ، وأولها : (32)

(27) مخطوط فى القرويين رقم 291 .
(28) مخطوط فى القرويين رقم 292 .
(29) يبدو انه فى خمسة أجزاء لا يوجد منها الا الخامس والاخير مخطوطا فى المكتبة الملكية بالرباط رقم 1668 .
(30) يوجد مخطوطا عند ولد المؤلف الاستاذ عبد الكريم سكيرج .
(31) مخطوطة بالمكتبة الملكية رقم 1003
(32) مخطوطة بخزانة الرباط العامة رقم ج 89 .

الى أحمـــد أهديت غـــر ثنائــــى فيا طيـــب أهدائـــى وحسن ثنائـــى

وعلى هذا النسق سار سكيرج فى قصيدته « ضوء الظلام فى مدح خير الانام » (33) حيث وضع على كل حرف عشرة أبيات دون أن يلتزم افتتاحها بحرف الروى ، وهى التى يقول فى مطلعها :

جمالك يا خير الورى حير النهى ونورك فى الاكوان ضاعت به الدجى

وقد وضع الفاطمى الصقلى المتوفى سنة 1311 هـ تخميسا علـــى وتريات البغدادى ، أولـــه (34) :

الهـــو بتشبيـــب وشيبـــى تبسما وأعدل عن مدح الحبيب الذى سما

اقـــول اذا ريـــا عـــلاه تنسمـــا اصلى صلاة تمـــلأ الارض والسما

على من لـــه اعلى العلا متبـــوأ

كذلك خمس العالم والشاعر المغربى الصحراوى أبو بكر محمد بن المهيب « ديوان الوسائل المتقبلة » لابى زيد عبد الرحمن الفازازى الاندلسى الذى كان معاصرا للبغدادى . ويشتمل هذا الديوان على عشرين قصيدة مرتبة على حروف المعجم ومفتتحة أبياتها بحرف الروى ، واولها : (35)

أحـــق عبـــاد الله بالمجد والعـــلا نبى لـــه اعلـــى الجنـــان مبـــوأ

كما نشير الى تخميس سكيرج على البردة وعنوانه « الوردة » (36) وفى المعارضات نذكر قصيدة الطاهر الايفرانى (المتوفى سنة 1374 هـ) التى يعارض بها « بانته سعاد » مخللا ببعض أشطار قصيدة كعب ، وأولها (37) :

دع عنك لومى فما التعذال مقبول بانت سعاد فقلبى اليوم متبـــول

(33) مطبوعـــة على الحجـــر .
(34) مطبـــوع على الحجـــر .
(35) الكـــل مطبـــوع على الحجـــر .
(36) مطبوعـــة على الحجـــر .
(37) انظر المعسول للمختـــار السوســـي ج 7 ص 191 .

كما نذكر بردة الحلوى التى يعارض بها قصيدة البوصيرى ، ومطلعها (38) :

احبب بها من ربى عطرية النسم   تفوح بالطهر والالهام والقيم

ثالثا : دواوين خاصة بالمديح النبوى :

نذكر منها :

1 ـ ديوان « نوادر النظام فى شرف سيد الانام » لمحمد بن القاسم بن داود السلوى من أهل القرن التاسع . ويضم مائة نادرة ونادرة ، ويعنى بالنادرة القصيدة ، ومجموع أبياته يزيد على ثلاثة آلاف بيت (39) .

2 ـ ديوان فى المديح النبوى لعبد الرحمن بن عبد القادر الفاسى المتوفى سنة 1096 هـ (40) .

3 ـ ديوان « السراج الوهاج فى مدح صاحب التاج والمعراج » (41) لعبد الكريم بن زاكور الذى كان واليا على تطوان فى عهد سيدى محمد بن عبد الله .

4 ـ ديوان فى المديح النبوى لعلى بن سليمان الدمناتى المراكشى المتوفى سنة 1306 هـ (42) .

---

(38) انظر مجلة دعوة الحق العدد 7 السنة 12 ربيع الاول 1389 يونيو 1969 .

(39) مخطوط بخزانة الرباط العامة رقم ک 360 .

(40) مخطوط بالمكتبة الملكية رقم 3071 .

(41) يقع فى عدة أجزاء يوجد بعضها فى الخزانة العامة (ک 1830) والمكتبة الملكية (2356)

(42) مطبوع مع شرح عليه فى القاهرة سنة 1298 هـ .

رابعا : القصائد المفردة :

هنا أود ان الفت النظر الى ان الشعراء المغاربة كانوا سباقين الى فن المديح ، اذ نجد ان بداياتهم فيه ترجع الى العصر الموحدى ، ومنها قصيدة ميمون بن خبازة الخطابى المتوفى سنة 637 هـ ، واولها (43) :

حقيق علينا ان نجيب المعاليا لنفنى فى مدح الحبيب المعانيا

وفى هذا العصر سنجد ابا حفص عمر المرتضى يعنى بانشاء هذا النوع من الشعر ، وقد سبق ان راينا اهتمامه باقامة المولد ، فيقول مثل هذه القصيدة التى نكتفى بمطلعها (44) :

وافى ربيع قد تعطر نفحه اذكى من المسك العتيق نسيما

واظن أن من العبث محاولة ذكر الشعراء المغاربة الذين أبدعوا مولديات ، فانهم جميعا قالوا فيها قليلا أو كثيرا من القصائد ، وسأكتفى بالاشارة الى أسماء بعض شعرائنا الصحراويين الذين كان لهم باع طويل فى هذا الفن أمثال محمد بن سيدى العلوى ، ومحمد بن سعيد الدمانى ، وسيدى عبد الله بن أحمد ، ومولود بن الجواد المعروف بـ (أجويد) وقد اشتهر عنه أنه كان مداحا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن قصائده تلكم التى تعرف بـ (المرجانية) وهى التى يقول فى أولها (45) :

أزكى صلاة وتسليم على قمر بدريه قد أنار الله أكوانه

---

(43) انظرها فى أزهار الرياض ج 2 ص 384 (ط. القاهرة) وجذوة الاقتباس لابن القاضي ص 209 (ط. حجرية) .

(44) البيان المغرب ج 3 ص 452 .

(45) انظرها فى « الوسيط فى تراجم ادباء شنجيط » لاحمد بن الامين الشنجيطي ص 194 (ط. مصر 1329 - 1911)

وفيها يقول مادحا الرسول الكريم :

محمـــد خير مبعوث أقــام علـــى ما يدعيــه من أمــر الله برهانـــه
وخيـــر من قـــد نفت عنه أمانتــه وصدقـــه الكذب والكتمان والخانـــه
وخير طاع لمن لــم يعص طاعتـــه وخير خاش لمن يخشاه خشيـــانه
وخير مـــن محض المولى عبادتـــه وخير من دان ديـــن الله ديانـــة
وخير من رحم المولى العبـــاد بـــه وخير من عرف المولى عرفانـــــه
وخير داع سقى من لم يجبه الـــى هـــداه علقـــم اصغـــار وذفانـــه
وخيـــر من أمـــن الاسلام بيضتـــه أمنا بـــه صولة العادى وسلطانه

كذلك أود أن ألفت النظر الى أن بعض الشعراء تفننوا فى قصائدهم الى حد يوحى بشيء من التكلف على حد ما فعل أحمد بن العياشى سكيرج فى قصيدته المسماة « السحر الحلال فى مدح سيد الرجال » (46) ، فقـــد جعلها على أعاريض بحور الشعر وأضربه ، ملتزما فى كل ضرب ذكـــر ثلاثة أبيات . من هذه القصيدة نقتطف الابيات الثلاثة الاولى ، وهى على بحر الطويل فى عروضه المقبوضة وضربه السالم (47) ، يقول فيها :

بمدح جناب المصطفى يدفع الشـــر وترقى به العليا ويمحى بـــه الـــوزر
فهـــل هو الا للقلـــوب دواؤهـــا تـــزاح به الادوا وينجبـــر الكســـر
فلازم اذا شئت الســـعـــادة ذكـــره وصل عليه فالصـــلاة لهـــا ســـر

خـــا مســـا : المـــو شحـــا ت :

والموشحات فن ارتبط منذ نشأته فى الاندلس بالموضوعات الغنائية ، ولكنه لم يلبث أن خضع لمختلف أغراض القول بما فى ذلك المدائح النبوية ،

---

(46) مطبـوعـــــة على الحجـــــر .
(47) فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

وقد برز غير قليل من الشعراء المغاربة فى ابداع مولديات توشيحية ، نذكر منهم : محمد بن زاكور ، وابن ادريس العمراوى ، وحمدون بن الحاج ، وابن الطيب العلمى ، وعبد الكريم بن زاكور ، وادريس بن على السنانى . واكتفى فى التمثيل لهذا النوع بموشحة لهذا الاخير يقول فى قفلها الاول (48) :

اومض البـــرق الحجـــازى سحـــرا	بـــين سلـــع والكثيـــب الاحمـــــر
حـــرك الشـــوق بقلبى فجـــرى	احمـــر الدمـــع بخـــد أصفـــــر

وفى بعض ادوارها يقول مادحا النبى الكريم :

احمـــد المحمـــود اسمـــى منتقـــى	معـــدن الانـــوار والفضل العميـــم
من عـــلا الرسل جميعا وارتقـــى	وله التقديـــم فى الصلح القديـــم
نـــوره أول شـــىء خلقـــــا	قبل خلق اللوح والعرش العظيـــم
وبـــه كـــل نبـــى بشـــــرا	انـــه الهـــادى الرسول المضـــرى
ليلـــــة الاثنـــين فيهـــا ظهـــرا	مـــن ربيـــع ذى المزايـــا الانـــور

واود بالمناسبة ان الفت الانتباه الـــى ان هذا الشاعر (49) الذى وضع بلغة معربة ديوان شعر هو « الروض الفائح بأزهار النسيب والمدائح » بالاضافة الى بعض الانتاج الآخر ، كان من كبار اشياخ الملحون ، وقصائده فيه كثيرة ومتنوعة ، ولعلى بهذا ان أقول كلمة عن هذا الشعر .

ســـا د ســـا : الملحـــو ن :

شغل المديح النبوى فى هذا الشعر حيزا كبيرا . ذلكم ان الشاعـــــر الشعبى جعل من هذا المديح فنا قائم الكيان ناضج الصورة مكتمل الخصائص،

(48) انظر ديوان « الروض الفائح بازهار النسيب والمدائح » ص 213 (مخطوط بخزانة الرباط العامة رقم ك 1378) وكتابنا « موشحات مغربية » ص 200 (ط. دار النشر المغربيـــة ـ الدار البيضـــاء) .

(49) توفى سنة 1319 هـ انظر كتابنا « القصيدة » ص 656 (ط. الرباط 1971)

تناول فيه سيرة الرسول عليه السلام ، بما فيها من صفات وشمائل ومعجزات عرض قصصها فى قصائد لخلوق (أى المولد) والمعراج والوفاة ، وكذلك فى قصائد التوسل والحنين الى البقاع المقدسة .

ويتميز فى هذا الفن عند أشياخ الملحون نوعان من القصائد :

الاول : قصائد للانشاد على الطريقة المعروفة ، وهى محدودة الطول .

الثاني : مطولات ، وهي لا تنشد ، وانما تسرد فى الزوايا وحتى فى البيوت بمناسبة المولد ، وتوجد أحباس مخصصة لسردها . وهى قصائد طويلة تحكى سيرة الرسول بتفصيل ، واصحابها من كبار الاشياخ أمثال عبد العزيز المغراوى ومحمد النجار ومحمد بن على .

على أن أسماء مادحى النبى من الاشياخ أكثر من أن تحصى ، لاسيما وان موضوع المديح شغل هؤلاء الشعراء منذ اتخذ الملحون كيانه فى أوائل القرن التاسع الهجرى حتى اليوم . ومن الذين اشتهروا فيه عبد الله بن احساين ، وابن الوليد الدرعى ، وقدور العلمى ، وعبد القادر بوخريص ، والشاوى ، وعلى شقور ، وادريس العلمى ، والغالى الدمناتى ، وأحمد الغرابلى ، والعيساوى الفلوس . ومن أبرز قصائد هؤلاء « عين الرحمة » لادريس العلمى ، وحربتها (أى لازمتها) :

يا لهادى عين الرحمة الحال ضاق غثنا يا محمد طيب لخلوق

ومن أروعها كذلك قصيدة « مولد النور » للغالى الدمناتى ، وحربتها :

ابديت باسم المولى نعم الغنى الستار
باسمو نستفتح يا صاح فى اشعارى

من هذه القصيدة نقتطف مقطعا قصيرا يستعرض فيه الدمناتى بعض المعجزات التى ظهرت مباشرة اثر ولادته عليه السلام ، كاهتزاز ايوان كسرى

وانهدام شرفاته الاربع عشرة وخمود نار فارس التى كانت موقدة مدة الف عـــــام :

حين اتزاد الرسول طه بحر العلم   ظهرت من غير شك للناس اعلايم
منها كسرى اهتز ايوانو واغتـم   من بعد املاكتو ابقى حاير هايـم
واشرارفو من ابنيه عادوا ليه اردم   ربعا عشر كيف قالوا اكمن عالـــم
بها كسرى ابقى اضميرو ومتفاكـم
انار فارس خمدت يوما اخلاق لحليم   بعـــد كانت موقودا الف عام بتمـــام

واود أن اسجل ان قصائد الملحون النبوية تتبعت على هذا النســق مختلف مراحل سيرة الرسول عليه السلام فى محاولة لاستقصاء جوانب حياته ، مما جعلها تؤدى دورا تثقيفيا على مستوى الجماهير العريضة ، وتقوم بوظيفة التوعية والتوجيه والتعبئة فى المجتمع ·

* * *

لو حاولنا أن نطرح بعض مميزات هذا الشعر الذى قاله المغاربة بوحى من المولد النبوى لبرزت لنا ثلاث خصائص :

الاولـــى : ان هذا الشعر يختلف قوة وضعفا ، وجودة ورداءة حين يصدر عن أدباء مبدعين ، أو حين يصدر عن فقهاء ناظمين ، ولكنه أبدا نابض بالحياة وبالصدق وبغزارة العاطفة الدينيـــة وحرارتهـــا . وهو بذلك قادر على أن يثيـــر نفس الاحاسيس عند متلقيه .

والسبب فى ذلك راجع الى مدى حب الرسول ومدى التعلق به ، والى انصهار النفوس فى بوتقة الاسلام باعتباره عقيدة تشربها وجدان الفرد والشعب ، وباعتباره فكرا بلور الشخصيـــــة الوطنية والقومية ، ثم باعتباره سلوكا كيف القيم الخلقية فى هذا البلـــد .

الثانيــة : ان الشعراء كانوا يربطون بين مديح الرسول وبين الواقع ، اذ يستلهمون من حياته صلى الله عليه وسلم ما يبعث فى نفوسهــم القوة والثقة لمواجهة القضايا وتوجيه الاحداث والتغلب علــى المشاكل والازمات . وغالبا ما يلجأون فى ذلك الى التوسل ، على حد ما نقرأ للطاهر الايفرانى فى مولدية انشأها سنة 1335 هـ ، والحماية ما زالت تحاول بسط نفوذها فى الجنوب ، فقد قال من جملة ابيات يخاطب فيها النبى الكريم (50) :

وحــط بنصــرك جيش المومنــين ودا
فــع عن حمى الدين حزب أهل الحاد

وجــد بحرمتك العظمى وجاهد عنــ
ـد الله يا سيــدى بفضــل انجــاد

ودمــر الكافريــن المعتمــديــن بــاذ
ن الله تدميــر اخوانهــم عــاد

الثالثــة : ان الشعراء غالبا ما يختمون قصائدهم بمدح ملك البلاد لتهنئته بمولــد النبى ، فى الحاح على أنه حفيده وعلى سنته ، وانــه مستمر فى أداء رسالته ، وانه حامى بلاد الاسلام وقاهر أعداء الديــن .

ولعل الشعراء بهذه الظاهرة كانوا يحاولون ربط الماضى بالحاضر ، واستحضار التاريخ وحياة الرسول وأمجاد الاسلام للنظر من خلالها الى الواقع والى سيرة الحاكم ، فى رصد لاعماله ومنجزاته والاشادة ببطولته ومواقفه ، وفى توجيه نظره للقضايا والمشاكل ومتطلبات المستقبل ، وفــى تذكير بالامانة وتحميل للمسؤولية .

فى هذه الظاهرة اشير الى مولديات الفشتالى كهاته (51) التى يقول فى أولهــا :

---

(50) انظرهــا فى « المعســول » ج 7 ص 185 .
(51) انظرها فى الاستقصا ج 5 ص 158 (ط. الدار البيضاء) .

هم سلبوني الصبر والصبر من شأني
وهم حرموا من لذة الغمض أجفاني

فانه بعد ان يشفي عاطفته في الثناء على الرسول يتخلص الى مدح المنصور بهذا البيت :

اذا صد عن زوارك البأس والعنا
فجودا بنك المنصور أحمد اغناني

وعلى هذا المنوال سار معاصرو الفشتالي كعبد الواحد بن الشريف الحسني ، وعلي الشياظمي ، ومحمد الفشتالي ، ومحمد الهوزالي ، والحسن المسفيوي وغيرهم من شعراء المنصور .

كذلك نمثل لهذه الظاهرة بموشح (52) لابن زاكور يمزج فيه بين مديح الرسول ومدح المولى اسماعيل ، ننقل منه هذا الدور :

حق الهنا والسرور مدى الدهور بمولد المختار
المصطفى بدر البدور شافي الصدور بالنور والاسرار
وبابنه بحر البحور در النحور مغفر الاشرار
من قد حكى يوم الكفاح بين الرماح ليث الشرى في الغيل
عين الرشاد والصلاح قطب الفلاح مولاي اسماعيل

وكابن زاكور فعل ابن ادريس حين مزج بين الاشادة بالمولد النبوي ومدح المولى سليمان والمولى عبد الرحمن . وكذلك فعل أكنسوس الذي أشاد في مولدياته بهذا السلطان . وهنا نلفت الانتباه الى ديوان « اليمن الوافر الوفي في امتداح الجناب اليوسفي » (53) ، فقد جمع فيه المرحوم

(52) انظره في ديوانه « الروض الاريض في بديع التوشيح ومنتقى القريض » ص 112 (مخطوط خزانة الرباط العامة رقم ك 357) .
(53) مطبوع بمطبعة المكينة المخزنية ـ فاس 1342 .

عبد الرحمن بن زيدان قصائد المولد التى قيلت فى عهد المولى يوسف ، وشعراؤها كثيرون ، فى طليعتهم محمد بوجندار ، ومحمد غريط ، واحمد النميشى ، وعبد الله القباج ، والعباس الشرقى ، ومحمد السليمانى ، واحمد سكيرج ، واحمد بن المواز ، ومحمد الجزولى ، وابن زيدان نفسه .

وقد تبلورت هذه الظاهرة فى المولديات التى أبدعها الشعراء فى عهد المغفور له محمد الخامس وجلالة الحسن الثانى أيده الله ، واخص منهم بالذكر محمد الحلوى ، والمدنى الحمراوى ، وعبد الرحمن الدكالى ، وعلال الفاسى ، وعبد الكريم التواتى ، وادريس الجاى ، ومحمد العلوى . ويكفينا للتمثيل ان نطرح نموذجين :

الاول : للشاعر الاستاذ عبد الرحمن الدكالى فى مولدية (54) قالها فى أعقاب نكسة خامس يونيو 1967 ، ومطلعها :

قف ناج خير الرسل والاسياد   واهتف بنور الدهر والآباد

وبعد ان مدح الرسول صلوات الله عليه تعرض للقضية الفلسطينية والنكسة حيث قال :

أعداؤنا لن يستغلوا خلفنا   فاخاؤنا أرسى من الاوتاد
عهد التضامن والوفاء نصونه   حتى نورثه الى الاحفاد
قولوا الصهيون اللعينة اننا   سنكون بعد غد على ميعاد

ثم انتقل الى مدح جلالة الملك فى الحاح على قضية الوحدة ودعوته اليها :

الله أكبر يا سليل محمد   يا بن الرسول وخيرة القواد
الله أكبر كم دعوت لوحدة   واخوة وتعاضد ووداد

---

(54) انظرها فى مجلة (دعوة الحق) العدد 8 السنة 10 يونيو 1967 .

حاولـت جمـع صفوفهم لمقاصـد أسمـى مـن الالقاب والافـراد
حـب لـذات الله منـك تحبهـم والحـب خير مقاصـد الاسيـاد

الثانى : للشاعر المرحوم علال الفاسى فى مولديته(55) التى اولها :

بهجـة القلـب وروض الانـس ومنـار الهـدى للمقتبـس

فانه بعد أن فرغ فيها من مدح الرسول الكريم توجه بالخطاب الى جلالة الحسن فى ابيات لم ينس ان يطرح فيها قضية الصحراء ، نقتطف منهـا قوله رحمه الله :

يـا مليك الشعب يـا بن المصطفى جـدد الديـن بفـرنـدس
أنـت آمـال بـلادى كلهـا فخـذ الامـر بحـزم كيـس
قـد ورثت المجـد عن خيـر اب فضلـه عـم جميـع الانـس
منقـذ الشعـب وحامـى أرضـه مـن أذى الغاصـب والمختلـس
وطنـى مزقـه أعـداؤه كيـف لا ننقـذه مـن محبـس
ان الاستقـلال لا يكـلاه غيـر تحرير الاراضـى الحبـس
أيهـا العاهـل أنـا امـة نفتـدى العـرش ببـذل الانفس
خض بنـا ما تبتغى مـن معـرك تلـق منـا اسـدا مـن خيـس

* * *

وبعد ، فاذا كان الادباء المغاربة قد مزجوا فى مولدياتهم طوال التاريخ بين مديح الرسول والاشادة بملك البلاد ، فان الزمان فى دورته ابى الا ان يجمع فى يوم واحد هذا العام بين ذكرى مولد النبى الكريم وذكرى عـرش حفيده . فلعلنا أن نستلهم المناسبة ونستوحى من صفاء قبسها وعمـق مدلولها ما يمدنا بمزيد من القوة والامل فى مسيرة الوحدة والتقدم التى عبأ الشعب لها نفسه بقيادة عاهله المناضل ايده الله ونصره ووفقه ووفق جميع العاملين المخلصين .

الربـاط **د. عباس الجرارى**

(55) انظرها فى ديوان « الحسنيـات » جمع الاستاذ عبد الحق المريني نشر وزارة الدولة المكلفة بالاعـلام (1975) .

رأي
في الارتباطات الطبيعية والنفسية في التذوق الفني

د. تمام حسان

من توقع ان يجد فى هذا المقال متنا من المتون يشرح القواعد المحددة التى تحكم حركة النفس البشرية فى مجال الاستمتاع بالفن فليمسك عن القراءة ، لئلا ينتهى الى خيبة امل . ذلك بأن التذوق والاستمتاع لا يخضع للقاعدة ، ولا ينقاد لدى الباحث للتقعيد . فهو من النفس وللنفس وبالنفس ، ومن ثم نجد أوضح جوانبه الجانب الذاتى المحض ، ذلك الجانب الذى ينفعل اولا ، ثم لا يأتى التبرير الا بعد وقوع الانفعال . فاذا جاء بالمبررات كانت وليدة الانطباع فى جملتها وان استعارت من هذا الفرع أو ذاك من فروع المعرفة بعض المعلومات التى تبدو بها الانطباعات فى صورة منظمة ، وتكتسب بها موضوعية ظاهرية تخفف من حدة النغمة الذاتية الصارخة . ولهذا ينبغى أن أبادر منذ الوهلة الاولى الى التصريح بأن الذى يشتمل عليه هذا المقال انما هو خواطر حرة ذاتية لا تخضع لقاعدة ، ولا تمثل معلومات معتمدة لدى النقاد ، فهى راى لى اتحمل تبعته وحدى حتى مع استنادى بين حين وآخر الى بعض المعلومات من مجالات علمية مختلفة .

يتردد لفظ « السليقة » على السنتنا كثيرا فى حقل الدراسات اللغوية ، فلقد ورثنا هذا اللفظ عن القدماء ، ثم رايناه فى أيامنا هذه يحتل مكان

الصدارة فى احدث المذاهب اللغوية المعاصرة : « مذهب التحويليين » ، تحت اســم « Competence » . وكان بعض القدماء من أسلافنا يفهمون السليقة قضاء وقدرا كأنها من عناصر تكوين الدم العربى ، فاذا أراد الفصيح بزعمهم ان يلوى لسانه بالنطق الصحيح لم يطعه لسانه ، ولكن بعض السلف أيضا فهم السليقة على وجهها الذى يفهمها به المعاصرون ، فراوها قدرة علــى استضمار نظام اللغة بمبانيه ومعانيه وعلاقاته الداخلية وقواعده بحيث يكون استعمال اللغة اقل ما يكون طلبا للانتباه ، وابعد ما يكون وقوعا فى الخطأ، وايسر ما يكون وصولا لامن اللبس . ولهذه السليقة خصائص :

(1) انها ليست سليقة فلان أو علان وانما هى سليقة فرد مجرد ذهنيا على نحو ما كان الشاعر يجرد شخصا ويخاطبه .

(2) أن هذا الفرد المجرد ينتمى الى مجتمع متجانس تتناسى فيــه الفروق بين الافراد .

(3) ان السليقة فى النهاية ذات ارتباط بخصائص الاستعمال فى هذا المجتمــع المتجانـــس .

عند هذا الحد اجدنى مدفوعا الى زعم ان التذوق يعتمد على سليقة اوسع واشمل من السليقة اللغوية وان السليقة اللغوية تمثل مطلبا مــن مطالب جانب من جوانب السليقة الفنية ، وهذا الجانب هو الادب ، اى ان التذوق الادبى يتضمن معرفة باللغة التى تم بها التعبير ، وان لم تكف معرفة اللغة بمفردها للوصول الى هذا التذوق . وكما أن السليقة اللغوية يمكن الوصول اليها بواسطة انشاء طائفة من الثوابت المجردة كالتى كان النحاة العرب يطلقون عليها : « الاصول الثابتــة » والتى يسميها التحويليــون « idealisation » ، يمكن للسليقة الفنية ان تفهم بواسطة الوصول الى مجموع التصورات وانواع الانفعالات التى يطلق عليها البعض اسم : « الروح القومية » . والمقصود بالروح القومية الخصائص العقليــة والنفسية لكل مجموعة من المجموعات الانسانية على نحو ما يقصده اللغوى الالمانى همبولدت (توفى 1875) بنظريته التى عرفت من بعده باســم

نظرية « رؤية العالم » ، وترى هذه النظرية ان لغة كل قوم تتناول من العالم ما وقع فى تجارب أصحابها وتختلف محتويات لغات الشعوب باختلاف بيئات الشعوب وتجاربها ، وينعكس ذلك مع الكلمتين المتقابلتين عند الترجمة من لغة الى لغة ، ففى العربية اسماء كثيرة للسيف أو الجمل ، وفى الاسكيمو أسماء كثيرة لانواع الثلج ، فلا يمكن لاحدى اللغتين ان تترجم عن الاخرى بدقة لان العربية ترى العالم بثلج موحد ولغة الاسكيمو ترى العالم بجمل موحد .

وانما سقت هذا المثال اللغوى الضيق لاوضح ان الروح القومية هى بمجالها الفسيح منبع للسليقة الفنية الى تنشأ عن مجموع التصورات وانواع الانفعالات المنسوبة الى أمة من الامم. فلقد نرى شعبا يعرف بالقسوة كالمغول أو بالمكر والمخاتلة والدهاء كالصهيونيين ، أو بالديمقراطية واحترام حقوق الفرد كالانجليز أو بحب الحرية كسكان الصحراء من أسلافنا العرب ، أو المثابرة كالصينيين ، فننسب كل واحد من هذه الشعوب الى ما بدا لنا واضحا من جوانب روحه القومية ، وتبقى الجوانب الاخرى من هذه الروح تنتظر من يتصدى للكشف عنها كما يكشف اللغويون عن جوانب السليقة اللغوية . والامر الذى أود أن أؤكده الآن ان مجموع هذه الجوانب يكون اطارا نفسيا عاما يتذوق المرء من خلاله الانتاج الفنى بصوره المختلفة .

ومما ينتمى الى السليقة الفنية لشعب من الشعوب تصور هذا الشعب للجمال وطريقة انفعاله به . ان الذى ينظر الى تماثيل اليونان القدماء التى مثلوا بها جسم المراة ، ويوازن بين الرؤية الجمالية فى هذه التماثيل وبين الرؤية الجمالية كما تبدو من أحكام قضاة مسابقات الجمال فى عصرنا الحاضر يدرك أن السليقة الفنية للقدماء كانت تحتفى ببضاضة جسم المراة اكثر مما تفعل السليقة الاوربية المعاصرة ، ولكنها ربما كانت اقل حفاوة بالصورة التى نوه بها الشاعر العربى بقوله :

أبت الروادف والثدى لقمصها مس البطون وان تمس ظهورا

واذا الرياح مع العشى تناوحت نبهن حاسدة وهجن غيورا

فهذه الصورة التى عبرت عن الجمال فى سليقة الشاعر لا تتناسب مع معايير الجمال الاغريقية ولا المعاصرة. ومغزى هذا أن ادراك الجمال (أو بعبارة أخرى : الحكم الجمالى) نسبى يخضع للزمان والمكان كما يخضع الحكم الاخلاقى تماما ، وقديما قال الاصوليون : « ما رآه المسلمون حسنا فهو حسن » ، أى أن الحكم القيمى خلقيا كان أو جماليا يخضع لاعتبارات الزمان والمكان .

على أن هذا الطابع النسبى فى الحكم على الجمال لا ينفى أن الجمال (كالاخلاق أيضا) له جانب مشترك بين الناس جميعا هى أصوله الثابتة . لقد حدد القدماء أصول الاخلاق بأنها الخير والحق والجمال ، فجاءوا بأعم كلام فى الموضوع ، وسلموا من الوقوع فى مزالق الخوض فى الامور النسبية التى سبقت الاشارة اليها . وحاول المحدثون أن يقيموا للجمال مثل هذه الاصول فتحدثوا فى أمرين : العلاقات والايقاع ، ونسبوا الى كل منهما قانونا ، فالعلاقة قد تكون علاقة التوالى diachronique أو علاقة المعية Synchronique

وكل منهما تعطى ضربا من ضروب الاحساس بالانسجام والمتعة . أما الايقاع فقواعده الانتظام والتباين والتساوى والتكرار والتلازم والتوازن . فاذا تحققت هذه العناصر تحققت فكرة الايقاع ، وأصبحت النفس قادرة على ادراكه خارج حدود الزمان والمكان . ومعنى هذا أن الادراك المطلق للجمال يتم بادراك العلاقات الداخلية فى الموضوع الجميل ، وادراك ما يشتمل عليه هذا الموضوع من الايقاع . فاذا ضممنا هذا الجانب المطلق الى الجانب النسبى السابق أمكننا أن نتصور المقصود بالسليقة الفنية .

وفى حدود هذه السليقة يكون الخلق والتذوق الفنى وحيا للمبدع وايحاء منه الى المتذوق . ويسلك هذا الايحاء طائفة من المسالك والسبل التى نعرض لبعض مظاهر الجانب الطبيعى والنفسى منها على النحو التالى :

1 — ايحاء بالقيم الطبيعية يتمثل فى :

أ — الحكاية .

ب — الايقاع .

2 ــ ايحــاء بالقيــم النفسية تأتى عنه :

أ ــ المشــــاركـــــة .

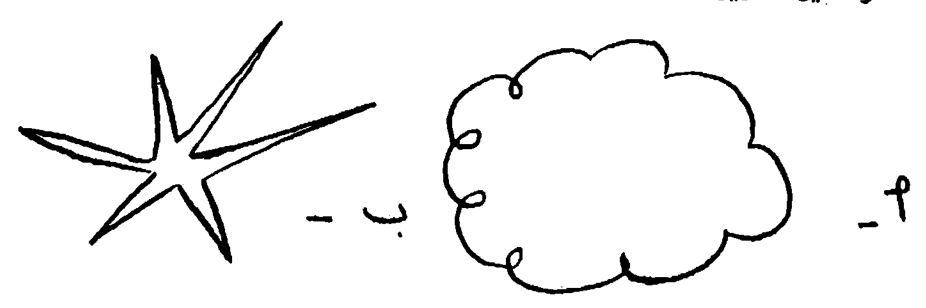
ب ــ التـــداعـــــى .

وسنحاول الكلام فى كل واحد من هذه الامور على حدة .

لقد عرف العرب الحكاية بقولهم: «أن تدل الكلمة بصوتها على معناها». والمألوف عند اللغويين أن تكون الكلمة دالة بالوضع لا بالصوت ، أى دالة على ما أراد الواضع لها أن تدل عليه (والواضع هنا مجهول واقرار المجتمع لهذا الوضع مسلم) . فاذا دلت بالوضع فدلالتها عرفية لانها جاءت عن طريق موافقة المجتمع (صاحب العرف) على المعنى الذى نسب للكلمة حتى مع الاعتراف بأن أصوات الكلمة (أى جرسها) قد لا يتمشى مع معناها (كمانلاحظ فى بعد ما بين الصوت والمعنى فى كلمة : الجرشى = النفس ، كما فى قول الشاعر : « كريم الجرشى عريق النسب ») . ومعنى هذا أن الصوت فى هذه الكلمة لا «يحكى» المعنى «حكاية» طبيعية ، ولكنها تدل عليه دلالة عرفية اعتباطية . وفى كل لغة طائفة من الكلمات يمكن أن تنسب اليها الحكاية ، وفى العربية من هذه الكلمات أمثال الخرير والفحيح والحفيف والقط والقطع والقطم وغيرهما مما أشار اليه العلماء . ومن شأن كل كلمة من هــذه أن تتوافق فيها الدلالتان الطبيعية والعرفية ؛ ومن هنا جاء التعريف السابق للحكاية . ولكن البراعة الاسلوبية لا تتمثل فى اختيار الكلمة الواحدة من كلمات السياق ، اذ قد يكون التقاط الكلمة ووضعها فى سياق ما قد جــــاء عفوا أو اضطرارا لعدم العثور على مرادفها ولم يأت اختيارا . أما أن يكون الامر أمر ظاهرة تسرى فى اللغة كلها ، أو أمر تعبير بالحكاية عن معنــى يحسن السكوت عليه ، أو رصف جملة كاملة من عدد من الكلمات الدالة بالحكاية على معنى الجملة فهذا هو الايحاء بالقيمة الطبيعية للتعبير .

المعروف أن الاصوات المتأخرة فى الفم (كالمفخمات والضمة) توحى بالضخامة والتهويل ، وأن الاصوات المتقدمة فى الفم (كالمرفقات والكسرة) توحى بالاستصغار والازدراء .

ولقد كان أستاذنا الراحل J.R. Firth فى جامعة لندن يجرى بعض الاختبارات على هذه الخاصية الصوتية فرسم لنا ذات يوم الرسمين الآتيين :



وجاء بكلمتين من عنده : احداهما « أومبوبو » والثانية « كيريككى » . وطلب الى كل واحد منا على حدة أن ينسب احدى الكلمتين اللتين لا معنى لهما الى كل من الشكلين المرسومين فكان اجماع الطلاب على نسبة الكلمة الاولى الى الشكل ا والثانية الى الشكل ب . مما يعد مصداقا لايحاء الضمة بالضخامة والكسرة بضدها .

لقد اختارت اللغة العربية لمعنى التصغير أن تعبر عنه بياء ساكنة مفتوح ما قبلها تسمى « باء التصغير » ، فكان اختيار الياء لهذا المعنى اعترافا بما فى الياء من حكاية الاستصغار . ولو اختارت اللغة الواو لذلك لاجزأت ولكن مع تجاهل مطلب الحكاية . والمعروف المألوف فى كلامنا أننا اذا أردنا الاحتجاج ممتزجا بمعنى التهويل فاننا نستعمل لفظ « أوه » ، واذا أردنا الاحتجاج ممتزجا بمعنى الاستهجان والاستصغار والنفور قلنا « ايه » . وليس أى من اللفظين واردا فى معجم اللغة ولا يعرف له معنى عرفى اعتباطى، فدلالة العبارتين هنا أشبه بدلالة ما يسميه النحويون« أسماء الاصوات » ، أى دلالة بالصوت على المعنى . وانظر بعد ذلك الى سريان جرس الحكاية فى كلمات متعددة من الجملة الواحدة ، كالذى توحى اليه القاف مشددة حينا ومفردة حينا آخر على معنى البت والحسم وعدم احتمال الرجوع فى القرار ، وذلك فى قوله تعالى : « لقد حق القول على أكثرهم » . ثم انظر الى سريان التفخيم فى أوصال الجملة الآتية والى مكان الظاءين منها

والى ما تحمله الجملة من معنى التهويل فى الوصف فى قوله تعالى : « ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك » . هذا ما أقصده بأثر الدلالة الطبيعية حين تأتى منسجمة مع الدلالة اللغوية العرفية الاعتباطية للالفاظ فتضيف الى المعنى العرفى معنى آخر ايحائيا لا يخطئه فهم الناقد البصير . لقد فطن النقاد العرب الى هذه القيمة الطبيعية الايحائية فى اختيار الشاعر لكلماته فوسموا بعض الكلمات بسمة « الكلمة الشاعرية » ، وفطنوا اليها فى أساليب الادباء والشعراء، ولكنهم لم يستطيعوا تحديدها بوضوح، فجاءت عباراتهم عن هذه القيمة الايحائية غامضة غير محددة المدلول . ومن هنا قرأنا لهم عبارات مثل : « حسن الجرس » ، « سلس الاسلوب » ، « قوى الاسر » « جزل العبارة » ، « له ماء ورونق » . ولم يستطع المعاصرون من نقادنا أن يحددوا ما قصده القدماء بهذه العبارات فاتهموهم بالسطحية وفضول القول ، وما قولهم القدماء بفضـــول .

وليسمح لى القارىء الكريم أن آتى بالدليل على أن المقصود بحسن الجرس وسلاسة الاسلوب الـــخ هذه القيـــم الايحائيـــة الطبيعية التى لا تتصل بالمعنى اللغوى . ووسيلتى الى التدليل على هذه الدعوى أننى سآتى بنص أراه حسن الجرس سلس الاسلوب يشتمل على الاصول اللغوية الثابتة وعلى الدلالات الطبيعية الرائعة التى تميز الاسلوب العربى ، ولكنه يخلـــو خلوا تاما من أى مضمون يمكن أن يفهم منه ، فاذا ما انتهى القارىء الكريم من قراءته عرف أن الذى أعجبه من النص ليس ما فيه من المعانى الجيدة ، ولكن ما فيه ايحاء الصياغة ، لان الصياغة جاءت فى اطار سليقة فنية عربية راسخة الاصول . وهذا هو النص :

« ان الذى يرى نبض التاريخ الطموح وما تنطوى عليه المنهجية العميقة فى شتى تهاويلها لابد أن تبهره أحلام الواقعية التى تمتد على روافد التاريخ . ولقد كان الانسان فى كل لون من ألوان الوشائج الفارهة فى التطور الفيزيائى لمورفولوجيا الحياة الاسرية قائما بالقسط بين النية والارادة فى تعامله مع بنى جنسه، وفى موقفه من مفردات الظواهر. ولئن كان المد السكونى المتاح للانسان (منظورا اليه فى ضوء الجزر الحركى لانواع الجماد) لم يأت بجديد فى حقل الملاحظة والتجربة ، فان ما نسمع عنه من استقامة المحيط وحلزونية القطر

ربما أفضى فى النهاية الى حدس زمكانى الطابع . تلك هى معطيات التاريخ الطموح فى مقابل ايحاءات العلم ، وهذا هو الاستغراق المنهجى الذى دفع المؤرخين والعلماء الى كلمة سواء ، وقفت بهؤلاء وأولئك على مفترق الطريق بين تاريخ العلم وعلم التاريخ . وتلك لعمرك ومضة من الومضات الصاخبة فى أفانين الفكر ، لا يعلقها الا ذوو الآذان المرهفة والضمائر الحية ، وأصحاب المغامرات التطلعية على أفاريز الوعى الثقافى . أفئن صاح العلماء فى نجواهم بالحمد لظواهر الطبيعة أن أفاءت عليهم من شآبيب رفدها ، أفينكر منكر بعد هذا أن التأمل من أقصر الطرق الى القاعدة ؟ كلا والف كلا » . انتهى النص وقد كتب فى أسلوب علمى متأدب ، ولكنه لم يشتمل على علم ولا أدب ، بل لم يشتمل على معنى اطلاقا ، وانما اشتمل على القيم الطبيعية التى تتميز بها ظاهرة « الحكاية » . ومن ثم أمكن له أن يوصف بحسن الجرس وسلاسة الاسلوب وقوة الاسر وجزالة العبارة والماء والرونق . وقديما أمكن للمجنون بن جندب أن يحير أبا عبيدة وأبا زيد والاصمعى ببيتين من الرجز اشتملا على كل القيم الطبيعية للرجز من وزن وقافية وجرس حسن ولكنهما كانا خلوا من المعنى ، اذ قال :

محكوكة العينين معطاء القفا	كأنما قدت على متنه الصفا
ترنو الى متن شراك اعجفا	كأنما ينشر فيه مصحفا

فقال كل منهم فى معناهما : « لا أعرفه ! » ، وقال أبو زيد : « هذا كلام مجنون ، ولا يفهم كلام المجانين الا مجنون . ولكن أى واحد منهم لم يستطع أن ينفى عن البيتين أنهما من الرجز المحبوك الصنعة الذى توافرت فيه ثوابت اللغة والقيم الطبيعية لاسلوب الرجز .

ثم ماذا يمكن أن نقول فى دور الايقاع ، وهو المسلك الثانى من المسالك الطبيعية للايحاء الفنى ؟ لقد سبق أن نسبنا الى الايقاع بعض القواعد التى يتحقق بها كالانتظام والتباين والتساوى والتكرار والتلازم والتوازن والتوازى . وأحب أن أضيف هنا أن الايقاع متأصل فى الانسان ، نلمح ذلك فى تكوينه الجسمى كالسيمترية (أى التقابل) الذى يتميز به خلق الانسان اذ نرى كل جزء فى الشطر الايسر يقابله جزء مشابه فى الشطر الايمن، كتقابل

العينين واليدين والرجلين الخ ، ونلمحه فى وظائف اعضائه كايقـــاع نبض القلب والتنفس والمشى وفى توالى النوم واليقظة وحركة الفك الاسفـــل فى المضغ الخ . فليس غريبا أن يجد الانسان متعته فى الايقاع سواء وجده فى الشعر أو الموسيقى ، أم وجده الطفل فى الارجوحة ، أم فى ترقيص أمه له ، أم فى مجالات أخرى من الحياة اليومية ، لان الايقاع ينسجم مع طبيعته كمـــا يبدو واضحا مما ذكرنـــا .

والايقاع يعفى من الانتباه ، ولهذا يعد مصدرا من مصادر الراحـــة والاقتصاد فى الجهد . وانما كان الايقاع كذلك لما فيه من عناصر الانتظام والتكرار والتوازن . فهذه العناصر تشرب الحركة رائحة السكون فتجعلها استقرارا ، وتمنحها من شوق النفس اليها مثل ما فى النفس من شوق الى السكون ، وتعفى الوعى من الانتباه مع الحركة كما يكون شأنه مع السكون . وآية ذلك أن غير الساكن قد يوصف بالاستقرار اى انه يمكن أن يكون الاستقرار مع الحركة اذا انتظمت الحركة وتكررت وتوازن المتحرك فى حركته، مثال ذلك « الخذروف » يدور فى مكانه بعد أن يطلقه الصبى من الخيط ، ولكن دورانه يتم وهو مستقر فى مكانه، فهكذا كان انتظام الدوران وتكرار الدورات وتوازن الخذروف فى دورانه من عناصر الاستقرار الذى لا يتنافى مع الحركة . وايقاع دوران الارض حول نفسها وحول الشمس لا ينافى وصـــف الارض بالاستقرار لان دورانها فى الحالتين منتظم ومتكرر ومتوازن أو بعبارة أوضح : « دوران ذو ايقـــاع » .

وثمة أدلة لا يمكن ضحدها على أن الايقاع يعفى من الانتباه : فالطفل الذى يصيبه الارق لا يأتيه النوم الا اذا وضعته أمه فى حجرها وهزته هزا موقعا ، فاذا انتفى الايقاع من حركتها كان هزها اياه سببا من أسباب ازعاجه لا من أسباب نومه . والناس ينامون على ايقاع اصطدام عجلات القطار المسرع بالفجوات التى بين قضبان السكة الحديد . والموسيقى بايقاعها قد تدعو الى النوم ايضا ، وربما نصح بها الطبيب ضحايا الارق . والانسان لا ينتبـــه لخطـــواتـــه وهـــو يسيـــر الا اذا اضطرب ايقاعها بسبـــب العوائـــق أو وعورة الطريق . ولا ينتبه لتفاصيل كلامه وايقاعه الا اذا تعثر ايقـــاع

هذا الكلام لسبب ما كالتعليم او توالى عدد من الحروف المتقاربة المخارج .
ومن الناس من يستعين على التفكير بحركة منتظمة برجله او بمسح ذقنه بيده
بانتظام، فينصرف بهذا الايقاع عن الانتباه لما حاوله ليتفرغ لموضوع تفكيره.
هكذا يبدو لنا أن الايقاع يعفى من الانتباه ، وهذه الخاصية من خواصه تجعله
مصدر راحة للنفس ومنبعا من منابع السعادة وينبوعا من ينابيع التذوق
الفنـــــــى .

فالايقاع من القيم الطبيعية الهامة فى الايحاء الفنى فى عمومه، وفى كل
فرع من فروع الفنون على حده . منذ الذى ينكر قيمة الايقاع فى الموسيقى ؟
ان اوضح دليل على هذه القيمة أننا لو كان لنا رجلان ذوا صوت متوسط
الجمال أحدهما يغنى قصيدة والآخر يغنى كلاما متصلا غير موقع لكنا أكثر
تسامحا مع اولهما منا مع الثانى، بسبب ما توافر فى غناء الاول دون الثانى من
عنصر الايقاع من خلال الشعر . وهناك دليل آخر على ذلك أيضا هو كثرة
المشهورين من المغنين وقلة المشهورين من قراء القرآن ، لان خلو النـــص
القرآنى من عنصر الايقاع المنتظم يجعلنا أكثر تدقيقا فى اختيار القارىء الذى
نعجب به ، لان هذا القارىء يقدم الينا النغمة وحدها بلا ايقاع منتظم .

لقد كان فن التصوير فيما مضى يحمل كثيرا من عناصر الواقع ، بـــل
يمكن الزعم أن هذا الرسم كان يدور فى فلك الواقع حتى فى موضوعاتــــه
المختلفة . فالفنان الذى تصور آلهة الأولمب أعطاهم الواقع الانسانى، والذى
تصور « النيل الاب » عبر عن الابوة الانسانية ، والذى تصور الشيطـــان
خلط واقع الجسم الانسانى بواقع قرنى الحيوان فلم يخرج من هؤلاء الفنانين
أحد عن محيط الواقع . ثم جاءت الموجات الفنية الحديثة فى التصوير من
انطباعية الى سيريالية الى تكعيبية فابتعدت عن الواقع وسلكت طريق
المغامرات الكشفية فى مجاهل سيكولوجية التذوق . ولقد كان أحرى بهــذه
الاتجاهات الجديدة الا تكون ، لولا اعتماد أربابها على قواعد الايقاع التــى
ذكرناها من قبل سواء ايقاع اللون وايقاع المسافة . فالذى يراه عشاق القديم
عبثا لا معنى له يجد فيه المدافعون عن الحديث انتظاما أو تباينا أو تساويـــا
أو توازنا أو توازيا مجردا يمنح اللوحة ايقاعا ويجعلها مقبولة فى الذوق موحية
بالراحة التى تأتى من هذا الايقاع . وتمتاز لوحة عن أخرى بمقدار ما فيهـــا
من هذا النبض الايقاعـــى .

وهكذا نصل الى الايحاء بالتيم النفسية بما فيه من العناصر : كالتداعى (او الاستدعاء) والمشاركة . والمقصود بالتداعى التسلسل الآلى للتصورات بحيث تؤدى فكرة الى فكرة أخرى دون قصد أو تعمد . والذى يبدو لى أن هذا التداعى يخضع لجانبين أحدهما ذاتى والآخر موضوعى . فأما الذاتى فهو التجارب السابقة للفرد المفكر بحيث يؤدى مثير ما الى استدعاء فكرة عند زيد وفكرة اخرى عند عمرو بحسب ما سبق من تجارب كل منهما . فاذا صحا الناس ذات يوم ليقراوا فى الصحف أن اليوم عيد الطفولة فان فكرة الطفولة ستجر الى التفكير فى غياب الاب عن أطفاله عند البعض ، والى مرارة العقم عند الآخرين ، والى فقد الاطفال عند فئة ، فان كان المفكر اما فقد تستدعى فكرة الطفولة مشقة تنشئة الطفل او موقفا معينا لها مع طفلها . وهكذا تستدعى الفكرة الواحدة افكارا مختلفة عند الناس باختلاف التجارب الفردية .

واما الجانب الموضوعى منها فاننى أجده شديد الارتباط بما يسميه السلف : المعانى التضمنية واللزومية . وشرح ذلك ان لكل كلمة ثلاثة أنواع من المعانى : النوع الاول المعنى المطابقى والثانى التضمنى والثالث اللزومى . فاذا سمعنا مثلا كلمة « الكلية » فاننا سنفهم بالمطابقة معنى يشمل كل أجزاء المعنى كمبانيها وطلابها واساتذتها وموظفيها واثاثها وموقعها من المدينة وكل ما يلزم عن وجودها من تعليم واجراء بحوث الخ . فذلك فى جملته هو المعنى المطابقى . اما اذا قال طالب من طلاب هذه الكلية : ان الكلية قد أرسلت الى رسالة تحدد بها مواعيد الامتحان ، فان كلمة الكلية هنا تدل بالتضمن على جزء معناها والمقصود هنا هو الادارة فقط ، فلا تشمل الطلاب ولا الاثاث ولا الاساتذة الخ . اما اذا ورد على ذهننا عند سماع كلمة الكلية ما يلزم عن وجودها كالنشاط التعليمى أو العلمى فان ذلك هو المعنى اللزومى لانه يلزم من وجود الكلية ان تكون وظيفتها تعليما وعلما . واذا كان جزء المعنى يأتى بواسطة التحليل فان لازم المعنى يأتى عن طريق الاستدعاء الذهنى فقط .

وقد يحسن فى هذا المقام أن نضرب المثل الذى يوضح ما نقصده بهذا التشقيق للمعنى وسيكون هذا المثل من خلال كلمة « الام » ، فعناصر هذه الكلمة او معانيها التضمنية التى لا تتحقق الامومة الا بها هى :

الانوثة + البلوغ + الحمل + الولادة = الام .

فكل عنصر من العناصر المكونة لمعنى الام يمكن أن يكون بمفرده معنى تضمينا لكلمة الام ، كأن نكتب على باب مستشفى الولادة مثلا « دار الام » ونقصد « دار الولادة » فتصبح الولادة وهى جزء المعنى واردة بدل المعنى المطابقى ذى العناصر الاربعة . ولكن الام ايضا ترتبط فى الاذهان بأمور أخرى تلزم فى العادة عن الامومة مثل :

الزوجية + الارضاع + الحنان + رعاية الوليد + الفارق فى السن والجسم بين الام وبين طفلها . واذا كانت الامومة لا تتحقق الا بتوافر كل واحد على حدة من المعانى التضمنية التى أوردناها أولا فانها يمكن أن تتحقق بدون زوجية ولا ارضاع ولا حنان ولا رعاية للوليد . ومن هنا تختلف طبيعة المعانى اللزومية عن المعانى التضمنية ويختلف كلاهما عن المعنى المطابقى الاكبر . فاذا قرأنا قوله تعالى : « لتنذر أم القرى ومن حولها » فان احتمالات المعنى لدينا من حيث المبدأ لا تقل عن تسعة احتمالات فى البداية ولكننا اذ نظرنا فى هذه المعانى واحدا بعد الآخر امكننا أن نستبعد من هذه المعانى ما لا يتفق مع القصد اذ لا يمكن وصف مكة بالانوثة والبلوغ والحمل والولادة والزوجية والارضاع ، وأمكن أن نحصر اختيارنا بين الحنان والرعاية وفارق الزمن والحجم . وكلها صفات تصلح لمكة بالنسبة لما حولها من القرى العربية كالطائف والمدينة وخيبر وفدك وتبوك ، فهى اقدمها واكبرها وهى ملاذ للعرب من حولها . ومعنى هذا أن القرآن اختار للكلمة معانى لزومية لا مطابقية اى انه اختار أن يستعملها مع ارادة القيمة الاستدعائية فى المعنى . وما كان لهذه القيمة الفنية أن تتحقق لو أن النص (بدل ان يشمل بكلمة الام عناصر الحنان والرعاية وفارق السن والحجم) صرح بهذه العناصر واحد بعد الآخر كان يقول مثلا : لتنذر مكة التى هى اكبر القرى العربية واقدمها والتى لا شك فى نفعها لهذه القرى .

فاذا تركنا جانب اللغة الى الموسيقى فنظرنا الى النغمة الموسيقية الخالصة مقطوعة الصلة عن الايقاع المنتظم (لاننا عرفنا قيمة الايقاع من قبل والكلام الآن فى النغمة) فاننا سنجد الناس يتذوقون هذه النغمة بواسطة

الاستدعاء غالبا ، ولابد أن يكون الاستدعاء هنا من النوع الاول الذاتي وليس من النوع الثاني الموضوعي . ويختلف الناس في ارتباطاتهم بحقول معينة من الاستدعاء ، فبعضهم يرى في صعود النغمة وهبوطها ما يستدعي الى ذهنه « الحركة » ، فيفسر الموسيقى من خلال الرقص مثلا ، ومنهم من يذكر « الاحجام » ، ومنهم من تورد النغمة الى ذهنه « ذكريات » غامضة ، ومنهم من تستدعي النغمة الى نفسه « انفعالات » مبهمة أو غير مبهمة ، ولكن المثقفين في الموسيقى ربما استدعت النغمة الى أنفسهم الاحساس بالانسجام المجرد لما لهم من حسن ادراك التناسب بين النغمات . ولكن تذوق النغمة في كل حالة من هذه لا يتم الا بواسطة الاستدعاء الحر ، لان النغمة لا تحمل أي معنى عرفي .

والتذوق بالاستدعاء صادق على الفنون التشكيلية أيضا . فربما وصفنا وجها في اللوحة بأنه « معبر » لكن دون أن نحدد المعنى الذي عبر عنه الوجه، فاذا بحثنا في أعماق أنفسنا عن هذا المعنى وجدناه امرا خطر على البال بالاستدعاء . والتماثيل التي ترمز الى افكار كالنصب التذكاري للجندي المجهول او تمثال الحرية في مدخل نيويورك أو تماثيل عظماء التاريخ من قواد وشعراء الخ ، هذه التماثيل لا تنحت الا وفي نفس النحات أن يشحذ القوة الاستدعائية لفكرة الشكل ، فيختار أن ينحت تمثال القائد وهو على ظهر حصان فاره وقد رفع يده كأنه يشير الى جنوده بالحركة ، ويختار لتمثال الشاعر أن يضع اصبعه على صدغه في وضع يستدعي الى الذهن صورة المفكر . وقديما عشق الناس « يد الموناليزا » لا لانها عبرت عن قمة التناسب بين أجزاء اليد فحسب ، بل لما توحي به أيضا من الاسترخاء والراحة بحكم وضعها الطبيعي الذي أظهرها به الرسام . أما ما يسمونه « ابتسامتها الغامضة » فانها توحي بأمر بالغ الاهمية في العرف الاجتماعي وهو « تحفظ المرأة في التعبير عن نفسها » لان الابتسامة لم تصل الى مرتبة التصريح ، فهي كما قال الشاعر : « هممت ولم افعل وكدت وليتني » أو كما عبر القرآن عن هذا المعنى بقوله: «وهموا بما لم ينالوا» أو كما عبر السلف عنه بالقول المشهور : « يتمنعن وهن الراغبات » . والذي يبدو لي أن الازمة الحقيقية للاتجاهات الحديثة في الرسم أن هذه الاتجاهات اتكلت على فكرة الايقاع ، واهملت القيمة الاستدعائية اهمالا يكاد يكون تاما .

والثانى من المسالك النفسية للتذوق هو المشاركة ، وهى استجابة لدى عمرو لما يفعله او يقوله زيد تولد انفعالا شبيها بانفعال زيد . وهـذه الاستجابة قد تكون سريعة وقد لا يولدها الا الالحاح بالقول او الفعل ، وكل من النوعين يعتمد على شبكة من العوامل منها نوع التعبير الفنى وطريقته وحساسية المتذوق ، ولذا يجد الفنان نفسه فى كثير من الاحيان يبنى اختياراته المختلفة على نوع الجمهور الذى يسوق فنه اليه .

فأما نوع التعبير فقد يكون لغويا او موسيقيا او منتميا الى فن آخر ، واما طريقته فقد تصطنع التصريح او الرمز او الحكاية او الايقاع او الاستدعاء وقد تمزج بين اثنين او اكثر من هذه الامور . والمشاركة فى طبيعتها نوع من انتحال الشخصية ، او بصورة أدق ، نوع من تبنى موقف شخص آخر بكل انفعالاته كالمتفرج على الشريط السينمائى حين يتبنى قضية بطل الفلم فيرجو له الخير ويخشى عليه من الشر وتتزايد نبضات قلبه حين يحس أن البطل فى مأزق وهلم جرا . فالمتفرج فى جلسته امام الشاشة معرض لتأثير عدد من الفنون التعبيرية التى اجتمعت فى الفلم كالادب القصصى وفن التمثيل والموسيقى التصويرية ، وكل واحد من هذه الفنون له طرقه الفنية الخاصة . فعندما تجتمع هذه الطرق وتتجه الى التأثير على المتفرج تنتزع منه المشاركة انتزاعا .

فمن وسائل الحصول على المشاركة طريقة أداء التعبير ، وهى التى تسمى فى اللغة باسم «الالقاء»، ونميز بين الجيد والردىء منها فى القاء الشعر، وفى الفرق فى أداء النص التمثيلى بين ممثل وآخر ، وفى اختلاف توزيع القطعة الموسيقية الواحدة بين الآلات المختلفة ، وفى اختلاف النسب فى الوان اللوحتين للمنظر الواحد ، وهكذا . فاذا اعطينا القصيدة الواحدة لشخصين احدهما يعرف معانيها ويحسها ويعرف كيف يلقيها ، والآخر لا يعرف منها الا معانى المفردات والجمل دون معانى الانفعال والمواقف العاطفية، أو يحس مافيها من انفعال ولكنه لا يتمتع بمرونة الصوت، فان اولهما لابد ان يصل بالقصيدة الى أحاسيس المستمعين فيحصل على مشاركتهم العاطفية ، ويبقى ثانيهما على هامش النص لا يستطيع أن ينشىء رابطة بينه وبين الجمهور . والامثلة كثيرة من واقع حياتنا على هذه الدعوى . فلقد كان شوقى ينيب عنه من يلقى

قصائده ، وكان حافظ جهيز الصوت حسن الالقاء يعرف كيف يصل بتلوين صوته الوانا مختلفة الى قلوب الجمهور ، وقلما كان ينيب عنه من يلقى له قصيدة كتلك المرة أناب أحدهم عنه فى القاء قصيدته التى مطلعها :

سعيت الى أن كدت انتعل الدما وعدت وما أعقبت الا التندما

فلما بلغ قوله :

أضرت به الاولى فهام بأختها فان ساءت الاخرى فويلاه منهما

جعل يقدم للبيت بتكرار عبارة « أضرت » فصاح صائح من بين المستمعين : اياك ان تفعل ذلك ! موحيا بأن آخر الكلمة طاء لا تاء . فلما بلغ حافظا ما صنعه نائبه أمسك عن الانابة عنه بعد ذلك .

وفى بحث لى عن أبى زيدون شاركت به فى الاحتفاء بذكرى مرور الف سنة على ميلاده بدعوة من وزارة الدولة المكلفة بالشئون الثقافية (نشرته الوزارة فى فصلة ، وطبعته مجلة الكتاب العراقية فى العددين 11 ـ 12 الصادرين فىمجلد واحد والخاصين بالذكرى الالفية لميلاد ابن زيدون فىكانون الاول 1975) حاولت أن أبين وسائل الاديب فى الوصول بواسطة الاداء الى دفع المتذوق الى المشاركة الوجدانية، فلم أجد من وسائل الوصول اليها خيراً من البساطة اما فى الموقف النفسى كبساطة الشعراء العذريين وصدق عواطفهم، واما فى التعبير، ويكون ذلك باختيار العبارات التى جرى استعمالها فى الغرض المراد حتى أصبحت من تقاليده كالتشبيهات المشهورة لكل غرض والعبارات المرتبطة به نحو « واكبدا » لا تكون الا فى الحب مثلا . كما يكون ذلك بالتعميم بواسطة التنكير واستعمال كم الخبرية ونحوهما ويكون أيضا بواسطة الحذف للموصوف أو للصفة أو للمفعول أو المبتدأ أو الخبر أو المضاف الخ . كما أشرت الى أن الوصول الى اثارة العواطف أولى به أن يكون بالاساليب الانشائية . فمن شاء أن يعرف رأيى فى ذلك مفصلا فليرجع اليه فى مظنته ، ولست أجد داعيا لتفصيل ذلك هنا لضيق المسافة .

غير اننى استطيع ان اضيف الى ما ورد فى ذلك البحث طرقا أخرى عثرت عليها باستقراء الاساليب الشعرية واسلوب القرآن الكريم . فمن وسائل التأثير العاطفى الفصل بين الجمل ولاسيما اذا كانت هذه الجمل قصيرة ، كالذى نسمعه فى شعر ابراهيم ناجى الذى تغنيه أم كلثوم :

اعطنى حريتى / أطلق يديا / انني أعطيت/ما استبقيت شيا/
آه مـن قيدك/أدمى معصمـى/ لـم ابقيه ومـا ابقى عليـا/
ما احتفاظى بعهـود لم تصنهـا .. ..

فقصر الجمل والفصل بينها يصور الانسان المنفعل الذى يلهـث بالانفعال ولا سيما اذا اقترن ذلك باستعمال الاساليب الانشائية التى سبقت الاشارة الى قيمتها الايحائية . وانظر الى قوله تعالى فى سورة الطور :

« أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون / قل تربصوا فانى معكم من المتربصين / أم تأمرهم احلامهم بهذا / أم هم قوم طاغون / أم يقولون تقوله / بل لا يؤمنون / فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين / أم خلقوا من غير شـىء / أم هم الخالقون / أم خلقوا السمـوات والارض / بـل لا يوقنـون / أم عندهم خزائن ربـك / أم هم المصيطرون / أم لهم سلـم يستمعون فيه / فليأت مستمعهم بسلطان مبين / أم له البنات ولهم البنون / أم تسألهم خرجا فهم من معزم مثقلون / أم عندهم الغيب فهم يكتبون / أم يريدون كيدا / فالذين كفروا هم المكيدون / أم لهم اله غير الله / سبحان الله عمـا يشركـون / .

مع الاعتذار عن وضع علامات الفصل فى بعض الاماكن التى لا وقف عليها فى ترقيم المصحف . وواضح لكل من يتذوق الاسلوب الجيد دان كل سؤال مما اشتملت عليه الآيات الكريمة أبلغ فى اثره وقوته الايحائية (التى توحى بضعف موقف الكافرين) من مقالة كاملة لان المقالة تعجز عن مثـل هذا الايضاح ، ولا سيما فى الاسئلة التى عقبها تعليق مثل : فليأتوا بحديث مثله . . بل لا يوقنون . . ، فليأت مستمعهم بسلطان مبين . . ، فالذين كفروا هـم المكيدون . . ، سبحان الله عما يشركون .

ومن ذلك ايضا الربط بغير اعادة الضمير ، نحو قوله تعالى : « وانذرهم يوم الآزفة اذ القلوب لدى الحناجر » اى قلوبهم وحناجرهم وكذلك : « ولباس التقوى ذلك خير » اى هو خير ، « ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الامور » اى انه ، « وبالحق انزلناه وبالحق نزل » اى وبه نزل ، « لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب » اى وما هو منه ، ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات انا لا نضيع أجر من احسن عملا » اى أجرهم ، « فان الجنة هى المأوى » اى مأواه الـــــخ ..

ومن ذلك التكرار وشرطه الا يكون من الكثرة بحيث يتضح فيه انــه تحصيل حاصل فيأتى عنه اثر عكسى هو الملل والضيق . فمن التكرار مـــا يرتبط فى الشعر بالخروج عن القافية والرجوع اليها كما يحدث فى الموشحات الاندلسية ، ومنه عودة المغنى عند نهاية الغناء الى ما بدا به كالذى يحدث من عبد الوهاب فى قصيدة النيل ، ومن أم كلثوم فى اغنية « رجعونى عينيك لايامى اللى راحوا » . ومنه خروج القطعة الموسيقية عن نغمة المقام التى ابتدئت بها ثم الرجوع اليها فى « القفلة » ، ومنه ترديد المغنى لمقطع واحد كترديد فريد الاطرش لقوله : وحلفت لك طول عمرك لك ، أو تردد عبد الحليم حافظ لقوله : « الاتيك مشغول وشاغلنى بك » ولو أن الترديد والتكرار هنا كان للعبارة اللغوية فقط لامل وسبب الضيق، لانه بالطبع تحصل حاصل ولكن الذى غفر سيئات اللغة هنا هو ما يحمله الالحاح الموسيقى من سحر لان التكرار فى الموسيقى يعين على تدعيم الجو العاطفى المراد ايجاده .

ومن التكرار ايضا ما سبقت الاشارة اليه عند الكلام عن حافظ ابراهيم . والرجل الجيد الالقاء لا يردد من الشعر الا ما حمل معنى هاما . فاذا كان انسان يلقى بيت المتنبى :

عيد بأيـــة حال عدت يـــا عيد   بما مضى ام لامر فيك تجديـــد

فانه يحس منه أن يكرر كلمة « عيـــد » لانها مناط البيت كله فالبيت كله كلام عن العيد ، ويبدو أن المتنبى حين انشأ هذا البيت قصد لكلمة « عيد » أن تسبقها ضحكة تهكم خافتة من الانف كأنه يقول : « اى عيد انت ؟ امـــا

الأحبة فالبيداء دونهم .. » . ويحسن التكرار أيضا لخلق الاثر النفسى المناسب فى مثل بيتى عنتـرة :

فـإذا شربت فاننـى مستهلـك	مالـى وعرضى وافر لم يثلـم
واذا صحوت فما أقصر عن ندى	وكمـا علمت شمائلى وتكرمـى

والاجزاء التى يحسن تكرارها « اذا وشرطها » فى البيتين ، وقوله: « وكما علمت » فى الشطرة الاخيرة لان تكرار الشرط يخلق التطلع الى «الجزاء» وتكرار المشبه به قبل المشبه يشوق النفس الى المشبه ، ومن هذا نعلم ان موقف الملقى من القصيدة كموقف الملحن ، فعليه أن يكشف عن افضل الوسائل التعبيرية للوصول الى المشاركة الوجدانية من المستمعين .

وبعد فقد بدأت هذا المقال بتحذير لمن كان يلتمس للذوق قواعد ثابتة ان يمسك عن القراءة ، والذى قدمته فى هذا المقال ليس من قبيل القواعد ولا ينبغى أن يقرأ بهذا الفهم . انما هى خواطر وملاحظات ذاتية ، اذا خافـت على نفسها حينا ان تغوص فى اعماق الخطأ تعلقت بأهداب بعض المعلومات العامة طلبا للنجاة ، ونزوعا الى تفيؤ ظلال الموضوعية .

الربـاط — د. تمـام حسـان

قصة

كذبة أبريل

للكاتب الأمريكي : وليم لدرر

ترجمة : عبد المجيد ابن جلون

تطرق الحديث بين السامرين الى موضوع كذبة أول أبريل ، ونحن على أبوابه وأخذنا نتبادل التحذير منها ، ونتبادل رواية ما نعرفه من هذه الاكاذيب ، فتذكرت قصة قديمة بذلت مجهودا فى جميع اشتاتها ثم حدثتهم عنها :

قلـــت :

قد يذهب ضحية كذبة أبريل أولئك الذيـــن يدبرونهـا ، واليك القصة كما رواها بحار أمريكى بعد وصول النسافة التـى كان يعمل عليها الى ميناء مانيلا عند الفجر ، قبل أن تتمكن شمس أول أبريل الملتهبة ــ منذ سنوات ــ من أن تطبق على الميناء .

مضى البحار يروى قصتــه :

اجتمعنا على عجل بعد أن رست النسافة بنا فى الميناء ، لاحكام أطراف كذبة توقع الربان فى ورطة ترويها الاجيـال . . وطالت المناقشة وتشعبت الاقتراحات والمشاريع ، وكنا نعلم أنه ليس من السهل ايقاع الربان ــ وكان يدعى الكابتن سوينى ــ فى ورطة ، فقد كان فريدا من نوعه بين ضباط اسطول الولايات المتحدة ، لما يتسم به من رحابة صدر ، وطول بال ، وكان من شيمه أن يتبسط فى الحديث مع جميع من يعمل تحت امرته من البحارة .

واستعرضنا كل ما نعرف من أكاذيب سالفة ، ولكننا لـم نقع على أية كذبة يمكن أن تنطلى على الكابتن سوينى الحصيف ، ولذلك استبعدناها جميعا ، وقررنا أن نلجأ الى ابتكار أسلـوب جديد يمكن أن يخدع حتى من كان يتمتع بخبرة الكابتن فوق أعالى البحار ، ومضينا نتنافس تنافسا شيطانيا ، ولكن جميع المشروعات بدت لـى صبيانية تافهة ، وكنت ــ فى الواقع ــ قد قضيت الايام الثلاثة الاخيرة وأنا أقلب الموضوع على وجوهه ، واحكمت وضـع الكذبة ، فلما عجز البحارة عن الوصول الى ما هو أدهى منها وامر ، قررت أن أفضى اليهم بمشروعـى .

كنت قد فرغت منذ أيام من تحليل شخصية الكابتن وتتبع ميوله حتى أتمكن منأن أضع اليد على نقط الضعف منها، فعلمت أنه يملك منزلا أنيقا فى مانيلا ، وانه يهيم حبا بأسرته التى يعيش بين أفرادها حياة مطمئنة سعيدة ، اما الجانب الثانى الذى اكتشفته فهو مقته الشديد لاصناف الطهـى الصينى .

أما فيما عدا ذلك ، فقد كان قائدا يتمتع بالهدوء والشجاعة ، ولكنه كان يخشى الرحلة السنوية الى مياه الصين ، ذلك أنها لـــم تكن تحول بينه وبين الحياة السعيدة بين أفراد أسرته، ولكنها كانت تفرض عليه الوجبات الصينية التى كان يمقتها .

فلماذا لا نرسله الى الصين ؟ تصايح الشياطين بالموافقة ، واستقر الرأى على أن نرسله ليتوغل مسافة 1500 ميل فيها ، وعندما عاد الكابتن الى السفينة فى الساعة السابعة صباحا كـــان الاتفاق قد تم على جميع التفاصيـــل . .

وأثناء تناول وجبة الافطار تقدم ضابط الاتصال اللاسلكى وفى يده برقية أول أبريل فناوله اياها فاذا بها تقول :

« عليك أن تلتحق فورا بالمياه الصينية ، وتتابع السفر الى تشينكونـــغ لتتولى يوم 9 أبريـــل قيـــادة القطعـــة البحريـــة « توتويـــــــــلا » .

وما كادت عين الرجل تقع على هذه التعليمات حتى تجمد فى مكانه ، وأخذ يزمجر ويلعن ، فاراق قهوته وهو يضرب الارض الخشبية برجليه ، كما يفعل الاطفال الصغـــار . . .

وركب بعد ذلك على وجه السرعة زورقا بخاريا نقله الى مدينة مانيلا ، وعندما غادر السفينة تمتعنا بفترة لا بأس بها من الضحك ونحن نتبادل الرأى حول النكتة ، وكان من الواضح أننا ازعجنا الكابتن الى حد بعيد ، ولذلك قررنا أن نرفع عقيرتنا باغنيـــة

« كذبـــة أبريل » فور عودته الى السفينة ، ثم تتبع ذلك بضحكات عالية فى وجهه لنضع حدا للموضوع . . ولكـــن

ولكن الكابتن قضى الصباح كله فى مانيلا ، ولم يعد الا عند فترة الغذاء ، فجلس غير آبه لما قدم اليه من طعام ، ولا لاى واحد منا ، وكانت له نظرات تائهة ، كما لو كان غد أيقن أنه أصيب بمكروه ، وكان من الواضح انه تناول بعض كؤوس من الشراب فلم يسعنا الا أن نتظاهر له بالعطف العميق .

وقلت فى نفسى : ياله من تســـرع .

فأجابنى أحد الزملاء : تصور أن يرسلوك الى الصين علـــى عجل هكذا ، وتحرم من عائلتك لمدة سنة كاملة دون أن يكون من حقك أن تتمتع ولو باجازة قصيـــرة .

وعندما أبدى الطاهى بعد الملاحظات عن التقدم الـــــذى أصابه فى فنه ، وعن أسفه لمغادرة الكابتن للسفينـــة ، شكـــره الكابتن وقال له أن زوجته انخرطت فى بكاء مرير عندما سمعـــت الخبر ، فهى راضية عن الحياة فى مانيلا ، ولما كانت أقل فتـــرة يمكن أن أقضيها فى تشينكونغ هى سنة قبل التفكير فى التمتع حتى باجازة قصيرة فقد قررت اعادة العائلة الى أمريكا .

لقد أخذ العبث اذن يؤتى ثمـــاره . . .

وتبادلنا النظرات ، كأننا نحاول أن نتفق على الوقت المناسب للشروع فى رفع الصوت ، بأغنية « كذبة أبريل » . . .

ولكن الكابتن استخرج منديله وتمخط ثم صاح : أنه لمؤلم، ولكن علينا أن نتوقع التعرض لمثل هذه التصرفات المباغتة فـــى حياة الاسطول ، ومع ذلك فان لكل شر جانبه الوردى ، ثم ابتسم بصعوبة وأضاف : فعندما ذهبت الى المدينة هذا الصباح كان من حظى أن ألتقى مع رجل عنده من النقود ما يكفى لشراء منزلــى فورا فلم أتردد لحظة واحدة بطبيعة الحال ، وبعت له المنزل فى مقابل صفقة كسبت بها مبلغ 1200 دولار ، ثم استخرج من جيب سترته حوالة بمبلغ 17000 دولار ، ولما لم تكن هناك أية رحلــة لاحدى قطع الاسطول الى أمريكا ، قررت أن أرسل العائلة على متن باخرة تجارية بدلا من أن تقيم هذه المدة الطويلة فى الفندق ، ونجحت فى أن أتمكن من الحصول على بطاقات سفر عاجلة ، وسوف تغادر مانيلا على ذلك بعد غــد .

ثم وضع أربع تذاكر سفر على المائدة وهو يقول : سوف نشرع غدا صباحا فى نقل الامتعة الى ظهر السفينة « جوهــرة مــانيـــلا » .

فندت منى آهة ، لاننى أخذت أدرك لاول مرة معنى مــا قاله أحد الزملاء من أن الامر قد يتطور الى ما لا تحمد عقباه .

واستمر الكابتن فى حديثه وهو يمسح عينيه ويتمخط ، قال : اننى أكره بالتأكيد أن أقضى سنة كاملة دون عائلة فى الصين ، ولكن الاوامر اوامر ، ولن تلبث أن تألف ما يصدر اليك منها فى حيــاة البحرية ، ولكن الذى يطيــر صوابى هو الفترة القصيرة التــى

منحتها ، وقد تحدثت فى الموضوع مع الاميرال ؛ فأرسل برقيـــة شديدة اللهجة الى واشنطن حول الموضوع .

ـــ ماذا فعل الاميرال يا سيدى ؟

ـــ أرسل برقية احتجاج الى مكتب التنقلات ، قال فيها ان ارسالى على هذا النحو الى تشينكونغ على جانب كبير من الظلم والتعنت . . . وأضاف الى ذلـــك بعض أوصاف جريئة أخـــرى . . . منددا بعدم استشارتـــه فى مثل هذه الامور .

وشعرت بجفاف مرعب فى فمى ، فمسح الضابط عينيـــه واستأذن فى الانصراف وذكر المساعد شيئا عن مخازن السفينة ثم ترك المائدة وانصرف ، فقال الربان الشيخ : « على الآن أن أشرع فى جمع أمتعتى » ثم غادر المكان هو أيضا .

وتبعته الى مقصورته ، ووقفت بالباب أنظر اليه وهو يلقى بقمصانه فى الحقيبة واستمر فى عمله دقيقة أو دقيقتين ، الـــى أن شعر بوجودى وسأل : أجل ؟ هل تريد منى شيئا ؟ فترددت دون أن أعرف ما أقول ، فقد جمد لسانى فى موضعه لمدة بدت لى كأنها عشر سنوات ، قال الكابتن : « اننى مشغول ، وليس عندى أى وقتأضيعه معك، فقللى ما يدور فىخلدكوأغرب عنى»فتلعثمتوأنا أقول : سيدى الكابتن ، فيما يتعلق بأوامرك . . . أنا المذنـــب ، فقاطعنى قائلا : سنقيم الحفلة على وجه اليقين ، سنقيم حفلة رائعة ، وفى استطاعتنا أن نبتدئها فى نادى الجيش البحرى ثـــم

نواصلها فى فندق مانيلا ، وحينما يقفل أبوابه نذهب الى منزلى ، فان فى استطاعتنا أن نجلس على الارض » فقلت : لا يا سيدى ، انك لم تفهمنى ، اننى أتحدث عن أوامر ارسالك الى تشينكونغ انها أوامر ملفقة ، انها كذبة أبريل انا مفتعل تلك الاوامر .

فوضع الكابتن قمصانه على الرف ، ثم عبر المقصورة الى ، ووضع أنفه المحمر بين عينى ، وقال : أيها السيد ، هل سمعتك جيدا ؟ هل سمعتك تقول ان الاوامر التى تلقيتها هذا الصبـــاح ، على ورق رسمى ، مكتوبة باللغة الرسمية ، منسوبة الى مكتب النقل . . وان هذه الاوامر مزورة . . وانك بصفتك ضابط الاتصال قد استغللت وقتك الرسمى ونفوذك فى سبيل ابتداع كذبة ؟

قلت : نــنــنعم يا سيدى « فوضع الكابتن رجله فـــوق كومة القمصان النظيفة ومر بيده فى شعره وهو يغمغم : تجاوزت كل الحدود أيها السيد ، فلقـــد بعت منزلى ووضعت ترتيبـــات اعادة أفراد أسرتى الى أمريكا ، ورفعت شكوى الى الاميرال ، وكاد الاميرال أن يحرق اسلاك المراسلات برسائل احتجاج متتابعة الى وزارة البحريـــة » .

وقفت وقفة انتباه ، وأنا أعض شفتـــى ، دون أن أقـــول شيئـــــــا . . .

فقال الكابتن : هل تعرف الجزاء الذى ينتظر من يلفق أوامر رسمية فى القانـــون البحـــرى ؟

فقلت : نـــنـــنعم يـــا سيدى ، يمكن أن أقدم الى محكمة عسكرية . فأضاف : والمحاكم العسكرية ليست من أكاذيـــب أبريـــل . . . والآن عد الى غرفتك ولا تبرحها ، فانك رهـــــن الاعتقـــــــال .

واستدعيت بعد نصف ساعة الى غرفة يوجد بها كبار ضباط السفينة ، وأمام الكابتن رأيت كتاب « القانون البحرى » مفتوحا عند فصل « المحاكم العسكريـــة » .

قال الكابتن لقد أقبلت على عبث عظيم أوقعتك فيه روح الدعابة الفجة ولكننى سأمنحك فرصة هى الوحيدة من نوعها بين الفين من الفرص كلها مغلقة فى وجهك ، فاننى لا أريد أن أقســو عليــــك .

ثم مد الى يده بثلاثة أشياء هى : حوالة بمبلغ 17300 دولار، و 4 تذاكر سفر هى التى احتجزها لعائلته على ظهر احدى السفن ، ثم نسخة من البرقية المرسلة الى مكتب النقل فيما يتعلق بارساله الـــى تشينكونـــغ .

قال الكابتن : عليك أن تذهب الى مندوب الوكالة وتسترد منزلى دون أن أخسر أنا فلسا واحدا ، ثم عليك أن تذهب الـــى شركة خطوط الباسفيك وتعيد اليها هذه التذاكر وتسترد ثمنها ، ثم بعد ذلك عليك أن تذهب الى الاميرال بهذه الرسالة وتقص عليه كذبتك الابريلية الصغيرة . . . وتفض الاشكال الذى خلقته بينى وبينه أيها السيد المفضـــال . . .

ـ فقلــت : حاضر ، حاضر يــا سيدى . . .

ـــ ثم نظر الى ساعته وقال : « انها الساعة الثانية وسوف امهلك الى صباح الغد لتصلح هذه الاوضاع السيئة ، والا فان على أن أشرع فى اتخاذ الاجراءات ٠ والآن انطلــق . . ؟

غادرت السفينة وانطلقت الى مركز الوكالة، فأجابنى الموظف بأنه لا شأن له بى ، وان عنده زبونا أعطاه مبلغ 18000 دولار فى مقابل المنزل وهكذا تكون الوكالة كسبت بالفعل 700 دولار فــى صفقـــة رابحـــــة .

فقلت بعد حيرة كبرى : « انظر ، بع لى منزل الكابتن مقابل هذه الحوالة اما الـ 700 دولار الاضافية فسأنقدها لك منجيبى، وليس عندى هذا المبلغ الآن ، ولكننى سوف أرسل لك 50 دولار كل شهر الى أن أستوفى المبلغ . »

فقال لى الرجل فى ريب : ولكن لماذا أنت مصر هذا الاصرار الملح على شراء المنزل .

شرحت له الوضعية ، وقلت له اننى اذا ما قدمت الى محكمة عسكرية فانها سوف تديننى على وجه اليقين ، وسوف يقوض هذا مستقبلى ثم ان انقاذى من مثل هذا الموقف يساوى 700 دولار ، وانه يجدر به ان يساعدنى .

فقال لى هات الحوالة : ثم أعطانى بها وصلا ، وقال انــه سيدفع لى المبلغ ولكن الساعة قد بلغت الثانية وحان وقت اقفال

الوكالة ، وصافحته وأنا أشكره ثم عدوت الى الشارع لاركب سيارة أجرة ، لقد انتهى عمله هو ، اما عملى أنا فما يزال فى مرحلة البداية ، فان على الآن أن أسترد ثمن تذاكر السفر ، وأن أقنع الاميرال الشرس بارسال برقية أخرى الى واشنطن .

وصلت الى مكاتب شركة خطوط الباسيفيك فى الساعة السادسة والربع لاجد عددا قليلا من الموظفين ، فقال لى المشرف على هذه المكاتب ان الانظمة المالية للشركة لا تسمح باعادة التذاكر فى آخر لحظة ، هناك شخص واحد يستطيع أن يصدر الاذن بذلك هو مستر جونجاليس مدير الشركة .

— أين استطيع أن أجده ؟

— انه فى نادى البولو حيث يقيم حفلة كوكتيل تكريما للرئيس والمندوب السامى ، يحضرها 300 شخص وهذه فرصة ذهبية بالنسبة لك لانه مسافر الى هونكونج غدا .

— يجب أن أسترد ثمن التذاكر على ذلك قبل أن يحل الغد .

— اذن اسرع الى نادى البولو ، فان طائرة مستر جونجاليس سوف تقلع فى السادسة صباحا ، ولن نستطيع أن نفعل شيئا دون مصادقته .

قفزت لى السلالم انحدرها أربع درجات فأربعا فلما وصلت الى الشارع كان المطر يتساقط تساقطا عجزت معه عن العثور على

سيارة أجرة ، فركبت عربة فليبينية يجرها حصان سارت بي على مهل الى النادى ، ولما وصلت اليه كانت الساعة قد بلغت الثامنة ، وكان المدعوون قد أخذوا يصلون وهم يرتدون ملابس السهرة القاتمة ، ووقف عند الباب شخص يأخذ من المدعوين تذاكر الدعوة ، فلما وصلت اليه أخذ يحملق فى ملابسى ، فقلت له : أريد أن ألتقى بمستر جونجاليس ليس ببطاقة دعوة ولكن برسالة مهمة موجهة اليه .

فقال : « يسرنى أن أبلغها اليه » .

— « كلا يجب أن أبلغها بنفسى » .

فقال : « ان الاوامر تقضى بأن لا أسمح بالدخول الا للذين يحملون تذاكر الدعوة ويرتدون ملابس السهرة » .

— أرجوك اذن أن تبلغ الامر الى مستر جونجاليس ، فان من المستطاع أن أتحدث اليه هنا .

فقال الرجل : أوه سنيور هذا مستحيل ، فان من المحذور ازعاج السيدات والسادة داخل النادى مهما تكن الظروف .

فشعرت شعور متسول محروم . . . وأقبلت فى هذه اللحظة التعسة بالذات محررة الصفحة الاجتماعية فى احدى الصحف المحلية .

قالت : ماذا تصنع هنا ؟

قلت : هل تذكرين كذبة أبريل التى كنا نتحدث عنها منـــذ أيام ؟ لقد طبقناها على الكابتن سوينى ، فباع منزله وحجز تذاكر سفر عودة أفراد أسرته الى الولايات المتحدة ، واقنع الاميرال بأن يرسل برقية شديدة اللهجة الى واشنطن .

فقالت : الم يعرف الشيخ بعد أنها مجرد كذبة أبريل ؟

— نعـــم عـــرف .

— هـــل جـــن جنونـــــه ؟

فقلت لها : كلمة الجنون غير كافية . . . انه يبسق الاتهامات بسقــا . . ويهددنى بتقديمى الى المحكمة العسكرية . . ثـــم شرحت لها ما يجب على صنعه لانقاذ موقفـــى .

قالت : « ومنعوك من الدخول بسبب انك غير مدعو » .

— ولا أرتـــدى ملابس السهـــرة .

فقالت وهى تجرنى وتدفعنى داخل سيارتها : « ان عنـــدى تذكرة اضافية فى المنزل » ولما وصلنا الى المنزل التقطنا التذكرة ، واعطتنى ملابس أخيها جون ، وكانت أطول وأعرض منى ، فعملنا ما يمكن عمله لاجل تقصيرها وتضييقها ، ولكن لم يكن هناك مـــا يمكن عمله بالنسبة للسترة التى كانت تبلغ ركبتى ، فضحكت وهى تنظر الـــى ، ولكن لم يكن يهمنى أن أكون مضحكا بقدر ما كـــان

يهمنى أن أرى مستر جونجاليس على وجه السرعة ، ولو كـان على أن أحضر الى نادى البولو فى جلد حيوان . . .

وفغـر الناس أفواههم حينما رأونى فى النادى ، ولكن اللحظة الحرجة حلت حينما التقيت بالمستر جونجاليس المنشرح الانيق .

فقال حينما مثلت أمامه : هو ! هـو ! هـا! أى رهـان خسرته فحشرك فى مثل هذه البذلـة .

فقلت : مستر جونجاليس ، اننى من رجال بحرية الولايات المتحدة وأنتسب الى احدى النسافات ويدعى ربانى الكابتـن سوينـى .

فانفجر مستر جونجاليس ضاحكا وهو يقول : « الشيـخ سوينى ، انه رجل عظيم ، لقد قابلته هذا الصباح وقدمت لـه معروفا ، ثم انخرط فى ضحك متواصل . . . »

فقلت : « نعم يا سيدى ، بعت له تذاكر السفر فى آخـر لحظة على ظهر سفينة « جوهرة مانيلا » .

فكـرر : « أربع تذاكر على متن سفينة « جوهرة مانيلا » !

ثم تعالى ضحكه وهو يردد : يا الاهى ، لكم أنت مضحك ..! »

وقلت له : أصغ الى يا مستر جونجاليس ، ان الامر جد كل الجد لا هزل فيه فان على أن أعيد اليك تلك التذاكر والا قدمنى الى محكمـة عسكريـة .

وقد حسب المستر جونجاليس أن هذه افظع نكتة سمعها ذلك المساء . فضحك الى أن أراق كأس المارتينى على هندامه وهندامى المستعار ، وقال :

ــ اصغ الى يا بنى ، كم سنك ؟ أنت فى الرابعة والعشرين أو الخامسة والعشرين ، لقد حاول أناس أكبر منك سنا وأدهى حيلة ، منذ الصباح المبكر ان يخدعونى بكذبة أول أبريل ، دون أن ينجح منهم أحد ، يا لـك من طفل تأتى فى هذه الملابس المضحكة لتستعيد ثمن تذاكر سفر احتجزها الكابتن سوينى بصعوبة فى آخر لحظة . . .

وهنا سارعت صديقتى الصحفية الى نجدتى ، وقالت : انه يعنى كل كلمة قالها ، قد حدثنى بذلك منذ التقينا مصادفة وقد جاء وذهب ، ثم عاد ادراجه الى المدينة للحصول على تذكرة دعوة ، والحصول على أى ملابس للسهرة حتى يكون فى مستطاعه أن يقابلك هنا « أخذ المستر جونجاليس ينظر الى الموضوع بجد وتفهم واستخرج ورقة من محفظته كتب عليها بضعة سطور ، ثم قال : سوف تستطيع أن تسترجع مال الشيخ سوينى » ، وكانت الساعة قد بلغت العاشرة ، ولم أكن قد قابلت الاميرال بعد ، وكنت أشعر شعورا مريرا بالحرارة والقذارة والتعب والجوع ، فعدت مع الصحفية الى منزلها لارجع الى ملابسى البحرية ، ثم ركبت سيارة أجرة أخرى لاقطع بها مسافة 10 أميال الى مقر اقامة الاميرال فى منتصف الليل ، فقال لى الخادم لقد نام الاميرال وتقضى أوامره بأن لا أوقظه الا عند الضرورة القصوى .

فصرخـــت : « ايقظــه اذن » .

فقال الخادم : هل عندك أمر هام ، أو داع رسمى ؟

فقلت وقد فرغ صبرى : « نـــاد الاميرال » .

قال الخادم : هل أنت متأكد من أنك تريد منى أن أوقظه ؟ انه فى حالة سيئة يـــا سيدى .

فقلت : « نفذ أوامرى وايقظـــه » .

وبعد عشرين دقيقة بـــدأ الاميرال وهو يثبت اسنانـــــه الصناعية ويسوى ملابس نومه وفحصنى وهو يقول فى اشمئزاز : « هل أنت سكران ؟ فتلعثمت : لـــ لـــ لا لقد جئت فى موضـــوع الاوامر التى تلقاها الكابتن سوينى هذا الصباح .

فقال : نعم ، نعم ، يا لها من أوامر ملعونة أربكت جميـــع أعضاء المكتب ، ولم أخف عن أحد أنها كانت أوامر مزعجة بالنسبة لـــى أنا أيضا ، ولقد أرسلت برقية احتجاج الى واشنطن ، وسوف أعمل على الغاء تلك الاوامر ، مهما كلفنى الامر » .

ـــ أ أ اننى جئت من أجل ذلك ، فانها أوامر غير صحيحة .

ـــ غير صحيحة ؟ ماذا كانت اذن ؟ لقد رأيتها بعين رأسى .

ـــ كانت الاوامر كذبة أبريل يا سيدى ، انا ملفق تلـــك الاوامـــــر . . .

فقـــال بهدوء : « ماذا صنعت ؟ أعد على ما قلته مــــرة أخـــــرى . . . »

ـــ كانت الاوامر كذبة أبريل ، ياسيدى . . .

فانفجر الاميرال ، كأنه مدفع ، وظل الشيخ يضج ويصرخ حتى حسبت أنه سيغمى عيه ، وقال :

« لقد عبثت بكرامتى فمنذ لحظة فقط أرسلت برقية احتجاج طويلة الى واشنطن حول الموضوع ، وها أنت ذا تقول لى ان الامر يتعلق بمجرد كذبة أبريـــل . . »

ثم عاد الى صراخه مرة أخرى ، وختم كلامه قائلا : والآن عد الى سفينتك ، كلا ، بل ابق هنا ، ثم اسرع الى الغرفة المجاورة ورفع سماعة التليفون وسمعته يكرر اسم السفينة عدة مرات .

وعندما رجع قال لى : « فى مستطاعتك أن تعود الى سفينتك الآن ، وقد أنبأت قائدك أن برقية واشنطن قد ألغيت ، واقترحت عليه أن ينزل بك عقوبة (عدم امتثال) معينـــة » .

فرفعت يدى بالتحية ، وقلت : شكرا يا سيدى .

ـــ لا تشكرنى ، فانك لم تسمع نهاية هذا الامر بعد ، أيها الشاب . . .

وعندما رجعت الى السفينة كانت الساعة قد بلغت الثانية صباحا ، وكنت متعبا بعد أن نقص جيبى ثلاثين دولارا ، وأنا أذرع مدينة مانيلا فى كل اتجاه ، ووجدت الكابتن فى انتظارى . . .

فبادرنى بقوله : « لقد انبأنى الاميرال بنجاحك ، ولكن ماذا فعلت بالنسبة للموضوعين الآخرين ؟ »

فمددت له يدى بالوصل الخاص بالمنزل ، وأريته الكلمة التى كتبها المستر جونجاليس ، وهى التى سوف تمكننى من استرجاع ثمن تذاكر السفر فى الصباح .

فقال الكابتن : حسن ، حسن بودى أن تكون قد تلقيت درسا .

قلت وأنا أتحرك نحو الباب ، راجيا أن يكون قد قرر أن يغض الطرف عن اقتراحات الاميرال ، قلت :

— ص ص صدقنى أيها الكابتن ص ص صدقنى يا سيدى ، اننى تلقيت الدرس كاملا ، ولن أهزل بعد اليوم فى موضوع الاتصالات الرسمية ما حييت ، فقال : انتظر لحظة أيها الفتى ، فاننى افترض أنك تعرف ما اتفقنا عليه انا والاميرال فى موضوع الجزاء الذى يجب أن تلقاه .

— كلا يا سيدى .

واستخرج من تحت مجلد « القانون الحربى » بعض الاوراق وقال :

هذه نتيجة خزعبلات هذا الصباح ، فمن الضرورى جدا أن تصل هذه الاوراق الـــى مكتب البريد لتوزع على عجل ، لقــد فحصناها ووجدناها تامة وصحيحة ولكننى أود منك أن تصححها بنفسك ، لانها تتعلق بــك .

فمددت اليه يدى ، كما لو كنت أتناول بها أوراق الحكــم باعــدامـــــى .

قال الكابتن : ان الزورق البخارى على أهبة نقلك الى مكتب البريد ، فاسرع بركوبه ، واقرأ الاوراق جيدا ، واذا وجدت بهــا بعض الحقائق غير صحيحة فان الاميرال يأذن لك ، كما أذن لك أن تصححها بخط يدك ، ثم ناولنى الاوراق وهو يقول : اسرع فان مكتب البريد سيقفل بعد عشرين دقيقة ، فعدوت وقفزت السلم وأنا القى بنفسى فى الزورق البخارى الذى انطلق بى الى مكتــب البريـــــــد .

فلمـــا فحصت الاوراق وجدتها تتكون من ثلاث رسائل : الاولى للاميرال والثانية لوكالة بيع المنازل ، والثالثة للسيــــــد جونجاليس ، وكانت كلها تتكون من نسخة واحدة فيما عــــدا العنــاويـــن جــاء فيهـــا :

سيــــــدى :

انك تعرف مدى ولوع ضابط الاتصال فوق سفينتى بالتحدث عن أكاذيب أبريل ، وايقاع الناس فى أحابيلها سنة بعد أخرى ،

ولذلك فاننا نشكرك على تعاونك معنا فى سبيل ايقاعه هو نفسه فى أحابيلها ، واذاقته طعم حلاوتها فى السنة الحالية . . .

وتقبل عظيم تقديرنـــا .

وتحمل الرسالة كلا من توقيع أمير ال القاعدة وربان السفينة الكابتـــن سوينـــــى .

الربـــاط **عبد المجيد ابن جلون**

سفارة انطوني شيرلي إلى المغرب
وعلاقتها بالتدخل الأوربي في منطقة الخليج

د. عبد الهادي التازي

هناك حدثان بارزان اثارا أنظار الدول الكبرى الى المغـرب الاقصى فى أواخر القرن العاشر ، الهجري ـ السادس عشر الميلادي ، أولهمـا الهزيمة المنكرة التي الحقها الجيش المغربي بالجيش البرتغالي فى المعركة المعروفة بموقعة وادي المخازن التي لقي فيها مصرعه دون سباستيـان ملك البرتغال والتي كانت فى الواقع هي بداية نهاية الاستعمار البرتغالي فى شتى جهات المعمور وبخاصة فى منطقة الخليج .

أما الحدث الثاني أن المغرب استطاع ان يقطع الطريق على المـد التركي نحو بلاده أو بالاحرى نحو محاولة العثمانيين فتح نافذة لهـم على المحيط الاطلسي ، الامر الذي كان سببا فى عراك غير مباشر بين المغرب وتركيا ادى فى النهاية الى الاجهاز على امبراطورية بكاملهـا ، أعنـي امبراطورية سنغاي التي كانت تصيخ بأسماعها ـ دون ما تبصر ـ امخطط القسطنطينية الرامي لتطويق المملكة المغربية ...

وبذلك أي بذلك الموقف الصارم من المغرب نفسر توالي السفارات على بلاد المغرب من مختلف جهات العالم التي كانت تنشد صداقة المغرب

ومودته بل وتطلب اليه العون على مشاكلها ومتاعبها ! كما اننا نفسر بذلك وجود عدد من السفراء المغاربة فى عدد من العواصم التي كانـــت آنذاك محورا للسياسة الدولية .

ولا بد أن اشير فى هذا الصدد الى أن الملكة اليزابيث الاولى عندما كانت تخطط للوصول الى الهند جعلت فى أبرز مشاريعها أن تفاتح ملـــك المغرب أحمد المنصور السعدي الذي بعث سفارة الى لنـــدن برئاســـة الكاتب عبد الواحد عنون للتفاوض فى شروط التعاون ...

ان العاهل المغربي ،وهو يعمل على تصفية ثغوره من بقايا الاستعمار ليس مستعدا لان يقذف بقواته فى مجاهل الدنيا دون مقابل ...

وبالرغم مما لهذه المفاوضات من علاقة بالوجود الانجليزي بالهنـــد ومنطقة الخليج ، فاني سأقصر الحديث بهذه المناسبة على تحرك دولـــي آخر كان منطلقه هذه المرة من دولة فارس وبالذات من الشاه عباس الكبير ويتعلق الامر بالبعثة التي أرسلها الشاه المذكور الى البلاد الاوربية والتي انتهت على ما تؤكده المصادر الاجنبية ، الى بلاد المغرب ، الى العاصمـــة مراكش حيث اجتمعت هناك بسيد البلاد على ذلك العهـــد .

ان المراجع التي تحدثت فى تاريخها للخليج عن بعثة السير انطونى شيرلي الى أروبا أهملت لسبب أو آخر الحديث عن وصول شيـــرلي الى المملكة المغربية واتصاله فعلا بأعلى سلطة فى البلاد ..

فمن يكون السير انطونى شيرلي ؟ وما علاقته ببلاط الشاه ؟ وماذا عن مهمته بأروبا ؟ وهل ان مهمته فى المغرب هي نفس مهمته فى أوربا ؟ ثم هل نجح السير انطونى فى الفرض الذي ورد من أجله ؟ تلك هي الاسئلة التي أحاول أن أجمل الكلام عنها باختصار فى هذا الغرض ...

يعتبر شيرلي من الاسر الانجليزية المعروفـــة ومن ذوي المكانـــة العسكرية المرموقة ، ولذلك نراه يعنى بمصالح تجار جلالـــة الملكة فى الشرق ، وهكذا وبتعليمـــات من الكونـــت ديسيكس (D'Essex)

غادر البندقية (Venixe) يوم 29 مايه 1599 صحبة أخيــه روبيرت ومع خمسة وثلاثين من أتباعهما الى فارس على صهوات الجياد وفى أفخم مظهر حيث قدموا أنفسهم للشاه عباس الكبير يلتمسون شرف خدمتــه كخبراء متخصصين ...

وبالرغم من أن السير انطوني شيرلي لم تكــن له صفة مبعــوث دبلوماسي من جهة ما من الجهات ، بما فيها انجلترا وطنه الاصلي ، فان الاهداف الحقيقية كانت ترمي من جهة الى حث الشاه على التحالف مــع القوى المسيحية فى أروبا ضد الاتراك ، ومن جهة أخرى فانها كانــت تقصد الى تعزيز التعامل التجاري مع انجلترا .

وقد استطاع شيرلي بما أوتيه من حنكة ودهاء وبما قدمه من خدمة جلى للعسكرية الفارسية ، استطاع أن يلتحق بلائحة الدبلوماسيين الذين اعتمدهم الشاه للقيام بمهام سياسية لدى عدد من الدول الاوربية ولدى المملكة المغربية أيضا على ما يبدوا لي من خلال تحركات شيرلي ...

وحسب ما يذكره السير مالكولم (MALCOLM) فان أوراق الاعتماد التي سلمها الشاه عباس الى أنطوني شيرلي ربما كانت فريدة من نوعها ، فقد وجهت الى حكام أروبا الذين أهاب بهم العاهل الفارسي الى قبــول صداقته « ... اذا جاءكم هذا السيد أيها الامرأء المسيحيون ــ تقــول رسالة الاعتماد ــ فأرجو أن تثقوا به وتصدقوا كل ما يطلبه اليكم أو ينقله عنــــي ... »

وفى هذا الوقت بالذات منح الشاه عباس كثيرا من الامتيــازات المهمة للتجار المسيحيين الراغبين فى ممارسة نشاطهم التجاري فى دولة فارس على نحو ما كان الشاه عباس قد فعله سابقا مع التجار الانجليــز بحيث يصح القول ان صفحة جديدة قد فتحت فى تاريــخ العلاقــات الفارسية الاروبية على ما تفصله بقية البنود الواردة فى رسائل الاعتمــاد والتي أوردها السير أرنولد ويلسون

وهكذا اتجه السير انطوني شيرلي نحو دول اوروبا عن طريق موسكو التي منحته سائر التسهيلات للمرور بأرضها في اتجاه العالم الغربي ... ولقد استقبل في براغ سنة 1600 من طرف الامبراطور رودولف الثاني ثم استقبل في السنة الموالية في روما من طرف البابا كليمان الثامن بيد ان الملكة اليزابيث عارضت في دخوله الى انجلترا لاسباب تتعلق بسمعة (بريستيج) انجلترا حيث ان الملكة – فيما يقال – لم ترض عـــن سلوك شيرلي الذي سلم في وطنه ليعمل سفيرا لدولة أخرى ... وهكذا نجــده يعود الى البندقية سنة 1602 ليعرض على الحكومة الاسبانية مساعدته ، ثم يرجع عام 1605 الى براغ ليلتقي مرة أخرى بالامبراطور رودولف الثاني الذي نراه يعهد بمهمة اضافية في بلاد المغرب الى هذا المغامر الــذي رأينا تداخل سفارته وتعدد مغامراته ...

ومن غير ما أن نتتبع خطوات شيرلي بدقة في دول أروبا نحاول أن نعرف عن يومياته ونشاطه في المملكة المغربية وهو الامر الذي ظل مكتوم الانفاس مجهول الاصداء لدى الذين اشتغلوا بسفارة شيرلي وخاصة ممن يهتمون بتاريخ الشـــرق .

وقبل هذا لا بد ان نلتفت قليلا الى منطقة الخليج لنشهد اجهـــاز البحرينيين والقطريين نهائيا ، وبمساعدة أمير شيراز ، على البرتغال في مطلع القرن السابع عشر ، ونشهد كذلك رفض أمبراطور فارس لاحتجاج البرتغال على مساندة شيراز في انضمامها لحركة الثورة ضد الفلول الباقية من الوجود البرتغالي ، ولنشهد أخيرا اقدام الشاه عباس الكبير على أخذ (جرون) بندر عباس الحالية لتقليص سيطرة البرتغـــال على الساحـــل الفارســـي أيضـــا ...

والى جانب هذا العراك المشترك بين العرب وفارس من جهة وبين التسلط البرتغالي من جهة أخرى لا نغفل أمر تلك الحملات الساخنة التي شنها الشاه عباس ضد امبراطور القسطنطينية منذ مطلع القرن السابـــع عشر ايضا حيث كان يأمل التخلص من تهديد الاتراك واقصاءهم ليجعل حدود مملكته على مقربة من الممالك المسيحية التي لا يخشى تهديدها ...

ويستخلص من كل هذه المشاهدات ان منطقة الخليج بعد أن أجلت البرتغال ، الى غير عودة ، بقيت متخوفة من عنصر جديد ... ولم يكن هذا العنصر غير الاتراك الذين كانوا فعلا يتوقون الى كسب مواقع أكثر في المنطقة . الم نسمع عن انتزاع السلطان سليمان القانوني لبغداد من أيدي الفرس وشروعه في التخطيط لبسط نفوذه على الخليج ؟ ألم نسمع عن اضطدامه المستمر بالقوات البرتغالية أيضا ؟ ثم ألم نسمع عن اتخاذه قطر منطلقا لغزو البحرين أواسط القرن السادس عشر ؟

ومن هنا سهل علينا ان نتأكد بأن سفارة شيرلي الى أوروبا والى المغرب بصفة خاصة كانت تستهدف اشغال الاتراك وارباكهم هنا وهناك ، بهدف تطويق طموحهم ...

لقد كان الاتراك ملتزمين بمقتضى الاتفاقية التركية الفرنسية عام 1534 التي أبرمت بين السلطان سليمان القانوني وملك فرنسا فرانسوا الاول في أعقاب خلاف وراثة العرش ... كانوا ملتزمين بالوقوف الى جانب فرنسا في مقارعة اسبانيا ، ومن ثمت فان فرنسا تصيخ باسماعها لكل ما يتصل باسبانيا من قريب أو بعيد .

وقد كان امبراطور ألمانيا رودولف الثاني على احتكاك متوال مع الاتراك ولذلك فانه يهمه أيضا أن يتقفى خطواتهم ويتقرب الى خصومهم ..

ومن جهة أخرى فان المملكة المغربية كما اشرت من ذي قبل ظلت الصخرة التي تحطمت عليها كل أماني العثمانيين في محاولة توسعهم على الارض المغربية .

ومن هذه المنطلقات كلها سنكشف كثيرا من اسرار الصراعات التي كانت تجري في مختلف جهات العالم ، ومن هذا المنطلق ايضا كان علينا أن نبحث عن أهداف سفارة شيرلي ليس فقط في أرشيفات طهران واسطامبول ولا لندن ولكن ايضا في بلاد المغرب ، في اسبانيا وفرنسا وألمانيا ...

لقد وصل السير انطوني شيرلي الى مدينة اسفي (من المملكة المغربية) يوم 2 أكتوبر 1605 صحبة ثلاثة عشر من رفاقه ينتمون لمختلف الجنسيات حيث اقام في هذه المدينة نحوا من اربعة شهور على حال من السخاء

والبذل والكرم يلبس افخر الثياب ويمتطي اجود المطايا ، الامر الذي أثار انتباه المواطنين المغاربة والجاليات الاجنبية المقيمة بالبلاد .



رسم للسير شيرلي

وهكذا عنى الناس بمعرفة الاهداف التي ورد من أجلها الى المغرب لمقابلة السلطان ابي فارس عبد العزيز ابن السلطان احمد المنصـــور فى مدينة مراكش ، فمن قائل انه عهد اليه من طرف الامبراطـــور رودولف ليتوسل لدى العاهل المغربي من أجل ان يقطع صلاته بقداسة البابا ..؟(1) ومن قائل انه ورد مبعوثا من طرف فيليب الثالث ملك اسبانيا من أجـــل اقناع ملك المغرب بعقد حلف معه ضد الاتراك الموجودين على ساحـــل الشمال الافريقي والذين يعملون لمصلحة فرنسا بمقتضى اتفاقيتها مـــع الباب العالي على ما أسلفنا ...

❋ × ❋

وتصدر الاوامر لسفارة شيرلي بالانطلاق من اسفي الى مـــراكش العاصمة حيث دفع الغرور بالسفير أن يدخل حرم القصر وهو ممتـــط صهوة جواده ، الامر الذي تمنعه التقاليد المغربية التي كانت تفرض على السفراء الاجانب أن يقابلوا العاهل المغربي حفاوة الاقدام جوابا على طلب البلاطات الاروبية من السفراء لمغاربة أن يخلعو عمائمهم عند مقابلة رئيس الـــدولـــــة !

وبدافع من مجاملة لم يطلب من السفير شيرلي ان يترجل ، لكـــن البادرة سجلت عليه ولم يسمح له بتعدي الحدود فى المرة القابلة .

(1) لقد كان مما كتبه شيرلي مخاطبا الامبراطور ، فور نزوله باسفي : ((انكم تنعمون لدى ملـــك المغـــرب بسمعـــة عظيمـــة ..))

وتذكر التقارير الدبلوماسية ان السير أنطوني شيرلي تطــرق فى حديثه مع ملك المغرب الى الاحداث العالمية الحاضرة كما تناول معـــه حديثا عن شؤون المغرب الداخلية وربما عرض خدماته أيضا على العاهل المغربي ... وقد سجل لقاء آخر مع السلطان ابي فارس لأخذ الجـــواب عما ورد من أجله وعاد من ثمة الى اسفي حيث نراه يبحر الى اسبانيا فى نفس سنة 1606 عبر لشبونة قاصدا نابولي فى السنة الموالية ثم براغ حيث نال لقب كونط الدولة اعترافا له بما حقق من نجاح ، على ما قبل ، فى مهمته بالمملكة المغربية ، وذلك قبل أن يعود الى مدريد بصفة نهائية ...

أمامنا عدد من الوثائق المعاصرة التي تلقي الضوء عن أنطوني مبعوث انجلترا الى الشاه عباس الذي بعثه سفيرا عنه لدى الدول الاروبية التي استخدم بعضها ايضا السير انطوني مبعوثا لدى مملكة المغرب التي كلفته هي الاخرى بمهمة رابعة !

نحن أولا امام رسالة مرفوعة من مدينة مراكش بتاريخ 16 دجنبـــر 1605 من طرف بيتر ميرتانز كوى (P.M. Coy) الى الولايات العامـــة (هولاندا) حول الحالة فى المغرب يخبرها بوصول شيرلي الى أسفـــي سفيرا للامبراطور الالماني — على ما تقول الرسالة — وتضارب الآراء حول الغرض من زيارته ، وان أهم ما فى هذا التقرير هو الانطباع الذي رفعـــه الوكيل الهولاندي الى بلاده حول ما اذا كان غرض شيرلي هو الحصول من المغرب على اتفاق يهدف لطرد الاتراك عن الجزائر وتونس ... ان (كوى) يؤكد ان اقتراحا من هذا القبيل لا يمكن أن يقابل من العاهل المغربـــي الا بالرفض التام . والواقع أن الدبلوماسية المغربية كانـــت لا تستجيـــب لاغراءات الدول الاروبية بالامبراطورية العثمانية ولهذا لم يسجل التاريخ أي نوع من أنواع الاتفاق ضد العثمانيين ولم يسجل أي احتكاك للمغرب بهم الا عندما يتعلق الامر بايقاف زحف ضد أراضيه أو عدوان يهدف للنيـــل من سيادتـــــه ...
واذا ما عرفنا ان صلة المغرب بهولاندا كانت هذا العهد من المتانة بمكان ، عرفنا اذن مدى صحة التقرير الذي رفعه الوكيـــل الهولانـــدي (كـــــوى) ...

وقد حمل تقرير (كوى) عنصرا آخر ، ذلك أنه يكشف أن البلاط الانجليزي كان على علم من مجيء (شيرلي) بدليل أنه ورد مزودا بعدد من التوصيات المكتوبة من لدن بعض الكبراء الانجليز ...

* × *

وبعد هذا فنحن أمام رسائل معاصرة أخرى كتبها الدبلوماسي الفرنسي الدكتور أرنولت دوليسل (A . De LisLe) أثناء مهمته الثانية بالمغرب كوكيل للعاهل الفرنسي هنري الرابع ، وهي محررة بعد وصول الدبلوماسي الفرنسي الى أسفي بتاريخ 20 يناير 1606 ومرفوعة الى مستشار الدولة الفرنسية وكاتب قيادة الملك دوفيلروى (De willesay) ويتجلى من الرسائل التي كتبها دوليسل ان فرنسا كانت أكثر اهتماما بتحركات (شيرلي) وأن وكيلها كان أكثر تتبعا لخطوات هذا الدبلوماسي نظرا لصلة مهمته باسبانيا خصم فرنسا ...

« ان شيرلي – يقول (دوليسل) – ورد على المغرب مصحوبا بمبلغ ضخم من الاموال ، وبعدد مهم من الهدايا فيها طائفة من الاحجار الكريمة ، وهو ينفق بسخاء ذات اليمين وذات اليسار مما جعلني أعتقد أن للامبراطور مقاصد أخرى بهذا البلد ... وقد قمت – يقول الدبلوماسي الفرنسي – بزيارته بواسطة أحد السادة : دومارسي (de marsseilles) فعلمت أنه مر باسبانيا وأقام مدة بقادس ...

لكن الاهم من هذا أن الوكيل الفرنسي .. وهو طبيب للاسرة المغربية المالكة – علم بواسطة الاميرة المغربية للا صفية أخت الملك ابى فارس : ان السير أنطوني شيرلي ورد من طرف ملك اسبانيا لتأليب العاهل المغربي ضد تركيا على طول الساحل الافريقي من جبل طارق غربا الى تونس شرقا وسيساعد ملك اسبانيا العاهل المغربي على أن يتنازل هذا للاسبان عن منطقة الساحل بينما يترك له ملك اسبانيا سائر المدن الداخلية حتى تونس !

ويضيف التقرير الفرنسي ان ملك اسبانيا ـ منذ أن ارتبط الاتراك باتفاقيتهم مع ملك فرنسا ـ اخذ يخطط لهذا المشروع وأنه من أجل تحقيقه عدل عن وعده بمناصرة دون سباستيان ملك البرتغال فى وقعة وادي المخازن السالفة الذكر وان هذا المخطط لم يمت بوفاة السلطان عبد الملك وانه عاد بالنسبة لملك اسبانيا بمجرد تربع السلطان أحمد المنصور اخي عبد الملك .

وكما جاء فى تقرير الدبلوماسي الهولاندي السالف الذكر ، نجد اليوم فى التقرير الفرنسي أن هذا المشروع الاسباني استولى على فكر القادة الاسبان الذين كانوا يستغلون طائفة من حوادث الحدود مع اتراك الجزائر ايام السلطان عبد الملك ، يستغلون ذلك لحمل العاهل المغربي على قبول الحلف ، بيد أن ملك المغرب ظل يسوف ويتملص ، وهكذا لم يقم بأى شيء ـ يقول التقرير ـ لصالح هذا الاتفاق سواء من حيث ارسال الرجال او حيث اعداد العدة أو من حيث الاشياء الاخرى ... ان المغرب كما أسلفنا كان غير متحمس للتحالف مع الاروبيين على الاتراك ولو أنه كان بالمرصاد لهؤلاء عندما تحدثهم نفسهم بالتعدي على التراب المغربي ...

وقد كان مما يشجع اسبانيا على مفاتحة المغرب فى هذا المخطط قناعتها بنجاح العاهل المغربي فى تحقيقه نظرا للكره الذي كان يكنه للاتراك سهل عرب الجزائر وتونس ، ونظرا من جهة اخرى لما يضمرونه من ولاء لملك المغرب باعتباره من سلالة الرسول الذي تربطه به آصرة النسب ...

ويضيف الدبلوماسي الفرنسي الى هذا ، أن نجاح مثل هذا المشروع من شأنه أن يضر بمصالح فرنسا بقدر ما هو فى صالح اسبانيا سواء أيام الحرب أو أيام السلام ، ان اسبانيا ستصبح سيدة الحوض المتوسط بساحليه الشمالي والجنوبي .

ومع هذا فان المسيو (دوليسل) يؤكد حسب التجربة التي يتوفر عليها طيلة المدة التي قضاها بالبلاط المغربي ، أن الملوك المغاربة لن يخدعوا أبدا بعروض اسبانيا ...

ويظهر خلال التقرير الفرنسي أن شيرلي كان أثناء مقامه بالمغرب على صلة مستمرة باسبانيا حيث أخبرها عن طريق مدينة الجديدة بوجود الدبلوماسي الفرنسي بالمغرب ، وكانت مدينة الجديدة ما تزال آنذاك تحت الهيمنة البرتغالية الامر الذي يؤكد ان الاسبان المقيمين بالمغرب كانوا يتشككون من وجود الوكيل الفرنسي بل ويعتبرونه موعزا بنسف المشروع الاسباني مما يفسره تفتيش البريد الذي ارسل به دوليسل الى مراكش العاصمة . ويتحدث تقرير الوكيل الفرنسي عن علمه بشكوى وجهت الى البابا ضد وجوده بالمغرب لكنه غير مكترث بهذه الوشاية نظرا لما يقوم به الدبلوماسي الفرنسي من مجهود لتسريح أسرى البابا الواقعين فى قبضة العاهل المغربي الذي يشترط لوساطتي أن ينعم علي ملك فرنسا بقلب سفير الذي يخولنى الحديث باسمكم · يقول التقرير ·

* × *

وهكذا يتبين ان السير انطوني شيرلي كان جادا فى الحصول على حلف يستهدف فى الدرجة الاولى كسر شوكة الاتراك ، وكيفما كان الامر سواء أكان سفير للشاه عباس لدى المغرب أو سفيرا للامبراطور الالماني أو العاهل الاسباني ، فان جواب المملكة المغربية بالرغم من تجشمها لتربص الاتراك ومناورتهم ، كان يتلخص فى أنهم أي المغاربة مهما بلغ الاضرار بهم من جانب العثمانيين ـ فانهم لن يبرموا حلفا ضد اخوانهم المسلمين،وانهم من جهة أخرى قادرون على سحق أي تطلع تركي يستهدف الجانب المغربي ...

ومن هنا نرى ان شيرلي اخفق فى مساعيه اولا واخيرا ومن أجل ذلك فانه لم يعد الى الشرق وظل يتردد بين الدول الاروبية .

غير أنه اذا كان (شيرلي) لم يحقق نجاحا فى مهمته فان اسمه ظل مقترنا بتاريخ بداية الوجود الانجليزي فى مسرح احداث الخليج ومن هنا فان الحديث عن سفارة شيرلي يعني العناية بصفحة بارزة المعالم فى تاريخ تلك المنطقة ...

الربـاط　　　　د. عبد الهادي التازي

محمد العياشي
وجهاده ضد الإسبان والبرتغال
1051 هـ — 1641 م

(صفحة من صفحات كفاحنا الوطني ضد الاستعمار)

د. شوقي عطا الله الجمل

أولا — التعريف بالعياشي والظروف التي ظهر فيها :

العياشى — أو كما يعرف به صاحب نزهة الحادى — هو الفقيه العالم أبو عبد الله محمد بن أبى العباسى أحمد الزيانى ، وقد اشتهر بلقب العياشى . لكنه لا ينتمى الى القبيلة البربرية التى يقال لها (ايت عياش) . وقد كان اماما عالما فقيها مشاركا فى عدة فنون من العلوم . وكان رحمه الله — يجاب الدعوة ، ما دعى الله فى شىء الا يجيب له — شوهد ذلك منه مرارا، وله كرامات كثيرة ، وأهله من قبيلة بنى مالك بن زغبة من العرب الهلاليه (1) .

---

1) انظر :
الافرانى المراكشى ، أبو عبد الله محمد الصغير بن عبد الله بن على الافرانى المراكشى : نزهة الحادى باخبار ملوك القرن الحادى .
ص 104 النسخة الخطية / 222 النسخة الحجرية .

ولا نعرف الكثير عن نشأة العياشى ولا عن تاريخ ميلاده لكن المعروف انه قضى فترة شبابه فى (سلا) ، وتعلم فيها على يد فقهائها وكان من تلاميذ الشيخ (ابى محمد سيد عبد الله بن حسون السلاسى) ومن أتباعه المقربين اليه ، وقد اشتهر بالورع والتقوى والتصوف وذاع صيته ، ويقال ان شيخه السالف الذكر نفسه كان يذيع فى المجالس محاسنه ، ويطيل فى الثناء عليـــه ويدعو له دائما قائلا « اللهم جاز سيدى محمد العياشى أفضل الاجازات ــ وكافئه عنا أحسن المكافآت . . واجعل مكافأتك له انكشاف الحجب عـــن قلبه حتى يكون أقرب الله منه . . . اللهم لا تحرمه توجهه اليك وانقطاعـــه لحديثـــك » (2) .

كذلك وصفه الشيخ الامام أبو عبد الله محمد بن احمد العباسى فـــى شرحه الصغير للمرشد المعين بانه « الولى الصالح ، العالم العامل ، قطب الزمان ، المجاهد فى سبيل رب العالمين ، المرابط فى الثغور مدة عمره ، ذى الكرامات الشهيرة العديدة ، والفتوحات العظيمة الحميدة ، من لا شبه له فى عصره ــ ولا فيما قرب منه ولا نظير ولا معين له على نصرة الاسلام . . . (3)

كذلك أورد الافرانى ــ ما قاله فيه الكثيرون من العلماء ــ ثم ختـــم بقوله : ان ثناء الناس عليه نظما ، ونثرا كثير جدا يطول تتبعه (4) .

وكان ظهور العياشى فى اواخر الدولة السعدية ، فى النصف الاول من القرن السابع عشر (اوائل العقد الثانى من القرن الحادى عشر للهجرة) . وهذا يوضح أهمية هذه الشخصية ، والدور الذى لعبته على مسرح التاريخ بحيث تستحق أن نلقى عليها الاضواء ، فقـــد نهض لمدافعة المستعمريـــن الطامعين فى المغرب وثغوره فى وقت كانت السلطات الحاكمة فى المغرب من الضعف ، والانقسام بحيث اصبحت عاجزة عن أن تتفرغ للجهاد الخارجى ،

---

2) املاق : عبد القاهر بن محمد بن احمد بن الحسن ابو املاق : الخبر عن ظهور الفقيـــه العياشى بهذه البلاد وذكر سبب قيامه بوظيفة الجهاد ص 2 .
3) انظر التعريف بالكتاب ، فى ملحق البحث ــ مع نماذج منه
4) نزهة الحادى : المرجع السابق ــ النسخة الخطية ص 104 ورقمها /41 بوثائـــق الرباط وهى التى سنشير باستمرار لصفحاتها .

بل بالعكس وصل الامر الى التفريط فى الثغور بل ومهادنة المستعمر والارتماء فى احضانه ليؤيد احد المتنازعين على السلطة (5) .

فقد كان انتهاء عصر السلطان احمد المنصور (1012 هـ) ـــ الذى اشترك فى موقعة وادى المخازن الكبرى ، ثم اعقب ذلك بتوجيه جيشه صوب بلاد السودان حيث أحرز الجيش المغربى انتصارات ضخمة ـــ ايذانـــا بانتهاء عظمة الدولة السعدية ، ونذيرا بفترة انحلال وانقسام وضعف اثارت من جديد اطماع الدول الاستعمارية فى الثغور المغربية ، فطمعت فيها اسبانيا والبرتغال ، بل ودخلت انجلترا فى هذا الصراع .

فبعد وفاة المنصور بادر اهل فاس الى مبايعة (زيدان بن المنصور) بمجرد ما انتهوا من دفن الملك الراحل ـــ وكان (زيدان) عاملا على اقليم (تادلا) استصحبه أبوه معه الى (فاس) ثم استخلفه عليها قبل وفاته ولما بلغ خبر الوفاة والبيعة الى مراكش ثارت ثائرة اهلها وراوا فى تصـــرف الفاسيين واستبدادهم بالامر دونهم استخفافا بشأنهم فبايعوا (ابا فارس بن المنصور) استنادا الى أنه كان الخليفة الرسمى لوالده بحاضره ملكه ، وبدلا من أن يسعى ذو المكانة والنفوذ فى تلافى الانشقاق وحل المشكل ـــ تسرع علماء فاس فأفتوا بوجوب قتال المراكشيين عملا بحديث : اذا بويع الخليفتين فأقتلوا الآخـــر منهمـــا .

وهكذا قامت الحرب بين جيشى الملكين الاخويين والتقى اتباعهما على ضفة نهر (ام الربيع) . على أن (أبا فارس) لم يحضر القتال بنفسه فقـــد اناب عنه اخاه الثالث الشيخ (المأمون) بعد اخراجه من السجن فقد كان سجينا فى (مكناس) بسبب قيامه بالثورة على أبيه فقبض عليه وسجنه فى عام (997 هـ) ، بل اشترك فى هذه المعارك ولدا المأمون (زعودة) و (عبد الله). وظل الاخوة الثلاثة (زيدان ، وابو فارس ، والمأمون) يتنازعون الملـــك

---

5) يزخر الارشيف الاسباني بعدد كبير من المراسلات التي تؤيد هذا الاتجاه ، فكثيرا ما لجا المتنازعون اما الى الاسبان او الى العثمانيين فى (الجزائر) لطلب العون والمساندة .
انظـــر : Archivo General de Simancas Estado Legajo 477.

مدة طويلة دون أن يتم الامر لواحد منهم ، فعمت الاضطرابات ارجاء البلاد ، وعانى اهل فاس ، واهل مراكش الكثير من الظلم فقد تعرضوا للنهب والسلب والسجن ، والتقتيل ، فكان كلما استولى احد المتنافسين على احدى المدن اعمل السيف فى رقاب اهلها وسلب اموالهم وسجن نساءهم واطفالهم ؛ ثم اذا خرج وجاء اخوه عمل مثله . وانتهى الامر بان خنق عبد الله بن المأمون عمه (ابا فارس) سنة (1018 هـ) واستقل هو (بفاس) ، وكانت بينه وبين أبيه (المأمون) معارك انتهت بقتل الابن سنة (1022 هـ) — وهكذا دواليك ويذهب الطائع بين رجلى العاصى — كما يقول — صاحب تاريخ الدولة السعدية . وهو مؤلف مجهول — حتى انتهى الامر لزيدان بن المنصور (6) .

انتهى الامر (لزيدان بن احمد المنصور) وان لم تكن له السيطرة الا على (مراكش) فلما مات سنة (1036 هـ) خلفه ابنه (عبد الملك ابو مروان) ، وتكررت المأساة فقد ثار عليه أخواه الوليد ، وأحمد ، واستقل أحمد بفاس ثم قتل ، كما اقتحم الوليد مراكش سنة (1040 هـ) وقتل أخاه عبد الملك وبويع باسم (ابى يزيد الوليد بن زيدان) ولم يكن فى الواقع الا أمير (مراكش) وحدها — لان البلاد المغربية أصبحت فى ذلك العهد بلادا متفرقة الكلمة مقطعة الاوصال ، ثوراتها مستمرة وليس بها راس واحدة بل فى كل بلد راس او رؤوس . وقد شبهها البعض بالاندلس ايام ملوك الطوائف (7) .

ولم يقتصر الامر على الاضطرابات الداخلية — فقد اضافت الظروف الخارجية الى عوامل الاضطراب هذه .

ففى الاندلس كانت اوضاع المسلمين والظروف المحيطة بهم تمثل عاملا آخر له أثره البالغ على المغرب ، فبعد سقوط اشبيلية سنة (1048) اقتصر

---

6) مؤلف مجهول : تاريخ الدولة السعدية الدرعية التكمادرتية (نشره جورج كولان فى الرباط 1353 هـ — 1934 م) . ويرجح ان المؤلف عاصر هذه الاحداث وانه عبر عنها خير تعبير لكنه حرص على الا يذكر اسمه خشية ان يبطش به اصحاب السلطان ممن يعنيهم الامر .

7) Prescott : History of the Reign of Ferdinand and Isabella (1890) p. 467.

ملك الامراء المسلمين فى اسبانيا على مملكة غرناطة حيث بقيت فترة فى أيدى (بنى نصر) ، لكن سقطت غرناطة فى النهاية فى عام (897 هـ ــ 1492 م) فى يد (فرديناند الخامس) وهاجر كثير من المسلمين من الاندلس قبل سقوط غرناطة وبعد سقوطها ، ولجأ عدد كبير منهم الى المغرب ، أما الذين بقوا من المسلمين فى اسبانيا بعد سقوط غرناطة فقد عوملوا فى المبدأ معاملـة لا بأس بها وسمح لهم بالابقاء على ممتلكاتهم ، لكن لم يلبث الاسبان أن ضيقوا عليهم الخناق ، واضطروا كثيرين منهم لاعتناق المسيحية ، وساموا الباقين سوء العذاب ، ووصلت موجة الاضطهاد الى ذروتها فى عهد فيليب الثالث (Philippe III) الذى وصل الى العرش عام (1598) وبتحريض الراهب المتعصب زيمنس (Ximenes) أصدر فى (1609) قرارا بترحيل جميع المتبقين من عرب الاندلس الى المغرب ، وقد استقر بعض اللاجئين مـن الاندلس فى (تطوان) بينما استقر البعض الآخر فى (الرباط) و (سلا) وحصنوا قصبة (سـلا) وبنوا فيها الدور ، والقصور . وفى مستهل القرن السابع عشر ازدحمت (الرباط) و (سلا) بالذات ــ اثر الهجرة الاندلسية الكبرى ــ بهؤلاء الموريسكيين (Moriscos) ودخلوا فى طاعة (زيدان بن المنصـور) ملـك مراكش فأمـر عليهـم القائد (فاضـل الزعـرورى الانصـارى) (8) .

ويحدثنا مؤرخ معاصر لهذه الاحداث هو (أبو العباس احمد بن محمد المقرى التلمسانى) عن نهاية مأساة الموريسيكيين بالاندلس فيقول :

كـان اخراج النصارى اياهم بهذا العصر القريب عام سبعـة عشر والف ، فخرجت الوف بفاس ، والوف أخرى بتلمسان من وهران ، وجمهورهم خرج بتونس ، فتسلط عليهم الاعراب ، ومن لا يخشى الله (تعالى) فى الطرقات ونهبوا أموالهم وهذا ببلاد تلمسان وفاس ، ونجا القليل من هذه المضرة ،

---

8) ملاحظة : كان لفظ (سلا) يطلق على (الرباط) ، (القصبة) و (سلا) ــ قبل مجىء الاندلسيين ، لكن بعد ذلك استرجعت (الرباط) اسمها الموحدى ، ويطلق على القصبة اليـوم (قصبة الودايا) نتسبه الى جيش (الودايا) الذى سكنها ايام السلطان عبـد الرحمن بن هشام العلوى ــ اما (سلا) اليوم فهى ضاحية الرباط .
انظر : محمد حجى : الزاوية الدلائية (1964) ص 170 .

وأما الذين خرجوا بنواحي تونس فسلم أكثرهم ، وهم لهذا العهد عمروا قراها الخالية وبلادها ، وكذلك (بتطوان) و (سلا) و (فيجة) الجزائر . ولما استخدم سلطان المغرب الاقصى منهم عسكرا جرارا وسكنوا (سلا) كان منهم من الجهاد فى البحر ما هو مشهور للآن ، وحصنوا قلعة (سلا) وبنوا بها القصور والحمامات والدور . وهم الآن بهذا الحال (9)

وبالاضافة الى أحداث الاندلس هذه كان هنـاك عامل آخر خارجـى انعكست أثاره على المغرب فى هذه الفترة ـ وهو نشاط الاتراك العثمانيين على حدود المغرب الشرقية ، واتجاه انظارهم بالتالى لبلاد المغرب ، ففـى عام (1518) أعلن خير الدين ـ الذى لقـب بارباروس (أى ذى اللحيـة الشقراء ـ ولاءه للسلطان العثمانى ، وتبعية البلاد الخاضعة له للامبراطورية العثمانية ، ثم أعقب ذلك نجاح العثمانيين فى القضاء على الاسرة الحفصية فى تونس اذ تمكـن (سنان باشا) من اقتحـام (الباستيون) (10) فـى (25 جمادى الاول سنة 981 ـ 3 سبتمبر 1573 م) وأعلن الحاق القطر التونسى بالولايات العثمانية ـ فكان طبيعيا أن يمد الاتراك أبصارهم الـى المغرب الاقصى . وقد مرت العلاقات التركية المغربية فى مراحل متعددة ليس هذا مجال التعرض لها لانها تحتاج لدراسة خاصة ـ لكن نشير الى العلاقات فى الفترة التى تخص موضوعنا . فقد أعقب معركة وادى المخازن (986 هـ ـ 1578 م) صفاء الجو بين الدولتين ، لكن عادت العلاقات الى التوتر حتى أن السلطان (مراد الثانى العثمانى) أعد قوة بحرية كبرى على رأسهـا وزير البحر (علوج) للابحار الى الجزائر ومنها الى المغرب ، لكن أحمـد المنصور أرسل وفدا سياسيا على رأسه الكاتب (أبو العباس أحمد بن يحيى الهوزالى) مع هدية عظيمة للسلطان مراد ، ونجح الوفد فى النهاية فى تصفية الجو ، وفى اقناع السلطان (مراد العثمانى) بأن يرسل للمغرب وفدا للتفاوض

---

9) أحمد المقرى : نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ووزيرها لسان الدين ابن الخطيـب ج 2 ص : 617 (المطبعة الازهرية بمصر 1304 هـ) . ـ والكتاب فى أربعة أجزاء ـ فرغ المقرى منه بالقاهرة فى شهر رمضان (1038 هـ ـ 1628 م) .

10) الباستيون ـ لفظة اسبانية معناها القلعة ، وكان هذا الحصن واقعا خارج باب البحر حيث السفارة الفرنسية الان . (فى مبدأ شارع الرئيس الحبيب بورقيبة) .

بدلا من أسطول للحرب ، فصارت العلاقات بين الدولتين على أتم ما يكون الصفاء والوداد وحسن التفاهم .

لكن الانحلال الذى أصاب الدولة السعدية بعد المنصور السعدى اطمع الاتراك فى المغرب فسعوا لتحقيق احلامهم السابقة واتصلوا بالقبائل المغربية الشرقية ، كما فتحوا أبواب البلاد الخاضعة لسلطانهم لتحتضن الخارجين عن السلطة والطامعين فى الحكم فأصبحت هذه المناطق على حدود المغرب بؤرة تجمع الخارجين عن السلطات الحاكمة وهكذا لعبت مناطق مثل (الجزائر) و (وهران) و (تلمسان) دورا هاما فى السياسة المغربية فى هذه الفترة .

وبالمثل فيما يتعلق بالاطماع الاجنبية فى الثغور المغربية فى هذه الفترة فقد كان مركز البرتغال قد اخذ يضعف ، فسقط حصن سنتا كروز (اكادير) فى يد السلطان (أبى عبد الله الشيخ) فى 12 مارس (1541) ، واضطروا بعد ذلك مباشرة الى اخلاء حصونهم فى (آسفى) و (أزمور) ، ثم اخلوا (أصيلا) فى عام (1549) و (القصر الصغير) بعد ذلك مباشرة فى (1550) — فلم يبق فى أيدى البرتغال سوى (طنجة) و (سبتة) فى الشمال و (الجديدة) فى الجنوب ، وكانت هذه الموانى تعانى ضغطا مستمرا من المغاربة بقصد تحريرها . والدليل على ما كانت تعانى منه البرتغال من الضعف والعجز أن كثيرين من البرتغال نادوا بان الظروف تستدعى أن تقوم البرتغال واسبانيا بعمل مشترك يصون مصالحهما فى المغرب — وقد كتب فى هذا المعنى (Giovanni Battista Gesia) فى 23 أبريل 1576 فذكر « أن الموقف الصعب فى المغرب يجعل من الواجب ان يتخذ كل من فيليب الثانى (Philippe II) ، ود. سبستيان (D. Sebastean) عملا موحدا لوضع ايديهما على المناطق الهامة بهذه البلاد وتقسيمها بينهما (11) .

لكن بعد هذا النداء بعامين جاءت هزيمة (الملك سبستيان) وقتله فى

---

(11) خطاب (Giovanni Battista Gesia) موجود فى :
British Museum - Additional Mss 28359 f. 215.

موقعة وادى المخازن فى (جمادى الثانى 986 ــ 4 اغسطس 1578) حاسمة فيما يتعلق بنفوذ البرتغال فى المغرب .

لكن التطور الذى آلت اليه الامور فى المغرب بعد وفاة احمد المنصور كما أسلفنا ــ أطمعت الدول الاستعمارية الاخرى الطامعة فى الثغور المغربية لتمارس نشاطها فى هذا المجال ، وكانت اسبانيا فى مقدمة هذه الدول خاصة أن كارثة وادى المخازن بالنسبة للبرتغال لم تقتصر على موت الملك ــ لكنها أدت الى ضم البرتغال الى التاج الاسبانى ــ اذ لم يكن لسبستيان وريث للعرش من أسرته ، فانتقلت بذلك الى يد فيليب الثانى بضربة من ضربات الحظ غير المتوقعة ــ الاملاك البرتغالية الغنية على جانبى أفريقيا ــ وبعث هذا الاتحاد الذى تم فى (1580) فى نفس فيليب ملك اسبانيا الامل فى تضخم قوته (12) .

وقد استطاعت اسبانيا فعلا فى ذلك الوقت أن تضرب احدى ضرباتها فبسطت نفوذها فى عام (1614) على المعمورة (المهدية) ــ وهكذا أصبحت تبسط نفوذها على (المعمورة) و (العرائش) و (طنجة) و (سبتة) و (مليلية) . لكن كانت هناك قوة بحرية أخرى تتحدى النفوذ الاسبانى فى البحر المتوسط والمحيط الاطلسى ، وأصبحت لها مصالح قوية فى المغرب وثغوره ــ هى قوة انجلترا . وقد استطاعت قوات انجلترا البحرية فى عام (1588) تدمير الاسطول الاسبانى (الارمادا) ــ لكن تدمير الاسطول الاسبانى وان كان قد أضعف مركز الاسبان لكن المنافسة بين اسبانيا وانجلترا استمرت بعد ذلك ولم تنته الا فى عام (1604) . (13)

اما عن الدور الذى لعبته انجلترا فى المغرب فى هذه الفترة فسنشير فيما بعد الى ما يتعلق منه بالعلاقات مع (العياشى) فحسب .

---

12) فيشر ، هربرت : أصول التاريخ الاوربي الحديث (ترجمة د. زينب عصمت راشد ، د. أحمد عبد الرحيم مصطفى ـ مراجعة د. أحمد عزت عبد الكريم ـ دار المعارف بمصر 1970) ص. ص. 227 ، 228 .

13) فيشر ، هربرت : المرجع السابق ص 229

هكذا وجدت على مسرح الاحداث فى هذه الفترة من تاريخ المغرب — ثلاث قوات رئيسية متنازعة هم الاتراك العثمانيون ، والاسبان ، والانجليز ، وكان على السعديين أن يواجهوا هذه القوى وغيرها من الدول التى كانت تطمع فى الثغور المغربية على البحر المتوسط والمحيط الاطلسى بموقعهـــا المتاز على مشارف الطرق البحرية والبرية المؤدية لداخل القارة الافريقية التى كانت أضواء الاوربيين قد اخذت تسلط بقوة عليها ، وكذا المؤدية للشـــرق بغلاته المطلوبة فى الاسواق الاوربية . هذا فى وقت كانت الدولة السعديـــة تعانى من الانقسام والتطاحن بين أفراد البيت السعدى نفسه بالاضافة الـــى الثورات وعوامل الاضطراب الداخلية .

وفى هذا الجو الصاخب المضطرب ظهر (العياشى) ليحمل لواء الجهاد فكان عليه أن يواجه كل هذه التيارات — وسنرى الى أى حد نجح فى مواجهة كل قوة منها ، والى أى حد وفق .

ثانيـــا : بداية حركة العياشى وموقف السلطات الحاكمة فى المغرب منه :

تردد المراجع التى تصدت للأحداث المرتبطة بالعياشى — قصة رحيله الى (أزمور) لحراسة الثغور المغربية من العدو ولتكون مركزا لجهـــاده مفتتحـــا بذلك صفحة جهاده الطويل — فتذكر أن بعض مشايخ القبائـــــل اهدوا الى شيخه بسلا (الشيخ أبى محمد سيد عبد الله بن حسون السلاسى) يوما فرسا ، فأمر الشيخ باسراج الفرس — ثم اتجه الى العياشى ، فأمـــره أن يمتطى الفرس ويرتحل به الى أزمور قائلا له : « ارتحل عنى الى أزمور ، وانزل على أولاد أبى عزيز ، وجاهد فى سبيل الله ، ولابد لك من الرجوع الى هذه البلاد — وسيكون لك فيها شان عظيم .. » وودعه الشيخ ووضع يده على رأسه وبكى ودعا له بالخير والنصر (14) فقصد العياشى الى (أزمور) ونزل حيث عين له شيخه ، وشرع فيما أمره به من حراسة الثغور من العدو

---

14) املاق — مرجع سابق ص 1

ملاحظة : ردد هذه القصة التى تحاك حول بداية جهاد العياشى اكثر من مرجـــع — ولا ندرى هل هى حقيقية أم من قبيل ما يثار دائما حول اعمال المجاهدين والابطال من قصص خيالية تضفى على اعمالهم هالة من الروحانية والتمجيد .

الكافر بتلك النواحى ، ولم يزل من يومه مثابرا على الجهاد حتى شاع فى البلاد ما هو عليه من التضييق على العـــدو .

ولم تحدد المراجع التاريخ الذى غادر فيه مسقط رأسه ، لكـــن يفهم من تسلسل الاحداث التالية أن ذلك حوالى (1604) . وقد بلغ خبر تضييقه على المستعمرين ، وانتصاره على جيوشهم فى وقائع متعددة الى بلاط السعديين بمراكش ، فكافؤوه بعمالة (أزمور) ليظل شوكة فى جنب البرتغاليين الموجودين فى (الجديدة) يقض مضاجعهم ويبعث فى قلوبهم الرعب والهلع .

ويشير صاحب نزهة الحادى ــ الى أن هذا الامر تم فى عام (1020 هـ = 1611 م) ، فقد توفى فى هذا العام قائد حصن (أزمور) ، فسأل السلطان (زيدان بن أحمد الذهبى) مستشاريه والمقربين اليه عمن يليق بتوليه هذا الثغر والقيام بوظيفته ، فأشاروا جميعا عليه (بالعياشى) ، فكتب لـــه بالتولية ــ فنهض العياشى بأعباء ما حمل به من ذلك على خير وجه وبذل مجهودا فيه وكانت له مدة عمالته هذه لازمور ــ مع أهل (البريجة) وقائع عظيمة ضيق عليهم فيها أشد الضيق حتى أنه منعهم من الحرث والرعـــى والسقاية فى مرافقهم ، وكان يبعث للسلطان زيدان بمراكش بخمس الغنائم التى يغنمها ، وكذا الاسرى من الاعداء ــ فزادت شهرته وذاع صيته (15) .

وكان طبيعيا أن يتضايق البرتغاليون كثيرا من حركات العياشى هذه ، ومن مرابطته الدائمة قرب المنطقة التى يحتلونها ، ولما لم ينجحوا أن يوقعوا به فى ميدان الحرب عمدوا الى المكر والخديعة ــ فاشتروا ضمائر حاشية السلطان زيـــدان بالهدايا والتحف الثمينـــة ليتخلصوا من هذه الشخصيـــة القـــويـــــــة .

ونجحت المؤامرة الدنيئة ، فقد أوغروا صدر السلطان عليه واظهروا له أنه ممن لا تؤمن غائلته ، وأنه يخشى منه على ملكه ، وأنه لو ترك فى هـــذه المنطقة أكثر من ذلك ، فان ساعده سيشتد أكثر وسيكون كغيره ممن خرجوا علـــى سلطانـــــه .

---

15) نزهة الحادي : مرجع سابق ــ النسخة الخطية ص 105 (النسخة الحجرية ص 225)

وكان (زيدان بن احمد) قد أمضى خمسا وعشرين سنة ملكا لم تخل سنة منها من حرب مع خارج على ملكه ، ووصل به الامر فى بعض الاحيان الى أنه ترك مقر ملكه (بمراكش) الى (تلمسان) بالمغرب الشرقى يطلب العون من الاتراك العثمانيين الذين كانوا يحكمون الجزائر — وهكذا كان من السهل التأثير على السلطان السعدى ، واثارة الشكوك حول نوايا (العياشى) عامله فى أزمور ، فجهز زيدان سرية قوية من أربعمائة فارس وجهها الى مدينة (أزمور) للقبض على العامل وقتله ، لكن قائد السرية (محمد السنوسى) كان رجلا ذكيا — علم بجلية الامر ، فبعث الى المجاهد (العياشى) خفية أن ينجو بنفسه ، وأفسح له المجال للخروج الى (سلا) مسقط رأسه وكان ذلك عام (1023 هـ = 1614 م) أى أنه ظل عاملا على أزمور من قبل السلطان (زيدان بن أحمد المنصور) حوالى ثلاث سنوات .

ويذكر صاحب نزهة الحادى — أن الله ألقى فى قلب القائد المذكور الشفقة عليه فبعث اليه خفية يقول : (انج بنفسك) ، فخرج العياشى فى اربعين رجلا من خاصته قاصدا مدينة (سلا) — فلما بلغ القائد السنوسى المذكور مدينة (أزمور) لم يجد له خبرا ، فأظهر العناية بالبحث عنه ، والتفتيش عليه ، وعاقب على افلاته شرذمة من أهل الفحص زاعما أن ذلك مما يجب عليه من المحافظة على أوامر السلطان (16) .

هذا على أن المراجع تشير الى الاضطرابات التى كانت تسود البلاد فى ذلك الوقت ، فقد كان الاسبان — كما أشرنا من قبل — قد احتلوا فى هذا التاريخ المعمورة (17) .

وترتب على ذلك أن أصبحوا يعيثون فسادا فى المنطقة كلها ، فاستغاث اهل (سلا) بالسلطان زيدان ، وبعثوا جماعة منهم اليه بمراكش يطلبون النجدة والمعونة لمدافعة العدو المغتصب ، فلم يجدوه بمراكش لأمر اقتضى غيبته عنها ، فلما عاد صار يعدهم بالنصرة ويمهلهم وهو يهزأ بهم ، ففهم

---

16) نزهة الحادى المرجع السابق ص : 106 ، النسخة الحجرية 226

17) يقع هذا الثغر شمال مدينة سلا على مصب نهر تنبو ، ويطلق عليه أيضا اسم (المهدية)

أهل سلا – كما يقول صاحب تاريخ الدولة السعدية – انه قبض حق البلاد ، كما فعل أخوه الشيخ المأمون (بالعرائش) ، فانصرفوا راجعين الى بلادهم من غير أن ينتظروا منه اذنا أو مشورة – واخذوا فى العدة والحزم والعسة على الاسوار بأنفسهم (18) .

على أن تراخى السلطان عن الوقوف فى وجه المحتلين – شجعهم فتمادوا فى سلب قوافل الاهالى ، فاشتد الخوف وكثر الهرج . وقد صادفت هذه الاحداث عودة (العياشى) الى سلا ، وكان قد ذاع صيته عند الناس لما قام به ضد الاعداء أثناء اقامته فى (أزمور) . وكانت عودته بعد تسع سنين من مفادرته مسقط رأسه ، وكان شيخه (سيدى عبد الله بن حسون) قد توفى ، فلازم ضريحه مدة كان فى أثنائها يفد عليه أهل سلا ، يسلمون عليه ويستنجدون به على اعداء البلاد الذين أخذوا يعيثون فى الارض فسادا . فطلب العياشى من المستجيرين به أن يعدوا العدة للجهاد وكان عددهم قد بلغ اربعمائة ، فخرج بهم العياشى الى (المعمورة) حيث وقعت بينه وبين الاسبان معركة قتل فيها منهم ما ينيف على أربعمائة رجل واستشهد من اتباع العياشى مائة وسبعون رجلا ، ومن ذلك الوقت أصبح الاسبان يلازمون حصونهم ويقبعون وراء أسوار المدن التى يحتلونها ولا يجرؤون على مغادرتها (19) .

على ان هذه الانتصارات ، والتفاف الناس حول العياشى بسلا ، وزيادة اتباعه يوما بعد يوم – أزعجت (السلطان زيدان) بمراكش فبعث الى قائد قصبة سلا (الزعرورى) يأمره بأن يقبض على العياشى أو يقتاله – لكن شيوخ الاندلسيين أنكروا ذلك ولم يوافقوا عليه وتطوعت جماعة منهم لملازمته ليل نهار وحمايته (20) .

على ان لجوء (القائد الزعرورى) الى تجهيز أعداد من الاندلسيين وارسالهم لميادين القتال المختلفة ، أو لاخماد الفتن تلبية لطلبات (السلطان

---

18) مؤلف مجهول : تاريخ الدولة السعدية (نشر جورج كولن) ص 103
19) نزهة الحادى ص 106 (الخطية) ، 226 (الحجرية) .
20) امـلاق – ص 5

زيدان) المتتالية جعلت هذا القائد مكروها من الاندلسيين فلفقوا له التهم ووشوا به لدى السلطان فأمر بالقبض عليه ، وأرسل مكانه مملوكا من مماليكه يدعى (عجيبا) ــ لكن الموريسكيين ثاروا على هذا المملوك وقتلوه ، وأعلنوا خلع طاعة (السلطان زيدان) وأدى هذا لزيادة عوامل الفوضى فى (سلا) فكثر النهب والفساد وقطع الطرقات ، فهرع الناس الى العياشى طالبين منه أن يمسك بدفة الامور ويردع أهل البغى والفسق ــ فقد كان هو الشخصية الوحيدة التى تستطيع أن تقوم بهذا الامر فى ذلك الوقت وأخبروه أنهم يلتزمون بطاعته وأن يكونوا يدا واحدة وأنهم سيقفون فى وجه أية قبيلة تخرج عن طاعته وأوامره ، وكتب شيوخهم بذلك وبايعوه من (تامسنا) الى (تازى) فقبل أن يقوم بهذا الامر ، وشمر عن ساعد الجد والاجتهاد وأظهر الامر بالمعروف ونهى عن المنكر ، واشرقت فى الجو السلاوى أنواره كما يقول معاصروه (21) .

على أن العلاقات بين العياشى و (الموريسكيين) لم تستمر على هذه الوتيرة ، فقد فسد الجو بينه وبينهم ، وانتهى الامر بقتالهم وسنشير الى ذلك ولاسبابه ونتائجه فيما بعد .

على اننا نشير الى أن البلاط السعدى بمراكش لجأ لوسيلة أخرى للايقاع بالعياشى ، فقد أوصى جماعة من الفقهاء لينشروا بين الناس أن جهادهم مع العياشى باطل ، فالجهاد لا يجوز الا مع الامام وباذن منه وكان الهدف من ذلك أن ينفض الناس من حوله .

لكن تصدى فريق آخر من الفقهاء للرد على هذا الادعاء ، فقد أصدر عدد من العلماء منهم الائمة (عيسى عبد الواحد ، وابراهيم الجلالى ، ومحمد العربى الفاسى) ــ فتاوى تؤكد أن قتال العدو لا يتوقف على وجود امام ،

---

21) عبد العزيز بن ابى الحسن بن يوسف مهدى الزنانى : الجواهر المختارة فيما وقفت عليه من النوازل بجبال غمارة (نسخة خطية بوثائق الرباط تحت رقم 1698 / د) ــ ورقة 125 / ب .

فتعاون الناس على الجهاد ورد للظلم ، ووجود المصلحة في ذلك امر واضح لا غبار عليه (22) .

على ان هذا السلاح سلاح التشكيك من بعض المتفقهين في تصرفات العياشي كان من اقوى الاسلحة التى استخدمها خصومه ضده ، وقد احتضن البلاط السعدى عددا من هؤلاء المتفقهين لهذا الغرض ، نذكر منهم على الخصوص الشيخ (ابو مهدى عيسى السكتاني) الذى لقب بقاضي الجماعة بمراكش — فقد اصدر فتوى اتهم فيها العياشي بانه طامع في الملك ، وانتهز فرصة حروبه ضد بعض القبائل الخارجة ، وكذا موقفه من مهاجرى الاندلس — فندد بمقاتلته لهؤلاء المسلمين وعدم اكتراثه بدمائهم (23) .

على أن العياشي لم يأبه لذلك واستمر فيما نصب نفسه له من مقاومة العدو المستعمر لثغور بلاده بالاضافة الى مقاومة وجوه الاعوجاج الداخلى التى يصل اليه خبرها في المجتمع المغربي — فقد تعددت رسائله الى المدن والقبائل في هذا الشأن .

نذكر منها رسالته التى اذاعها على الناس في يوم الجمعة التاسع من محرم عام (1041) ينهى الناس فيها عن استعمال (دخان العشبة — المسمى طاية) ، ومنها رسائله الى أهل فاس في الثالث من محرم (1041) يدعوهم للتعاضد والتعاون ونبذ الخلافات ، ومثلها رسائله الى أهل مكناس يحضهم على احترام المحارم ، وجمع الاعشار الى غير ذلك من الشؤون العامة والرسالة مؤرخة 9 جمادى الثانى (1041 هـ) ، ورسالة الى أهل تطوان بخصوص قاضيهم الذى لا يحكم بالعدل وبما تقضى به الشريعة .. وتاريخها الثالث عشر من رجب 1041 (24) . وهكذا لم يكن العياشي — رجل حرب وقتال تقدم الصفوف في جهاده ضد العدو الاجنبي فحسب — به انه كان مصلحا اجتماعيا يدعو الناس لسلوك الطريق السوى ، كما يدعو الدين

(22) انظر نص فتوى (محمد العربي الفاسي) بهذا الخصوص :
الجواهر المختارة — المرجع السابق ورقة 122
(23) الجواهر المختارة — المرجع السابق ورقة 126
(24) املاق ص. ص. 26 — 33

والشرع ، وكانت له في نفوس الناس مكانة ، ولذا كان المرشد الـــذى يسترشدون به متى غمض عليهم امر أو اختلط شأن، وكانت كلمته مسموعة ونصيحته نافذة ــ وكان هذا سبب حقد أصحاب السلطان عليه وخشيتهم من التفاف الناس حوله ، فنصبوا له المكايد محاولين بمختلف الوسائـــل الايقاع به . هذا وقد حاول الوليد بن زيدان (1040 ــ 1045) بعد مبايعته بالملك اثر موت أخيه (أبى مروان عبد الملك) أن يستميل العياشى الى جانبه فأرسل له يستوضحه أحوال العدو بثغور المغرب ، فرد عليه العياشـــى بخطاب مفصل عن أحوال المسلمين وأحوال العدو بالثغور وتعددت الرسائل بينهما ، وقد افاض العياشى فى هذه الخطابات فى الحديث عن الجهاد وكيف أصبح واجبا على المسلمين بعد أن نزل الاعداء فى الثغور وامتدت أيديهم الى اواسط المعمور ــ وتمثل بخطاب من عمر بن الخطاب الى سعد بن أبـــى وقاص فى هذا الشأن .. (25) على كل ان دلت هذه المراسلات على شىء فهى تدل على أن (العياشى) كان ادرى بأحوال الثغور من السلطان الحاكم نفسه ، وانه فى الوقت الذى ركن السلاطين للاستسلام للامر فان هــذا المجاهد كان يستحث الهمم ويعتبر الجهاد ومنازلة العدو المحتل الثغور أمرا واجبا علـــى المسلمين .

ثالثـــا : صور من كفاح العياشى ضد الاسبان والبرتغال :

تعددت الاشتباكات بين العياشى والمستعمرين الاسبان والبرتغال فـــى (البريجـــة) وقرب (المعمورة) أو ما أطلق عليه (حلق وادى سبوا) ، وبالموضع المسمى (عياشة) قرب جبل الحبيب ، وفى (العرائش) وفـــى غيرها من المناطق التى تمركز فيها المستعمرون فى الثغور المغربية ــ وكانت خسائر العدو فى الارواح والسلاح فى هذه المواقع فادحة فقد اتبع العياشـــى فى حربه هذه نظام العصابات ، فهو يتنقل فى حركاته الجهادية هذه بين المناطق المختلفة يتربص بالعدو ويأخذه على غره أو يرسل الجواسيس ممن هم موضع ثقة المستعمرين فيغرر بهم ــ كما حدث فى موقعة العرائش الثانية اذ أرسل رجلا يدعى (ابن عبود) كان موضع ثقة الاسبان فأوهمهم أن المسلمين بوادى

25) املاق ص. ص. 22 ــ 26 .

العرائش ويمكنهم أن ياخذوهم على غره ، فلما خرجوا الى هذا المكان لم يشعروا الا وقد أحاط بهم العياشي ورجاله الذين كانوا يكمنون لهم فلـم تنج منهم الا قلة ضئيلة حتى أنهم انتقموا من (ابن عبود) هذا الذى كانوا قد استبقوه عندهم بتعذيبه وخلع أسنانه والتمثيل بجثته .

وتعطينا المصادر المعاصرة صورة لبعض الاحداث المرتبطة بهـذه المواقع فيذكر عبد القاهر املاق ــ عن موقعة (البريجة) التى حدثت فى حوالى عام (1020 هـ = 1611 م) انه كانت له مع النصارى أهل البريجة وقائع عظام ــ ضيق عليهم فيها أشد تضييق حتى منعهم من الحرث والرعاية والسقـــايـــــة (26) .

وحين عجز المستعمرون فى البريجة ــ كما ذكرنا ــ عن الوقـوف فى وجهه بقوة السلاح لجأوا الى الايقاع بينه وبين (السلطان زيدان) فبعث قائده (السنوسى) للقبض عليه وقتله فكان خروجه لسلا حيث اتخذها مركزا لكفـــاحــــــه .

ويشير صاحب نزهة الحادى ــ الى غزوة المعمورة الاولى (حلق وادى سبوا) فى عام (1023 هـ = 1614 م) فيذكر أن الاسباب التى أدت لهـذه المعركة تتركز فى كثرة تعديات الاسبان المتمركزين فى (حلق وادى سبوا) على المواطنين ــ فقد قطعوا الطريق على المسلمين من أهل (ســلا) وغيرهم ، وأخذوا يمدون نفوذهم على المناطق المحيطة بحصونهم فاثاروا الخوف والفزع فى قلوب الاهالى الذين استنجدوا (بالسلطان زيدان) فى مراكش فلم ينجدهم فلما استقر العياشى بسلا خرج كما شرحنا فى ربعمائة من أتباعه وكانـت بينه وبين الاسبان موقعة قرب المعمورة قتل فيها عدد كبير منهم واضطروا لان يلتزموا بحصونهم لا يغادرونها (27) .

وقد كانت المعمورة مسرحا لمعارك أخرى بين العياشى والاسبان . وقد تحدث صاحب نزهة الحادى عن (الغزوة الثانية من غزوات الحلق

---

26) املاق ــ مرجع سابق ص 3

27) نزهة الحادى ــ مرجع سابق ص 107 (النسخة الخطية) ، 227 (الحجرية)

من المعمورة بوادى سبوا) ـ فيذكر كيف ضيق العياشى الخناق على الاسبان بهذه المنطقة وحاصرهم وقتل عددا كبيراً وأسر عددا آخر منهم (أحد القباطنة العظماء) افتدى به (رئيس أهل الخزائن) الذى كان قد وقع أسيرا فى أيديهم ـ ولم يذكر تاريخ هذه الغزوة (28) .

وقد وقعت فى منطقة المعمورة هذه فى رمضان عام (1040 هـ) معركة ثالثة حاسمة بين العياشى وأتباعه من جهة وبين الاسبان من جهة أخرى ، وقد ذكر المؤرخون المعاصرون تفاصيل هذه الوقعة التى أطلق عليها بعضهم اسم (غزوة الحلق الكبرى) فقد خرج العياشى فى جماعة من أتباعه وأهل فاس بلغ عددهم زهاء أربعة الالاف مقاتل الى الموضع الذى يقال له (عين السبع) ، ومكثوا فيه ثلاثة أيام ، وكان المستعمرون قد أرسلوا لسلا مسلما مرتدا ليتجسس على أخبار المسلمين بها وأعطوه سلعا يتظاهر ببيعها ، لكن اكتشف المسلمون أمره وقتلوه ، ولما خرج جيش المستعمرين من المعمورة لم يشعروا الا وجند المسلمين قد أحاطت بهم فقتل أكثر من 600 منهم وأسر المسلمون 300 ، ولم ينج الا القليل ، وقد غنم المسلمون بالاضافة الى ذلك غنائم كبيرة . وقد تلقى (العياشى) اثر هذه المعارك عدة رسائل للتهنئة بهذا النصر ، منها رسالة من (محمد بن ابى بكر الدلائى) وقد رد عليه العياشى برسالة مؤثرة يشكو فيها مر الشكوى من تفرق كلمة المسلمين ، جاء فيها :

« سمعتم خبر هذه الغزوة ، وبلغكم من شرحها ما لم يحتاج الى اعادة ، ولا أفتقر الى زيادة وقد قوى الامل فى الله سبحانه أن تكون تلك الغزوة مفتاحا لفتحها (أى لفتح المدينة) فالمسلمون نازلون بعقر دارها ويرسلون الصواعق على أسوارها .. حتى يأذن الله ببوارها وعودها ملك الاسلام .. هذا الذى انعقدت عليه النية .. لكن يا سيدى أين المساعد والامر لا ينهض به الواحد .. والمسلمون ـ جبر الله صدعهم ويسر جمعهم ـ لا يتفق لهم رأى ولا يثبت حتى أن افتراق كلمتهم اضر على الاسلام من اجتماع عدوه ، وبعدهم عن نصرته شر من قرب الكافر ودنوه .. وقد ذهب الاسلام ضياعا

---

28) نزهة الحادى ص 107 (النسخة الخطية) والنسخة الحجرية / ص 227

حتى أن الاسلام لو صور شيخا جاءهم مستصرخا يـا اخوتى يـا معشرى فى الشدة والرخاء .. وهو يستغيث بهم .. لا يغاث ، ويستصرخ لا يكون لاستصراخه انبعاث .. والمشتكى بذلك الى الله والى أمثالكم أهل الله .. والامر بين يشار اليه، والنهار جلى من أن يستدل عليه..(29)» وغزوة الحلق الكبرى هذه ــ كانت غالبا كما يفهم من خطاب العياشى كتبه للسلطان (الوليد بن زيدان) ــ قرب أواخر رمضان عام 1040

ولم يقتصر نشاط العياشى على مناوشة العدو فى ثغر (المعمورة) فقد وقعت بينه وبين المحتلين معركة كبيرة فى الموضع المسمى (عياشة) قرب جبل الحبيب ، قتل فيها من الاعداء نحو 588 ، بينما حفظ الله المسلمين وأيدهم بمعونته ــ كما ذكر املاق ــ واسبل عليهم ستر عنايته فلم يدمـر (يقتل) منهـم أحـد ، واستبدوا بأثـاث الكفار وأسلحتهـم وأمتعتهم وأسلابهـــم (29) .

وقد وقعت فى هذا المكان نفسه (عياشة) موقعة ثانية بين العياشى واتباعه من جهة وبين المستعمرين من جهة أخرى وقتل فى هذه المعركة الثانية التى كانت فى عام 1040 هـ نحو تسعمائة وأسر منهم مثل ذلك العدد واستشهد من المسلمين نحو العشرين رجـلا (30) .

وفى نفس العام (1040) قام العياشى بحملة أخرى على جنود العدو المستقرين بثغر (العرائش) فكمن لهم بجيشه فى الغابات الجبلية بهـذا الثغر ثم باغتهم وأحاط بهم من كل جانب ، ومكن الله للعياشى ولمن معـه من المسلمين من رقابهم ــ كما يقول صاحب نزهة الحادى ــ فطحنوهم طحن الحصيد . وأرسل العياشى بأخبار هذه المعركة الى (السلطان الوليد بن زيدان) بمراكش فذكر له .. أنه خرج من ثغر العرائش ما يزيد علـى

---

29) انظر : سليمان بن محمد بن عبد الله بن محمد على الصهوانى الحسنى : البدور الضاوية فى مناقب أهل الزاوية الدلائية (نسخة خطية بوثائق الرباط برقم 261/د

30) املاق مرجع سابق ص 13

الخمسمائة كافر فما افلت منهم أحد ولا رجع منهم راجع الى ذلك البلد ، وهذا اشهى المراد .. وسيأتى ان شاء الله بكمالها فى محله (31) .

ولا شك فى أن تعدد المعارك بين العياشى والاعداء فى الثغور المغربية فى عام واحد وفى عدة اماكن يدل على قوته وعلى تصميمه على مواصلة الجهاد ضد العدو المغتصب لبلاده ، كما يوضح الخطة التى كان يتبعها وهى مهاجمة العدو فى مختلف الثغور والاماكن التى يحتلها حتى لا يهنأ لهم مقام وهى ما يمكن ان نطلق عليه بلغة عصرنا حرب العصابات (Gorilla wars)

وقد وقعت بينه وبين المستعمرين معركة أخرى (بالعرائش) ، وكان قد وقع اثناء المعركة الاولى فى ايدى المسلمين شخص كان موضع ثقة المستعمرين فلما لمس العياشى منه التوبة وآنس فيه الصدق أخلى سبيله فعاد الى العرائش — فلما سأله المستعمرون عن الموضع الذى ينزل فيه العرب ضلل بهم ، وترتب على ذلك أن وقعوا فى الكمين الذى كان قد نصبه لهم العياشى فتمكن منهم وقتل منهم اعدادا غفيرة (32) .

هكذا كان العياشى — يخرج من معركة ضد المستعمرين ليعد جنده لمعركة جديدة ، فقد كان يعتبر الجهاد ضد العدو — كما ذكر فى خطابه لسلطان مراكش — واجبا طالما العدو يحتل شبرا من ارض الوطن ، وكانت آخر غزواته ضد الاعداء بطنجة سنة (1051 هـ = 1641 م) .

ولا شك فى ان مامكنه من الاستمرار فى الجهاد حتى نهاية حياته هو ما تميز به من قدرة على الهاب حماس المسلمين واثارة حميتهم ضد المستعمر الغاصب ، وان ينظم صفوفهم فى حرب مقدسة حتى اصبحت المنطقة من (الجديدة) الى (طنجة) مسرحا لعملياته ، واصبح نفوذه فى هذه المناطق قويا ومعترفا به من القبائل العربية ، بل كان أقوى من نفوذ السلطات الرسمية فى (مراكش) ، واصبح العدو يقبع داخل حصونه يخشى ان يخرج منها بعد أن كان يعربد فى المنطقة كيفما شاء ، بل سنرى ان الدول الاجنبية

---

31) نزهة الحادى — مرجع سابق ص 108 (النسخة الخطية) ، ص 228 (النسخة الحجرية)
32) نزهة الحادى — ص 108 (النسخة الخطية) ، والنسخة الحجرية ص 228 .

الكبرى كانجلترا حاولت ان تخطب وده لتأمين مصالحها الاقتصادية والسياسية وسلامة رعاياها فى هذه المناطـــق .

وقد ذكر صاحب نزهة الحادى ان جملة من قتلهم من الكفار فى غزواته بلغ تسعة الالاف وتسعمائة . وحتى اذا لــم نأخذ بهذا الرقم لانه من الصعب الوصول لعدد دقيق فى مثل هذه الغزوات ــ لكن لا شك فى انه كبد العــدو خسائر فادحة حتى ان الاعداء كما سنشير فى نهاية هذا الحديث ــ اقاموا الافراح عندما علموا بمقتله .

رابعـــا : علاقـــة العياشى بانجلتـــرا :

كانت لانجلترا منذ منتصف القرن السادس عشر ، وخلال القرن السابع عشر علاقات وثيقة وهامة بالمغرب ، وتحتاج هذه العلاقات ــ كما اعتقد ــ ان تلقى عليها اضواء أكثر خاصة ان هناك عدداً من المصادر الرسميـــة البريطانية تخدم فى هذا المجال ــ وهو ما تناولته فى بحث سابق بمجلـــة المناهل ــ خاصة ان الاهتمام ركز على العلاقات الاسبانية والبرتغاليـــة بالمغرب ــ رغم أن العلاقات الانجليزية المغربية فى هذه الفترة ــ كما يستفاد من المصادر البريطانية وغيرها وصلت الى درجة هامة جدا (33) .

وسنقتصر هنا على ما يخص موضوع البحث فقط .. اى على ما يتصل من هذه العلاقات بالمجاهـــد العياشى .

وقد أثرت فى علاقة بريطانيا بالمغرب فى هذه الفترة عوامل نذكر منها :

---

33) يوجد بمحفوظات المتحف البريطانى عدد كبير من المذكرات المتعلقة بالعلاقات البريطانيـــة المغربية فى هذه الفترة كتبها عدد من السياسيين والسيكوبيين نذكر منها : مذكرات (Antony Shereby - 1622) - (Henry Mainwaring - 1618).

ــ كما يوجد عدد من الكتب المعاصرة نذكر منها :

George Wilkins : The miseries of Barbary : plaque, Famine and civil warres (1604)

John Dunton : A true journal of the Sally Fleet (1637)

1 ـ المنافسة التجارية بين انجلترا واسبانيا :

فقد تطورت هذه المنافسة فى عهد الملكة اليزابث (1558 ـ 1603) فأصبحت حربا سافرة ، ورغم تلونها منذ البداية بشىء من صفة العداء الدينى المذهبى ـ فانها كانت فى جوهرها منافسة اقتصادية ، اذ أن حب المغامرة والمال والتجارة ـ اغرى الشعب الانجليزى الذى اعتاد ركوب البحار أن يتحدى الاحتكار التجارى الذى فرضته اسبانيا ، فقد غدت انجلترا حينئذ أول قوة بحرية فى العالم ـ وكان لديها أمهر صناع السفن ، وخيرة البحارة ، وكانت سفنها أصغر من سفن الاسبان حقا ، ولكنها كانت أكثر منها قدرة على مسايرة الريح ، كما كانت أيسر قيادة . وبالاضافة الى الاسطول الملكى الانجليزى كان يوجد دائما احتياطى كبير من اسطول القراصنة والاسطول التجارى يمكن الاعتماد عليه فى التعاون مع اسطول المملكة فى وقت الشدة (34) .

وكانت أطماع البرتغال فى المغرب قد انتهت الى قيام الملك البرتغالى دون سبستيان بحملته المشهورة على المغرب التى انتهت فى جمادى الثانية سنة 986 (4 أغسطس 1578) بموقعة وادى المخازن التى كانت كارثة بالنسبة للبرتغال ـ فقد اندحر الجيش البرتغالى وقتل دون سبستيان ، وانقرضت أسرته اذ لم يكن لدون سبستيان ولى عهد فورثه خاله فيليب الثانى (Philippe II) واستولى على ممتلكاته ومن جملتها (سبتة) التى وقعت منذ ذلك العهد تحت النفوذ الاسبانى ـ وهكذا انتقلت الى يد فيليب الثانى بضربة من ضربات القدر ـ البقاع الآتية : شاطىء الاطلنطى الممتاز ، ومناجم البرازيل والاملاك البرتغالية الغنية على جانبى افريقيا ، والمحطات التجارية والقواعد العسكرية فى جزائر البهار وجزائر الآزور ، وجزائر الهند الشرقية .

وقد استمرت هذه الوحدة بين اسبانيا والبرتغال ـ او كما يعبر عنها فيشر ـ ذلك (الزواج) المتعب ، ستين عاما (35) .

---

34) فشر هربرت : مرجع سابق ـ ص 221 ، 222
35) نفس المرجع السابق ص 228

وما يهمنا فى مجال حديثنا ــ ان هذه الوحدة ادت الى تضخم قــوة فيليب ملك اسبانيا ــ الامر الذى نظرت اليه انجلترا بعدم الرضى ، وكان من ردود فعل هذا الشعور تعضيد انجلترا لحركة التذمر بين البرتغاليين ضــد الاسبان .

على أن هذا الدور من المنافسة بين الاسبان ، والانجليز ينتهى بتحطيم قوة اسبانيا البحرية الارمادا عام (1588) وان لم تكن هذه الهزيمة هــى الفصل الاخير فى الحرب الطويلة بين البلدين ، فقد استمرت هذه الحرب بعد وفاة فيليب الثانى واليزابيث ولم تنته الا فى عام 1604 . لكن ما يهمنا هنا ان تحطيم هذه القوة الضخمة التى كانت تعلق اسبانيا عليها الآمال ــ ترتب عليه من ناحية الاسبان أن نظروا اليه ، والى سلسلة الهزائم التى منوا بها نظرة صليبية بغيضة ــ فقد عزوا كل هذه الهزائم لغضب الله ، وانعكست محاولاتهم لاسترضاء الله مع المسلمين فى اسبانيا ، فاصـــدر (فيليب الثالث) قراره بطرد البقية الباقية من المسلمين البالغ عددهم حوالى نصف مليون نسمة ، فاضطر عدد كبير من هؤلاء للهجرة الى المغرب ليلحقوا بأسلافهم فى (تطوان) و (سلا) و (الرباط) وغيرها من بلاد المغرب ــ وكما ذكرنا سيلعب هؤلاء دورا حاسما فى أحداث الفترة التى نعالجها وكان لهم مع المجاهد العياشى بالذات موقف سنعالجه فيما بعد .

2 ــ ظهور طائفة من المغامرين الانجليز :

لقد تميز العصر الاليزابيثى ــ باندماج عدد من الشباب البريطانى فى أحلام الرحلات البحرية ــ وكانت تدفع هذه الفئة من الشباب عوامل وأهداف متعددة ، بعضها طيب كالرغبة فى الاسهام فى عملية الكشــف الجغرافى ، وبعضها يرتبط بالرغبة فى اخذ نصيب من ثمار هذه العمليات الكشفية والبحرية ــ فقد أسال لعاب الكثيرين ما كان يقال عن ثروات المناطق المكتشفة حديثا سواء فى أفريقيا أو فى العالم الجديد ، ونادى هؤلاء بالاستعمار وبوضــع الايدى على الموانى والمنافذ الهامة فى البحار التجارية .

وقد ضغط هؤلاء بشدة على الحكومة البريطانية لتسهم في النشاط البحرى والاستعمارى فى هذه المناطق او على الاقل لتكفل الحماية لرعاياها وهم يزاولون نشاطهم مع ثغور المغرب وموانيه (كتطوان) و (سلا) و (الرباط) — وبعض الوثائق والكتب التى نشرت عن رحلات السفن الانجليزية والبحـــــارة والمغامرين البريطانيين لهذه الثغور تكشف لنا بعض الجوانب عن العلاقات الانجليزية المغربية فى هذه الفترة (36) .

3 — ظروف المغرب الداخلية :

وقد اشرنا من قبل للاوضاع التى كان عليها المغرب فى هذه الفترة التى ظهر فيها العياشى — وقد ادركت بريطانيا هذه الاوضاع على حقيقتهـا فرسمت سياستها فى ضوء هذا الفهم لحقائق الاوضاع .

وقد تعاقب على عرش انجلترا فى هذه الفترة ثلاثة ملوك هم : الملكـة اليزابيث (1558 — 1649) ، ثم الملك جيمس الاول (1603 — 1625) ، ثم ابنه شارل الاول (1625 — 1649) . واتسمت سياسة انجلترا خـلال حكمهم جميعا بالمرونة التى هى من مميزات السياسة الانجليزية . فكـان هدفهم الاساسى هو تحقيق مصالح التجار الانجليز وضمان اكبر قدر ممكن لهم من الطمانينة والآمان فى رحلاتهم البحرية ، وفك أسر من قد يقع فى أيدى

---

36) انظـــر :

(1) Richard HaKluyt : Principal Navigations of the English Nation (Tome II).
(2) The travels and adventures of the Shereby brothers. (British Museum - Printed Books), Press Mark 1198 c. 20
(3) Memoire de S. Scott sur la commerce marocain (avril 1938).
(4) Pere Dan : L'Histoire de Barbarie et ses crosaires (1649)
(5) Réception de l'Ambassadeur D'Jouder Ben Abdallah à Londres (British Museum, Printed Books, Press Mark 1434, 1-2 (1637).

القراصنة المغاربة والارتباط مع السلطات الشرعية او نصف الشرعية او غير الشرعية التى بيدها الامر ــ بمعاهدات لتحقيق هذه الاهداف (37) .

والمتتبع للعلاقات الانجليزية المغربية فى هذه الفترة ــ يلمس ان الناحية الاقتصادية بالذات كانت هى العامل الاساسى المسيطر على هذه العلاقات . ومنذ النصف الثانى للقرن السادس عشر كانت السفن التجارية الانجليزية قد بدأت تتجه للساحل المغربى على المحيط الاطلسى حيث الثغور المغربية التى كانت بمثابة المنافذ التجارية ليس للمغرب فحسب لكن ايضا للمناطق الهامة بغرب القارة الافريقية . وحين كان البرتغال أصحاب النفوذ فى (آسفى) و (سانتا كروز) وغيرهما من الثغور المغربية على المحيط الاطلسى ــ كانوا يحتكرون التجارة فى هذه الموانى ويضعون العراقيل امام السفن الانجليزية وغيرها من سفن الدول الاوربية الاخرى .

وكانت لسلع مغربية مختلفة ، ولعل (السكر) فى مقدمتها ــ اهمية خاصة عند بعض الدول الاوربية ومنها انجلترا (38) . وقد ارتفعت اصوات

---

(37) اشتهرت (سلا) بالذات بصناعة السفن ، وباسطولها البحرى ، وترجع هذه الصناعة فيها الى الملك الموحدى عبد المؤمن بن على (1130 ــ 1163 م) الذى أسس دارا للصناعة البحرية بسلا ــ لكن القرصنة البحرية لم تعرف الا فى عهد المرينيين ــ وقد اقدم عليها المسيحيون والمسلمون وكانت نظرة المسلمين اليها انها صورة من صور الجهاد ، وانتشرت على وجه الخصوص فى مدن طرابلس (المغرب) ، تونس ، الجزائر ، سلا ــ وتطورت فى عهد العياشى فأصبح للسلاويين أسطول ضخم للجهاد تسانده وتموله دار لصناعة السفن على ضفاف نهر أبى رقراق ، وكانت هولندة بالذات ــ أعظم دولة بحرية تزود هذه الدار بحاجتها من المواد اللازمة لصناعة السفن . وعمل فى هذا الاسطول السلاوى عدد كبير من الموريسكيين ، وقد أطلق الاوربيون عليهم لفظ قراصنة سلا (Les Crosaires de Salé)
انظر عبد العزيز بن عبد الله : البحرية المغربية والقرصنة (مجلة تطوان سنة 1958 عدد 3 ، 4 وكذلك :
Roger Coindreau : Les crosaires de Salé (Paris 1948) :

(38) اشار كل من الادريسى (548 / 1154 م) وكذا ليون الافريقى فى كتاب (وصف افريقيا) (1526) ــ الى ان كميات ضخمة من السكر تنتج فى اقليم (سوس) بالمغرب ، وأن هذا السكر يتميز عن انواع السكر الاخرى بحلاوته ، وكان ينتج فى معاصر فيمر القصب بين حجري الرحي،ويغلي الناتج والحقيقة اننا نجهل الطريقة التي كانت تستخدم بعد ذلك فى تنقية السكر ، وهل كان الفحم الحجري هو العنصر الاساسي فى لاتنقية أم لا ؟ ــ ومعروف ان الكثير من مزارع القصب كانت مملوكة للاسر المغربية الثرية ويعمل بها مسيحيون من العبيد أو غيرهم . وفى القرن الثانى عشر كان جزء كبير من السكر الناتج يصدر الى (فينسيا) والبلاد الاوربية الاخرى ، وكان من أسباب ثراء السعديين .

الاحتجاج فى انجلترا مطالبة بحرية الملاحة فى الموانى المغربية وحرية التعامل مع السواحل المغربية ، ودارت مفاوضات طويلة بين الحكومتين الانجليزية والبرتغالية بهـذا الشـأن .

وقد اتاح ضعف النفوذ البرتغالى فى المغرب بعد (1578) بالـذات فرصة ذهبية لم تتوان انجلترا عن اقتناصها . وتعتبر فترة حكم أحمد المنصور (1578 — 1603) فترة ازدهار العلاقات الانجليزية المغربية ، وكـان المنصور على علاقات طيبة مع الملكة اليزابيث ، وقد تبودلت الخطابات بين الطرفين على نطاق واسع ، ويفهم من الوثائق المتعلقة بهذا العصر ان الملكة اليزابيث ارسلت بعض الفنيين المتخصصين فى بناء السفن للسلطان السعدى، وقد أصبح من المالوف رؤية السفن التجارية الانجليزية فى الموانى المغربية وكانت هذه السفن تحمل معها من انجلترا الاقمشة وغيرها من المـــواد المصنعة المطلوبة فى المغرب وغيره من بلاد هذه المنطقة من غرب أفريقيا . وتعود محملة بالسكر ، والجلود ، والصمغ ، والتمور وملح البارود ، وتبر الذهب المجلوب من السودان — وكانت كميات كبيرة منه ترد للمغرب خاصة بعد غزو المولى أحمد المنصور للسودان فى عام (1591) . هذا بالاضافة الى القمح والذرة واللحوم (39) .

وكانت الجمارك المفروضة على البضائع الداخلة للموانى المغربية 10 ٪ أما عن قيمة الجمارك التى تؤخذ عن الصادرات فقد كانت قيمتها غير محددة تماما ، وكان عدد من اليهود يقومون بدور الوساطة فى تجارة الوارد والصادر هــــذه .

وقد قدرت صادرات المغرب لبريطانيا فى عام 1575/1574 بما قيمته 28639 جنيها انجليزيا ، وقيمت الضرائب التى حصلت على هذه الصادرات بمبلغ 1431 جنيه انجليزى .

وقد تقدم التجـــار البريطانيون الذين يتعاملون مـــع المغرب بطلـــب لحكومتهم لتأسيس شركة تضم شملهم وتمنح ترخيصا يتيح لها لوحدهـــا

(39) British Museum, Cotton Mss Nero B. xl, F. 298

الاتجار مع المغرب — ووافقت الحكومة الانجليزية على ذلك وتأسست هذه الشركة فى عام (1585) باسم (Barbary Company) ومنحت عقد امتياز من الحكومة البريطانية يعطيها حق احتكار التجارة مع الثغور المغربية (40) . على أن نشاط التجار الانجليز فى الثغور المغربية — اثار مخاوف الدول المنافسة الاخرى خاصة البرتغال ، وقد كانت شكوى البرتغال بالذات من أن التجار الانجليز يبيعون الاسلحة للوطنيين المغاربة فى الموانى القريبة مقابل البضائع التى يستوردونها من المغرب ، وجرت محادثات طويلة فى هذا الشأن بين الدولتين انتهت باتفاق على أن يقتصر نشاط التجار البريطانيين فى موانى المغرب على موانى (العرايش) ، و (اسفى) ، (سانت كروز) والا يتجر التجار البريطانيون فى الاسلحة مع المغاربة (41) .

وفى عام (1577) أرسلت الملكة اليزابيث سفيرا لها لدى ملك المغرب (مولاى عبد الملك) وكانت مهمة هذا السفير (Edmund Hogan) هى رعاية مصالح التجار الانجليز على وجه الخصوص ومحاولة الحصول على مزايا خاصة لهم (42) .

وبعد معركة وادى المخازن (1578) ازداد الشعور فى الدول الاوربية البحرية بالذات بأهمية وجود علاقات لها مع المغرب — الدولة التى أثبتت قوتها والتى تتحكم فى ثغور هامة على البحر المتوسط والمحيط الاطلسى والتى تصدر غلات لها اهميتها لدى الاوربيين .

---

(40) Public Record Office - State Papers Domestic Elizabeth Vol. CLVII N° 85

(41) انظر رسالة تسفير انجلترا فى البرتغال (Thomas Wilson) بتاريخ 27 يوليو 1573 :
British Museum, Harlian Mss 6991, F. 26.
وكذلك بخصوص نصوص المعاهدة المعقودة بين انجلترا والبرتغال :
British Museum, Cotton Mss Nero Bl. F. 167.

(42) ترتب على تحول النشاط البحرى الى طريق (راس الرجاء الصالح) ان اضعف شأن الدول المطلة على البحر المتوسط والتى كانت من أهم مراكز الحضارة فى العصور القديمة والوسطى ، وانتقل ميزان القوى الى الدول المطلة على المحيط الاطلنطي والبحار المؤدية اليه . ويعتبر القرن السابع عشر بالذات قرن هذه الدول المحيطية .

ويبرز اهتمام الانجليز بالعلاقات الاقتصادية والسياسية مع المغرب في هذه الفترة في كتابات الانجليز ، فقد تعدد الكتاب الذين كتبوا يطالبون حكومتهم بزيادة علاقاتها مع المغرب ـ الدولة التي تقع في الطريق الجديد الهند (43) .

وقد دخل سكان الاراضي الواطئة في هذا الصراع ـ كما دخلت اسبانيا ، وهكذا أصبحت كل من اسبانيا ، وهولندا وانجلترا ـ تتنافس في التقرب من (السلطان المنصور) وتحاول كسب وده ، وتفيد المراجع أن الهدايا أخذت تتلاحق من هذه الدول على الملك السعدي بل ومن غيرها من الدول التي كانت تقف من قبل من المغرب موقفا عدائيا ، وازدحمت مراكش بسفراء هذه الدول (44) .

وقد ارادت ملكة بريطانيا أن تطمئن على الوضع بالنسبة للتجار الانجليز بعد معركة وادى المخازن وفي وسط هذا الجو من التنافس الشديد على خطب ود الملك المغربي ـ وأرسلت خطابا بهذا المعنى للملك السعدي (أحمد المنصور) ـ وجاء رد الملك المغربي في (22 ربيع الثاني 974 هـ = 18 نوفمبر 1579 م) يؤكد أن التجار الانجليز الذين سيفدون الى موانى بلاده سيعاملون بنفس روح المودة السابقة ، وذكر أن من عادة المغاربة معاملة التجار من جميع الجنسيات بروح الود ، وان التجار الانجليز بالذات لهم مكانة خاصة في المغرب (45) .

---

43) يوجد في المتحف البريطاني (British Museum - Printed Books)
عدد غير قليل من الكتب التي تتعلق بالتجارة مع المغرب وبنشاط الشركة التجارية (Barbary Company)
التي أسست بقصد رعاية مصالح التجار البريطانيين في المغرب .

44) هنلك قائمة بالهدايا التي اخذت تتدفق على الملك المغربي بعد الانتصار الساحق على البرتغال .
انظر :
British Museum : Cotton Mss, Nero B. 1 F. 229 and 230 :

45) John, Nicholas : The Progress and Public Processions of Queen Elizabeth (1823) p. 288.

وقد رات شركة التجـارة البريطانية التى اشرنا الى انها تأسست لرعاية مصالح التجار البريطانيين فى الثغور المغربية — ان الامر يستلزم وجود ممثل دائم للشركة فى المغرب فاختير هنرى روبرت (H. Robert) ممثلا للشركة فى المغرب ، ووصل الى أسفى فى 14 سبتمبر (1585) ، وأرسل الشريف أحد رجاله لمرافقته الى (مراكش) ورتب له سكنا فخما فى الحى اليهودى من المدينة — وقدم هذا المندوب البريطانى للملك المغربى خطابا خاصا من الملكة اليزابيث بخصوص مهمته (46) .

معـاهـدات بـين الانجليـز والعيـاشـى :

أدت ظـروف الاضطراب التى احاطت بالمغرب بعد وفاة السلطان المنصور ، والتى شرحناها فيما قبل — الى قلق انجلتـرا خاصة بعـد ان كثر تعرض التجار والرعايا الانجليز لعمليات النهب والاسر بسبـب الاضطرابات التى سادت فى المغرب فى ذلك الوقت ، وقد لجأت انجلتـرا لتدعيم علاقاتها مع أصحاب النفوذ الحقيقيين فى البلاد من مختلف الاتجاهات الذين كان يمكن ان يضمنوا لرعاياها الامان والسلامة .

فكان طبيعيا ان تسعى انجلترا للاتصال (بالعياشى) والارتباط معـه خاصة بعد ان أصبح له النفوذ الكامل فى ميناء (سلا) الهام وفى طـول المنطقة الممتدة منه الى (تطوان) — ولذا أرسل شارل الاول (Charles I) جـون هارين (John Harrison) لهذا الغرض (47) .

---

(46) Hakluyt : The Principal Navigations of the English Nation (Edition 1598 - 1600) Tome II - p. 111.

(47) ارسل جون هاريسون(John Harrison) عدة تقارير مفصلة من المغرب وقد اقترح ان يستولى الانجليز على (المعمورة) ، وعلل اقتراحه هذا بانها مكان مناسب جدا لاستقرار التجار الانجليز حتى يتموا صفقاتهم التجارية ، وان المجاهد (العياشى) الذى بسط نفوذه على المنطقة حتى فاس ليس متحمسا كثيرا للاستيلاء على المعمورة خشية ان تعود تركيا فتستولى عليها ، كذلك هناك احتمالات بوجود معدن الفضة فى المنطقة المحيطة بهـا ، بالاضافة الى امكانية زراعة الاراضى الداخلية ، كما ان وجود حاكم مسيحى فيها يسهم فى نشر المسيحية فى المنطقة كلها .
انظر تقريره فى :
Public Record Office - State Papers. Foreign - Barbary States XII Fol. 154-155.

وقام (هاريسون) بالتفاوض مع العياشى وأصحاب النفوذ فى (سلا) بهدف تأمين السفن الانجليزية التى تأتى (لسلا) ولكفالة الاطمئنان للتجار الانجليز الذين يأتون للتعامل مع هذا الميناء المغربى الهام ، وكذلك لفك أسر الرعايا الانجليز الذين وقعوا فى أيدى قراصنة سلا .

وقد نجح جون هاريسون (John Harrison) فى عقد معاهدة مع العياشى تضمنت الضمانات المختلفة التى يريدها الانجليز لرعاياهم وتجارتهم ووقعت هذه المعاهدة بين الطرفين فى 24 شعبان 1036 (10 مايو 1627) (48) .

وقد ارسل العياشى فى رمضان 1036 (17 مايو 1637) خطابا من الرباط الى الملك شارل الاول يذكر له فيه انه رافق فعلا مندوبه جون هاريسون (John Harrison) من (تطوان) الى (سلا) ، وأن الخدمة التى يطلبها ملك الانجليز خدمة بسيطة ــ ويطلب أن يأمره الملك بكل ما يحتاجه ، ويذكر أنه مسرور لاتفاق السلام الذى عقد بين سكان قلعة (الرباط) ، ومندوب ملك انجلترا لصالح رعايا الملك ــ ولتأكيد ما يربط بينهما من علاقات طيبة (49) .

وفى تقرير (جون هاريسون) الذى أرسله لانجلترا يشير الى الخدمات التى قدمها له العياشى ويذكر أن العياشى و (40.000) من المغاربة تحت قيادته هاجموا المعمورة وانهم طلبوا معاونة الاسطول الهولندى لمهاجمة الميناء من البحر ، وذكر أن الاسبان ارسلوا مركبين بالعتاد والجنود للمعمورة لمعاونة حامية المدينة وانهم تمكنوا فعلا من الحيلولة دون سقوطها فى يد قوات العياشى الذى اضطر لفك الحصار الذى كان قد فرضه على الميناء ، ورجع الى (سلا) ومعه المدافع التى كسبها من الاسبان ، وذكر (هاريسون) فى تقريره ان العياشى يرغب فى معاونة شارل الاول

---

(48) Public Record Office - States Papers ; Foreign. Treaty Papers Barbary States A.

(49) Public Record Office - State Papers ; Foreign. Royal Letters. Vol. II, N° 66.

(Charles I) له فى تخليص المعمورة من يد الاسبان لاهمية هذا الحصن ، وترك هاريسون (سلا) على ظهر مركب هولندى فى (20 مايو 1627) متوجها الى انجلترا (50) .

وبعد وصول (هاريسون) الى انجلترا ـ أرسل شارل الاول خطابا للعياشى مؤرخا (12 أكتوبر 1627) ليشكره على المساعدات التى قدمهـا لجون هاريسون فى رحلته من (تطوان) ، ولمجهوداته التى بذلها بعد ذلك لفك أسر الانجليز ولعقد معاهدة الصداقة معهم ويبدى ترحيبه بهذه الصداقة مع المجاهد المغربى ويؤكد رغبته فى استمرار الاتصال والتراسل معـه ومع القواد الآخرين نظرائـه لتوطيد علاقات الود بين انجلترا وبـلاد المغـرب (51) .

وفى تصريح للملك شارل الاول بعد ذلك فى 22 أكتوبر (1628) ذكر الملك شارل الاول انه يأسف لما حدث من بعض البحارة الانجليز ضد بعض الاهالى فى الجزائر وتونس وتطوان وسلا ـ ويتعهد بتوقيع العقـاب على مقترفى هذه الاخطاء حسب القوانين الانجليزية (52) .

ولا ندرى فى الحقيقة ما هى هذه الاخطاء التى يعتذر الملك عنهـا ويأسـف لوقوعهـا .

وقد استمرت العلاقات الطيبة بين العياشى وأتباعه من جهة وبين شارل الاول ، ففى خطاب مؤرخ 20 مايو (1630) يذكر العياشى أن اثنين من القادة بقصبة الرباط هما (عبد الله بن على ، وأحمد بن على البشير)

(50 Public Record Office - State Papers. Foreign Barbary States. Vol. XII. Fol. 129-139.

(51 Public Record Office - State Papers - Foreign Barbary States. Vol. XII. Fol. 142-143.

(52 Public Record Office - Patent Rolls, Charles 1st 2472, N° 10.

نجحا فى اخلاء طرف (195) من الاسرى الانجليز ويشكر شارل الاول على المدافع والمواد الحربية التى أرسلها لهم ، ووعده بامدادهم بالمعـــدات الحربية الاخرى التى يحتاجون اليها ، ويذكر انهم ليسوا حاليا فى حاجـــة لاسلحة جديدة لانهم يعملون لاصلاح القديم وانهم اذا احتاجوا الى شىء سيرسلون بشأنه ويؤكدون أن التجار الانجليز الذين سيأتون لسلا سيعاملون كما لو كانوا فى لندن (53) .

وقد استمرت هذه العلاقات الطيبة بين (العياشى) وأتباعه من جهة وبين الانجليز من جهة اخرى ، واتاح ذلك للتجار والرعايا البريطانيين فرصة مزاولة نشاطهم فى (تطوان) و (سلا) وغيرهما من الموانى التى فى ايدى اتباع العياشى باطمئنان كامـــل (54) .

وحين تسلط الموريسكيون على (تطوان) و (الرباط) وفى (قصبة سلا) وناصبوا العياشى العداء ــ كثر الهجوم على السفن البريطانية وتعرضت مصالح انجلترا ورعاياها فى هذه الجهات للخطر ، ولذا اتجهت انجلترا الى أن تساند البحريـــة البريطانية العياشى فى كفاحه ضد الموريسكيين مـــن جهة وضد (الاتراك) وغيرهم من جهة أخرى (55) .

وأصدر مجلس الوزراء البريطانى فى 15 يناير (1636) أمرا الى البحرية البريطانية بمضاعفة جهودها والسهر لحماية الرعايا والتجار البريطانيين لما يتعرضون له من هجمات وأضرار سواء من السفن التابعة لتركيا أو مـــن قرصـــان ســــلا (56) .

---

(53) Public Record Office - State Papers. Foreign Royal Letters. Vol. II, N° 56.

(54) انظر مذكرة الكابتن (Penne)
Public Record Office - State Papers Domestic, Charles 1st. Vol. CCC XXX - VIII, N° 51.

(55) Public Record Office - State Papers Domestic, Charles 1st. Vol. CCCX LIV, N° 4.

(56) Ibid

وكلف القائد البحرى البريطانى وليم رينسبورو (William Rainsborough) بمهمة حماية السفن التجارية البريطانية التى تعمل فى ثغور المحيط الاطلسى ، ورعاية مصالح البريطانيين فى الثغور المغربية والضغط على السلطات فى الرباط لفك الاسرى البريطانيين . ولتحقيق ذلك أبحر لسلا بالسفينتين انتيلوب (Antilope)) ومارى (Mary)) واتسمت محاولته مع حكام الرباط وسلا بأسلوب يجمع بين المهادنة ومحاولة التفاهم لتحقيق الهدف وهو فك أسرى من وقع فى أيدى قراصنة سلا من الانجليز ، والضغط من ناحية أخرى ملوحا بقوة الاسطول البريطانى التى تستطيع محاصرة الميناء المغربى .. لكن ما يفهم من خطابه الذى أرسله لبريطانيا (غير مؤرخ) أن حاكم الرباط لم يقبل تسليم الاسرى كما أن السفن التى تحت امرته ثقيلة الحركة ، ولذا لا يستطيع تعقب سفن سلا الخفيفة الحركة والتى يقدر عددها ما بين 40 ، 50 سفينة وأنه لذلك يترقب وصول السفينتين الحربيتين الصغيرتين اللتين طلبهما ليمكنه فرض حصار كامل على ميناء سلا ومهاجمة المدينة واخلاء الاسرى ، وقد أرسل خطابه هذا مع سفينة اسبانية كانت قد انزلت بعض التعزيزات للاسبان فى المعمورة (57) .

وقد عقدت فى (مايو 1637) معاهدة أخرى بين العياشى وبين شارل الاول — سلطان بريطانيا وفرنسا وايرلندا — كما تذكر المصادر — وقعها عن العياشى (ابراهيم بن على المغربى الاندلسى) وعن شارل الاول القبطان وليم رنسبور (William Rainsborough)

ومن بنودها : (58)

1 — ان على كل طرف من الطرفين أن يستقبل بالترحاب أتباع الطرف الآخر — اذا حلوا فى أى ميناء من موانيه .

---

57) الخطاب غير مؤرخ — ومرفق به خريطة لميناء سلا :
Public Record Office - State Papers Domestic, Charles 1st. Vol. CCC LIV N° 28.

58) Melbourne Hall (Derbyshire) - Coke Papers Lease 41.

2 ـ أن المارقين في سلا الذين تحاصرهم قوات (سيدى محمـــد العياشى) يعتبرون أيضا خارجين عن القانون فى نظر بريطانيا .

3 ـ علـى كل فريق أن يسرح الاسرى التابعين للفريق الآخر متـى تيسر له ذلك مجانا من غير فداء فاذا يسر الله للمجاهد العياشى فى الاستيلاء على الشرذمة المارقة عن الدين ـ فانه يقوم بفك أسر من فى ايديهم مـن الانجليز مجـانـــا .

4 ـ تمـد انجلترا العياشى بكل ما يحتاجه من آلة الحرب من مدافـع وبارود ، ورصاص وغيـره .

هذا وقد أرسل (William Rainsborough) بعد ذلك عدة تقاريـر من على ظهر سفينة القيادة (Antilope) عن الاحوال فى (ســلا) ، وعن العلاقات بين العياشى والانجليز . ـ ففى رسالة له بتاريخ (19 مايو 1637) يتحدث عن العلاقات الطيبة بين الانجليز والعياشى فهم يمدونه بما يحتاجه من بارود ، ويذكر أن (العياشى) يحاصر الرباط (سلا الجديدة) بـ 20.000 من الخيالة ، لكن ليست لديه قوة برية كبيرة من المشاة ، وأنه قد أطلق سراح الاسرى الانجليز فى (سلا) (59) .

وقد ظلت المشكلة بين الاندلسيين وبين العياشى فترة طويلة ـ كما سنشرح فيما بعد ـ ويبدو أنه لم يتيسر لاى من الفريقين حسم الوضع ، لكن نشير هنا الى خطاب القائد البريطانى (وينسبورى) الذى أرسله من على ظهر سفينة القيادة البريطانية فى مياه سلا الى قائد (سلا) من قبل العياشى وهو مؤرخ (15 يوليو 1637) وفيه يبدى القائد البريطانى اسفه لان المحادثات بين العياشى والاندلسيين لم تنته الى نتيجة بعد ـ رغم طول فترة المحادثات ويعلل ذلك بأنه يبدو أن الاندلسيين يبغون كسب الوقـت حتى يرحل الاسطول الانجليزى الذى يساند قوات العياشى ـ وهو يعرض

(59) Public Record Office - State Papers Foreign Barbary States XIII

ان يرسل مندوبا للعياشى ليعرف اتجاهاته واحتياجاته ويطلب من قائد (سلا) الا يطلق سراح أفراد السفينة التى أسروها للاعداء الا بعد أن يطلقوا هم سراح عدد مماثل من الانجليز الذين فى أسرهم (60) .

هذا على أننا نشير الى أن علاقة الانجليز بالعياشى ظلت قائمة وقوية طالما كان العياشى صاحب النفوذ فى المناطق الهامة الممتدة من (الرباط) الى (تطوان) وما عداها من الثغور التى كان يهم انجلترا تأمين مصالح رعاياها فيها ـــ هذا بالاضافة الى سعى الانجليز لكسب ود أصحاب السلطة من ملوك السعديين ـــ لكن حين انقلب الود والصفاء بين الدلائيين والعياشى كما سنشرح وانتهى الامر بقتل العياشى فى 9 محرم 1051 (21 أبريل 1641) لم يتأخر الانجليز عن الاتصال بزعيم الدلائين (محمد الحاج) الابن الاكبر للشيخ (محمد بن أبى بكر الدلائى) وعقدوا معه معاهدة صداقة شبيهة بمعاهداتهم مع العياشى (61) .

وهكذا اتسمت السياسة الانجليزية ـــ كما ذكرنا ـــ بالمرونة والمراوغة على أن هذه السياسة الملتوية والمتناقضة اغضبت الملوك السعديين بمراكش ، كما أغضبت الدلائين الذين امتد نفوذهم الى الثغور الواقعة شمال أم الربيع .

وكانت انجلترا تضطر من وقت لآخر لارسال مندوبيها لمحاولة علاج الموقف وبحث وسائل تحقيق مصالح الرعايا الانجليز وبالطبع كانت انجلترا تعتمد فى الوصول الى أهدافها على قوة اسطولها قبل كل شىء .

خامسا : علاقة العياشى بالدلائين ـــ ونهاية حياته :

تعرف العياشى لاول مرة على محمد بن أبى بكر الدلائى ـــ كما يغلب على الظن ـــ فى مدينة سلا ، عند شيخهما (الشيخ عبد الله بن حسون)

---

(60) Public Record Office - State Papers Foreign Barbary States XIII

(61) Public Record Office - State Papers Foreign Treaty Papers 1.

فتوطدت عرى الصداقة والمحبة بين الرجلين وظلا يذكران طول حياتهما صفاء المنبع الصوفى الفياض الذى كرعا منه معا (62) .

على أن ما تؤكده المصادر — هو أن العياشى كان يثق فى صديقه الدلائى ويعتز برأيه ويسترشد به فى شتى المشاكل ، ولذا كان ينبىء صديقه بما يعتزم القيام به من حركات الجهاد بل ويطلعه على خططه الحربية .

فحين نكثت بعض القبائل من (أولاد سكير) و (شراقة) — بيعته واعتزم قتالها — بعث الى صديقه محمد بن أبى بكر الدلائى ينبئه بما اعتزم القيام به ، فرد عليه مستنكراً مسلك هذه القبائل التى تنكرت له بدلا من أن تقوم بواجب شكر الله على النعمة التى أسداها اليهم وأسبغها عليهم — وهى كما يقول له — ذاتكم التى نابت عن الامة المحمدية فى أداء هذا الفرض .. الم يعلموا أن الله تعالى لهم محاسب وسائل وأن اتباعك والاذعان لحججك واجابة دعوتك هو لهم عند الله من أرجح المقربات وأعظم الوسائل .. ما دعوت الا لله ولا مضيت يومك وأمسك الا فيما يرضى رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ما كنت أظن أنهم يملكون منك أرضا ولا جدارا .. فان لم يرجعوا لطريق الرشد فاعرض عنهم .. وان كانوا أوفر من حصى البطحاء وأكثر من رمل الدهماء فالله وليك وناصرك (63) .

وكتب محمد بن أبى بكر الدلائى يحض شيوخ القبائل ورؤسائها على الانصياع للعياشى — وجاء فى رسالته بهذا الشأن : « والله لو كان فى ملة النصارى من يفعل فى المسلمين كفعله هو فى النصارى لملكوه رقابهم وأولادهم وولوه أمورهم وحكموه فيها (64) .

وحين علم محمد بن أبى بكر الدلائى — بأخبار انتصارات العياشى على المستعمرين فى العرائش وغيرها بعث اليه يهنئه بهذا النصر ، ويعلن فرحه

---

62) محمد حجى : الزاوية الدلائية ودورها الدينى والعلمى والسياسى (الرباط 1964) ص 146 .

63) املاق — مرجع سابق ص 10
ونزهة الحادى ص 105 — الطبعة الحجرية ص 223 .

64) املاق مرجع سابق ص 12 .

وسروره بالنصر الذى مكن الله به على المسلمين، ورد عليه العياشى شاكرا ويخبره بعزمه على غزو (المعمورة) ويلتمس منه الدعاء بالاغاثة على ما هو بصدده — وجاء فى الخطاب :

« هذا وقد ورد علينا كتابكم المعظم — أثير المحل لدينا كريم الورود علينا مهنئا بغزوة العرائش أعادها الله دارا للاسلام ، ومتضمنا سروركم بذلك وبما كتبه الله تعالى .. وقد قوى الامل فى الله سبحانه وتعالى أن تكون تلك الغزوة مفتاحا لفتحها .. فالمسلمون نازلون الآن بعقر دارها ويرسلون الصواعق على أسوارها حتى تفرق ان شاء الله بكفارها — ويأذن الله عز وجل ببوارها — ويطهرها من أدرانها .. هذا الذى انعقدت عليه النية . لكن يا سيدى أين المساعد والامر لا ينهض به الواحد ، والمسلمون — جبر الله صرعهم — لا يتفق لهم رأى .. حتى أن افتراق كلمتهم أضر على الاسلام من اجتماع عدوه ، وبعدهم عن نصرته شر من قرب الكافر ودنوه .. (65) .

وظلت العلاقات على هذا المنوال وكان العياشى يهدى الى الدلائين بعد انتصاره فى المعارك الحاسمة جزء من الغنائم — ففى عام (1043 هـ = 1633 م) أرسل لمحمد بن أبى بكر هدية عظيمة مع ابنه (عبد الله) وقد اشتملت الهدية على أنواع من الملف والكتان وغيرهما من الثياب الرقيقة الغالية الاثمان حتى أن الشيخ محمد بن أبى بكر الدلائى تعجب من تلك النفائس التى امتلأت بها صناديق عديدة ورأى فى استعمالها ترفا لا يليق بصوفى زاهد مثله فوزعها كلها على الشرفاء والضعفاء والطلبة المقيمين بالزاوية الدلائية ، ولم يحتفظ منها لنفسه ولا لاهله بشىء (66) .

وكانت نظرة الشيخ محمد بن أبى بكر الدلائى للعياشى — كما نستشف من خطاباته التى اوردنا بعض ما جاء فيها من قبل — على أنه مجاهد يقوم بعمل دينى ووطنى — وظل الامر كذلك حتى وفاة (محمد بن ابى بكر) فى عام (1046 هـ — 1636 م) فتولى الامر بعده ابنه الاكبر (محمد الحاج) ، وظل العياشى على اتصال به كما كان مع والده حتى انه حين استغاث أهل

---

65) نفس المرجع السابق ص 17

66) البدور الضاوية ورقة 49 .

فاس بالعياشى من جيرانهم (الحبانية) و (شراقة) الذين دابوا على الاغارة عليهم ـ بعث بهم العياشى الى السيد محمد الحاج مع كتاب يرجوه فيه نصرتهم ـ فما كان من (محمد الحاج) الا أن بعث معهم جيشا عظيما من قبائل البربر ليستعين به العياشى على قتال (الحبانية) ومن معهم من (شراقة) (67) .

هذا على أن العلاقات بين العياشى و (محمد الحاج) الدلائى ـ لم تستمر على هذا المنوال من الصفاء والتعاون ـ فلم تلبث أن انقلبت الصداقة الى عداوة وانتهت بحرب طاحنة بين الطرفين .

والمتتبع لتطور العلاقات بين الطرفين تعتريه الدهشة من هذا التطور العجيب ، ففى رسالة لمحمد الحاج الى العياشى يذكر له :

((ان السعديين ابناء الاجلة الاسلاف الذين هم ملوك المغرب وخلفاؤه .. ارسلوا الينا كتابا أفصحوا فيه بانك جرت عليهم ، وعلى من هو تحت طاعتهم ، وغلبت على القبائل المجاورين لك ، وعزمت على استئصال شأفتهم وانك تزعم أنك تريد الجهاد وليس قصدك الا جمع الاموال ، وتملك البلاد ، واستعباد العباد ، وطلبوا منا اغاثتهم على قتالك ، ومساندتهم على حربك ونزالك .. فقدمنا اليك التشفع بربك قبل أن نبعث من يقوم بحربك دونهم من الاحقاد ويكفيهم الله ما بدا لهم من شرك وصدك ، ونصبحك بجنود لا قبل بها لك ولا لغيرك والسلام .. (68) .

على أن (حادثة الاندلسيين) ، كانت فى الحقيقة ـ كما يقول المثل ـ القشة التى قسمت ظهر البعير فيما يتعلق بالعلاقات بين الطرفين ـ فقد اتهم العياشى الاندلسيين المقيمين على الضفة اليسرى لنهر (أبى رقراق) بممالأة الاسبانيين على المجاهدين .

---

67) املاق ـ مرجع سابق ص 35
والبدور الضاوية ص 210
68) نفس المرجع ص 37

وكان ذلك ــ كما يذكر صاحب نزهة الحادى أثناء (غزوة الحلق الكبير)، فقد كان أهل الاندلس هؤلاء ــ قد كرهوا سيدى محمد العياشى ــ لعرض غير لائق افترضوه عليه فلم يوافقهم عليه فبغضوه لذلك وتحزبوا عليه ، فهادنوا النصارى أثناء (محاصرة الحلق) ، وأمدوهم بالطعام والشراب ، وتصرفوا فى بيت مال المسلمين ، ومنوهم من الرواتب منه ، وقطعوا البيع والشراء عن الناس وخصوا به أنفسهم ــ فبلغ ذلك سيدى العياشى ــ فلما تحقق لديـــه الامر أقام عليهم الحجة وشاور العلماء فى قتالهم ، فأفتى أغلبهم بإباحـــة قتالهـــم .

وقد أفتى (سيدى محمد المقرى الفاسى) بجواز قتالهم لانهم حاربوا الله ورسوله ووالوا الكفار .

وكان الامام (أبو محمد سيدى عبد الواحد بن عاشر الانصارى) ــ قد توقف عن الجواب فى ذلك الامر ــ فلم يدل فيه برأى ــ الى أن رأى بعينيه اهل الاندلس بســـلا يحملون الطعام للكفار ويعلمونهم بعورة المسلمين فحكم العياشى فى رقابهم السيف أياما وحاصرهم وضيق عليهم فقتل من وجده منهم ــ فذهبت طائفة منهم الى النصارى ، وذهبت طائفة اخرى الـــى الجزائر ومنهم من ذهب الى مراكش ، وذهبت طائفة الى (الزاوية الدلائية) تستنجد بأصحابها ورجع مـــن نفى منهم الى اجتماع الكلمـــة والتوبة الـــى الله (69) .

وأرسل (محمد الحاج) يستشفع عنده فى أهل الاندلس الذين استجاروا به ، فأبى أن يقبل فيهم شفاعة ، وأصر على استئصال شأفتهم . فلما رأى أهل الدلاء امتناعه ورد شفاعتهم غضبوا لذلك واجمعوا على عداوتـــه ومقاتلتـــــــه .

ولعل املاق فى وصفه للوضع الذى آلت اليه الامور يعتبر خير تعبير عن الحالة فيذكر: « ان أهل الدلاء حنقوا عليه ــ فعظمت منهم له العداوة،

---

69) نزهة الحادى ــ مرجع سابق ص 108 ، والنسخة الحجرية ص 229 .

وسلبت منهم فى جانبه العروة ، وصاروا يرمونه بما ليس فيه ، ويسمونه باسم (الجاهل السفيه) .. وصانعوا صاحب مراكش فى رسائلهم اليه وبالقوافى زخرف قولهم بذمه واهانته (أ ىذم واهانة العياشى طرف صاحب مراكش) .. والله سبحانه وتعالى واقيه من كيدهم ومنجيه من سوء ما بدا لـه مـن غيهـم » (70) .

وقد أعد (محمد الحاج) الدلائى العدة لمهاجمة (العياشى) فى المناطق التى يبسط نفوذه عليها للقضاء على سلطانه بها ــ فزحف بجيوش كثيرة من عرب وبربر فى أوائل عام (1050 هـ = 1640 م) وملك مدينة (مكناس) ثم اتجه الى (فاس) وحاصرها فهب العياشى لمواجهته ووقعت الحرب بين الصديقين القديمين ، واستطاع العياشى أن يوجه ضربات قوية لجيش الدلائين ــ فأضطرهم لرفع الحصار عن المدينة .

ولجأ الدلائيون الى حيلة لبث الفرقة بين أنصار العياشى حتى تضعف قوته ويمكنهم الايقاع به فجذبوا اليهم بعض رؤساء القبائل التى كانت تناصر العياشى من (الكوادرة) و (التاغى والد خسيس) و (الخلط) وطائفة من الاعراب ، وانتهزوا فرصة انشغال العياشى بقتال الاسبان فى (طنجة) فجمعوا حشودا كبيرة من العرب والبربر شمال نهر (سبو) لتعترض طريقه فى اثناء عودته من قتال الاسبان .. وفوجىء العياشى بهذا الجيش الجرار يعترض طريقه وحاول أن يتجنبهم ويغض الطرف عنهم ــ خاصة أنه كان عائدا منهكا من معاركه مع الاسبان ــ لكن أتباعه أبوا الا أن يتصدوا لمقاتلة أعدائهم فأضطر لمجاراتهم فوقعت معركة حامية الوطيس بين الطرفين فى ضواحى (سوق أربعاء الغرب) فى (أواخر ذى القعدة عام 1050 = 1641) ــ وقتل فرس العياشى تحته فى هذه المعركة ، فلجأ هو الى قبيلة (الخلط) ولم يكن يعلم انهم انحازوا الى أعدائه ــ فأغتالوه فى (عين القصب) التى تقع على بعد 20 كيلو مترا غرب (سوق اربعاء الغرب) وكان ذلك فى (19 محرم 1051 ــ 21 أبريل 1641) ــ وبموت العياشى تفرق أنصاره وخلا الجو للدلائيين فاستولوا على (فاس) و (سلا) و (تطوان) وباقى بلاد المغرب التى كانت تدين بالولاء للعياشى .

---

70) املاق ــ مرجع سابق ص 42

وقد كانت وفاة هذا البطل المجاهد فى هذا الوقت بالذات خسارة فادحة فرثاه عدد كبير بقصائد مؤثرة ، وفى الوقت الذى نظر المسلمون المخلصون الى فقد هذا المجاهد على أنه خسارة فادحة ألمت بالاسلام والمسلمين — فقد ابتهج المستعمرون لزوال هذا الكابوس الذى كان يجثم على صدورهم .

فقد ذكر — صاحب نزهة الحادى — أن رجلا مغربيا بالمدينة المنورة صور الاسلام بعد فقده برجل قد قطعت يده — بينما أقام المستعمرون (الافراح) لمدة ثلاثة أيام حين بلغهم خبر مقتله تعبيرا عن ابتهاجهم بذلك (71) .

هكذا انتهت هذه الشخصية التى لعبت دورا حاسما فى تاريخ الكفاح الوطنى ضد الاستعمار الاوربى فى المغرب العربى فى النصف الاول من القرن السابع عشر .

ولا شك فى أن انتهاء حياة البطل بهذه الطريقة المؤسفة يثير الكثير من التساؤلات ، ولعل السؤال الاول الذى يلح أكثر من غيره هو .. هل حادثة الاندلسيين التى اتخذها (محمد الحاج) وأتباعه من الدلائيين ذريعة لمحاربة هذا المجاهد والتخلص منه — هى السبب الحقيقى لهذا السلوك الغريب من الدلائيين تجاه رجل كان لعهد قريب من أقرب المقربين اليهم ؟

ويصعب على الباحث أن يجيب على هذا السؤال بالايجاب أو النفى لكن لا يستطيع الانسان أن يستبعد أن قضية الموريسكيين قد تكون ذريعة اتخذت ليحقق (محمد الحاج) أطماعا جاشت فى نفسه ، ولتبرير هذا العمل أمام المواطنين وأتباع محمد الحاج الدلائى نفسه . فقد كان (محمد الحاج) قد ثبت اقدامه فى (ملوية العليا) و (تادلا) وغيرهما من البلاد — ولابد أن انظاره اتجهت نحو الغرب وكان العياشى ونفوذه يمثل العقبة الكؤود فى هذا الاتجاه . كما لا نستبعد أن نفوذ العياشى وما وصل اليه من حب الجماهير وتكتلها حوله — قد اثار روح الغيرة عند (محمد الحاج) الشاب الذى ورث مركز ابيه الدينى لكنه لم يكن قد وصل بعد الى ما كان عليه ابوه

---

71) نزهة الحادى ص 109 ، 110 — والنسخة الحجرية ص 232 ، 233

من خبرة وحنكة ورويه يتميز بها الشيوخ عن الشباب ، ولعل استنكاره لعدم قبول العياشى لشفاعته للاندلسيين واعتبار ذلك كبيرة من الكبائر يدل على روح الغرور هذه . وهناك سؤال آخر يتعلق بموقف العياشـــى نفسه من الاندلسيين فهل كانت المصلحة الوطنية والحكمة تقضيان ان يصل الامر الى حد قتالهم فى هذا الوقت الذى كان العدو يحتل فيه الثغور المغربية بينما كانت الاوضاع الداخلية مضطربة كما رأينا والسلطات الحاكمة عاجزة عن مدافعة الطامعين فى ثغور البلاد وثروتها ؟

هذا وقد كان الموريسكيون يمثلون قوة كبيرة فى (تطوان) و (الرباط) و (ســلا) ولا شك فى انهم كانوا يجنحون لان تكون لهم سلطات مستقلة فى هذه الاماكن وقد قدموا للعياشى مساعدات قيمة فقد أمدوه بالرماة والبارود و (الانفاط) فى جهاده لاعداء البلاد (72) .

لكن العياشى كان يطمع فى ادماجهم واخضاعهم لسلطانه نهائيا فاصطدم برغبتهم فى أن تكون لهم شخصيتهم المستقلة المتميزة . . ولعلهم فى سبيل تحقيق هذه الغاية ذهبوا مذاهب شتى ــ فارتبطوا فترة بملك مراكش ــ لكنهــم لم يلبثوا أن نقضوا هذا الولاء وقطعوا صلتهم ببلاط مراكش وأقاموا عنهم عاملا اختاروه بأنفسهم وجعلوه مسؤولا أمام مجلس مختار ، وذهبوا ــ كما اتهمهم العياشى وغيره من المعاصرين ــ الى أنهم مدوا أيديهم الى الاسبان واتصلوا بحامية (المعمورة) وأمدوها بالذخيرة والطعام فى الوقت الذى كان العياشى يهاجم فيه هذه الحامية ويضيق عليها الخناق ــ وكان هذا هو السبب فــى استباحة العياشى لقتالهم .

لكن مع كل ذلك فلعل المصلحة الوطنية كانت تتطلب الا يصل العياشى فى موقفه منهم الى قتالهم فى وقت كان يستلــزم تركيز الجهد ضد العدو المستعمر ــ خاصة انه كان يمكنه استمالتهم والاستفادة منهم فى هذا الميدان ــ وقد سبق أن أسهموا فيه بنصيب ، خاصة أنهم بلجوئهم للدلائيين ليتوسط لهم لديه ــ دلوا على استعدادهم للرجوع للصواب .

---

72) الجواهر المختارة ــ مرجع سابق ورقة 125 ب

ومهما يكن من أمر فان أبا عبد الله محمد بن أحمد الزيانى العياشى يمثل صفحة من صفحات الكفاح الوطنى فى المغرب العربى ضد الاستعمار الاجنبـــــى ..

وهى صفحات مـــا اجدرها ان نلقى عليها الاضواء

واللـــه المعيـــــن .

الربـــاط د. شوقى عطا الله الجمل

في ضمير البحر..

عمر بهاء الدين الأميري

هـرب الـمـد وأمـسـى
صـخـب الامـواج همسـا

وتـراءى الـبـحـر ، قـد
أضفى عليـه الـبـون لبسـا

بـين أسراب سـحـاب
تـغـرس الآفـاق غـرسـا

كتغاضـين جبـين الـدهـر
مـن نـعـمـى وبـؤسـى

***

وتشيع الشمس ، فى
مغربها حزنا وأنسا

وعلى الفضة ، فى رحب
الفضا ، تسكب ورسا

غرق « اليوم » بجوف
اليم ، حتى صار « أمسا »

وتألمت . . . فقد أودعت
بعض العمر رمسا

وتأملت . . . وماذا العمر
واستعليت نفسا

كلما اشتد أوامى
. . . بأمامى أتأسى

وأحيل النور راحا
وهيولى الوحى كأسا

هـائـمـا في مـلـكـوت
الصبـر والايمـان ، أنسـى

غربـة القلـب ، ومـا منهـا
ـ علـى الشـاعـر أقسـى

***

وتـجـاوزت « الأنـا »
جسمـا ، وتفكيرا ، وحسـا

فتـرة . . . لا أمـلا أرجـو
ولا أعـرف يـأسـا

كـشراع . . . في ضـمـير
البحـر ، لا يقصـد مرسى

الـربـاط **عمر بهاء الدين الاميرى**

دراسة حول رسائل ابن العربي والتي تسمى برحلة ابي بكر بن العربي

عصمت دندش

توجد هذه المخطوطة بدار الوثائق الوطنية بالرباط تحت رقم 1020 وهى ضمن مجموعة من ثلاثين ورقة ، منفصلة من الوسط ، ومبتورة من الاول ، والآخر ، مما يتعذر معه معرفة الناسخ ، وتاريخ كتابتها وهى مكتوبة بخط مغربى متوسط الجودة ، والعناوين مميزة بالحبر الاحمر والاصل بحبر أسود . والاوراق ليست فى حالة جيدة ، تكثر بها الثقوب ، ومسطرتها تبلغ 16 سطرا فى الصفحة ، ومتوسط عدد الكلمات فى السطر من 15 الى 18 كلمة ، ويقع الجزء الذى ينشر بين وجه الورقة رقم 27 ، وظهر الورقة رقم 35 ويشمل هذا الجزء من المخطوطة :

أولا : رسالة القاضى ابن العربى الى الخليفة المستظهر العباسى :

يزكى الامير يوسف بن تاشفين عنده ، ضمنها ذكر حال يوسف بن تاشفين وافعاله ، وولاءه للخلافة العباسية ، وسيرته فى الناس ، وطلب فى اثر ذلك من الخليفة استصدار تقليد من الخلافة العباسية لاقرار سيادة ناصر الدين ، وجامع كلمة المسلمين الامير يوسف بن تاشفين على بلاد الذهب

(مما يلى غانه) والمغرب والاندلس ، حتى يقوى أمره ، ويؤيد سلطانه ، كما طلب توصية من الخليفة له ولابنه ابى بكر .

وجاء رد الخليفة المستظهر على ظهر الخطاب فى صورة توقيع ، فى سبعة وثلاثين سطرا ، مؤرخا فى رجب سنة 491هـ (1596 م) وكان التوقيع تمجيدا للخلافة ، وحثا على الطاعة ، وتقديرا لما يبذله يوسف بن تاشفين ، وفى الخاتمة توصية بابن العربى ، وولده .

ثانيا : رسالة وزير الخليفة العباسى محمد بن جهير :

باسم الخليفة نفسه موجهة الى يوسف بن تاشفين كتبت فى الثانى عشر من رجب من السنة نفسها ، وفيها تقدير لما قام به أمير المسلمين ، وناصر الدين يوسف بن تاشفين ، وثناء على حسن رأيه ، وفى نهايتها أيضا توصية بابن العربى ، وابنه .

ثالثا : خطاب الامام ابى حامد الغزالى :

ويتضمن مطلبين لابن العربى ، أولهما استصدار فتوى حول موقف الامير يوسف من امراء الطوائف ، وحقه فى قتال هؤلاء الامراء والظفر بأموالهم ، وحق الطاعة ليوسف بن تاشفين .

المطلب الثانى هو أن يبعث رسالة تأييد لجهاد الامير يوسف بن تاشفين وتأييد سياسته ، ورسالة الغزالى غير مؤرخة ، ولكن من سياق الرسالة يفهم أنها صدرت قبل رسالة الخليفة بقليل .

ولفتوى الغزالى اهمية كبيرة ، اذ أظهرت حق يوسف بن تاشفين فى جهاد ملوك الطوائف ، وأفتى بشرعية حكم يوسف بن تاشفين ، حتى ولو تأخر وصول تقليد الخلافة « فالكتب قد يعوق عن انشائها ، وايصالها المعاذير » (1) وطلب الامام الغزالى من الخليفة سرعة ارسال التقليد .

---

1) أبو بكر بن العربى ، الرحلة ورقة 31 (أ)

اما الرسالة التى وجهها الغزالى الى يوسف بن تاشفين ، فيقص فيها ما سمعه من الفقيه ابن العربى عن جهود يوسف فى جهاد الممالك المسيحية وتبجيله لاهل العلم ، واكرامهم ، ثم يوصى يوسف بن تاشفين خيرا بالامام ابن العربى وولده محمد ، ويشير الى جدهما فى تحصيل العلم .

رابعـــا : رسالة الامام أبى بكر الطرطوشى الى يوسف بن تاشفين :

وهذه الرسالة تختلف عن رسالة الامام الغزالى ، اذ أنها تدور على الوعظ والارشاد ، مؤيدة بكثير من الآيات القرآنية ، والاحاديث النبويـــة والروايات عن الصالحين وأهل الخير ، خاصة الخليفة ابو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وسليمان بن عبد الملك ، وعمر بن عبد العزيز ، كمـــا أنه يستخدم عبارة ((**يــا أبا يعقوب**)) فى مخاطبته ليوسف بن تاشفين ، ولكن المستغرب فى هذه الرسالة ، ما ذكره الطرطوشى من أن يوسف بن تاشفين لبس الناعم من الثياب ، وانغمس فى ملذات الحياة ، مع أن المصادر لـــم تذكر شيئا من هذا ، بل لقد أشارت الى أن يوسف بن تاشفين ظل الى آخر حياته يأكل خبز الشعير ، ويلبس الصوف (2) .

ورسالة الطرطوشى يبدو أنها كتبت فى سنة 493 هـ (1099 م) بعد وفاة ابن العربى والد أبى بكر بعد وصولهما الى الاسكندرية ، اذ أنها لا تتضمن الا توصية بالابن وحده ، فيوجه كلامه الى الامير يوسف بقوله ((**وهو وارد عليك بما يسرك ، فاشدد عليه يدك**)) (3) .

والقاضى أبو بكر بن العربى تلقى تعليمه الاول فى الاندلس (4) ، وعندما

---

2) ابن ابى زرع : روض القرطاس ص 136 ، الحلل الموشية ص 59 .
3) ابن العربى : المصدر السابق ورقة 35 ب .
4) كان تعليمه الاول على مرحلتين : الاولى حفظ القرآن ،وقد انتهت فى التاسعة ، والثانية مرحلة تلقى العلوم الاولية ، بين التاسعة والسادسة عشرة وفيها درس القرآن والنحو معتمدا فيه على أصول متعددة منها كتاب سيبويه وغيره ، وقرأ من الاشعار الستـــة معلقات ، وديوان أبى تمام ، والمتنبي ، وغيرهما ، وقرأ كتبـــا فى اللغـــة ، ودرس المعاملات ، والجبر والفرائض ، وكانت فترة الدراسة اليومية تمتد من صلاة الصبح الى صلاة العصـــر .
احسان عباس : رحلة ابن العربى الى المشرق كما صورها ((قانون التاويل)) الابحاث سنة 1968 ص : 71 ، 72 ، 73 .

غادرها ، برفقة والده كان يخطو نحو السابعة عشر من عمره ، وقد حققت له الرحلة الالتقاء بمشاهير الفقهاء ، والعلماء فى ذلك الوقت أمثال الغزالى ، والطرطوشى ، وغيرهمـــا .

وكان ابو بكر بن العربى موضع احترام والى اشبيلية ، الامير سير بن ابى بكر ، فكان من الفقهاء المشاورين (5) ، لغزارة علمه ، فقصده طلاب العلم من جميع أنحاء الاندلس ، وقد عاش الى عام 543 هـ (1148 م) .

ومع أن عنوان المخطوط هو « رحلة أبى بكر بن العربى » الا أنه لم يذكر فيها تفاصيل الرحلة ، وانما أشار الى أنه سوف يذكر ذلك بالتفصيل فى كتاب آخر يسمى ((**ترتيب الرحلة ، للترغيب فى الملة**)) (7) ومع ذلك نجده قد وصف الرحلة فى كتاب ((**قانون التأويل**)) وهو ضمن مخطوطة تضم كتابا آخر لابن العربى يسمى ((**الامد الاقصى فى شرح أسماء الله الحسنى**)) وقد قام الدكتور احسان عباس بتحقيق ونشر جزء من كتاب ((**قانون التأويل**)) من ورقة (138 أ الى 143 ب) وهو الخاص برحلة ابن العربى من الاندلس الى مصر والشام حتى وصل الى الخليفة العباسى (8) .

ظهرت عدة آراء حول الغاية من هذه الرحلة ، فقد ذكر ابن فرحون أن الغاية من الرحلة هى الحج (10) ، بينما يفهم من كتاب مطمح الانفس لابن خاقان أن ابن العربى وابنه قد رحلا خشية من تغيير الاوضاع فى الاندلس بعد استيلاء المرابطين عليها ، ودخولهم أشبيلية (11) بلد ابن العربى ، والذى كان يتبوأ فيها المراكز العليا ، مقربا فى بلاط المعتمد بن عباد (12) .

---

5) ابن فرحون : الديباج المذهب ص 282 .
6) ابن بشكوال : الصلة ج 2 ص 590 ، ابن فرحون : المصدر السابق ص 281 .
7) ابن العربى : المصدر السابق ورقة 27 أ .
8) احسان عباس : رحلة ابن العربى ، مجلة الابحاث سنة 1968 .
10) ابن فرحون : المصدر السابق ص 281
11) دخل المرابطون اشبيلية فى يوم الاحد 22 رجب سنة 484 هـ 7 سبتمبر (1097) م
ابن أبى زرع : المصدر السابق 155 .
12) ابن خاقان : مطمح الانفس ص 62 .

وقد رجح الدكتور احسان هذا الراى معتمداً على قول ابن خاقان عند ذكره وصف رحيل ابن العربى ، وابنه بقوله ((**فلما اقفرت حمص من ملكهم (بنى عباد) وألقتهم فيها ، وتخلت ، رحل بابنه الى المشرق ، وحل فيه محل الخائف الفرق ، فجال فى أكنافه ، وأجال قداح الرجاء فى استقبال العز ، واستئنافه ، فلم يسترد ذاهبا ، ولم يجد كمعتمده باذلا واهبا**)) (13) .

كما استند الدكتور احسان أيضا على بعض العبارات التى وردت لابى بكر بن العربى فى كتابه ((**قانون التأويل**)) مثل ((**ولم يمكن بأرضنا المقام ، فدعت الضرورة الى الرحلة ، فخرجنا والاعداء يشمتون بنا**)) والعبارة الاخرى ((**فخرجنا مكرمين أو قل مكرهين ، آمنين وان شئت خائفين**)) (14) ، وفسر الدكتور احسان على ضوء هذه العبارات أن ابن العربى ، وولده خرجا للحج ، وهما يزمعان النجاة من حكم المرابطين ، بعد زوال دولة بنى عباد وتغير الاوضاع فى الاندلس (15) ، أو لعل ابن العربى سعى أن ينال حظا جديدا فى المشرق ، وان يهيء لابنه لقاء الائمة هناك ، وليكون معينا له فى رحلته وهو رجل كبير السن، وانهما فكرا فى أن يجعلا من هذه الرحلة سفارة شبه رسمية ، عندما أزمعا العودة الى الاندلس ، بعد هذا الغياب الطويل (16) .

لا شك أن ابن العربى قد تأثر بزوال دولة بنى عباد خاصة ان المعتمد ابن عباد كان يجله ، ويحترمه ، جاء فى الديباج المذهب : « وأبوه (والد أبى بكر) من فقهاء اشبيلية ، ورؤسائها ، وحصلت له عند العبادية ، أصحاب اشبيلية رياسة ، ومكانة » (17) ولكن وضع ابن العربى لم يتغير ، أو يتأثر بدخول المرابطين اشبيلية ، بدليل كثرة مدحه ليوسف بن تاشفين ، والثناء على الامير سير بن ابى بكر والى اشبيلية (18) .

---

*) يقصد بحمص هنا اشبيلية ، احسان عباس : الجانب السياسى من رحلة ابن العربى ..
13) ابن خاقان ، المصدر السابق الصفحة نفسها .
14) احسان عباس : رحلة ابن العربى ، الابحاث سنة 1968 ص 61 .
15) احسان عباس : الجانب السياسى ص 219 .
16) ابن فرحون : المصدر السابق ص 281
17) ابن العربى : المصدر السابق ورقة 32 أ
18) ابن أبى زرع : المصدر السابق ص 155 .

اما بالنسبة لعبارات ((**فخرجنا والاعداء يشمتون بنـــا**)) ، ((**فخرجنا مكرمين ، أو قــل مكرهين**)) فهى لا تدل على أن ابن العربى قد اضطـــره المرابطون لترك أشبيلية ، ولكن يبدو أن ابن العربى قد صدم بعد أن عرف أن المعتمد بن عباد ، أرسل الى الفونسو السادس يستغيث به ، ويستصرخه على المرابطين ويعده باعطاء البلاد (19) ، فأحس بشماته الناس لاكتشاف امـــر المعتمـــــد .

وقد أكد ابن العربى هذا للامام الغزالى بقوله : ((**وعثر لاحدهم علـــى** خطاب يشجع **العدو على لقائه**)) (20) ، فنرى فى كلمة ((**لاحدهم**)) مبلـــغ اسى ابن العربى وعدم توقعه أن يتصرف المعتمد هذا التصرف ، فأغفل ذكر اسمـــــه .

بل اننا نجد فى كلام ابن العربى للامام الغزالى ، أنه لم يكن راضيا عن الاوضاع فى الاندلس ، قبل دخول المرابطين فيقول : ((**وقد كانت جزيرة الاندلس قد تملكها من تاريخ ابتداء الفتنة سنة اربعمائة عدة ثوار تسوروا على البلاد ، فضعف أهلها عن مدافعتهم ، وتلقبوا بألقاب الخلفاء ، وخطبوا لانفسهـــم ، وضربوا النقود بأسمائهم ، واثاروا الفتنة بينهم لرغبة كل واحد منهـــم فى الاستيلاء على صاحبه ، وليستتابوا الفساق من الارقاء ، والصنائع الطلقاء فى محاربة بعضهم بعضا ، واستنجدوا بالنصارى ، عندما اعتقد كل واحد منهم أنه أحق من صاحبه**)) (21) لذلك فانه عندما وصلت الانباء بمقتل رسـول يوسف بن تاشفين القاضى عتيق بن عمران (22) الذى كان يحمل رسالة الخليفة العباسى الى يوسف بن تاشفين ، يبدو أن الامير سير ابن أبى بكـــر

---

19) ابن العربى : المصدر السابق ورقة 32 ب
20) المصدر السابق ورقة 30 أ
21) المصدر نفسه ، الورقة نفسها .
22) هو عتيق بن عمران بن محمد بن عبد الله الريفـــى أبو بكر ، من أهل سبتة ، ولاه يوسف ابن تاشفين قضاء سبتة ، قدم بغداد واقام بها سنين يتفقه ، قتله أمير الجيوش بـــدر الجمالى سنة 484هـ (1091) م بالاسكندرية لانه وجد معه كتب من المقتدى بامر الله العباسى الى يوسف بن تاشفين .
رسالة يوسف بن تاشفين التى عثر عليها فى المكتبة الظاهرة فى دمشق والمنشـــورة فى مجلـــة أرابيكـــا
Vajda, G. Arabica, Revue d'études Arabes extrait, Tome, XV Fasciule I, 1968, P. 2

رشح للامير يوسف بن تاشفين القاضى ابن العربى للذهاب للخليفة العباسى، وقد وافق ابن العربى على القيام بهذه السفارة بسبب ما كان يعانيه من ضيق نتيجة لما حدث للمعتمد ، وسبب ما رآه من اخلاص المرابطين .

فى الجهاد ، وحسن معاملتهم ، وتأثره من رفض ملوك الطوائف مواصلة الجهاد مع يوسف بن تاشفين ، واتصالهم بالممالك المسيحية ، فقرر القيام بهذه المهمة ، مهمة السفر الى بغداد لاحضار تقليد الخلافة ، متجشما أعباء الرحلة فيقول : **« وكان الباعث على هذا السبب ، مع هول الامر ، همة لزمت، وعزمة نجمت »** (23) .

فكان القصد من هذه الرحلة ، أو هذه السفارة ، احضار تفويض الخلافة العباسية لصحة ولاية يوسف بن تاشفين ، ووجوب طاعته ، واحضار فتوى من الامام الغزالى بهذا المعنى .

وقد ذكر ابن خلدون أن هذه الرحلة كانت بمثابة سفارة سياسية قام بها ابن العربى ، وابنه بتوجيه من الامير يوسف بن تاشفين للخليفة العباسى يقول ابن خلدون : **« وخاطب المستظهر (24) العباسى ، الخليفة لعهده ببغداد وبعث اليه عبد الله بن محمد بن العربى المعافرى الاشبيلى ، وولده القاضى أبا بكر فتلطفا فى القول واحسنا فى الابلاغ ، وطلبا من الخليفة أن يعقد له على المغرب ، والاندلس ، فعقد له ، وانقلبا اليه بتقليد الخليفة ، وعهده على ما الى نظره من الاقطار والاقاليم »** (25) .

وربما أطلع ابن خلدون على كتاب آخر لابى بكر بن العربى ، يذكر فيه ما يشير الى هذه السفارة صراحة .

ولكن تأخر ابن العربى فى هذه السفارة يدعو للحيرة ، فقد مكث بالمشرق نحو ثمان سنوات 485 : 493 هـ (1097 : 1099 م) وكان من المتوقع أن ينتهى فى العام التالى لسفره أى فى سنة 486 هـ (1093 م) ،

---

23) احسان عباس : رحلة ابن العربى الى المشرق
24) فى الاصل المستنصر عند ابن خلدون ج 6 ص 386 .
25) ابن خلدون : العبر ج 6 ص 386 .

ولكننا نجد أنه لم يقابل الخليفة الا سنة 491 هـ (1097 م) ، وهي السنة التي حصل فيها على التقليد ، فهل فكر ابن العربي في عدم العودة الى الاندلس بعد أن شاهد مجالس العلماء في المشرق ، وشغف ابنه بالعلم ، وتلهفه على هذه المجالس ! ويظهر خضوع الاب لرغبات ابنه عندما عزم الاب على الخروج للحج من بيت المقدس ، فرفض الابن المضي للحج ، وفضل تلقي العلم ، يقول لوالده : **« ان كانت لك نية في الحج ، فامض لعزمك ، فاني لست برائم عن هذه البلدة (القدس) حتى أعلم من فيها ، وأجعل ذلك دستورا للعلم ، وسلما الى أعلى مراقيها »** (26) فسلم الاب برغبة ابنه عندما لمح هذه الرغبة (27) .

بل اننا نجد الابن يتجاهل شوق والده الى العودة ، عند رؤية هلال رمضان لسنة 489 هـ (1095 م) وسماع تكبير الناس فيقول الابن : **« فما صرف بصري اليه (والده) كراهة في المغرب التي كان بها ، وتشوقا الى جهة المشرق التي كنت أؤملها »** (28) كما أنه ذكر عند مفارقته بغداد أنه كان يود أن يظل ينهل من علمها فيقول : **« وكان يودي لو اختلفت هناك فرد شيبتي ، وأفنيت معهم بقية عمري ، لكن سوابق المقدار تجري على الاضطرار والاختيار »** (29) .

كما أننا نجد في سياق كلام أبي بكر في كتابه **« قانون التأويل »** أن ابن العربي وولده قد وجدا صعوبات كثيرة في الاتصال بالخليفة العباسي ، فقد حملا معها رسائل بالتوصية والاكرام من والي دمشق ، وجماعة من رؤسائها ، ومن قاضيها الشهرستاني لتسهيل مهمتهم في بغداد لمقابلة الخليفة وان كانا لم يستطيعا مقابلة الخليفة الا بعد سنتين من وصولها لبغداد ، وقد ذلل لهما صعوبة الاتصال بالخليفة (30) أحد أصدقاء ابن العربي وهو التاجر أبو الحسن بن سعيد البغدادي (31) ، وكان هذا التاجر قد زار الاندلس سنة

---

26) **احسان عباس : المرجع السابق ص 61 .**
27) **احسان عباس : المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .**
28) **احسان عباس : المرجع نفسه ص 83 .**
29) **ابن العربي : المصدر السابق ورقة 32 ب .**
30) **ابن العربي : المصدر السابق ورقة 28 ب .**
31) **يعرف بابن الخشاب ، حدث في الاندلس ، وكان من أهل الصدق والثقة والثروة ، ابن بشكوال : الصلة ص 599 .**

483 هـ (1090 م) فأنزله المعتمد بن عباد عند ابن العربى ، فأكرمه ، وتخلى له عن مناظرته بالمساجد ، فعمل هذا التاجر على توصيلهما للوزير ان جهير ، وزير الخليفة المستظهر فرفع أمرها الى الخليفة (32) .

ونلمح أيضا من خلال ما ذكره ابن العربى للخليفة المستظهر هذه المشقة فى الوصول الى الخليفة فيقول : « **ولم يزل الخادم بالادعية المتقبلة بحول الله يتوسل بهجرته ، ويتقرب بخلوص علانيته ، وسريرته ، ويسأل تشريف رقاعه بملاحظتها ، والنظر فى انقطاعه رغبة فى الحظ الجسيم ، آلى أن وصل آلى المجلس السامـــى** » (33)

وعندما تأخر ابن العربى ، ارسل يوسف بن تاشفين رسولا آخر هـــو القاضى ابن القاسم (34) ليحث ابن العربى على الاسراع بالعودة ، وقد أشار ابن العربى للخليفة بذلك فيقول « **وقد تكرر اعلام الخادم بذلك** » (35) .

ولكن برغم هذه الصعوبات فقد نجحت سفارة ابن العربى ، وأحضر تقليد الخليفة ، وفتوى الامام الغزالى ، الذى كان يعتد بفتياه من ذلك الوقت .

نـــص المخطـــوطـــــة :

(27 : أ) بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا ومولانـــا محمـــد وآلـــه وصحبـــه وسلـــم .

قال الامام الحافظ القدوة المبـــارك

الفاضل أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربى

المعافرى الاندلسى رضى الله تعالى عنه

---

32) احسان عباس : المرجع السابق ص 89 .
33) ابن العربى : المصدر السابق ورقة 28 أ
34) لم أجد له ترجمة .
35) ابن العربى : المصدر السابق ورقة 28 أ

الحمد لله الذى جعل الحمد فاتحة الكتاب ، وأول كلام الخلق يـوم الحساب ، وآخر دعوى أهل الثواب ، ونسال الله ان يصلى على رسوله المصطفى الطاهر ، وعلى من لــه القرابة للاصحاب ، وعلى التابعين لهم باحسان الى يوم الحساب ، اما بعد فان الداخل فى طلب العلم كثير ، والسعيد قليل ، وعدم الانصاف خطب جليل ، وكم من حاضر بعرفة (1) من غيـر معرفة ، ونازل بمنى ، وما نال منى ، وكم قارىء فى بغداد خرج ، وما قرى بزاد ، فالشجر يوجد ، والتمر يعدم ، والاجسام تفنى ، والارواح تتقدم ، والقشر عام ، واللب خاص ، وقد شاهدت من طلب العلم بافريقية ، ومصر ، والشام ، والساحل ، والعراق ، والحجاز ، ما لا يأتى عليه الاحصاء ولا ينال بالاستقصاء ، جميعهم يأمل الغاية وما حصل عليها ، ويقصد النهاية وما انتهى اليها ، فقد خلع ثياب الوطن ، واستظهر (2) على الغربة ، واستوطن يجتهد بزعمه ، وهو لا يعلم كيف ، ولا أين يرجع بعد طول المغيب بخفى حنين ، ومنهم من يأخذ العلم بدبيب (3) ، ويقنع منه بأدنى نصيب ، فيعود ببـاع قصير ، وناظر غير بصير ، ان رمى عنه فغايته كالاعمى ، او برحت فليله أعمى وأعطش ، ومنهم من يعتمد من العلوم فناء ، ويرى غيره دهرنا ، فلا عليه حصل ، ولا به حصل ، ومنهم من يدخلها عاثـرا لا يشعش وأملـس لا ينتقش (4) ، ومنهم من يدخلها لمح بارق ، وقبس طارق ، وعجالة راكب أولى حما (5) برقه (6) ، وخمد نفسه ، وفترت عجالته ، ولما سبق خير القضاء برحلتى الى تلك المشاهد الكريمة ، وحلولى فى تلك المقامات العظيمة، دخلتها ، والعمر فى عنفوانه والغصن مائل (7) بأفنانه ، والكتـاب مختـوم بعنوانه ، ومعى صارم ، لا أخاف نبوته (8) ، وحصان لا أتوقع كبوته ، أب فى الرتبة ، وأخ فى الصحبة ، يستعين ، ويعين ، ويسقى من النصيحة بماء

---

1) فى الاصل بمعرفة
2) استظهر على الشىء علاه وغلبــه .
3) فى الاصل دبدب ، والمعنى مشى الطفل على يديه (عامية) .
4) لا ينتقس : لا ينخدش .
5) حما التنور : احماه وزاده نـارا .
6) برقــه : السفر البعيـد .
7) فى الاصل مائس
8) نبوته : ارتداده

معين ، وزوى (9) الله بفضله عن قلبى (10) كل بطالة (11) ، وكشح (12) عن فؤادى كل أهاله (13) ، فجنيت من كل شجرة زهرة ، ودعيت من كل صنف غورة ، وكشفت عن كل خفاء عورة ، وافتقرت من كل فى فقرة ، حسبما فسرته ، وأوضحته وشرحته ، وبينته ، وقررته ، ونزلته ، فى كتاب ترتيب الرحلة للترغيب فى الملة ، وذكرت فيه لقاء الاعيان لنا ، وسير الفضلاء معنا ، ولحظهم (14) لجانبنا بناظر التعظيم ، ومقابلتهم بالتبجيل (15) والتكريم، ووداعنا لهم على غاية الرضى والتسليم، وانقلابنا عنهم بصفة المرتضى ، واتبعناهم حملا من طرائقهم (16) ، ونبعا من فرائدهم، ما تتأرج به أصائل (17) لها أيام ، ويحلو نوره ديجور (18) الظلام ، وكان ذلك أمرا يطول النظر فيه ويذهل الشادى (19) بخواتمه ، عن مباديه ، فاستخرت الله تعالى على تجريد هذه (27 : ب) الاوراق بشواهد الخلة ، والاعيان فى مشاهد الاسلام والبلدان ، لنا بمزية التعظيم والتوقير ، وتسهيلهم لنا بتحصيل العلوم على غاية التوقير ، حتى يظهر البون ، ويتبين أن الله تعالى يختص من يشاء بالعون ، ويتحقق المسود الناقص ، المنقص راسه من حولى لبعض بزعمه منى أنه فاسد الفطرة ، خاسر الصفقة ، قبيح الوجه ، يستحق المنحة ، وجعلته مراتب على حسب الوقت الذى حصل فيه كل نوع منه .

المرتبة الاولى : لما وصلنا مدينة السلام (20) ، ولقينا فيها كبراء

---

9) زوى : نحاه ومنعه
10) فى الاصل قلب
11) البطالة : الهزل
12) كشح : طرد او ازال
13) الاصالة : الفزع والخوف .
14) لحظهم : نظرهم
15) فى الاصل بالتحليل .
16) فى الاصل طرايقهم
17) فى الاصل اصايل ـ واصائل جمع اصيل وهو الوقت بين العصر والمغرب .
18) ديجور : الظلمة .
19) شاد العلم : آخذ العلم
20) المقصود بها بغداد

الاسلام كتب أبى (21) برد الله مثواه ، وبرد فى الجنة مثواه ، للخليفة (22) رضوان الله عليه ، وعلى آبائه ، كتابا فى درج (23) طويل ، على صفـــة أدراجهم فى مخاطباتهم ، نسخته من أوله الى آخره .

الخادم بالادعية تقبلها الله ابن العربى الاندلســـى

بسم الله الرحمن الرحيم عليه توكلى .

أسعد الله الدنيا وأهلها ، بدوام أنوار المواقف المقدسة ، النبويـــة ، الامامية المستظهرية ، وضاعف مددها ، ولا أرى المسلمون أمدها بغرائب مجـــد تبدعها ، وفرائض بـــر تشرعها ، وحوادث (24) أيام تذلــل (25) صعابها ، ومستأنف سعود تحرص جانبها ولا زالت الايام التى هى لايامها غررا (26) ، وفى أكليل الخلافة دررا للدهر تمائم ، وفى المحل غمائم ، والحمد لله الذى جعل للمواقف المقدسة ، النبوية المقدسة النبوية الاماميـــة المستظهرية شرائط السؤدد ، وخصها بالمجد المؤثل ، المطول بالانتساب كابرا عن كابر ، الى أعلى خندف (27) فهى أعلاها عمادا (28) وأوراها فى مواقف الفضل زنادا ، أرومة الرسالة ، وجرثومة الخلافة ، اليها ينـــزع هاشم ، وعنها أخذت المكارم ، مفاخر شهد لها الكتاب المنزل ، وعهــد بتخليدها مخبر عن الوحى ، فى آله ، وعقبه ، النبى المرسل ، فقد آمنت بعصمة الله من الغير ، وتحققت أن آخرها على سنن أولها فى هداية البشر ، بحسن السير ، أوزعنا الله الشكر على ما من به من توفيقنا ، للتمســك

---

21) المقصود والد ابو بكر وهو عبد الله بن العربى .
22) الخليفة المستظهر بالله العباسى ، ولى الخلافة بعد أبيه الخليفة المقتدى بالله 487 هـ (1094 م) وعمره سبعة عشر عاما ، توفى سنة 512 هـ (1118 م) وكانت خلافته خمسا وعشرين سنة
ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة ج 5 ص 215 .
23) الدرج : ما يكتب فيه .
24) فى الاصل حواديث : والحوادث بمعنى النوائب .
25) تذلل : تعبد وتسهد .
26) غررا : أياما بيضاء كريمة .
27) خندف : امراة عربية كانت زوجة الياس بن مضر أحد زعماء العرب وأصبح أولادها يعرفون باسمهـــــا .
28) العمـــاد : المنزلة الرفيعـــة .

بعراها الوثيقة ، والاهتداء بهداها الى أوضح الطريقة ، فهم للدين أمتنــا ، ويوم الدين وسيلتنا ، استعملنا الله من طاعته ، وطاعتهم ، بما يؤدى الـــى مرضاته ، ومرضاتهم ، أنه الموفق الهادى لا رب غيره ، وأن الخادم بالادعية ، المتقبلة ، للمواقف القدسية ، النبوية ، للامامة المستظهرية ، الهمه الله منها لمــا يسمع ، ويرفع بمنه ، لما علم بموجب الشرع أن بيعة الامام العادل من أركان الديانة ، ومما يتعين تعيين ما يحتمل من رعاية الامانة هاجر الـــى ذلك بنفسه ، وابنه المسترق القن (29) من أقصى المغارب ، معتقدا أن عمله افضل القرى والرغائب ، واحتمل برد الهوا وظمأ الهواجر (30) واقتحم دون ذلك مسالك بلغت فيها القلوب الحناجر ، ولم يهلله بحر يزخر ، ولا قفر يرعد ، يحتسب فى ذلك أثره ، ويرجو أن يقبل الله يوم الجزاء عثاره ، الى أن انتهى هو وابنه الى مدينة السلام ، لا زالت محروسة من عين الايام ، عاصمة من التجــأ **(اليهــا)** (31) من مهتضمى الانام ، ووصل الى الحرم الشريف ، لا زال حرما على الزمان ، ونظاما حاز سائر (32) الحدثان ، ولم يزل الخادم بالادعية ، المتقبلة بحول الله يتوسل بهجرته ، ويتقرب بخلوص علانيته ، وسريرته ، ويسأل تشريف رقاعه ، بملاحظتها ، والنظر فى انقطاعه ، رغبة فى الخط الجسيم ، الى أن وصل الى المجلس السامى ، وخدم البساط العالى، زاده الله شرفا ، وتعظيما ، وانهى أغراض وفادته ، ومقاصد ارادته ، **(28 : أ)** فنفذت الاوامر الشريفة ، أدام سموها ، وتشريفها ، وأضفـــى على الجمع ستر سلطانها ، وكنف احسانها ، بقبول وسائله ، والحـــاح مطالبه ، وافاضة الاحسان عليه ، واضمار النبوية ولما بسط له فى الاصل ، وكان هو وابنه فى محل الكرامة والمجد ، أبدأ بعرض ما هو عليه ، ناصـــر الدين وجامع كلمة المسلمين ، القائم بدعوة مولانا أمير المؤمنين ، صلوات الله عنه ، وعلى آبائه الطاهرين ، الامير أبو يعقوب يوسف بـــن تاشفين المتحرك بالجهاد المتجهز الى المسلمين ، باستئصال (33) فئة العناد ولمة

---

(29) فى الاصل القنى ـــ والقن بمعنى العبد المملوك هو وأبيه .
(30) جمع هاجرة وهى نصف النهار عند اشتداد الحر .
(31) فى الاصل بياض .
(32) فى الاصل سائـــل .
(33) فى الاصل استيصال

الفساد ، قام بدعوة الامامة العباسية ، والناس أشياع ، وقد غلب عليهم قوم دعوا الى أنفسهم ، ليسوا من الرهط الكريم ، ولا من الشعب (34) الطاهـر الصميم ، فتبعه جميع من كان فى أفق قيامه بالدعوة الامامية العباسية ، وقاتل من توقف عنها ، منذ اربعين عاما ، الى أن صار جميع من فى جهة المغرب (35) على سعتها ، وامتدادها له طائعة (36) ، واجتمعت له بحمد الله ، أنوارها ، وأعلا منارها ، على أكثر من ألفى منبر وخمس مائة منبر فان طاعته ضاعفها الله ، من أول بلاد الافرنج ، استأصل الله شأفتهم ، ودمر جملتهم ، الى آخر بلاد السوس ، مما يلى بلاد غانة ، وهى بلاد معادن الذهب ، والمسافة بين الحدين المذكورين ، مسيرة خمسة (37) أشهر وله وقائع فى جميع أصناف الشرك من الافرنج (38) ، وغيرهم ، فدخلت (39) أرضهم (40) وقلت حربهم ، وألف جموعه حربهم ، وهو مستمر على مجاهدتهم ، ومضايقتهم ، فى كل أفق ، وعلى كل الطرق ، وقد استرجع كثيرا من المعاقل ، التى استباحها الروم (41) ، من ثغور (42) المسلمين ، وسبت أهلها ، قبل حصول تلك الجهات فى حكم سلطانه ، وكانت ثغور المسلمين بها مستضامة (43) ، وقد أعادها جده بحمد الله الى أولها ، واحترمت لحرمة المسلمين ، والاسلام ، وأعز (44) سلطانه ، وهذا دابه ، وهجيره ، الذى لا عمل به سواه ، وعدة جيوشه ، اذ جمعها لحركته ستون ألف فارس ، وكان أمله مواصلة الخدمة ، والتشرف بانهاء أعماله ، والاعلام بمناقل أحواله ، وأفعاله ، وباحتماله على حماية ديـن المسلمين ، واقبال على مجاهدة المشركين ، الا أن الحائل المانع دون ذلك لاتفاقه ولم يزل محافظا على ما هو عليه ، من اقامة الدعوة السعيدة ، والاعتراف بجمل النعم الوافرة العديدة

34) فى الاصل شعب
35) فى الاصل المغارب
36) فى الاصل طاعة
37) فى الاصل خمس
38) المقصود الممالك المسيحية بالاندلس .
39) فى الاصل قد خللت .
40) فى الاصل غربهم
41) المقصود بالروم الممالك المسيحية بالاندلس .
42) فى الاصل أمور
43) مظلومة .
44) فى الاصل عزا .

بفضل الله ، ولقد وصل الى ديار المشرق فى هذا العام ، قاضى من قضاة المغرب يعرف بابن القاسم (45) ، وذكر من حال هذا الامير ما يؤكد ما ذكرته ، ويؤيد ما شرحته ، واشاع القاضى المذكور ذلك بمكة ، وصل الله تشريفها ، وتعظيمها ، وذكر لى ان الروم على شفا جرف من تضييقه عليهم وحصاره لهم ، وقد تكرر اعلام الخادم بذلك ، لما يلزمه من طاعة أولى الامر لا سيما هذا الامير ، وقد خص بفضائل منها الدين المتين ، والعدل المستبين ، وطاعة الامام ، وابتدأ حماه بحماية ثغور المسلمين ، وهو ممن يقسم بالسوية ، ويعدل فى الرعية ، ووالله ما فى طاعته مع سعتها ، دان منه ، ولاناء عنه ، من البلاد ، ولا يجرى فيه على أحد من المسلمين رسم مكس (46) وسبل المسلمين آمنة ، ونقوده من الذهب والفضة سليمة من الشوب مطرزة (28 :ب) باسم الخلافة (47) ، ضاعف الله تعظيمها وجلالها ، هذه حقيقة حالة ، والله أعلم انى ما اسهبت ، ولا لغوت ، بل لعلى قد أغفلت أو قصرت، ولمولانا أمير المؤمنين المستظهر بالله صلوات الله عليه ، وعلى آبائه الطاهرين ، الطول العميم ، فى الامر بتشريفه بقبول تأميله ، وفى الاشارة اليه بما يقوى أمره ، ويشد أزره ، ويؤيد سلطانه ، ويعلى شأنه ، مجرى له على السنى الكريم ، الطول العميم ، فوالله ما فى الامراء ، ولا فى شيع الحرم ، والنصحاء الاولياء ، من يحوز فى الولاء ، وصحة الانتماء سبقه ، ولا يلبس من النصيحة طوقه ، والله يمنحه من الخلافة المقدسة ، المبنية على طرق النبوية ، الموسمة ، ما يصل يده ، ويقوى أمره ، ويشد عضدها ، بمنه ، وطوله ، وضراعة الخادم بالادعية المتقبلة لنفسه ، ولابنه المسترق ، القن ، بعد الامتنان بإباحة الصدر لهما الى الوطن ، فقد بعدا عنه منذ سبعة أعوام ، وأقاما فى الجناب المخصب العليل ، والكنف الرحب (48) المأمول ، مدة عامين

---

45) لم اجد له ترجمة

46) كان المفروض فقط هو الزكاة ، والاعشار ، وجزية أهل الذمة ، واخماس غنائم المشركين ابن ابى زرع ، المصدر السابق ص 137

47) نقش فى ديناره (لا اله الا الله محمد رسول الله) وتحت ذلك (امير المسلمين يوسف بن تاشفين) وكتب فى الدائرة (ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه ، وهو فى الاخرة من الخاسرين) وكتب فى الوجه الاخر (الامير عبد الله العباسى) وفى الدائرة تاريخ ضربه وموضع سكه .
ابن ابى زرع : المصدر السابق ص 137 ، 138
Lavoix, H., Catalogu des Monnaies de la Bib. Nat. p. 556.

48) فى الاصل الرحل

يسندان له النعم الحافلة جملا بعد جمل ، ويكرعان فى المشارب الحجة العذبة عملا (49) ، بعد نهل فالله الهمم الشريفة التى سمت على شكايتها من عدوان الايام ، بيد سيم الكرام ، وازاحت عنهما جميع الشكايات (50) والآلام وهذه نبذة من الصنائع المشكورة ، وجلدة من بضائع المكارم الرابحة المشهورة ، وأنها لمسطورة فى صحيفة الفخر ، مملوءة (51) من جزيل الآجر ، عقبة بارح النشر ، وان الشكر ليقل فى جانبها ، ويقصر عن أنزر لازمها ، ضمنت حياة نفسين ، ونشرت دفين رسمين ، فكأنها قد أخذت ضعف الورى ، ونشرت أمثل المستودعين فى الثرى ، فمن أحيا النفس الواحدة ، (فكأنما أحيا الناس جميعا) (51) ، وعند الله تعالى كفاء ما أولاه مولانا الامام المستظهر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الاكرمين ، من جميع الفعل وجزيل ما أتاه فى سبيل الفضل ، والخادم العامر القلب ، هو وعقبه بالمحبة الناصفة ، والطاعة الخالصة ، صار (53) فى جملة الحاملين ويرجو أن لا يكون مقصرا عن درجة السابقين ، ويضرع فى وسمه وسم المملوك ، وابنه عين التشريف السامى ، لا تزال النعم الكرام تيجانا ، وعلى قسماتهم العز والكرامة عنوانا يعبد حيث جلا الى النبهاهة ذكرها ، والى البر والكرامة قدرها ، ويظهر مزية وفادتهما ، ورعاية هجرتهما ، ويثبت لهما من المفاخر ما يحيد عليه البر المؤازر ، ويتضاءل له الحسود والمكاشر (54) ويبقى تشريفه على مر الايام ، ويضرع أن يتضمن التشريف العزيز ، ثبوت رسمه ، فى الديوان الشريف ، ضاعف الله علاه (55) ، بما خص به ، والمملوك ابنه من الكرامات ، والنعمة ، وانه متى وفد هو أو ابنه المملوك كان ذلك للوافد منهما مجددا ، وعلى مر الايام مؤكدا مخلدا حسب العادة الكريمة له ، ولسلفه الاكرمين ، رضى الله عنهم ، أنهم متى انعموا بنعمة ، أو خصوا بكرامة ، ومنه ثبتت مؤيدة وتجددت مخلدة وليتمثل الامر العالى والشريف السامى فيهما جميع من يرد أن عليه فى كل الآفاق

---

49) فى الاصل علـى
50) فى الاصل الشكـات
51) فى الاصل مملـوة
52) سورة المائدة آية 32 .
53) فى الاصل صادر .
54) اسم فاعل من كاشر ، ومعناه ضاحكه وتبسط وكشف له عن اسنانه .
55) فى الاصل عـلا

من جميع الطباق ، امتثالا لما يعد لهما من الاكرام ، واحتمالا على ما تأصلا لجنتهما من المثوبة والانعام ، وان ذلك يرثه الخلف منا عن السلف ، وتكون لنا مزية التشرف بالوصول الى جهاد العز المأمول ، لا أعدم الله مولانا الامام المستظهر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه (29 : أ) وعلى آبائه المنتخبين ، مبرة تتضاعف بها المعالى ، وسعادة تحرز أسمى الامانى ، وكفاية يستمد بها حرمة الايام والليالى ، فذلك بيده ، وغير معجزة ، وهو المنعم الجواد ، وكل خير من حوله مستفاد ، لا شريك له ، ولا توفيق الا به ، والحمد لله حق حمده ، وصلواته على سيد المرسلين ، رسوله وعبده ، وعلى آله الطيبين ، وعشرته (56) المنتمين الراشدين ، آباء أمير المؤمنين ، صلوات الله عليهم أجمعين ، الى يوم الدين وحسبى الله ونعم الوكيل .

فراجعه عنه على ظهره بتوقيع عزيز ، عدد اسطره سبعة وثلاثين سطرا بخط بسيم ، كتابى مليح ، بين السطر (57) الاول منه والثانى منه العلامة العزيزة بخط أمير المؤمنين ، بالقلم الغليظ ، بمداد ممسك ، المستظهر (58) بالله عرضت هذه القصة بمفاوز العز والعصمة ، ومواقف الامامة المطهرة المكرمة ، زاد الله فى جلالها ، وسبوغ ظلالها ، فخرجب المراسم الشريفة ، ان هذا الولى الذى أضحى بحبل الاخلاص معتصما ، وبشرطه (59) ملتزما ، والى أداء فروضه مسابقا (60) وكل فعله فيما هو بصدده للتوفيق مسابقا ، لا ريبة فى اعتقاده ، ولا شك فى تقلده من الولاء ، طويل نجاده اذ كان من عدا بالدين تمسكه ، وفى النهاية عند مسلكه ، خليقا بأن يستتب صلاح النظام ، على يده ويستشف من يوم حسن العقبى فى غده ، وأفضل ما نحاه وعليه من الاجتهاد ، دار رحاه جهاد من يليه من الكفار ، واتيان ما يقضى عليهم بالاحتياج ، والبوار ، اتباعا لقوله تعالى (قاتلوا الذين يلونكم من الكفار) (61) فهذا هو الواجب اعتماده ، الذى يقوم به من الشرع عماده ، ويؤلف شمل من فى جملته من الاجناد على الطاعة الامامية

---

56) فى الاصل عثرته
57) فى الاصل الدهر
58) فى الاصل القاهر
59) فى الاصل اشرطه
60) فى الاصل مساوقـا
61) سورة التوبة آية 123

التى هى العروة الوثقى ، والذخر الابقى ، واستقراء قوله تعالى ، والعمل بــه ، والمدارى به والتثبت بسببه (يا أيها الذين آمنوا ، أطيعوا الله ، واطيعوا الرسول ، واولى الامر منكم (62) وليكن دأبه الجهاد فيمـا يكسب عند الله تعالى ، الزلفى ، ويمنحه من رضاه القسم الاكمل الاوفى ، (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرة ، وما عملت من سوء تود لو أن بينهـا وبينه أمدا بعيدا) (63) وان يختص رافعها وولده بالدعاء الذى يصفوا عليهما برده ، ويصفوا اليها رده ، ليظهر عليهما من المهاجرة ، جميل الاثر ، ويؤل أمرها يرجو بهما الى الاستقامة الفصام ونظم النثر ، فليقاتل الامر الاسمى فى ذلك بالامتثال ان شاء الله . كتب فى رجب سنة احدى وتسعين واربعمائة .

ثم كتب كتابا مستأنفا ، بلسان الوزير ابن جهير (64) ، نسخته من أوله الـــى آخـــره .

من الوزير الاجل السيد الاعدل ، عميد الدولة بهذه الملة ، شرف الامة، ولى النعمة ، خلاصة أمير المؤمنين محمد بن محمد بن جهير ، الى أميــر المسلمين ، وناصر الدين ، القائم بدعوة أمير المؤمنين ، أزكى الرغائب بأرض المغاربة ، أبى يعقوب يوسف بن تاشفين ، أطال الله بقاءه ، ومدته ، وضاعف بسطته ، وكبت أعداءه ، وحسدته ، آمين .

بســم الله الرحمــن الرحيــم ،

كتابى من حضرة مولانا أمير المؤمنين ، ابن العباس ، المستظهــر بالله أدام الله أيامها ، وأوضح أعلامها ، وأعز انصارها ، وأعلا منارها ، الاحوال مستقيمة باقبال دولته ، منتظمة بيمين تدبيره وسياسته ، تجرى على أفضل ما عودها الله تعالى من نفاذ الامر ، ومضائه ، وانبساط السلطان واعتلائه

---

62) **سورة النساء آية 59**

63) **سورة آل عمران آية 30**

64) **هو محمد بن محمد بن جهير ، الصاحب شرف الدين عميد الدولة ، وزير الخليفة القائم ، ثم من بعده المقتضى فعزله بابى شجاع ، ثم أعاده المستظهر ، فدبر أموره ثمـان سنوات وأحد عشر شهرا واربعة أيام توفى سنة 493 هـ (1093 م) .**
ابن تغرى بردى : المصدر السابق ج 5 ص 165 .
زامباور : معجم الانساب والاسر الحاكمة ج 1 ص 9 .

ونحن (29 : ب) مقابلون نعمته بالشكر ، والاعتراف ، مستديمون مددهـا بالعـدل ، والانصاف ، متحققون اجابة رغبتنـا فى توفيق أولياء مولانـا المخلصين ، واهل الطاعة من كافة المسلمين لما يقرب من طاعته ، ويوزع شكر نعمته ، السابغة عليهم بولايته ، فلقد استخلف عليهم من أكرم مستخلف، وعطف عليهم بولايته ، أفضل مستعطف ، فأصبح وقد أطاعته الامة العاصية، وامكنته الغايات فذلل الصعب ، وراب الشعب ، وقرب النازح ، وأرضـى الجامح ، وقوم المائل ، وأصلح الفاسد ، وأعاد معالم الحق عامرة بعـد دثورها ، ومشاربه صافية بعد كدورها ، وبضائع (65) الخير نافقة (66) بعد كسادها ، وأحوال الامة صالحة بعد فسادها ، مبتغيا فيما أتاه الله مصلحة أخرى ، غير ناس نصيبه من دنياه ، طامحا بطرفه الى أعلى الدرجات فـى دارية ، آخذا بأفضلها ، الاقبال فى حاليه ، فلباس التقوى شعاره ، والعمل الصالح دثاره ، نهاره مقسوم بين تلاوة القرآن ، واقامة احسان ، وغوث مكروب ، وفك غار مخروب ، وسد ثغر ، وصلاح أمر ، وتدبير مشرق ، وغرب ، وبر وبحر ، فأعين الرعية قائمة ، بشهادته ، وأنفس البرية مستريحة، باجتهاده ، لا حرم أن الله يصلح باله ، ويحسن مآله ، تصديقا لما قاله جل جلاله ، (يأيها الذين آمنوا اتقوا الله ، وقولوا قولا سديدا ، يصلح لكـم أعمالكم ، ويغفر لكم ذنوبكم ، ومن يطع اللـه ورسوله ، فقد فاز فـوزا عظيما) (67) وخليق لمن جمعت فيه هذه الاخلاق الطاهرة ، ونطق القرآن بامامته الباهرة ، قال الله تعالى (وعد اللـه الذين آمنوا منكم وعملـوا الصالحات ، ليستخلفنهم فى الارض ، كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بـى شيئـا) (68) فالحمد لله الذى أنجز لامير المؤمنين ما وعده ، وحقق له التمكين وأيده ، وأمن السبيل بخلافته ، وأقام الحق بامامته ، وسخر له من أوليائه من تنفذ بطاعته أوامره ، ويؤازره على فعل الخيرات ، ويضافره ، وينشر دعوته ، ويظهر سعده ، وكلمته ، وينتهى الى ما فرض سبحانه عليه من طاعة ولاة الامر ، المقترنة بطاعته ، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ،

---

65) فى الاصل بضايـع
66) عـــكس كاســدة
67) سورة الاحزاب آية 70 ، 71
68) سورة النور آية 55

اذ يقول تعالـــى : (يأيهـــا الذيـــن آمنـــوا أطيعـــوا اللـــه ، وأطيعـــوا الرسول وأولـــى الامر منكـــم) استمناحا لنعـــم الله ، التـــى لا تحـــد ، واستمدادا من عوارفه التى لا تنفذ ، ولما كان الامير أطال الله بقاءه ، وأدام تمكينه ، ورفعته ، وسموه وبسطته ، وكبت عدوه وحسدته ، فمن صح عنده خلوص عقد ولايته ، ولزوم طاعته ، لامير المؤمنين ، الصروف عـــن أعدائه ، واظهار العدل فى الرعية ، وتمسكا بما أمر الله تعالى به من مجاهدة أعدائه ، وتحريض عساكر الاسلام على مجاهدة عدوهم ، وبذل نفوسهم ، ومشاركته لهم فى نعيمهم وبؤسهم ، وما فتح الله لامير المؤمنين على يديه من ثغور الاسلام بجزيرة الاندلس ، وما جـــاورها مما كان العدو قد تغلب عليه ، واستباحة واستأصل شأفته ، واجتاحه عند اختلاف الخوارج بها ، وتباين مقاصدهم ، وعدولهم عن الواجبات فى مصادرهم ، ومواردهم ، انتهيت الى المواقف المقدسة العلية الشريفة ، النبوية المستظهرية ، زاد الله فى جلالها ، وامتداد هذه الجملة ، فخرج **(30 : أ)** من الشكر للامير أطال الله بقاءه ، واعلاه واحمد (69) طرائقه (70) ، وحسن سيرته ، وجميل مقاصده ، والدعاء بمبمشارفته على جهاده عدو المسلمين ، وتطبيق ما جاء به عن سيد المرسلين ، لا يزال أهل المغرب على الحق ظاهرين ، وذلك لنصوع عقائدهم (71) ، فى خلوص اليقين واقتران مذهبهم عن صحة الدين على يد الشيخ الفقيه أبى محمد عبد الله بن محمد المعروف بابن العربى ، وابنه الفقيه أبى بكر محمد أدام الله عزتهما ، ما يؤيد به الغافر ، وتتأرج به الدفاتر ، وتنتعش بـــه حدود العواثر ، ولقد بالغ هذا الفقيه ، وولده فى الثناء على الامير ، واطنبا فى وصف ما يعتمده من لزوم فرائد (73) العدل والانصاف ، ومجانبة طـــرق العسف ، والاعتساف ولما كان رأينا فى هـــذه الطائفة التى تأخذ فى الحدود الشرعية بقولها ، وتستضىء فى السياسة السلطانية برأيها جميلا ، وتأمرنا بالبر لمن أنسنا من الطريقة القوية ، وجنوحها الى من عرفناه بصدق العزيمة ،

---

69) فى الاصل احمـــاد
70) فى الاصل طرايق
71) فى الاصل عقايدهم
72) فى الاصل ما يؤدين
73) فى الاصل قراير

شكرنا لامير المؤمنين أطال الله بقاءه ، اقتداء (74) بهذه الطائفة فى آرائه ، ورجوعا الى قلوبهم فى الحالة ، آخذا بآراء المواقف المقدسة ، زادها الله مضاء ، وامتثالا لقصدها ، وكذلك هذا الفقيه ، وولده المقدم ذكرهما ممن شاهدنا من خلالهما وحسن هديهما ، بما يقتضى تقريبهما ، وادناهما ، فرايناهما واعتمدن برهما ، واكرامهما ، واصدرنا هذه الجملة القاضية باجلال الامير محله المنيف ، على استحقاقه للاجلال ، والتشريف ، نظرا لماقالهما (75) واحسانا وتعطفا عليهما وامتنانا ، فليعتمد الامير أطال الله بقاءه ، مصالح أمورهما ، وليتوخ ما تعود باستقامة شئونها ، ولينيلهما حسن موقع النيابة ، وليبد لهما صفحة الاقبال بمنن ، وليلزم تقوى الله فيما يجر من الامور على يديه ، وليراقبه ، تعالى فيما فرض من أحوال الرعية اليه ، وليعلم أن المصير، والمرجع اليه ، وليطالع بأخباره ، وما احتاج الى علم بجهته ان شاء الله .

وكتب فى الثانى عشر من رجب سنة احدى وتسعين واربعمائة . والحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد نبيه ، وسلامه وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وكان أشهر من لقينا من العلماء فى الآفاق ، ومن سارت بذكره الرفاق لطول باعة فى العلم ، ورحب ذراعة ، الامام أبو حامد بن محمد الطوسى الغزالى (76) ، فاستدعينا منه فتيا وكتابا اختصرت لفظ الفتيا لوقت ضاق عن تقييدها ، لكن أنبه عن معناها ، وهو فى علم الامام ، وذكر ما تقدم فى وصف خلال أمير المسلمين ، وناصر الدين أبى يعقوب يوسف بن تاشفين أمير

---

(74) فى الاصل اقتداءا

(75) فى الاصل ما قالهما

(76) هو محمد بن محمد الغزالى الطوسى ، الفقيه الشافعى ، كان امام عصره ، برع فى عدة علوم كثيرة ، ودرس وافتى ، وصنف التصانيف المفيدة فى الاصول والفروع ، ودرس بالنظامية ببغداد ثم ترك ذلك كله ولبس الخام الغليظ ، ولازم الصوم ، وحج وعاد ، ثم قدم القدس ، واخذ فى تصنيف كتابه الاحياء ، واتمه بدمشق ، وله من المصنفات « البسيط » ، «الوسيط » ، الوجيز — توفى سنة 505 هـ (1111 م)
ابن تغرى بردى : المصدر السابق ج 5 ص 203 ، ابن خلكان : وفيات الاعيان ج 3 ترجمة 560 ص 353

المغربين ، الاندلس والعدوة ، وما أوضحت لديه من اعزاز الدين والذب عن المسلمين ، وهو حميرى النسب ، وقبيلة المرابطون قد وقفوا أنفسهم على الجهاد ، وقد كانت جزيرة الاندلس قد تملكها من تاريخ ابتداء الفتنة سنة اربعمائة عدة ثوار (77) تسوروا على البلاد ، فضعف أهلها عن مدافعتهم ، وتلقبوا بألقاب الخلفاء ، وخطبوا لانفسهم ، وضربوا النقود بأسمائهم واثاروا الفتنة بينهم ، لرغبة كل واحد منهم فى الاستيلاء على صاحبه ، وليستتابوا الفساق من الارقاء ، والصنائع الطلقاء فى محاربة بعضهم بعضا ، واستنجدوا بالنصارى عندما اعتقد كل واحد منهم أنه أحق من صاحبه ، وعند ذهاب شوكة المسلمين ، انكشف للنصارى ضعف المسلمين ، وعلموا المداخل والمخارج ، الى بلاد المسلمين ، طلبوا المعاقل ، وأخذوا بالحرب كثيرا منها من غير مؤته ، ولا مشقة ، ثم لجأ (78) الباقى من المسلمين الى المرابطين واستصرخوهم ، فلباهم أمير المسلمين ، ووصل الى البحر ، فاستوقف بعض الرؤساء، وفاء للمشركين ، وحنقا على المسلمين ، فى أستدعائهم له، ووصل الامير الى غرب الاندلس فمنحه الله النصر ، والجم الكفار السيف ، ثم عاود الجواز فى العام الثالث (79) لهذا الفتح فتهيبه العدو ، وتحصن منه ، ولم

---

(77) المقصود بهم ملوك الطوائف الذين شغلوا من حياة الاندلس نحو ثمانين عاما ، وكان عصر تفكك وانحلال سياسى ، واجتماعى شامل ، وهذه الدويلات الصغيرة ، قامت على أنقاض الدولة الاموية بالاندلس ، وهذه الدويلات هي :

1 — العامريون وقد حكموا فى شرق الاندلس فى المرية ، مرسية ، وبلنسة ، ودانية وما والاها من جزائر .
2 — بنو زيرى الصنهاجيون فى غرناطة ومالقة
3 — بنو الافطس فى بطليوس
4 — بنو ذى النون فى طليطلة
5 — بنو رزين فى السهلة
6 — بنو عباد فى اشبيلية
7 — بنو هود فى سرقسطة او الثغر الاعلى
8 — بنو القاسم فى البونت
9 — بنو حماد وبنو جهور فى قرطبة وقد استولى عليها بنو عباد سنة 446 هـ
محمد عبد الله عنان : دول الطوائف

(78) فى الاصل نجى

(79) كان الجواز الثالث سنة 483 هـ (1090 م)
ابن أبى زرع : المصدر السابق ص 153

يخرج للقائه مع تثاقل الرؤساء عنه ، وعثر لاحدهم (80) على خطاب يشجع العدو على لقائه ، واستولى على من قدر عليه من الرؤساء على البلاد ، والمعاقل ، وبقيت طائفة من رؤساء الثغر الشرقى ، من جزيرة الاندلس ، حالفوا النصارى ، او صاروا معهم البـــا (81) ، ودعاهم امير المؤمنين الى الجهاد والدخول فى بيعة الجمهور ، فقالوا لا جهاد الا مع امام من قريش ولست به ، او نائبه عن امام وما انت ذلك ، فقال انا خادم الامام العباسى فقالوا له اظهر لنا تقديمه اليك ، فقال او ليست الخطبة فى جميع البلاد له ، فقالوا ذلك احتيال ، او من دواعى النفاق ، فهل يجب قتالهم ، واذا ظفر بهم كيف الحكم فى اموالهم ، وهل على مسلم حرج فى قتالهم ، وهل على الامام العباسى ان يبعث له بمنشور يتضمن تقديمه لهم على جهادهم ، فانهم انما خرجوا عليه لان (82) الامير خادمه وهو يخطب له على اكثر من الفى منبر ، وتضرب السكة باسمه ، الى غير ذلك ، ومتى وصف نفسه قال : لست مستبدا وانما انا خادم امير المؤمنين المستظهر ، وهذا اشد من يؤكد بالتخلية، واظهر من يجد بالتزكية ، فالشيخ الامام الاجل الزاهد والاوحد ، ابى حامد اتم الاجر واعم الشكر فى الانعام بالمراجعة فى هذا السؤال انشاء الله ، فأجاب رضوان الله عليه ، لقد سمعت من لسانه ، وهو الموثوق به ، الذى يستغنى مع شهادته عن غيره وعن طبقة من ثقاة المغرب الفقهاء ، وغيرهم من سيرة هذا الامير اكثر الله فى الامراء امثاله ، ما اوجب الدعاء لامثاله ، ولقد اصاب الحق فى اظهار الشعار الامامى المستظهرى فى حرس الله علـــى المستظهرين ظلاله ، وهذا هو الواجب على كل ملك استولى على قطر مـــن اقطار المسلمين فى مشارق الارض ، ومغاربها ، فعليهم تزيين منابرهم بالدعاء للامام الحق ، بلغهم صريح التقليد من الامام او تأخر عليهم ذلك ، لعائق ، واذا نادى الملك المستولى بشعار الخلافة العباسية ، وجب على كـــل الرعايا (83) ، والرؤساء الاذعان ، والانقياد ، ولزومهم السمع والطاعة ،

(80) المقصود المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية ، فقد وقعت فى يد يوسف تاشفين بعـض المراسلات السرية الموجهة من ابن عباد الى ملك قشتالة تجتاح بلاده ، وتمعن فى تخريبها ، دون ان يستطيع دفعا لهم ، وشعر من جهة اخرى بما يضمره المرابطون نحوه من النيات الخطيرة ، فقد ايقن انه لا مفر من الالتجاء الى ملك قشتالة ، والتفاهم معه على دفع المرابطين عن الاندلس .
عبد الله بن بلكين : كتاب التبيان ص 169 ، ابن ابى زرع : المصدر السابق ص 155

(81) البا : القوم تجمعهم عداوة واحدة .

(82) فى الاصل بان

(83) فى الاصل الرعايـة

وعليهم أن يعتقدوا ان طاعته هي طاعة الامام ، ومخالفته هي مخالفة الامام، وكل من تمرد واستعصى ، وسل يده عن الطاعة ، فحكمه حكم الباغي ، وقد قال الله تعالى « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ، فأصلحوا بينهما ، فان بغت احداهما علـى الاخرى ، فقاتلـوا التى تبغى ، حتى تفيء الى أمـر الله » (84) والفيء الى أمر الله ، الرجوع الى السلطان العادل المتمسك ، بولاء الحق المنتسب الى الخلافة العباسية ، فكل تمرد على الحق ، فانه مردود بالسيف الى الحق ، فيجب على الامير ، واشياعه قتال هؤلاء المتمردة عن طاعته لاسيما ، وقد استجدوا (31 : أ) بالنصارى ، المشركين اولياءهم وهم اعداء الله فى مقابلة المسلمين الذين هم اولياء ، فمن القربات (85) قتالهم الى أن يعودوا الى طاعة الامير العادل المتمسك بطاعة الخلافة العباسية ، ومهما تركوا مخالفة، وجب الكف ، واذا قوتلوا لم يجز أن يتتبع مدبرهم، ولا أن يدفف (86) على جريحهم ، بل مهما سقطت شوكتهم ، وانهزموا ، وجـب الكف عنهم ، انه على المسلمين منهم دون النصارى الذين لا يبغى لهم عهد مع التشاغل بقتال المسلمين ، واما ما يظفر به من اموالهم فمردود عليهم ، أو على ورثتهم ، وما يؤخذ من نسائهم ، ودراريهم فى القتال مهدرة ، لا ضمان فيها ، وحكمهم بالجملة فى البغى على الامير المتمسك بطاعة الخلافة المستولى على المنابر والبلاد ، بقوة الشوكة ، وحكم الباغى ، على نائب الامام ، فانه وان تأخر عنه صريح التقليد ، لاعتراض العوائق (87) ، المانعة ، مـن وصول المنشور بالتقليد ، فهو نائب بحكم قرينة الحال ، اذ يجب على امام المصر أن يأذن لكل امام عادل استولى على قطر من اقطار الارض ، فى أن يخطب عليه ، وينادى بشعاره ، ويحمل الخلق على العدل ، والنصفة ، ولا ينبغى أن يظن بالامام توقف الرضى بذلك ، والاذن فيه ، فان توقف فى كتابة المنشور ، فالكتب قد يعوق عن انشائها وايصالها المعاذير ، واما الاذن ، والرضى ، بعدما ظهر حال الامير فى العدل والسياسة ، وابتغاء المصلحة للتفويض ، والتعيين ، فلا رخصة فى تركه ، وقد ظهر حال هذا الامير ، بالاستفاضة ظهورا لا يشك فيه ، وأن لم يكن على ايصال الكتب ، وانشائه

---

84) سورة الحجـرات آية 9
85) ما يتقرب به الى الله تعالى من افعال البر والطاعة .
86) يجهز عليه ويتم قتلـه .
87) فى الاصل العوايـق .

عائق وكانت هذه الفتنة لا تنطفىء الا ان يصل اليهم صريح الاذن ، والتقليد بمنشور مقرون بما جرت به العادة بمثله فى تقليد الامراء ، فيجب على حضرة الخلافة بذل ذلك ، فان الامام الحق ، عاقله أهل الاسلام ولا يحل له أن يترك فى اقطار الارض فتنة ثائرة بها ، ويسعى فى اطفائها بكل ممكن ، قال عمر رضى الله عنه لو تركت جدماء (88) على ضفة الفرات لم تطل بدهناء (89) ، فأنا المسئول عنها يوم القيامة ، وقال سليمان بن عبد الملك يوما ، وقد أجدق به الناس ، قد كثر الناس ، فقال عمر بن عبد العزيز ، خصماؤك يا أمير المؤمنين ، يعنى أنك مسئول عن كل واحد منهم ، ان ضيعت حق الله فيهم او أقمته ، فلا رخصة فى التوقف عن اطفاء الفتنة ، فى قرية تحوى عشرة ، فكيف فى اقاليم واقليم الا أن يعوق عن ذلك عائق ، ويمنع عنه مانع ، المواقف القدسية الامامية المستظهرية حرس الله جلالها ، ابصر بها ، ونحن نعلم أن لا نستجيز التوقف عن اطفاء هذه الفتنة ، الا لعرض ظاهر ، وجب على أهل المغرب أن لا يعتقدوا فى حضرة الخلافة الا ذلك ، فان المسافة اذا بعدت وتخللها المارقون عن ربقة الحق ، لم يبعد أن يقتضى الرأى الشريف صيانة الاوامر الشريفة ، عن أن تمتد بها أعين أعداء الدولة ، فضلا عن أيديهم وأما من يستجيز التوقف فيها عن غير عذر ، عن التقليد للامير ، قد ظهرت شوكته وعرفت سيوسته ، وتناطقت الالسن بعدله ، ولم يعرف فى ذلك القطر من يجرى مجراه ، ويسد فى هذا الحال مسده فهذا اعتقاد فاسد فى حضرة الخلافة ، حاشاها من ان تنسب الى قصور او يقتضى فى نصره أهل العدل المتمنين بخدمتها ، والمعتصمين بعروتها ، القائمين فى اقطار الارض بانفاذ شعائرها . **(31 : ب)** واوامراها المعلومة بغرائب (90) الاحوال فهذا حكم كل أمير عادل فى أقطار الارض ، وحكم من بغى عليه والله أعلم .

وأما الكتاب فنص أوله الى آخره :

الامير جامع المسلمين ، وناصر الدين أمير المؤمنين ، ابو يعقوب يوسف بن تاشفين ، الداعى لايامه بالخير محمد بن محمد الغزالى ،

---

88) القشرة العليا للحبة

89) عشبة حمراء يدبغ بورقها

90) فى الاصل بغرايب

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين ، والصلاة على سيد المرسلين ، وسائر النبيين ، وعلى آله وأصحابه أجمعين ، قال صلى الله عليه وسلم ، ليوم من سلطان عادل خير من عبادة سبعين سنة (91) ، وقال صلى الله عليه وسلم ، ما من والى عشرة الا (92) ويؤتى به يوم القيامة مغلولة يده الى عنقه ، أوبقه (93) جوره أو طلقه عدله (94) ، (وقال) (95) رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سبعة يظللهم الله يوم لا ظل الا ظله (96) ، وعد الامام العادل ، أولهم ، ونحن نرجو أن يكون للامير جامع كلمة الاسلام ، وناصر الدين ، ظهير أمير المؤمنين من المستظلين بظل عرشه ، يوم لا ظل الا ظله ، فانه منصب لا ينال الا بالعدل فى السلطنة ، وقد أتاه السلطان ،وزينه بالعدل والاحسان ، ولقد استطارت فى الآفاق محامد سيره ، ومحاسن اخلاقه على الاجمال حتى ورد الشيخ الفقيه الوجيه، أبو محمد عبد الله بن محمد بن العربى ، الاندلسى ، الاشبيلى ، حرس الله توفيقه ، فأورد من شرح ذلك وتفضيله ، عطر به أرجاء العراق ، فانه لما وصل الى مدينة السلام ، وحضرة الخلافة ، لم يزل يطلب فى ذكر ما كان عليه المسلمون فى جزيرة الاندلس من الذل ، والصغار ، والحرب ، والاستصغار ، بسبب استيلاء أهل الشرك ، وامتداد أيديهم الى أهل الاسلام ، بالسبى أو القتل ، والنهب ، وتطرقهم الى افتضاح أهل الاسلام ، بما حدث بينهم من تفرق الكلمة ، واختلاف الثوار المحاولين للاستبداء بالامارة ، وتقاتلهم على ذلك حتى اختطف من بينهم حماة الرجال ، بطول القتال ، والمحاربة ، والمنافسة واقضاء الامر بهم ، الى الاستنجاد بالنصارى، حرصا على الانتقام ، الى أن أوطئوهم بيض الاسلام ، وكشفوا اليهم الاسرار حتى أشرفوا على التهائم ، والاغوار ، فرتبوا عليهم الجزاء (97) ، وجزوهم بشر الجزاء ، ولما استنفذوا من عندهم الاموال أخذوا فى نهب المناهل ، وتحصيل المعاقل ، واستصرخ المسلمون عند ذلك بالامير ناصر الدين ،

---

91) البخارى احكام 7
92) فى الاصل الـى
93) أوبقة : ذلك وحبسه
94) البخارى ، الجامع الكبير ص 439
95) زيادة الى النص ليستقيم المعنى
96) ورد فى الترمذى ، مسلم ، ابن حنبل .
97) فى الاصل الجـزا

وجامع كلمة المسلمين ، ظهير امير المؤمنين ، ابن عم سيد المرسلين ، صلوات الله عليه ، وعليهم ، أجمعين ، واستصرفه معهم بعض الثوار المذكورين ليأسهم عن مداراة المشركين فلبى (98) دعوتهم ، وأسرع لنصرتهم ، وأجاز البحر بنفسه ، ورجاله ، وجاهد فى الله حق جهاده ، ومنحه الله تعالى استئصال شأفة المشركين للافراج عن حوزة المسلمين (99) جزاه الله تعالى افضل جزاء المسلمين ، وامده بالنصر والتمكين ، وذكر متابعته الغزوة الى جهة أخرى بعد ثلاثة أعوام من هذه الهزيمة ، الغزوة المشهورة (100) ، وقتل كل من ظهر من النصارى بالجزيرة المذكورة من الخارجين لامداد ملوكها على عادتهم أو من سراياهم من أى جهة ، يأمنوا من جهات المسلمين، وقد بث الله الرعب فى قلوب المشركين حتى أغناه ذلك عن جر العساكر والجنود وعقد الالوية ، والبنود ، وذكر أن أولئك (101) الثوار لما أيقنوا قوة الامير ناصر الدين ، وغلبته لحزب المشركين ، وسألهم رفع المظالم عن المسلمين ، التى كانت مرتبة عليهم بجزية المشركين ، وامادهم بها لهم مداراة لبقاء أمرتهم عادوا الى ممالأة المشركين ، والقول اليهم القول فى جهة الامير ، وجرءوهم على لقائه (32 : أ) وصح عند ذلك عنده ، وعند المسلمين ، فسأله المسلمون عند ذلك انزال هؤلاء الثوار عند البلاد ، وتداركها ، ومن فيها من المسلمين ، قبل أن يسرى الفساد ، ففعل ذلك ، ولما تملكها ، رفع المظالم واظهر (من) الدين المعالم ، وأبعد عنه المفسدين ، واستبدل بهم الصالحين ورتب الجهاد ، وقطع مراد المسلمين ، ثم أضاف الى ذكر ذلك ما شاهد ، من

---

98) فى الاصل لبا

99) لبى الامير يوسف بن تاشفين استغاثة ملوك الطوائف سنة 479 هـ (1086 م)
ابن ابى زرع : المصدر السابق ص 144 .

100) المقصود بها موقعة الزلاقة ، وسميت الزلاقة لانها جرت بمكان يسمى بهذا الاسم ، وتسميه المصادر الاسلامية ساكر الياس Sacpalias ويحرف اليوم باسم ساجراجاس Sagrajase بالقرب من مدينة بطليوس وقد كانت هذه الموقعة فى رجب سنة 479 هـ (23 اكتوبر 1086 م) —
عبد الله بن بلكين : المصدر السابق ص ص 104 ، 110
الحلل الموشية ص ص 37 — 47 ، عبد الواحد المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ص 154 ، 193
ابن عذارى : البيان المغرب ج 4 ص ص 34 : 46 ، ابن ابى زرع : المصدر السابق ص 383

101) فى الاصل ذلك .

تلك السجية الكريمة فى اكرام اهل العلم ، وتوقيره لهم ، وتنزيههم ، واتباعه لما يفتون اليه من أحكام الله تعالى ، وأوامره ، ونواهيه ، وحمله عما له على السمع والطاعة لهم ، وتزيين منابر المملكة الجديدة والقديمة بالخطبة لامير المؤمنين أعز الله أنصاره ، والزام المسلمين بالبيعة ، وكانوا من قبل منكفين عن البيعة ، والنداء ، بشعار الخليفة الى غيره ، لذلك مما شرحه من عجائب (102) سيرته ، ومحاسن أحواله ، ومكارم أخلاقه ، وكان منصبه فى غزارة العلم ، ورصانة العقل ، ومتانة الدين ، يقتضى التصديق به فى روايته ، والقبول لكل ما يورده ، من صدق كلمته ، وأنه ما أفاض فى هذه الفضائل الى حضرة الخلافة أعز الله أنصارها ، فوقع ذلك موقع الاحماد ثم ذكر مع ذلك توقف طائفة من الثوار الباقين فى شرق الاندلس ، عن مشايعة الامير ناصر الدين ، ومتابعته وأنهم حالفوا النصارى ، واستنجدوا بهم ، فأعلن المسلمون بالدعاء عليهم ، والتبرى منهم ، ليتوب عليهم ، أو ليقطع شأفتهم ، وكتب هذا الشيخ سؤالا على سبيل الاستفتاء (103) وأفتيت فيه بما اقتضاه الحق ، وأوجبه الدين ، وأعجلنى المسير الى سفر الحجاز ، وتركته مشمرا عن ساق الجد ، فى طلب خطاب شريف ، من حضرة الخلافة ، يتضمن شكر صنيع الامير ناصر الدين ، فى حمايته لثغور المسلمين ، ويشتمل على تسليم جميع بلاد المغرب اليه ، ليكون رئيسهم ، ورؤوسهم تحت طاعته ، وأن من خالف أمره فقد خالف أمر أمير المؤمنين ابن عم سيد المرسلين ، ويتعين جهاده على كافة المسلمين ، ولم يبالغ أحد فى بث مناقب قوم مبالغة الشيخ الفقيه أبى محمد فى بث مناقب الامير ، واشياعه المرابطين ، ولم يقنعه ما فعله بنفسه الى أن كلف جميع من رجى بركة دعائهم الدعاء لهم فى تلك المشاهد الكريمة ، والمناسك العظيمة ، واعلى بالدعاء لامير بلده الامير الاجل أبى محمد سير ابن أبى بكر (104) وفقه الله تعالى ، وذكر من فضله وحسن سيرته ، وتلطفه

---

(102) فى الاصل عجايب

(103) فى الاصل الاستيفاء .

(104) الامير سير بن أبى بكر هو ابن عم الامير يوسف بن تاشفين ، وأحد القواد الكبار الاربعة الذين كان يعتمد عليهم الامير يوسف ، وقد أوكل اليه الامير يوسف بن تاشفين امر الاندلس سنة 483 (1090 م) واستطاع القضاء على دولة بنى عباد فى اشبيلية وضمها لدولة المرابطين ، وفتح معظم مدن الطوائف ، وحارب الامارات المسيحية ، توفى سنة 504 هـ (1110 م) فى اشبيلية ودفن بها .
ابن أبى زرع : المصدر السابق ص ص 142 ، 147 ، 154 ، 161 ، 162

بالمسلمين ، ورفع جميع النوائب عنهم ما جذبه الى النفوس ، ولقد دعا الشيخ الفقيه الى المقام ببغداد على البـــر ، والكرامة ، والاتصال ، يتشرف بهـــا من حضرة الخلافة ، فأبى الا الرجوع الى ذلك الثغر ، يلازمه للجهاد مـــع الامراء ، وفقهم الله تعالى ، ولو اقام لفاز بالحظ الاوفى من التوقير والاكرام ، وما أجدر مثله بأن يوفى حقه ، من الاحترام ، وولده الشيخ الامام ابو بكر قد احرز من العلم فى وقت تردده اليه ما لم يحرزه غيره مع طول الامد ، وذلك لما خص به ، بصفاء الذهن ، وذكاء الحس ، وانقاد القريحة ، وما يخرج من العراق ، الا وهو مستقل بنفسه ، حائزا قصب السبق بين اقرانه ، ومثل هذا الوالد والولد بالاكرام فى الوطن ، وقد تميز بمزية التوفيق من الاعيان فى الغربة ، والله يحفظ من يحفظهما ، ويرعى من يرعاها فرعاية امثالهما من آداب الدين المعينة على امير المسلمين ، وقد قال المحسنون فليستوصى بمن ظهر بهم خيرا ، وكم دخل قبلهما العراق ، ويدخل بعدهما من تلك البـــلاد النائية ، وما يذكر محاسنهما (32 : ب) ولا يرفع مساوئها (105) ، وقـــد انتهى الشيخ الفقيه من ذلك الى ما لا يمكن أن يلحق فيه شأوه ، فضلا عـــن ان يزاد عليه والله تعالى يعمر بها اوطانهما ويصلح شأنهما ، ويوفق الامير ناصر المسلمين ليتوسل الى الله تعالى فى القيامة ، اكرام أهل العلم فهـــى اعظم وسيلة عند رب العالمين ، ونسأل الله ان يخلد ملك الامير ، ويؤيده تخليدا لا ينقطع أبد الدهر ، ولعل القلوب تنبو عن هذا الدعاء ، وتستنكر لملك العباد التأييد والبقاء ، وليس كذلك فان ملك الدنيا اذا تزين فهـــــو شبكة ملك الآخرة ، فالسلطان العادل اذا انتقل من الدنيا ، انتقل من سرير الى سرير اعظم منه ، ومن ملك الى ملك اجل ، وارفع منه ، واذا رأيت ثم رأيت نعيما ، وملكا كبيرا ، ومهما وفى العدل فى الرعية والنصفة فى القضية ، فقد خلد ملكه ، وأيد سلطانه ، وقد وفق له بحمد الله ، ومنه ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على سيدنا محمد خاتم النبيين وآله أجمعين .

ثم قفلنا وقد قضينا من الهجرة الى الخلافة المفترض ، وحصلنا مـــن العلوم على بعض الغرض ، وكان بودى ان لو اختلفت هناك ، فرد شبيبتى ، وافنيت معهم بقية عمرى ، لكن سوابـــق المقدار تجرى علـــى الاضطرار ،

---

105) فى الاصل مساويها

والاختيار ، وفى أثناء التقفول (107) ألفيت ذلك الوقت زاهد الوقت ، المحرز من العلوم كل مهال وتحت الحائك منها كل خشن شيخنا أبا بكر محمد بن الوليد الفهرى الطرطوشى (108) بثغر الاسكندرية اللقاءة الثانية ، وأقمت معه فيها نتخاذب ذيول الاشكال ، ونختبر فصول القيل والمقال حتى صدرت عنه مملوء الحقائب من الرغائب ، وكتب لى كتابا نسخته من أوله الى آخره .

بسم الله الرحيم من محمد بن الوليد الطرطوشى الى الامير أبى يعقوب بن تاشفين ، سلام عليك ، أما بعد فأنى أحمد الله اليك الذى لا اله الا هو ، واشكره لديك كثيرا ، كما هو أهلك ، واخصك من مواغظة ، وحكمة ما أن احتزت به نجوت من عظيم ما ركبت ان شاء الله تعالى ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، قال الله سبحانه (يا داود انا جعلناك خليفة فى الارض ، فاحكم بين الناس بالحق) الى قوله يوم الحساب . قال سلمان الفارسى (110) رضى الله عنه أتعلمون من الخليفة ؟ الخليفة هو الذى يقضى بكتاب الله ، ويشفق على الرعية ، شفقه الرجل على أهله ، وقال سبحانه وتعالى (الذين ان مكناهم فى الارض أقاموا الصلاة وآتو الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر) (111) فمن مكنه الله فى الارض ، وأتاه الله سلطانا ، ولم يفعل ما أمر الله تعالى به فى هذه الآية خفنا الا يكون من أهلها ، لان الله تعالى وصف هذه الامة اذ فتح الله تعالى عليهم الارض ، وأهلك عدوهم ، باقامة الصلاة ، وايتاء الزكاة ، وأمر بالمعروف ،

---

(107) الرجوع أو العودة

(108) أبو بكر الطرطوشى ، نسبة الى طرطوشة ، ثغر سرقسطة ، وكان اماما عاملا ، زاهدا متواضعا ، سكن مصر ، وتوفى بالاسكندرية سنة 520 هـ ، وهو صاحب كتاب سراج الملوك الذى يعتبر من الكتب التى وضعت أسس السياسة الملوكية فى التفكير الاسلامى
ابن بشكوال : الصلة ص 545 ، الضبى : بغية الملتمس ص 125 ، ابن فرحون : الديباج ص 276 .

(109) سورة ص آية 26

(110) كنيته أبو عبد الله ، ويقال له سلمان الخير ، أصله من اصطخر ، وقيل من اصبهان، وهو من الطبقة الثانية من الصحابة رضوان الله عليهم ، كان عامل الخليفة عمر بن الخطاب على المدائن توفى سنة 32 هـ (652 م) .
ابن تغرى بردى : المصدر السابق ج 1 ص 89 ، المسعودى : مروج الذهب ج 1 ، 2 ص ص 306 ، 307

(111) سورة الحج آية 41

ونهى عن المنكر ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من أحد يلـي عملا ، أو نال سلطانا الا اهتز به الصراط حتى يزول كل عظم عن حقه ، فان كان محسنا نجـا ، وان كان مسيئا هوى سبعين ضريفا » (112) ، فلما بلغ ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قال ومن يرغب فى العمل بعد هذا ،

قال له أبى ذر رضى الله عنه من سلب الله انفه ، واصغر خده ، وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (ما من وال يلي رعية مـن المسلمين ، فيموت ، وهو غاش لهم الا حرم الله (33 : أ) تعالى عليـه الجنـة (114)) وروى أن رسول الله صلى الله عليه قال للعباس عمه ، لما قال له ، أمرنى على امارة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يـا عباس يا عم رسول الله نفس تحييها خير من امارة لا تحصيها ، ان للامارة حسرة ، وندامة يوم القيامة ، فان استطعت أن لا تكون أميرا فافعل » (115) وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته ، والرجل راع على أهل بيته ، ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولدها ، وهي مسئولة عنه ، وعبد الرجل راع ، على مال سيده ، وهو مسئول عنه ، الا فكلكم راع وكلكم مسئول عـن رعيته » (116) ولقد بلغ هذا من نفوس الصحابة ، والخلفاء الراشدين ، والائمة (117) المهتدين مبلغا ، ومالت له عقولهم ، ولانت حلومهم ، فروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه مر بطريق مكة ، فأبصر راعيا يرعى بمكان جدب ، فناداه : أيـا راع ، قد رأيت مكانا هو أخصب من مكانك ، فالحق به، ثم قال كل راع مسئول عن رعيته، وقال على (118) رأيت عمر يغدو على

---

112) لم اجد له سنـدا .
113) هو أبو ذر الغفارى ، ويقال أن اسمه جندب بن جنادة ، قدم على الرسول عليه السلام فصحبه الى أن مات عليه السلام ، توفى أبو ذر سنة 36 هـ (656 م)
النويرى: نهاية الارب السفر 18 ص ص 227 ، 228 ، الذهبى : تاريخ الاسـلام وطبقات المشاهير والاعلام ج 2 ص 111 .
114) البخارى ـــ أحكام 8
115) البخارى أحكام 7 ، النسائى البيعة 39 .
116) البخارى جمعة 11
117) فى الاصل الايمة
118) المقصود على بن أبى طالب .

قتب ، فقلت الى اين ، فقال بعير من ابل الصدقة قد ند (119) ، وأنا أطلبه فقلت أذللت الخلفاء بعدك (120) يا أمير المؤمنين ، فقال لا تلمنى يـــا ابـــا الحسن فـــوا الذى بعث محمدا بالنبوة ، لو أن سخلة (121) ذهبت بشاطىء الفرات لاخذ بها عمر يوم القيامة الا انه لا حرمة لوالى ضيع المسلمين ، يـــا ابا يعقوب لقد بليت بأمر لو حملته السموات لا نفطرت ، ولو حملته النجوم لانكدرت ، ولو حملته الارض ، والجبال لزلزلت وتدكدكت (122) ، انك حملت الامانة التى عرضت على السموات والارض والجبال فأبين ان يحملنها ، واشفقن منها . فروى أن آدم صلوات الله عليه ، لما استخلفه الله تعالى فى الارض على ذريته ، وما فيها من الانعام وعهد الله عهودا امره فيها ، ونهاه ، فقام فيها بأمر الله سبحانه الى أن حضرته الوفاة ، فسأله اللـــــه سبحانه ، أن يعلمه من يستخلفه ، ويقلده من الامانة ما قلده ، فأمر ان يعرض ذلك على السموات بالشرط الذى أخذ عليه ، من التواب ان طاع ، ومن العقاب ان عصا ، فأبين أن يقبلنه شفقا من عقابه ثم أمره أن يعرضه على الجبال ، والارض فأبينها أيضا ، ثم أمره أن يعرض على ولده ، فقبله ولده على شرط ان له الثواب ان أطاع ، والعقاب ان عصى فوبخه الله تعالى على مسارعته ، الى قبول ذلك فقال (وحملها الانسان أنه كان ظلوما) (123) لنفسه ، جهولا لعقابه ، وما تقلد لربه ، وكان الغرض تخييرا لا اجابة ، وروى أن عمر بن العزيز لما أفضت اليه الخلافة سمعوا فى منزله بكاء عاليا فسئل عن البكاء ، فقيل أن عمر خير جواريه ، وقال قد نزل بى أمر شغلنى عنكن ، فمن أحبت أعتقها ، اعتقتها ، ومن أحبت ان امسكها لم يكن لهـــا نصيب منى ، قال فبكين يأسا منه ، ثم دعا أفاصل المسلمين فى زمانه ، وعلماوهم فى وقته سالم بن عبد الله (124) ، ومحمد بن كعب (125) ، ورجاء

---

119) ند : نفر ، شـــرد
120) فى الاصل بعدى وضعت « ك » بدل الياء حتى يستقيم المعنى
121) السخلة : الشيعر : أى التمر الذى لم يشتد نواه
122) تدكدكت : تهدمت
123) سورة الاحزاب آية 72
124) تسالم بن عبد الله بن الخطاب ، كان ثقة ورع كثير الحديث توفى عام 106 هـ (724 م)
الذهبى : المصدر السابق ج 4 ص ص 115 ، 116
125) محمد بن كعب القرظي توفى عام 120 هـ (737 م)
ابن تغرى بردى : المصدر السابق ج 1 ص 385 .

بن حيوة (126) ، فقال لهم انى قد ابتليت بهذا الامر ، فأشيروا على ، فعد حضرة الخلافة بلاء ، وانت ونظراءك تعدون هذا البلاء نعمة، فقال له سالم بن عبد الله ، يا امير المؤمنين اذا أردت النجاة من عذابها ، فصم عن الدنيا ، وليكن افطارك فيها الموت ، وقال محمد بن كعب ان أردت النجاة من عذاب الله فليكن كبير المسلمين لك ابا ، واوسطهم عندك اخا ، واصغرهم ولدك ، فوقر أباك ، وارحم واحنو على ولدك ، وقال له رجاء بن حيوة ، ان أردت النجاة من عذاب الله أحب للمسلمين ما تحب لنفسك **(33 : ب)** واكره ما تكره لنفسك ، ثم مت متى شئت وانى لاخاف عليك أشد الخوف ، فاتق الله يـا أبا يعقوب فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فان لك مع الله تعالى ، موقفا يسائلك فيه عنهم شخصا ، شخصا ، ذكرا ، وانثى ، صغيرا ، او كبيرا ، حرا أو عبدا ، ومسلما ، وذميا ، فأعد لذلك المقام كلاما ، ولذلـك السؤال جوابا ، والذى نفسى بيديه ان ذلك لحق مثل ما أنتم تنطقون ، وروى عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما من أحد منكم الا ويخلو لربه ، ليس بينه وبينه ترجمان ، ولا شىء قدمه غفر يوم القيامة حتى يسأل عن خمسة ، عن عمره فيما أفناه ، وعن شبابه فيما ابلاه ، وعن ما له من أين اكتسبه ، وفيما أنفقه ، وماذا عمل فيم علم » (127) واعلم يـا ابا يعقوب فانه يزنى فرج فى ولايتك ومدى سلطاتك وطول عمرك ، الا انـت المسئول عنه ، والمرتهين بجريرته ، وكذلك لا يشرب فيها نقطة مسكر ، الا وأنت المسئول عنها ، ولا ينتهك فيها عرض مسلم الا وانت المطالب ، ولا يتعامل فيها بالربا ، الا وانت المأخوذ به ، وكذلك سائر المظالم ، وكل حرمة انتهكت من حرمات الله تعالى ، فعهدتها عليك ، لانك قادر على تغييرها ، فأما ما خفى من ذلك ، ولم يكن ظاهرا ، لم يره المسلمون ، فأنت المبرىء منه انشاء الله تعالى ، الا ترى الى عمر بن الخطاب كيف أشفق أن يطالبه الله ببعير من ابل الصدقة ، وانما هو البعير للمسلمين ، فركب على بعيره

---

126) هو ابو المقدام رجاء بن حيوة بن جرول الكندى ، وهو الذى نهض بالخلافة لعمر بن عبد العزيز ، وكان كالوزير لسليمان بن عبد الملك توفى عام 112 هـ (730) .
ابن خلكان : وفيات الاعيان ج 2 ص 60
الذهبى : المصدر السابق ج 4 ص ص 249 ، 250

127) الترمذى قيامة ، 11

وجعل يطلبه (128) بنفسه ، ولا عذر لك عند الله تعالى ، أن تقول لم يبلغنى فانك اذا احتجبت عن المسلمين ، فكيف تعلمه وتراه ، قال الله تعالى : (كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون) (129) ، من تركهم الافكار ، وانما لقولهم ، لقوم سخط عليهم هذا من الاكفاء ، والنظر . فما ظنك بين الولاة والامراء ، قال الله سبحانه : (يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها ، ووجدوا ما عملوا حاضرا) (130) ، ولا يصلح لذلك احدا فى التفسير ، الصغير التبسم ، والكبيرة الضحك ، ولقد بلغنى ان عبد الله العمرى (131) لما حج لقى هارون الرشيد فى الطواف ، فقال يا هارون ، فنظر اليه الرشيد فعرفه ، فقال لبيك يا عمارة ، فقال « كم ترى ها هنا من خلق » قال لا يحصيهم الا الله تعالى ، قال فاعلم ايها الرجل ان كل واحد منهم يسأل عن خاصة نفسه ، وانت وحدك تسأل عنهم كلهم ، فانظر كيف تكون ، فبكى هارون الرشيد بكاء شديدا ، فجعلوا يعطون منديلا يمسح به دموعه ، قال له والله يا هارون ان الرجل ليسرع فى مال نفسه فيستحق الحجر عليه ، فكيف بمن يسرع فى مال المسلمين ، ولما دخل طاووس اليمانى (142) على سليمان بن عبد الملك ، قال يا امير المؤمنين هل تدرى من اشد الناس عذابا يوم القيامة ، قال سليمان : قل ، فقال اشد الناس عذابا يوم القيامة من اشرك الله فى ملكه فجار فى حكمه ، فاستلقى سليمان بن عبد الملك على سريره باكيا ، فما زال باكيا حتى قام عنه جلساؤه ، وقال ابو بكر الصديق رضى الله عنه ، ان الملك ، اذا ملك زهده الله فى ماله ، ورغبه فى مال غيره ، واشرب قلبه للاشفاق من الفقر ، فهو يسخط على القليل ، ويحسد على الكثير ، حتى اذا قضى الله عليه حاسبه بأشد حسابه ، وأقل عفوه ، فأحذر يا أبا يعقوب أن ترد على جنة عرضها السموات والارض ، فلا يكون لك فيها موقف قدم ، أعاذنا الله ، واياك فى هذا الموقف ، ولقد بلغنى يا ابا يعقوب انك احتجبت عن (34 : أ) المسلمين

---

128) فى الاصل يتطلبه
129) سورة المائدة آية 79
130) سورة الكهف آية 49
131) هو عبد الله العمرى المدينى توفى سنة 171 هـ (787 م)
ابن تغرى بردى : المصدر السابق ج 2 ص 69
142) هو طاووس بن كيسان أبو عبد الرحمن اليماني الجندي من ابناء الفرس ، وهو من فقهاء التابعين توفى سنة 106 هـ (724 م)

بالحجارة ، والطين واتخذتها دونهم حجابا ، وأن طالب الحاجة ليظل يـوم يسائل فما يلقاك ، كأنك لم تسمع قول الله عز وجل (وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ، ويمشى فى الاسواق) (143) . قال الحسن (144) : لا والله ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تغلق دونه الحجب ، ولا يعدى عليه بالجنان ، ولا يراح عليه بها ، ولكن كان كل من أتى يلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقيه ، وكان يجلس بالارض ، ويضع طعامه فى الارض ، ويلبس الغليظ ، ويركب الحمار ويردف (145) عليه عبده ، ويلعق أصابعه ، وكان يقول من رغب عن سنتى فليس منى ، قال الحسن فما أكثر الراغبين عن سنة التاركين لها ، كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، يأخذ درته (146) ، ويمشى فى الاسواق ، ويتفقد أمر رعيته ، وكان يعس ليلا فى سكك المدينة مع عبد الرحمن بن عوف ، وغيره ، من الصحابة رضى الله عنهم ، يحفظون عورات المسلمين ، فروى عنه أنه استعمل سعدا بن أبى وقاص على الكوفة ، فبلغه أن سعدا اتخذ قصرا ، وجعل عليه بابا ، وقال انقطع التصويت ، فارسل اليه محمد بن مسلمة (147) وقال اذا رايت سعدا ، فاحرق بابه ، فأتى الكوفة ، وأخرج زنادة (148) واستورى ناره ، ثم أحرق الباب ، فجعل سعد يعتذر ، ويحلف بالله ما قال ، فقال له محمد بن مسلمة ، تفعل ما أمرتك به ، وتورى عنك القول يا أبا يعقوب ، ولقد بلغنى أنك استأثرت على المسلمين بالخط الوافر من حطام الدنيا ، وزخرفتها ، فلبست الناعم ، وأكلت اللبن ، وتمتعت بلذاتها ، وشهواتها ، فكأنك لم تسمع قول الله عز وجل (أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا ، واستمتعتم بها) (149) ، أو لم تسمع سبحانه يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم ، ولنبعثنهم فيه ، ولقد

---

143) سورة الفرقان آية 7

144) هو الحسن بن على بن ابى طالب ـ ابن فاطمة الزهراء بنت الرسول عليه السلام توفى سنة 50 هـ .

145) يردف : يركب خلفه ويتبعه

146) الدرة : السوط وهو مشهور لعمر بن الخطاب

147) هو محمد بن مسلمة بن سلمة بن جريش الاشهلى الانصاري توفى فى عهد معاوية الخليفة الاموى
الذهبى : المصدر السابق ج 2 ص ص 245 ، 246
الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج 4 ص ص 190 ، 210

148) فى الاصل زنده

149) سورة الاحقاف آية 20

رأيت عائشة رضى الله عنها قالت ، لقد كان يمر علينا الشهران والثلاثة ، ما توقد فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم نار ، قيل فما كـــان عيشكم ، قالت هما أسودان ، التمر والماء ، ولقد روى أن فاطمة رضـــى الله عنها ، نالت رغيفا من شعير ، فجاءت بكسرة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ما هذا يا فاطمة فقالت : رغيف خبزته يـــا رسول الله ولم تطب نفسى ان اكله حتى أجيئك بهذه الكسرة ، فقال اما انه أول طعام دخل جوف أبيك منذ ثلاثة أيام ، هذا لو شاركوك فى خفض العيس ، لنهيت عنه ، وكان الله تعالى اخذ على الائمة مثل ما روى عن يوسف صلى الله عليه وسلم ، انه كان يأكل الشعير ، ويطعم عياله الخشكار (150) ، ويطعم المسلمين الحوارى (151) ، وكان يجوع نفسه ، فقيل له لم تجوع وبيدك خزائن الارض ، فقال اخـــاف ان اشبـــع فأنسى الجائعين ، وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما أفضت اليه الخلافة ، قال انى انزلت نفسى فى مال الله سبحانه بمنزلة ولى اليتيم ، ان استغذيت استعففت ، وان افتقرت أكلت بالمعروف ، وروى عنه انه قال اخبركم بما يحل لى من مال الله سبحانه ، استحل منه حلتين ، حلة الشتاء وحلة القيظ ، وما أحج عليه ، واعتمر ، وقوتى وقوت عيالى كقوت رجل من قريش ، لا من أغنيائهم ، ولا من فقرائهم ، ثم أنا بعد رجل من المسلمين يصيبنى ما أصابهم ، فكيف والفقراء ببابك يتضاوعون (152) ، وذوو الحاجات يتوددون ، وأهل الديون ، والغرم فى السجون ، محبوسون ، مأسورون ، وأموال المسلمين تحت يدك وفى قبضتك ، أما سمعت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من ترك مالا فلورثته (34 : ب) ومن ترك كلا فعلينا (153) ، أما سمعت قول الله تعالى (انما الصدقات للفقراء والمساكين) (154) الآية الى قوله الغارمين ـــ يا أبا يعقوب أنه كبرت السن ، وانحلت القوى ، واشتعل الرأس شيبا ، وارتحلت الدنيا مدبرة ، وجاءت الآخرة مقبلة ، وحان الفراق ، والتفت الساق بالساق ، وجاءت سكرة الموت بالحق ، فالبدار البدار الـــى حياة

---

(150) هو الخبز الاسمر غير النقى وهى فارسية
(151) الحوارى : هو الدقيق الابيض وهو لباب الدقيق
(152) يتضاوعون : ينتشرون
(153) البخارى : الفرائض باب ميراث الاسير
(154) سورة التوبة آية 60

لا موت فيها ، وشباب لا هرم معه ، وصحة لا سقم فيها ، قال الله تعالــى (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون) (155) الى قوله من فضله ، فروى عن أبى عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لما أصيب اخوانكم يوم أحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ، ترد أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها ، وتسرح من الجنة حيث شاءت ، وتأوى الى قناديل من ذهب تحت العرش ، فلما رأوا طيب مقيلهم ، ومطعمهم ، ومشربهم ، ورأوا ما أعد الله لهم من الكرامة ، قالوا يا ليت قومنا يعلمون بما نحن فيه من النعم ، وما صنع الله بنا كى يرغبوا فى الجهاد ، ولا ينكصوا عنه ، فقال الله تعالى أنا مخبر عنكم ومبلغ اخوانكم ، ففرحوا بذلك واستبشروا فأنزل الله تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء) (156) الآية . وقال جل من قائل « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » (151) ، الى قوله الفوز العظيم ، فما ظنك بتجارة الله مشتريها ، يوشك والله الا تبور ، وقال جل من قائل « يأيها الذين آمنوا ، هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم » (158) فلو قطع هنا لانقطعت الاعيان فى البحث عن هذه التجارة ، كان الله بفضله وكرمه ، بين مراده من ذلك ، فقال « تؤمنون بالله ورسوله » (159) الى قوله كنتم تعلمون ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، « مثل المجاهدين فى سبيل الله كمثل الصائم ، القائم ، لا يفتر من صلاة ، ولا صيام حتى يرجع » ، وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم [قـــال] (160) تكفل الله لمن جاهد فى سبيل الله لا يخرجه من بيته الا الجهاد فى سبيل الله ، وتصديق كلمته ان يدخله الجنة ، ويرده الى مسكنه الذى خرج منه مع ما نال من أجر ، وغنيمة : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لولا أن أشق على أمتى ، لاحببت الا أتخلف عن سرية تخرج فى سبيل الله ، ولكن لا أجد ما أحملهم عليه ، ويشق عليهم أن يتخلفوا بعدى ، والذى نفسى بيده لوددت أن أقاتل فى سبيل الله ، فأقتل ثم أحيا ، فأقتل ثـــم

---

155) سورة آل عمران آية 169
156) سورة آل عمران آية 169
157) سورة التوبة آية 111
158) سورة الصف آية 15
159) سورة الصف آية 11
160) زيادة الى النص حتى يستقيم المعنى

احيـا ، فأقتل ، والذى نفسـى بيده لا يكلم (161) أحد فى سبيل اللـه ، والله اعلم بمن يكلم فى سبيله ، اذ جاء يوم القيامة ، وجرحه يثعب دما ، اللون لون الدم والريح ريح المسك (162) وقال انس بن مالك استشهد عمي يوم أحد وكان قد غاب عن بدر ، فقال : يـا رسول الله ، ان الله اشهدنى قتل المشركين ، ليرى ما اصنع ، فلما كان يوم أحد قال : انى لاجد ريح الجنة من دون أحد ، قال فما استطعت يـا رسول الله ، ما أصنع ، فوجدنا بضعا وثمانين ضربة بالسيف ، او طعنة بالرمح أو رمية (بسهم) (163) وقتل من المشركين ، فنزل فيه وفى أفعاله « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا » (164) واعلم يا ابا يعقوب أن الله تعالى فرض الجهاد على كافة المسلمين ، ولا يرده جور جائر ، ولا فسق فاسق ، الى أن تقوم الساعة ، قال الله تعالى « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر » (165) الى قوله صاغرون ، فلم يرخص لهذه الامة فى ترك جهاد عدوهم الا باعطاء الجزية (35 : أ) أو كلمة الاسلام ، وهذه الآية نسخت كل آية فى كتاب الله تعالى تتضمن الاغراض عن المشركين، وروى أبو بكر الصديق رضى الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما ترك قوم الجهاد ، الا عمهم العذاب ، فجهاد الكفار فرض عليك ، فيما يليك من ثغور بلاد الاندلس ، لانك اقرب الملوك اليها ، وعنـدك الكراع (166) والسلاح ، ولامة (167) الحرب وآلتها ، وجيوش المسلمين ، وحماة البيضة (168) طائعون لك ، وكذلك كل من بنواحيك ، وجنبـات أعمالك من المجاهدين ، والمقاتلين ، واولى البطش ، والقوة ، وأنت فى حرج من تضييع من فى ثغور أرض الاندلس مـن جماعة المسلمين ، والحـرم ،

---

161) يكلم : يجرح

162) البخارى : الايمان ، المواقيت ، الجمعة ، الصوم ، الجهاد ؛
مسلم : الامارة ، طهارة المساجد ،
الترمذى : الطهارة ، النسائى فى الطهارة

163) يوجد بياض بالنص ، اضيفت الكلمة من الحديث
والحديث ورد فى البخارى فى باب غزوة أحد

164) سورة الاحزاب آية 23

165) سورة التوبة آية 29

166) الكراع : اسم يطلق على الخيل والبغال والحمير

167) لامة : اداة الحرب من رمح وسيف ودرع .

168) البيضة : البلـد

والذرارى ، أفلا تأسيت بمن سافر اليها ، وأقصى المضى من أرض الحجاز من حماة المسلمين ، ومجاهديهم ، حتى استفتحوها ، وبثوا فيها كلمة الاسلام ، وشهادة التوحيد ، فكيف بمن يناسخها ، ويجاورها . يا أبا يعقوب اذا أردت الظفر بالعدو ، فعليك بالعدل فى الرعية ، فقد روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، أن وفدا من الوفود قدم عليه بالفتوح ، فقال له عمر : متى لقيتم عدوكم ، فقال من أول النهار ، قال فمتى انهزموا فقال فى آخر النهار فقال عمر ، انا لله واليه راجعون ، وقاوم الشرك الايمان من أول النهار ، حتى اعتدل النهار ، والله ان كان هذا عن ذنب اخذتموه بعدى ، أو أحدثته بعدكم ، ولقد استعملت يعلى بن أمية (169) على اليمن يستنصر لكم بصلاحه ، وكتب أبو بكر الصديق رضى الله عنه الى جنده بالشام وانما يؤتى العشرة الآلاف ، وأكثر اذا أوتوا من تلقاء الذنوب ، فاحترسوا من الذنوب ، ومما اتحف به ، وهو خير لك من قلاع الارض ذهبا ، لو أنفقت فى سبيل الله ، حديث رواه الائمة الثقاة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال ، لا تزال طائفة من أهل المغرب ظاهرة على الحق ، حتى يأتى أمر الله (170) والله أعلم ، هل أرادكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، معشر المرابطين ، او أراد بذلك جملة بلاد المغرب وما هم عليه من التمسك بالسنة ، والجماعة ، وطهارتهم من البدع والاحداث فى الدين ، والاقتفاء بأثر من السلف الصالح رضى الله عنهم ، وانا لنرجو (171) أن تكون أولى سابقيه ينهون عن الفساد فى الارض ، ولقد كنا فى الارض المقدسة ، جبر الله مصابها ، تترى علينا أخبارك ، وما قمت به من أداء فريضة الله تعالى فى جهاد عدوه واعزاز دينه وكلمته ، وكان من هناك من العلماء ، والفقهاء وحملة الدين ، والعباد ، والزهاد ، والمنقطعون الى الله تعالى يدعون الله سبحانه فى نصرك وتأييدك ، والفتح على يديك ، فان كنت تستنصر بجنود أهل الارض ، لقد كنا نستنصر لك بجنود أهل السماء ، حتى قدم علينا بالارض المقدسة ، الفقيه أبو محمد عبد الله بن العربى ، وابنه

---

(169) هو يعلى بن أمية التميمى المكى ، كان يفتى بمكة ، وقيل انه عمل لعمر على نجران وولى صنعاء فى عهد عثمان ، توفى سنة 37 هـ (657 م)
الذهبى : المصدر السابق ج 2 ص 326

(170) ورد الحديث فى البخارى فى باب الاعتصام ، وفى مسلم فى باب الايمان كالاتى « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق .. »

(171) فى الاصل نرجوا

الفقيه الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله ، فذكرا من سيرتك فى جهاد العدو ، واهلاكه الله تعالى فى تلك الاندية ، والمحافل ، والحلل ، والمجالس وصبرك على مكافحة العدو ومصابرته ، واعزازك للدين ، وأهله ، والعلم وحملته ، ما زاد المسلمين بصيرة فى الدعاء لك ، وحسن الاعتقاد فيك ، حتى تمنينا ان نجاهد الكفار معك ، ونكثر سواد المسلمين فى حلتك ، نسأل الله تعالى الذى يهب الجزيل من فضله أن يهبنا واياك الشهادة فى سبيله ، ثم اليه سبحانه نضرع أن يريك الحق حقـا . (35 : ب) فتتبعه ، والباطل باطلا فتجتنبه ، فصلاح الرعية بصلاح الراعى ، والفقيه أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربى ممن صحبنا أعواما يدارس العلم ويمارسه ، بلوناه وخبرناه ، وهو من جمع العلم ووعاه ، ثم تحقق به ورعاه ، وناظر فيه ، وجد ، حتى فاق أقرانه ، ونظراءه ، ثم رحل الى العراق فناظر العلماء وصحب الفقهاء ، وجمع من مذاهب العلم عيونها ، وكتب من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وروى صحيحه ، وثابته ، والله تعالى يؤتى الحكمة من يشاء ، وهو وارد عليك بما يسرك ، فاشدد عليه يدك ، واحفظ فيه ، وفى أمثاله وصية الله سبحانه ، لنبيه عليه السلام ، قال الله سبحانه ، وهو أجل القائلين (واذا جاءك الذين يؤمنون بآيتنا فقل سلام عليكم ، كتب ربكم على نفسه الرحمة) (172) والحمد لله رب العالمين ، والسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركته ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين وآله الطيبين الطاهرين ، وسلم ، وشرف وكرم وأفضل وأنعم .

المصادر العربية :

1) أبو بكر المعافرى الاندلسى الاشبيلى (ت 543 هـ = 1148 م) مخطوط رقم 1020 بدار الوثائق الوطنية بالرباط .

2) ابن بشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك 494 ـ 587 هـ = 1100 ـ 1191 م) الصلة فى تاريخ ائمة الاندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم ـ الدار المصرية للنشر 1966 .

---

172) سورة الانعام آية 54

3) البخارى (ابو عبد الله محمد بن اسماعيل بن المغيرة ت 256 هـ = 868 م) — صحيح البخارى .
وقف على طبعه ابراهيم عبد الغفار — القاهرة 1286 .

4) الترمذى (ابو عيسى الترمذى ت 279 هـ = 892 م)
صحيــح الترمــذى .

شرح الامام ابن العربى المالكى — مصر 1913 .

5) ابن تغر بردى (جمال الدين ابو المحاسن يوسف بن تغر بردى 813 — 974 هـ = 1410 — 1469 م) — النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة — القاهرة بدون تاريخ .

6) ابن خاقان (ابو نصر الفتح بن محمد بن عبد الله بن خاقان ت 529 هـ = 1134 م) — مطمح الانفــس — القاهرة 1325 هـ .

7) ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون المغربى ت 808 هـ = 1405 م)
العبر وديوان المبتدأ والخبر — بيروت 1956 .

8) ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن خلكان 608 — 681 هـ = 1211 — 1282 م)

وفيــات الاعيان وأبناء أبناء الزمــان .
تحقيق د. احسان عباس ، بيروت 1968 .

9) الذهبى (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى ت 748 هـ = 1347 م) .

تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والاعلام .
مصــر 1368 هـ .

10) ابن ابى زرع (أبو الحسن على بن عبد الله ت 726 هـ = 1325 م) .
الانيس المطرب بروص القرطاس فى اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس — الربــاط 1973 .

11) السيوطى (جلال الدين بن ابى بكر السيوطى ت 911 هـ = 1506 م)
الجامـــع الصغيـــر
حققه محمد فؤاد عبد الباقى ـــ القاهرة 1955 .

12) الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى 224 ـــ 310 هـ = 838 ـــ 922 م) .
تاريـــخ الرسل والملوك ـــ مصر 1963 .

13) عبد الله بن بلكين (الامير عبد الله بن بلكين آخر ملوك بنى زيرى بغرناطة 447 ـــ 483 هـ = 1055 ـــ 1090 م)
التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بنى زيرى فى غرناطة (مذكرات الامير) ـــ نشر وتحقيق ليفى بروفنسال ـــ انقاهرة 1955 .

14) عبد الواحد المراكشى (محى الدين أبو محمد عبد الواحد المراكشى 581 ـــ 621 هـ = 1185 ـــ 1224 م) .
المعجب فى تلخيص اخبـــار المغـــرب
تحقيق محمد سعيد العريان ، محمد العربى ـــ القاهرة 1949 .

15) ابن عذارى (المراكشـــى)
البيان المغرب فى أخبار الاندلس والمغرب ج 4
نشر الدكتور احسان عباس ـــ بيروت 1967 .

16) ابن فرحون (برهان الدين ابراهيم بن على بن محمد ت 799 هـ = 1396 م) .
الديباج المذهب فى معرفة أعيان المذهـــب ـــ القاهرة 1239 هـ

17) المسعودى « أبو الحسن على بن الحسين بن على ت 346 هـ = 958 م)
مروج الذهب ومعـــادن الجوهـــر .
نشر يوسف داغـــر ـــ بيروت 1973 .

18) مسلم (الامام أبى الحسن مسلم النيسابورى ت 261 هـ = 874 م)
صحيـــح مسلـــم
وقف على طبعه محمد عبد الباقى ـــ القاهرة 1955 .

19) احسان عباس (دكتـــور)
ـــ الجانب السياسى من رحلـــة ابن العربى الى المشـــرق
« مجلة الابحاث » الجامعة الامريكية ـــ بيروت 1963 .

20) رحلة ابن العربى الى المشرق كما صورها « قانون التأويل » « مجلة الابحاث » ـــ الجامعة الامريكية ـــ بيروت 1968 .

21) زامباور : معجم الانساب والاسر الحاكمة
ترجمة : د. حسن محمود ـــ القاهرة .

22) محمد عبد الله عنـــان
دول الطوائف ـــ القاهـــرة .

23) المعجم المفهـــرس لالفاظ الحديث النبوى .
مطبعة بريل ـــ لندن 1969 .

المـــراجـــع الاجنبيـــة :

1 Lavaix, H., Catalogu des Monnaies de la Bib. Nat.

3 Vajda, G., Arabiica, Revue d,études Arabesextrait, Tome, XV Fasciule I, 1968.

ع د.

قل للمليحة ...

تشطير : علي الصقلي

قـــل للمليحـــة فى الخمـــار الاســـود
صونـــا لحســـن باهـــر متفـــرد

يـــا فتنـــة النســـاك فى خلواتهـــم
مـــن ركـــع متعبديـــن وسجـــد

مـــاذا فعلـــت بناســـك متعبـــد !

***

قـــد كـــان شمـــر للصـــلاة ثيابـــه
وسعـــى لقـــرة (1) عينـــه فى الموعـــد

---

1) فى الحديث الشريف : وجعلت قرة عينى فى الصلاة .

لكنــه مـــا ان دنــا مــن مسجـــد
لــم يفتــان لـــه يـــروح ويغتـــدى

حتـــى وقفــت لــه ببــاب المسجــد

**

فسلبـــت منـــه دينـــه ويقينـــه
مــن بعـــد طــول تبتـــل وتهجـــد

غادرتـــه تيهــان فـــى درب الهـــوى
كالطفــل ليــس علــى الهــوى بمعــود

وتركتـــه فى حيـــرة لا يهتـــدى

**

ر د ى عليــه صلاتـــه وصيامـــه
ألـــه يرجــى ، دون ذا ؛ مــن مسعــد

رحمـــى بـــه مـــاجـــورة رحمـــى بـــه
مــن ســوء منقلــب يلقــى فـــى غــد

لا تفتنيـــه بحـــق ديـــن محمـــد

الـــربـــاط **علــى الصقلــى**

---

2) الرواية الذائعة : لا تقتليه ، وهو تصحيف ظاهر ، اذ المناسب لكــون الشـاعر يناشـــد المليحة رد صلاته عليه أن يفعله ذلك حتـــى لا تفتنه فى دينه ، فليس فى القتل هنا اى معنى جميل

المغرب والأندلس
في كتاب صبح الأعشى
(2)

محمد ابن تاويت

وفى الصفحة 225 وما بعدها ، تعرض للقاعدة الرابعة ، اشبيليـــة : وهي مدينة أزلية فى غرب الاندلس ، وجنوبيه على القــرب من المحيـــط موقعها فى الاقليم الرابع ، قال ابن سعيد ، حيث الطول تسع درج وعشر دقائق والعرض سبع وثلاثون ، وثلاثون دقيقة ، وهي على شرقي نهرهـــا الاعظم وجنوبيه ، ولها خمسة عشر بابا ، ومملكتها غربي مملكة قرطبـة ، فطول مملكتها منها الى مصب نهرها فى المحيط نحو خمس مراحل وعرضها من الجزيرة الخضراء الى بطليوس نحو خمسة أيام ، وبينها وبين قرطبـة اربعة أيام ، وهي الآن بيد النصارى ، ولها كور فى جنوبي نهرها وشماليه.

فمن الاولى وهي الاكثـــر :

كورة أركش ، وهي معقل فى غاية المناعة

كورة شريش ، ينسب اليها شارح المقامات الحريرية

كورة طـــــريف .

وأما التي من الثانية ، فاثنتان :

كورة اوتنة ، وهي مدينة جليلـــة

كورة شلب ،وهي مدينة غربي اشبيلية وشماليها على ساحل المحيط، وبها قصر الشراجيب ، الذي يقول فيه بعض شعرائهم :

وسلم على قصر الشراجيب عن فتى   له ابدا شوق الى ذلك القصـــر

وفى الصفحة 226 والتي بعدها تعرض للقاعدة الخامسة ، قرطبة ، فنقل عن ابن سعيد ، انها بلسان القوط بالظاء المعجمة (وهو اقــرب الى نطقها عند الاسبان) وهي مدينة غربي نهر اشبيلية ، فى غــرب الاندلس بجنوب ، وموقعها اواخر الاقليم الرابع ، قال ابن سعيد : حيث الطــول عشر درج ، والعرض ثمان وثلاثون ، وعشرون دقيقة ، وهي فى الجنوب والشرق عن مملكة بطليوس ، وفى الجنوب عن مملكة طليطلة ، وهي أعظم مدن الاندلس ، بلغت عدة مساجدها الفا وست مائة مسجد ، وحماماتهـــا تسع مائة حمام ، وقد استولت عليها ملوك النصرانية وهي بأيديهم الان ، ولها مضافات ، منها :

مدينة الزهراء ، بناها الناصر غربي قرطبة فى سفح جبل ، ومنها :

حصن المدور ، وهو المعقل العظيم المشهور ، ومنها :

حصن مراد ، وهو حصن فى غربي قرطبة ، ومنها :

كورة غافق ، وهي معاملة كبيرة ، ومنها :

كورة استجة ، وغيـــر ذلك .

وفى الصفحة 227 والتي بعدها ، تعرض للقاعدة السادسة ، طليطلة، وهي فى آخر الاقليم الخامس ، وعن ابن سعيد ، انها حيث الطول خمس عشرة درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض ثلاث واربعون وثمان عشرة دقيقة،

مدينة أزلية ، كانت فى القديم قاعدة الاندلس ، وبها كان كرسي « لذريق » آخر ملوك القوط ، عند الفتح ، وهي الان قاعدة ملـــك « الاذفونـــش » المعروف بالفنش ، وهي حصينة مبنية على جبل عال ، ولها نهر يمر باكثرها منحدراً من جبل الشارة ، عند حصن باجة ، وبه يعرف نهر طليطلة ، فيقال نهر باجة ، ومنها الى نهاية الاندلس الشرقية عند جبل البرت نحـو نصف شهر ، وكذلك الى المحيط بجهة شلب ، ولها مضافات ، منها :

مدينة وليد ، موقعها فى اواخر الاقليم الخامس ، قال ابن سعيد ، حيث الطول احدى عشرة درجة واثنتا عشرة دقيقـــة ، والعرض ثمـــان وثلاثون وثلاث دقائق ، وهي فى الغرب بين طليطلة فى جنوبي جبل الشارة، ويحلها « الفنش » فى أكثر أوقاته .

ومنها مدينة الفرج ، شرقي طليطلة ، وشرقيها مدينة سالم ، قال ابن سعيد ، ويقال لنهرها وادي الحجارة ، ومنها :

مدينة سالم ، قال ابن سعيد ، وهي بالجهة المشهورة بالثغـــر من شرقي الاندلس ، مدينة جليلة ، وبها قبر المنصور ابن ابي عامر .

وفى الصفحة 229 تعرض للقاعدة السابعة ، جيان ، موقعها فى اول الاقليم الخامس ، قال ابن سعيد ، حيث الطول احدى عشرة واربعـــون دقيقة والعرض ثمان وثلاثون ، وسبع وخمسون دقيقة ، ومملكتهـــا بين مملكتي غرناطة وطليطلة ، فى نهاية الحصانة ، وهي عن قرطبة فى جهـــة الشرق ، وبينهما خمسة ايام ، وكانت بيد بني الاحمر ، فاخذتها الفرنج بعد حصار طويل ، ولها مضافات ، منها :

مدينة قيجاطة ، كثيرة الخصب نزهة ، اخذتها النصارى بالسيف ، ومنهـــــا :

مدينة بياسة ، وهي على نهر اشبيلية ، كثيرة الزعفران يحمل منهـا الى الآفـــاق ، ومنهـــا :

مدينة آبدة ، أسلامية أحدثت فى دولة بني امية بجوار بياسة ، وليست على النهر ، ولها عين تسقي الزعفران ، ومنها :

جبل سمنتان ، وبه حصون وقرى كثيرة ، ومنها :

معقل شقورة ، وحصن برشانة .

وفى الصفحة 230 تعرض للقاعدة الثامنة ، مرسية ، موقعها فى اول الاقليم الخامس ، قال ابن سعيد ، حيث الطول ثمان عشرة درجة ، والعرض تسع وثلاثون ، وعشر دقائق ، وهي مدينة اسلامية ، بنيت ايام الامويين ، من قواعد شرق الاندلس ، تشبه اشبيليه غربيه بالبساتين وهي فى الذراع الشرقي الخارج من عين نهر اشبيلية ، ولها عدة منتزهات مضافات منها :

الرشاقة والزناقات وجبل أيل ، وبسط تسرح فيه العيون ، ولها مضافات منها :

مدينة مولة ، غربيها ، ومنها : اريولة ، وغير ذلك .

وفى الصفحة 231 وما بعدها ، تعرض للقاعدة التاسعة ، بلنسية ، موقعها فى اواخر الاقليم الرابع ، قال ابن سعيد ، حيث الطول عشرون درجة ، والعرض ثمان وثلاثون وست دقائق ، وهي شرقي مرسية وغربي طرطوشة في شرق الاندلس على جنب بحيرة حسنة قرب بحر الزقاق ، يصب فيها نهر يجري على شمالي بلنسية ، ولها عدة منازه ، منها :

الرصافة ، ومنية ابن عامر ، قال ابن سعيد ، ويقال ان ضوء مدينة بلنسية ، يزيد على ضوء بلاد الاندلس ، وجوها صقيل ابدا لا يكدره شيء ، ولها مضافات ، وقد صارت الآن من مضافات برشلونة ، منها :

مدينة شاطبة وهي عظيمة لها معقل فى غاية الامتناع ، وعدة مستنزهات ، منها البطحاء ، والغدير ، والعين الكبيرة ، واليها ينسب

الشاطبي صاحب القصيدة فى القراءات السبع ، وصارت الان مضافة الى ملك برشلونة ، ومن مضافات بلنسية ، مدينة دآنية ، شرقـــي الاندلس ، وموقعها فى الاقليم الخامس ، قال ابن سعيد ، حيث الطول تســـع عشرة درجة وعشر دقائق ، والعرض تسع وثلاثون وتسع دقائق ، وهـــي على البحر غربي بلنسية ، لها عدة حصون ، صارت كذلك من مضافات برشلونة مـــع بلنسيـــة .

وفى الصفحة 232 تعرض للقاعدة العاشرة ، سرقسطة ، مدينة من شرق الاندلس (كذا) موقعها فى أواخر الاقليم الخامس ، قال ابن سعيد، حيث الطول احدى وعشرون درجة وثلاثون دقيقة ، والعـــرض اثنتـــان وأربعون درجة وثلاثون دقيقة ، وهي قاعدة الثغر الاعلى ، ازلية بيضاء فى أرض طيبة ، التف عليها اربعة انهار ، فاضحت بها مرصعة مجزعة ، ولها منتزهات ، منها قصر السرور ، ومجلس النهب ، وفيهما يقول ابن هود من أبيـــات :

قصر السرور ومجلس النهـــب   بكما بلغـــت نهاية الطـــــــرب

وفى الصفحة 233 تعرض للقاعدة الحادية عشرة ، طرطوشة ، مدينة شرقي الاندلس ، موقعها فى الاقليم الخامس ، قال ابن سعيد حيث الطول اثنتان وعشرون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض أربعون درجة ، وهي من كراسي ملك شرق الاندلس ، شرقي بلنسية فى الجهة الشرقية من النهر الكبير الذي يمر على سرقسطة ويصب فى بحر الزقاق ، على نحو عشرين ميلا من طرطوشة ، قال : وشرقيها جزيرة مايورقة ، واليهـــا ينســـب الطرطوشي صاحب سراج الملوك .

وفى هذه الصفحة والتي بعدها تعرض للقاعدة الثانيـــة عشـــرة ، برشلونة ، أو برشنونة،فنقل عن تقويم البلدان انها خارجة عن بلاد الاندلس فى بلاد الفرنج ، موقعها اوائل الاقليم السادس ، قال ابن سعيد : حيث الطول اربع وعشرون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض اثنتان واربعـــون ، وقد اضيف اليها ((ارغون)) وشاطبة ، وسرقسطة وبلنسية وجزيرة دانية، وميورقة ، وغير ذلك ، فهي قاعدة النصارى .

وفى الصفحة 234 تعرض للقاعدة الثالثة عشرة ، بنبلونة ، موقعها أواخر الاقليم السادس ، وقال ابن سعيد : حيث الطول اثنتان وعشرون درجة وخمس عشرة دقيقة، والعرض اربع واربعون درجة، وهي في غرب الاندلس خلف جبل الشارة ، قاعدة النبرى ، احد ملوكهم وتعرف بمملكة نبرة ، وهي فاصلة بين مملكة قشتالة وبرشلونة ، وهي مما يلي قشتالة من جهة الشرق

وفى هذه الصفحة والتي بعدها تعرض في الجملة الثالثة لانهار الاندلس ، فقال : ان اعظمها نهران : نهر اشبيلية ، الذي قال فيه ابن سعيد ، انه فى قدر دجلة ، وهو اعظم نهر بها ، ولهذا يسمى النهر الاعظم عندهم ، ومخرجه من جبال شقورة ، حيث الطول خمس عشرة درجة ، والعرض ثمان وثلاثون وثلثان ، يجري من الشرق الى الغرب ، ويصب اليه عدة انهار ، منها نهر شنيل ، الذي يمر على غرناطة ، ونهر سوس ، الذي عليه مدينة استجة ، ويسير من شقورة الى جهة جيان ، ويمر على مدينة بياسة ومدينة آبدة، ثم على قرطبة، فاذا تجاوزها وقرب من اشبيلية انعطف وجرى من الشمال الى الجنوب ، مارا بها وهي على شرقيه وطريانة على غربيه ، ثم ينعطف الى الغرب ، ثم يجاوز حتى يصب فى المحيط ، عند بر المائدة ، حيث الطول ثمان درج وربع ، والعرض ست وثلاثون وثلثان ، وتكون جزيرة قادس فى البحر الرومي (كذا) على يسار مصبه ويقع فيه المد والجزر من البحر ، كما فى دجلة عند البصرة ، يبلغ ذلك فيه سبعين ميلا الى فوق اشبيلية عند مكان يعرف بالارحي ، ولا يملح ماؤه بسبب المد فى اشبيلية ، وبين البحر خمسون ميلا ، والمراكب لا تزال فيه منحدرة صاعدة مع المد والجزر ، قال ابن سعيد ، وعليه من الضياع والقرى ما لا وصف له .

الثاني نهر مرسية ، وهو قسيم نهر اشبيلية ، يخرجان من شقورة ، فيمر نهر اشبيلية مغربا ، ونهر مرسية مشرقا ، ويصب فى بحر الروم .

وفى الصفحة 236 تعرض للموجود بها فى الجملة الرابعة ، قال : ان كل ما يوجد بالمغرب يوجد او غالبه بالاندلس ، ففيها من الوحش الابل والغزال وحمار الوحش ، ولا وجود للاسد بها ، وقد تقدم ما فى بلدان

الاندلس من فواكه ، وفيها من مقاطع الرخام الابيض والاحمر والمجزع وغيره .

ثم تعرض فى نفس الصفحة ، بالجملة الخامسة ، لملوك الاندلس ، فقال أول سكانها بعد الطوفان ((الاندلش)) وكانوا مجوسا ، كما قال الرازي ، وقال ((هروشيوش)) مؤرخ الروم ، أول من سكنها الاباريون ، وقال فى الروض المعطار ، ويقال ان عدد ملوكهم مائة وخمسون ملكا ، وهي أولى طبقة .

وفى الصفحة التالية تعرض للطبقة الثانية ، ملوكها بعد الاندلش فنقل عن الرازي أن أولهم ((اشبان)) وهو الذي غزا الافارقة وحصر ملكهم بطارقة ، ونقل رخامها الى اشبيلية واتخذها دار ملكه وبه سميت ، وغزا من اشبيلية ايلياء ، بيت المقدس ، فهدمها وقتل من اليهود مائة الف ، واسترق كذلك ، وفرق فى البلاد مائة الف ، ونقل رخامها وذخائرها الى الاندلس .

وفى الصفحة 238 تعرض للطبقة الثالثة ، الشبونقات ، وهي طائفة ثارت على الاندلس من رومة ، مبعث المسيح ، فملكوا الاندلس وجعلوا دار مملكتهم ((ماردة)) وملك منهم أربعة وعشرون ، وذكر ((هروشيوش)) انه خرج عليهم من رومة ثلاث طوالع من الغريقيين : الانبيون والشوانيون ، والقندلش ، فاقتسموا ملكها ، فكانت جليقية لقندلش ، ولشبونة وماركة وطليطلة ومرسية للشوانيين ، واشبيلية وقرطبة وجيان ومالقة للانبيين ، حتى زحف عليهم القوط من رومة .

وفى نفس الصفحة ، وما بعدها ، تعرض للطبقة الرابعة ، القوط ، فقال : انهم خرجوا على الشبونقات ، فاقتطعوا الاندلس من صاحب رومة ، واتخذوا طليطلة دار ملكهم ((دخشوش)) وهو اول من تنصر منهم بدعاء الحواريين ، فعدل وحسنت سيرته ، وقال ((هيروشيوش)) انه قد ولى عليهم الملك ((اطفالش)) ، ثم بعده ((طشريك)) ، ثم ((تالبه)) وزوج اخته من ((طودشيش)) ملك الرومانيين وصالحه ثم ولي مكانه ((لذريق)) فزحف على الاندلس وقتل ملوكها ، ثم ولي ابنه ((وريقش)) فانتقض عليه

((البشكنس)) احدى طوائف القوط ، وبعده ((الريك)) ، فقتل فى حرب، ثم ولوا ((اشتريك بن طودريق)) ، ثم ((بشليقش)) ، ثم ((طودريق)) فقتل باشبيلية ، ثم ولي ((املريق)) ثم ((طودش)) ، ثم ((طود شكل)) ، ثم ((ايلة)) ، ثم ((طنجاد)) ، ثم ((ليوية)) ، ثم ((لوبيلذة)) ، ثم ابنه ((رذريق)) وهو الذي بنى البلاط المنسوب اليه بقرطبة ، ثم ((ليوية)) ثم ((بتريق)) ثم ((غندمار)) ثم ((ششيوط)) ، وعلى عهده كان هرقل ، ملك قسطنطينية والشام ، ولعهده كانت الهجرة ، ثم ((روذريق)) ثم ((شتنلة)) ثم ((ششنادش)) ثم ((ختنوند)) ثم ((حنشوند)) ثم ((بانية)) ثم ((لورى)) ثم ((أيقه)) ثم ((غطشه)) ثم ((لذريق)) ، وهو الذي غلبه المسلمون على الاندلس ، فكان آخر ملوكهم ، قال فى الروض المعطار : وعددهم ستة وثلاثون .

وفى الصفحة 241 وما بعدها ، تعرض للطبقة الخامسة ، ملوكها على أثر الفتح ، فذكر انها فتحت سنة 92 على خلافة الوليد ، وآن طليطلة كانت آنذاك دار المملكة ، فكان بها بيت لا يفتح ، الى ان فتحه ((لذريق)) فوجد فيه تابوتا بداخله شقة صورت فيها فرسان العرب وكتبت معناها ((اذا كسرت هذه الاقفال عن هذا البيت ، وفتح هذا التابوت ، فظهر ما فيه من هذه الصور ، فان الامة المصورة فيه تغلب على الاندلس وتملكها)) فوجم لذلك ((لذريق)) ، كما فى الاسطورة .

وكان من سير آكابر الاعاجم ان يبعثوا باولادهم الى دار الملك ليتادبوا بها ، فينكح الملك بعضهم بعضا ، وكان للذريق عامل على سبتة ، يسمى يليان ، وله ابنة فائقة الجمال ، وجهها الى دار لذريق ، فراودها فاحتالت حتى كتبت الى ابيها بذلك ، فحلف انه ليزيلن سلطانه ، وتلطف حتى اقتلع بنته ، ثم كتب الى موسى بن نصير ، أمير افريقية من قبل الوليد ، يحرضه على الاندلس ، فتوثق منه موسى ، ودعا مولاه طارق بن زياد وكان على مقدماته ، فبعثه فى سبعة آلاف ، وهيا له يليان المراكب ، فعبر وحل بالجبل الذي يعرف به ، فوجد هناك عجوزا ، حدثته ان زوجها العارف بالحدثان ، كان يحدث بان اميرا ضخم الهامة ، وبكتفه الايسر شامة ، عليها شعر ، سيدخل بلدنا ، وانت ضخم الهامة كذلك ، فكشف طارق ثوبه، فاذا بالشامة كما ذكرت ، فاستبشر بذلك .

ولما هجم البلد ، كان عسكره اثني عشر الفا ، الا سنة عشر ، وللذريق في ست مائة الف ، ثم بعد الفتح ، التقى به موسى ، فاقام بها سنتين ، ثم انصرف الى القيروان ، مستخلفا ابنه عبد العزيز ، فنزل قرطبة واتخذها دار امارة ، وتوجه موسى سنة 96 بغنائمه الى الوليد ، ثم دس سليمان بن عبد الملك على عبد العزيز من قتله ، لاتهامه بموالاة إخيه الوليد ، ثم وليها ((عبد العزيز)) القيسي ؟ ثم السمح بن مالك ، ثم عنبسة بن سحيم ، ثـم يحيى بن مسلمة ، ثم حذيفة بن الاحوص ، ثم عثمان بن ابي نسعة ، ثـم الهيثم بن عبيد ، ثم عبد الرحمن بن عبد الله ، ثم الفافقي ، ثم عبد الملك بن قطن الفهري ، ثم عقبة بن الحجاج ، ثم مفلح بن بشر القيسي ، ثم حسام ابن ضرار ، ثم ثوابة الجذامي ، ثم يوسف بن عبد الرحمن الفهري ، ثـم كانت دولة بني أمية بها .

وفي الصفحة 244 وما بعدها ، تخلص لدولة بني اميـة ، بالطبقـة السادسة ، فذكر اول ملوكها عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ، وانه دخل الاندلس سنة 139 وتبعه بنو امية ، وتوفي سنة 171 ، ثم ملك ابنه هشام وتوفي سنة 178 ، ثم ابنه الحكم ، الذي استعاد الفرنج في ايامه مدينة برشلونة سنة 185 ، وتوفي سنة 206 ، فتولى ابنه عبد الرحمن ، وتوفي سنة 238 ، فملك ابنه محمد ، وتوفي سنة 272 وتولى ابنـه المنـذر ، وتوفي سنة 275 ، فبويع اخوه عبد الله ، وتوفي سنة 300 ، فولـي ابن ابنه عبد الرحمن بن محمد المقتول وخوطب بأمير المؤمنيـن ، وتلقـب بالناصر ، بعد أن مضى من ولايته تسع وعشرون ، وقد بلغـه ضعـف العباسيين ، وظهور العلويين ، ومخاطبتهم بأمير المؤمنين ، وتوفي 350 ، فولي ابنه الحكم المستنصر ، وتوفي سنة 366 ، وقد عهد الى ابنه هشام، ولقبه المؤيد ، فبويع بعد موت ابيه ، واقام الى سنة 399 ، ثم غلبه محمد ابن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، فهرب ، واستولى هذا المهدي آنئذ ، ثم غلبه سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبـد الرحمـن الناصر ، فهرب واستولى هذا في نفس السنة ، ثم غلبه محمد بن هشام المهدي في نفس السنة ، ثم عاد هشام بن الحكم حينئذ ، ثم عاد سليمان ابن الحكم ، سنة 403 ، ولقب بالمستعين ، ثم غلبه المهـدي محمد بن هشام ، في اخريات السنة ، ثم غلبه المستعين على قرطبة ، ثم قتل المهدي

وعاد هشام المؤيد الى خلافته ، والمستعين محاصر لقرطبة ، الى ان افتتحها سنة 403 ، فقتل المؤيد .

ثم جاء علي بن حمود واخوه القاسم من الادارسة ، ملوك المغرب ، فى عساكر من البربر ، فملكوا قرطبة ، سنة 407 ، وقتلوا المستعين فازالوا ملك بني امية ، من الاندلس ، واتصل ذلك فى خلفهم سبع سنين ، ثم غلب علي بن حمود المرتضي بالله ، عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك ابن المرتضي عبد الرحمن ابن الناصر ، ثم اجتمعوا على رد الامر لبني امية ، ثم ولى بعد ذلك المستظهر بالله ، عبد الرحمن بن هشام ابن عبد الجبار ، سنة 414 ، ثم غلب عليه المستكفي بالله ، محمد بن عبد الرحمن ابن عبيد الله بن عبد الرحمن الناصر ، ثم رجع الامر الى يحيى بن علي بن حمود سنة 416 ، ثم بويع للمعتمد بالله هشام بن محمد اخي المرتضي سنة 418 ، وتوفي سنة 428 فكان اخرهم .

وفى الصفحة 247 تعرض فى الطبقة السابعة لبني حمود ، فذكر انه كان فى جماعة المستعين قاسم وعلي ابنا حمود بن ميمون ابن احمد بن علي بن عبيد الله بن عمر بن ادريس،بعد انقراض دولتهم بفاس وانتقالهم الى غمارة وقيام رئاستهم بها ، فعقد المستعين للقاسم على الجزيرة الخضراء، ولعلي على طنجة وعملها ، وطمحت نفس علي الى الخلافة ، وزعم ان المؤيد هشاما عند حصارهم اياه كتب له بعهد الخلافة ، فبايعوه واجاز الى مالقة، ثم دخل قرطبة سنة 407 ، وتلقب بالناصر لدين الله ، وظل حتى قتله الصقالبة بالحمام سنة 408 ، فتولى القاسم الذي كان بطنجة ، وتلقب بالمامون ، ثم غلبه ابن اخيه يحيى ، وزحف على قرطبة فامتلكها سنة 412، وتلقب بالمعتلي ، وكانت له وقائع انتهت بتسليم الحصون اليه مع المدائن، فاشتد امره واخذ فى حصار ابن عباد باشبيلية ، فكبا به فرسه وقتل ، فانقرضت دولتهم بقرطبة ، ثم استدعى اخوه ادريس ، من سبتة وطنجة ، فبويع على ان يولي سبتة حسن بن اخيه يحيى ، فتم له الامر بمالقة ، وتلقب بالمتايد بالله ، وبايعته المرية واعمالها والرندة والجزيرة، ومات سنة 431 ، فبويع حسن بن يحيى المعتلي وتلقب بالمنتصر وبايعته غرناطة وبلاد الاندلس ، ومات مسموما سنة 438 ، وكان ادريس بن يحيى المعتلي

معتقلا ، فبويع سنة 439 واطاعته غرناطة وقرمونة وما بينهما ، ولقب بالعالي ، ثم قتل محمدا وحسنا ابني عمه ادريس ، فثار السودان بدعوة اخيهما محمد بمالقة ، فبويع محمد بن ادريس هذا ، بمالقة سنتئذ ، وتلقب بالمهدي ، وأطاعته غرناطة وجيان إعمالهما ، واقام بمالقة الى ان توفي سنة 444 ، فبويع ادريس بن يحيى بن ادريس المتايد ، ولقب بالموفق ، وزحف اليه ادريس المخلوع العالي ، من قمارش ، فبويع بمالقة سنتها ومات 447 فبويع محمد الاصغر ابن ادريس المتايد ، ولقب المستعلي ، وخطب له بمالقة والمرية ورندة ، وهلك سنة 460 ، وكان محمد بن القاسم بن حمود قد لحق بالجزيرة سنة 414 ، فملكها وتلقب بالمعتصم ، وظل حتى مات سنة 440 ، ثم ملكها ابنه القاسم ولقب بالواثق ، ومات سنة 450 فانقرضت به دولتهم ، وصارت الجزيرة الى المعتضد بن عباد .

وفي الصفحة 248 وما بعدها ، تعرض للطبقة الثامنة ، ملوك الطوائف بالاندلس ، فابتدا ببني عباد الذين استولوا على اشبيلية ، اولها القاضي محمد ابن ذي الوزارتين ابي الوليد ، بن اسماعيل ، بن قريش ، بن عباد اللخمي ، استبد بها بعد فرار القاسم بن حمود عن قرطبة انتزعها من ابن زيري واليه عليها ، وبقي بها الى ان مات سنة 433 ، فقام بامره ابنه عباد، وتلقب بالمعتضد ، فتغلب على غرب الاندلس ، ومات سنة 461 ، فولي مكانه ابنه محمد الملقب بالمعتمد ، فاستولى على قرطبة من يد ابن جهور ، وفرق ابناءه على القواعد واستفحل امره بين ملوك الطوائف ، الى ان غلب يوسف بن تاشفين على الاندلس ، فنقله منها الى اغمات من مراكش سنة 484 وتوفي 488 .

ثم تخلص لابن جهور الذي استولى على قرطبة سنة 422 ، وكان رئيس الجماعة ايام الفتنة ، ابو الحزم جهور بن محمد بن جهور الكلبي ، وكان جده ابو عبيدة الداخل الى الاندلس ، فكانت لهم وزارة بقرطبة على عهد العامريين ، ولما خلع آخر بني امية ، استبد جهور بقرطبة وكان اهل الفضل قد اسندوا الامر اليه ريثما يجدون خليفة امويا ، ثم اقتصروا عليه ، اذ كان على سننهم ، فدبر الامر وتوفي سنة 435 فولي ابنه ابو الوليد محمد ، فخلعه اهل قرطبة سنة 461 ، وكان قد فوض

التدبير لابنه عبد الملك ، فاساء السيرة ، فاعتقل بطلطيش الى ان مات سنة 462 ، فولى ابن عباد ابنه سراج الدولة ، على قرطبة ، فقتله ابن عكاشة سنة 467 ، ودعا لابن ذي النون ، يحيى بن اسماعيل ، فقدمها هذا من بلنسية ، ثم قتل بها مسموما ، وزحف المعتمد الى قرطبة فامتلكها سنة 464 (بل 463) .

ثم ذكر بطليوس (على حسب ما اتبع من نظام المدن) فقال انها عند الفتنة ، كان بها عبد الله بن مسلمة التجيبي ، ابن الافطس فاستبد بها سنة 431 ، ولما هلك ولي ابنه ، ابو بكر المظفر ، فكان من أعظم ملوك الطوائف ، وتوفي سنة 460 ، فولى ابنه عمر ، المتوكل ، ولم يزل بها الى ان قتله يوسف ، سنة 489 ؟ باغراء ابن عباد (سابقا) .

ثم ذكر غرناطة ، فذكر ان زاوى بن زيري امتلكها ايام الفتنة ، ثم ارتحل الى القيروان مخلفا عليها ابنه ، فبدأ للغرناطيين أن يبعثوا الى ابن اخيه حبوس بن ماكس ، فاتاهم واستبد بغرناطة ، وتوفي سنة 429 ، فولي ابنه باديس ، فكانت له حروب مع بني عباد ، وتوفي سنة 467 ، فولي حافده المظفر ، عبد الله بن بلكين بن بادس ، الذي ولى اخاه تميما بمالقة، بعهد من جده ، ثم خلعهما يوسف 483 .

ثم تعرض المؤلف لطليطلة ، فذكر ان بني ذي النون استولوا عليها ، سنة 427 ، بعد موت صاحبها يعيش بن محمد بن يعيش واليا بها اذ كان الظافر اسماعيل بن عبد الرحمن بن ذي النون الهواري ، تغلب على حصن افلنتين ، سنة 407 ، ثم استولى على طليطلة ، وامتد ملكه الى جنجالة من عمل مرسية ، وهلك سنة 429 ، فولي ابنه المامون يحيى ، وعظم ملكه فاستولى على بلنسية وقرطبة ، ومات مسموما سنة 467 ، فولي حافده القادر يحيى بن اسماعيل بن المامون ، وكان الطاغية اذفونش قد استفحل امره ، عند وقوع الفتنة ، فتغلب على طليطلة ، وخرج له عنها يحيى سنة 478 ، شارطا عليه ان يظاهره على اخذ بلنسية ، فقبل ، وتسلمها الفونس وبقيت بيد النصارى .

ثم انتقل الى شاطبة ، فذكر أن العامريين استولوا عليها وما معها من شرق الاندلس ، اذ بويع للمنصور عبد العزيز بن الناصر ابن عبد الرحمن ابن أبي عامر بها سنة 411 ، أقامه الموالي العامريون عند الفتنة ، ثم ثار عليه اهلها ، فتركها ولحق ببلنسية ، وفوض امره للموالي ، وكان خيران من الموالي ، قد تغلب قبل ذلك على اربونة سنة 404 ، ثم مرسية سنة 407، ثم جيان سنة 409 ، فبايعوا جميعا المنصور هذا ، ثم انتفض خيران عليه وسار الى مرسية ، حيث أقام بها ابن عمه ، ابا عامر محمد بن المظفر ابن ابي عامر ، وجمع الموالي على طاعته ، وسماه المؤتمن ، ثم المعتصم ، ثم أخرجه منها ، وهلك هو سنة 419 ، فتولى بعده عميد الدولة ابو القاسم زهير العامري وزحف على غرناطة فبرز له بادس وقتله بظاهرها سنة 429، فصار ملكه للمنصور ببلنسية ، وكان قائده صمادح وابنه معن يتولان حربه مع مجاهد العامري صاحب دانية ، فولى على ألمرية معنا ، سنة 433 وغزا الموالي بشاطبة فغلبهم عليها ، وولى على بلنسية ابنه عبد الملك ، فجاهد المامون بن ذي النون الذي انتزعها منه سنة 457 ، ولما مات هذا وولي حافده ولى على بلنسية ، أبا بكر بن عبد العزيز ، بقية وزراء ابن ابي عامر ، فحسن له ابن هود الانتقاض على القادر ، واستبد بها سنة 468 ، حتى تغلب المقتدر على دانية ، ثم هلك لسنة 478 ، وولى ابنه القاضي عمثان ، فلما سلم القادر طليطلة للاذفونش ، وزحف الى بلنسية ، خلعوا القاضي خوفا من استيلاء الفرنج ثم ثار على القادر سنة 483 القاضي جعفر ابن عبد الله بن حجاف ، فقتله واستبد بها ، ثم تغلب النصاري عليها وقتلوه سنة 489 ثم جاءهم يوسف بن تاشفين ، وكان معن مقيما بالمرية التي ولاه المنصور ، ثم خلعه ، وولي ابنه محمدا سنة 444 فبقى حتى مات سنة 480 فولي ابنه أحمد وبقي حتى خلعه يوسف .

ثم تفرغ لسرقسطة والثغر ، فذكر ان بقية بني هود استولت عليهما، اذ كان منذر بن يحيى بن مطرف التجيبي صاحب الثغر الاعلى قد اتخذ دار امارته سرقسطة ، وفى الفتنة ، استقل بهما ، وتلقب بالمنصور ، ثم مات سنة 414 ، فولى ابنه يحيى ، وتلقب بالمظفر ، وكان سليمان بن محمد ابن هود الجذامي بالولاء ، مستقلا بمدينة تطيلة ولاردة ، من اول الفتنة وجدهم هود هو الداخل الى الاندلس ، فتغلب سليمان على المظفر وقتله

سنة 431 ، وملك سرقسطة والثغر ، وتحول اليها وتلقب بالمستعين ، ثم ملك بلنسية ودانية ، وولى على لاردة ابنه أحمد المقتدر ، ومات سنة 438 ، فولي ابنه احمد ، وولى ابنه يوسف لاردة ، وهو الملقب بالمظفر ، ومات المقتدر سنة 474 ، فولى ابنه يوسف المؤتمن ، وكان له اليد الطولى فى العلوم والرياضة وألف فيها تآليف فائقة ، مثل ((المناظر)) و ((الاستكمال)) وغيرهما ومات سنة 448 فولى ابنه احمد المستعين ، ومات شهيدا سنة 503 ، فولي ابنه عبد الملك عماد الدولة ، وزحف اليه الطاغية اذفونش ، فاخرجه من سرقسطة ، واستولى عليها سنة 512 ، ومات هو سنة 513 ، فولى ابنه احمد سيف الدولة المستنصر ، وبالغ فى نكاية الطاغية وتوفى 536 وكان من ممالك بني هود ((طرطوشة)) فامتلكها مقاتل العامري سنة 433 ومات سنة 445 ، فملكها يعلى العامري برهة وملكها مولى آخر اسمه نبيل ؟ ثم نزل عنها لعماد الدولة سنة 452 فلم تزل بيد بنيه الى أن غلب العدو عليها من شرق الاندلس .

وبعد هذا يتصل بدانية وميورقة ، فذكر ان مجاهد العامري استولى عليهما ، فانه بعد الفتنة ملك طرطوشة ، ثم تركها وسار الى دانية فاستقر بها ، وملك ميورقة ومنورقة ويابسة (بياسة) واستقل بملكها سنة 413 ، وولى عليها ابن أخيه عبد الله ، ثم ابن أخيه مولاه الاغلب سنة 428 ، وهلك مجاهد سنة 436 ، فولي ابنه علي اقبال الدولة ، ودام ملكه ثلاثا وثلاثين ، ثم غلبه المقتدر بن هود على دانية سنة 468 ، ونقله الى سرقسطة ، فمات قريبا من وفاة المقتدر سنة 474 ، وبقي الاغلب على ميورقة ، وكان كثير الغزو فى البحر ، واستأذن علي ابن مجاهد فى الغزو ، واستخلف على ميورقة صهره سليمان بن مشكيان نائبا عنه ، فأقام هذا خمس سنين ثم مات ، فولى علي بن مجاهد مبشرا ، وتسمى ناصر الدولة، فاقام خمس سنين ، وانقرض ملك علي ، بتغلب المقتدر بن هود عليه ، فاستقل مبشر بميورقة ، ولم يزل يعزو حتى جمع له طاغية برشلونة ، فحاصره بميورقة عشرة أشهر ، اقتلعها منه سنة 508 ، وكان مبشر قد استصرخ علي بن يوسف بن تاشفين فلم يصل أسطوله الا بعد تغلب العدو وموت مبشر ، فازاحوا عنها العدو ، وولى علي عليها وانود بن ابي بكر اللمتوني ، ثم يحيى بن علي بن اسحاق ابن غانية ، فبعث اليها اخاه محمدا،

فاقام في ولايتها عشر سنين ، الى ان هلك إخوه يحيى ايام علي ، واستمرت ميورقة في بني غانية ، ثم ملكها الموحدون وانقرض امرهم ، واخيرا امتلكها الافرنج من الموحدين .

ويتم الموضوع بغرناطة ، فذكر أن زاري بن زيري الصنهاجي استولى عليها ، ثم قدم على المعز بن بادس بافريقية ، حفيد اخيه بليكين ، مستخلفا عليها ابنا له ، الذي اساء السيرة ، فارسل الغرناطيون الى ابن عمه حبوس ابن ماكس ، فتولاها الى ان مات سنة 429 ، فولي ابنه باديس المظفــــر ، فمصر غرناطة واختط قصبتها ، وشيد قصورها وحصن اسوارها ، ومات سنة 477 على ظهور المرابطين بالمغرب ، فولي حافده عبد الله ، وبقــــي حتى قبض عليه ، لما اجاز يوسف بن تاشفين ، كما تقدم .

وفى الصفحة 258 وما بعدها تفرغ في الطبقة التاسعة للمرابطيـــن ملوك المغرب المتغلبين على الاندلس ، فذكر ان ملوك الطوائف لما وهنوا وطمع فيهم ملك الجلالقة ابن الاذفونش ، استصرخوا بامير المسلميـــن يوسف فاجاز اليهم ونزل بالجزيرة الخضراء سنة 479 ودفع الاذفونش ، وصار يتردد بين المغرب والاندلس الى ان ملك اشبيلية وبلنسية ، واستقل عبد الله عن غرناطة وأخاه تميما عن مالقة ، وغلب المعتمد واستنزل ابنه المامون عن قرطبة وابنه الراضي عن رندة وقرمونة ، وانتزع بطليوس من عمر ابن الافطس ، وعامة الحصون من باقي ملوك الطوائـــف ، فلم يبـــق الا سرقسطة في يد المستعين بن هود ، فصارت الاندلس اليه مضافة الى المغرب ثم خاطب المستظهر العباسي فعقد له عليهما موجها اليه عهـــدا بذلك وتوفي سنة 500 ، فخلفه ابنه علي ، وفى ايامه تغلب الاذفونش على سرقسطة ، وعقد لتاشفين ولده على غرب الاندلس سنــة 526 وانزلـــه قرطبة واشبيلية ، ولابي بكر بن ابراهيم على شرق الاندلس وانزله بلنسية، وعقد لابن غانية على الجزائر الشرقية ، دانية وميورقة ومنورقة ، وبقـــي الامر الى ان غلب الموحدون فانتزعوا من تاشفين البلاد سنة 551 ، وعقد عبد المؤمن لابنه ابي يعقوب على اشبيلية ، ولابنه ابي سعيد على غرناطة ، ولما كانت ايام يوسف غزا الاندلس ، ثم رجع الى اشبيلية سنـــة 568 ، وولى عمه يوسف علي بلنسية ، وعقد لاخيه ابي سعيد على غرناطة ، وعقد

على قرطبة لاخيه الحسن ، وعلى اشبيلية لاخيه علي ، ثم عقد لابي زيد ابن اخيه ابي حفص على غرناطة ، وعقد لابن اخيه ابي محمد عبد الله بن ابي حفص على مالقة ، ثم لابنه ابي اسحاق على اشبيلية ثم لابنه يحيى على قرطبة ، ولابنه ابي يزيد على غرناطة ، ولابنه ابي عبد الله على مرسية ، وقتل فى قتال النصارى سنة 578 ، فتولى ابنه يعقوب ، ورغب ابن الاذفونش فى مهادنته فاجابه ، وعقد على اشبيلية للسيد ابي زيد ابن الخليفة ، وعلى بطليوس لابي الربيع بن ابي حفص وعلى غرب الاندلس لابي عبد الله بن ابي حفص ، ورجع الى مراكش سنة 594 ومات بعدها ، فولي ابنه محمد الناصر ونزل اشبيلية سنة 609 ثم عاد الى مراكش وتوفي .

ثم ولى ابنه يوسف المستنصر ، وكان عبد الله ابن المنصور واليا بمرسية ، فدعا لنفسه وتلقب بالعادل ، وكان اخوه ابو العلاء على قرطبة ، وأخوه ابو الحسن على غرناطة ، وأخوه ابو موسى على مالقة ، فبايعوه سرا ، ودخل اشبيلية وبايعه الموحدون ، فاتى مراكش ، وحدثت فتن بالاندلس أفضت الى ثورة ابن هود واخراجه الموحدين منها .

وفى الصفحة 260 وما بعدها تعرض للطائفة العاشرة ، بنو الاحمر ، فذكر ان القاضي شهاب الدين بن فضل الله ، تعرض الى الذي كان فى زمنه منهم ، وهو يوسف ، فلم ينسبه ، وان قال انه من ولد قيس بن سعد ابن عبادة ، وذكر ان له يدا فى الموشحات .

واصلهم من أرجونة من حصون قرطبة ، ويعرفون ببني نصر ، وكان كبيرهم آخر دولة الموحدين الشيخ ابو دبوس محمد بن يوسف بن نصر ، المعروف بابن الاحمر ، وأخوه اسماعيل ، ولما ضعف الموحدون ، استقل محمد بن يوسف بن هود بمرسية ودعا للعباسيين ثم تغلب على شرق الاندلس ، وثار محمد بن يوسف ، على ابن هود ، وبويع له سنة 629 على الدعاء لابي زكريا يحيى صاحب افريقية ، وأطاعته جيان وشريش ، ثم بايع لابن هود سنة 631 عند وصول تقليد العباسي له ثم تغلب على اشبيلية سنة 632 ، واستعادها ابن هود ثم تغلب على غرناطة سنة 635 ، وبايعوه بها ، وهو بجيان ، فنزلها وابتنى الحمراء ، ثم تغلب على مالقة ، وأخذها

من عبد الله ابن زنون الثائر بها بعد موت ابن هود ، ثم إخذ المرية من يد محمد بن الرميمي ، وزير ابن هود الثائر بها سنة 643 ، ثم بايعته لورقـة سنة 663 ، وفي ايامه وايام ابن هود استعاد العدو اكثر بلاد الاندلس ، وهي بيدهم الى الان ، وبقي حتى مات سنة 671 .

ثم خلفه الفقيه محمد ، فاستجاش بني مرين ملوك المغرب ، فكـــان لهم مع الكفار وقائع ، وبقي حتى هلك سنة 701 .

فولى ابنه محمد المخلوع ، ثم غلب عليه اخوه ابو الجيوش نصـــر ، واعتقله سنة 708 ، فاساء السيرة في الرعية ومن معه من غزاة بني مرين، فبايعوا أبا الوليد اسماعيل بن أبي سعيد فرج بن يوسف بن نصر ، فزحف من مالقة الى غرناطة ، ولما هزم صاحبه وقع بينهما الصلح على ان يتركها له ويخرج الى وادي آش حيث جدد ملكه الى ان توفي سنة 722 وكانت لابي الوليد بغرناطة وقائع مع ملك قشتالة انتصر فيها ، ثم غدر به بعض قرابته فطعنه فقتله ، وبويع ابنه محمد فاستولى عليه وزيـــره محمد ابن المحروق ولكنه قتله غدراً سنة 739 ، واستبد بالامر ، واستجاش بنـــي مرين على الكفار فاسترجع جبل الفتح منهم سنة 733 ، وغـــدر بـــه في غرناطة فقتل وقدموا اخاه أبا الحجاج يوسف ، وفي ايامه تغلب النصاري على الجزيرة الخضراء سنة 743 ، وقد قتل لابي الحسن المريني ولد في هذه الموقعة التي حضرها هو بنفسه . وتوفي سنة 755 مطعونا في صلاته للعيد ، فقتل قاتله في الحين ، وولي ابنه محمد وقام بالامر مولاهم رضوان الحاجب ، وكان أخوه اسماعيل ببعض قصور الحمراء ، وكان له صهر من محمد بن عبد الله بن اسماعيل بن محمد بن ابي سعيد ، فسلط محمد هذا من تسور حصن الحمراء وقتل رضوان ، ثم اخرج صهره اسماعيل ونصبه، وخلع اخاه محمداً ، وكان خارج الحمراء ، ففر الى السلطان ابي سالم بن ابي الحسن المريني ملك المغرب ، واستقل اسماعيل بالملك سنة 760 الى ان مات سنة 793 فاقيم مكانه ابو الحجاج يوسف بن اسماعيل ؟ ومـــات سنة 794 فبويع ابنه محمد ، وقام بامره محمد الخصاصي ، وقد شغـــل طاغية الكفر باخيه ، فامتنع النصارى عن اداء الاتاوة اليه ، كما امتنع من استقبالهم سنة 772 والى هذا الوقت (كما يقول المؤلف)

وتعرض فى الصفحة 263 وما بعدها لملوك النصارى فى الاندلس ، فذكر ان المسلمين لما فتحوا الاندلس اجفل النصارى الى سيف البحر ، واجتمعوا بجليقية وملكوا عليهم بلاية بن قاقلة ، وهلك سنة 133، فولي ابنه قافلة سنتين ، ولما هلك ولوا أذفونش بن بطرة من الجلالقة او القوط ، فاتصل الملك فى عقبه الى الان ، وهلك سنة 142 ؟ فولي ابنه فرويلة وقارنه اشتغال عبد الرحمن الداخل بتمهيد امره ، فاسترجع مدينة لك وبرتقال وسمورة وسلمنقة وشقوبية وقشتالة ، وهلك سنة 152 فتولى ابنه ((أور)) وهلك سنة 58 ، وولي ابنه شبلون وهلك سنة 68 ، فولوا من بني اذفونش رجلا اسمه اذفونش فوثب عليه ((مورفاط)) فقتله وملك مكانه ، ثم ولي آخر اسمه ايضا اذفونش وهلك سنة 227 ، فولي ابنه رودمير ، واتصل الملك فى عقبه حتى ولي ردمير بن اردون ، آخر ملوكهم المستبدين ، قال ابن حيان ، وكانت ولايته بعد ترهب اخيه اذفونش الملك قبله ، وذلك سنة 310 زمن الناصر بالاندلس ، فتهيأ الظفر للناصر الى ان كانت سنة 337 حيث وقعت موقعة الخندق التي حصل للمسلمين فيها الابتلاء، وهلك رودمير سنة 339، فولي اخوه شانجة، ووثب عليه قواميس دولته فلم ينتظم لبني اذفونش بعدها ملك مستقل فى الجلالقة الا بعد حين، قال ابو حيان ، وذلك ان فردلند قومس اليه والقلاع ، انتقض على شانجة، ونصب للملك مكانه ابن عمه اردون بن اذفونش ، وظاهرهم ملك البشكنس على شانجة ، فوفد على الناصر صريخا ، فجهز له عساكر استولى بها على سمورة وانزل بها المسلمين ، واتصلت الحرب بينه وبين فردلند ، وولي الحكم خلالها ، وهلك شانجة ببطليوس ، فقام مقامه ابنه ردمير ، وهلك فردلند ، فخلفه ابنه غرسية ، ومات الحكم فقوى سلطان ردمير ، الى ان قبض له المنصور حاجب هشام ، فأثخن فى عمله وافتتح شنت مانكس ، فتشاءمت الجلالقة بردمير ، وعاد هو الى طاعة المنصور سنة 374 ، وهلك على اثرها ، فأطاعت أمه .

واتفقت الجلالقة على برمند بن اردن ، فعقد له المنصور على سمورة وليون وما اتصل بهما من غالسية الى البحر الاخضر ، ثم انتقض فغزاه سنة 378 وافتتح ليون وسمورة ، فلم يبق للجلالقة الا حصون قليلة بالجبل الحاجز بينهم وبين البحر الاخضر ، فانزل المنصور المسلمين بسمورة ،

سنة 389 وولى عليها أبا الاحوص معن بن عبد العزيز التجيبي ، وسار الى غرسية بن فردلند ، فملك عليه لشبونة قاعدة غليسية وهلك غرسية فخلفه ابنه شانجه ، فضرب عليه الجزية وصارت الجلالقة في طاعة المنصور ، ثم انتقض برمند ، فغزاه حتى بلغ شنت ياقب ، مكان حجهم ، ومدفن يعقوب الحواري من أقصى غالسية ، فهدمها ونقل ابوابها الى قرطبة ، فجعلها في نصف الزيادة التي زادها بالمسجد الاعظم ثم افتتح قاعدتهم شنتمرية سنة 385 ، ثم هلك برمند بن اردون ملك بني اذفونش ، فولي ابنه اذفونش ، وهو سبط غرسية بن فردلند فكفله لصغره مننند بن غند شلب ، قومس غالسية الى ان قتل مننند غيلة سنة 398 ، فاستقل اذفونش بأمره ، وطلب القواميس المتعذرة على أبيه مثل بني رأغومس وبني فردلند بالطاعة فاطاعوه ، ثم كانت الفتنة البربرية على راس المائة الرابعة، فتغلب النصارى على ما كان للمنصور بقشتالة وجليقية ، ولم يزل اذفونش ملكا على جليقية ، واستمر الملك في عقبه ، الى ان كان ملوك الطوائف وتغلب المرابطون عليهم بالاندلس ، علي ما سياتي في الكلام على مكاتبة ابن الاحمر ، ملك المسلمين بالاندلس .

وفي بعض التواريخ ان ملك قشتالة الذي ضرب الجزية عليهم سنة خمسين واربع مائة هو البيطبين ، وانه لما هلك قام بامره بنوه فردلند وغرسية وردمير ، وولى امرهم فردلند ثم هلك ، وخلف شانجة وغرسية والفونش فتنازعوا ، ثم خلص الملك للفونش فاستولى على طليطلة سنة 478 وعلى بلنسية سنة 489 ثم ارتجعها المرابطون الى ان استعادها النصارى سنة 636 وهلك الفونش 501 فقام بامر الجلالقة بنته ، وتزوجت ردمير ، ثم فارقته وتزوجت قمطا من اقماطها ، فأتت منه بالسلطين ، واوقع ابن ردمير بابن هود سنة 303 واستشهد ابن هود (احمد المتعين) وملك منه سرقسطة .

وفي بعض التواريخ ، ان امر النصارى زمن المنصور ابن يوسف ، كان دائرا بين ثلاثة ملوكهم ، الفنش والبيبوج وابن الرند فلما فشلت ريح بني عبد المؤمن زمن المستنصر ابن الناصر ، استولى الفنش على ما فتحه المسلمون من المعاقل ، ثم هلك ، فولى ابنه هراندة ، وكان احول وبذلك

يلقب ، فارتجع قرطبة واشبيلية من المسلمين ، وزحف في زمنه ملـــك اراغون ، فاستولى على ماردة وشاطبة ودانية وبلنسية وسرقسطة والزهراء والزاهرة وسائر القواعد والثغور الشرقية ، وانحاز المسلمون الى سيف البحر ، وملكوا عليهم ابن الاحمر بعد ابن هود ، وكان استرجاع ماردة سنة 626 وميورقة سنة 627 ، وبلنسية 636 ، وسرقسطة وشاطبة قبل ذلك بزمان ، ثم هلك هراندة وولي ابنه شانجة ثم هلك سنة 93 وولي ابنـــه هراندة ، وكان بينه وبين عساكر يعقوب المريني حروب متصلة ، ثم خرج عليه ابنه شانجة فوفد هو على يعقوب فقبل يده ، مستجيشا على ولده ، فامده بالمال والعساكر ، وارتهن عنه تاجه ، فهو عند بني عبد الحق الى الان ثم هلك هراندة سنة 633 ، واستقل ابنه بالملك ، فوفد على يوســف بن يعقوب بالجزيرة الخضراء ، فعقد معه الهدنة ، ثم انتقض واستولـى على طريف سنة 693 ، ثم هلك سنة 712 ، فتولى ابنه بطرة صغيرا ، وكفله عمه جوان ، وهلكا جميعا على غرناطة في زحفها سنـــة 718 فولي ابنـــه الهنشة صغيرا ، فكفله زعماء دولته ، ثم هلك محاصرا جبل طارق سنـــة 751 بالطاعون ، فولي ابنه بطرة ، وفر ابنه القمط الى برشلونه فاستجاش على اخيه صاحبها ، فاجابه وزحف اليه فاستولى بطرة على كثير من بلاده، ثم غلب القمط سنة 768 فاستولى على قشتالة ، ولحـــق به بالفرنـــج وراءها في الجوف بجهات اليمانية وبرطانية الى ساحل البحر الاخضـر وجزائره ، فزوج بنته من ابن ملكهم الاعظم المعروف بالبنس غالس ، فأمده هذا واستولى على قشتالة والقرنتيرة ، واتصلت الحرب بينه وبين اخيه ، انتهت بغلبة القمط وقتله سنة 772 واستولى ذا على ملك اذفونش باجمعه، ونازعه البنس غالس بابنه الذي هو من بنت بطرة واتصلت الحرب بينهما، وشغلته عن المسلمين فامتنعوا عن اداء الاتاوة اليه ، وهلك سنـــة 781 ، فولى ابنه دون جوان ، وفر اخوه غريس ولحق بالبرتغال واستجاش على اخيه ، ثم اصطلح عليه ، وهلك دون جوان سنة 791 ، فتولى ابنه بطـــرة صغيرا ، فقام بكفالته اليكيش خال جده القمط بن الهشنة ، والامـــر على ذلك الى الان .

وفي الصفحة 270 والتي بعدها ، تعرض للممالك النصرانية القائمة بالاندلس آنذاك ، فذكر انها اربعة : مملكة قشتالة ، فقال انها مملكة عظيمة

وعمالات متسعة ، تشتمل على طليطلة واشبيلية وقشتالـــة وغليسيـــة والقرنتيرة ، وملكها الاذفونش ، والعامة تسميه الفنش .

ومملكة البرتغال ، فى الجانب الغربي من قشتالة ، وهي عمالة صغيرة تشتمل على اشبونة ، وغرب الاندلس ، وهي من جليقية وصاحبها متميز

ومملكة برشلونة ، بجهة شرق الاندلس ، وهي مملكة كبيرة وعمالات واسعة ، تشتمل على برشلونة وارغون وشاطبة وسرقسطة وبلنسية وجزيرة دانية وميورقة ، وكان ملكهم بعد العشرين والسبع مائة اسمه بطرة ، هلك سنة 787 ، فانفرد اخوه الدك بملك سرقسطة ، مقاسما لاخيه ، ثم سار فى اسطول فامتلك صقلية وصارت فى اعمالهم .

ومملكة نبرة ، مما يلي قشتالة من جهة الشرق ، فاصلة بينها وبين مملكة برشلونة ، وهي عمالة صغيرة قاعدتها بنبلونة وملكها من البشكنس . هذه هي الممالك الاربع ، وما وراء الاندلس ، فامم لا تحصـــى ، وسياتـــي الكلام على ملكهم الاكبر ((ريد فرنس)) .

ثم تعرض فى الصفحة 271 والتي بعدها ، لترتيب هذه المملكـــة ، فقال انها فى بلاد المغرب ، يملكها فى الغالب ملوك المغـــرب الاقصـــى ، وعن مسالك الابصار ان اهل الاندلس فى الجملة لا يتعممون ، بل يتعهدون شعورهم بالتنظيف والحناء ، ويلقون الطيلسان على الكتف ، او الكتفيـــن مطويا طيا ظريفا ، ويلبسون الملونات من الصوف والكتان ونحوها ، واكثر ملابسهم فى الشتاء الجوخ ، وفى الصيف البياض ورزق الجند ذهـــب ، واكثرهم من بر العدوة من بني مرين وبني عبد الواد وغيرهم ، ومسكـــن السلطان القصور الرفيعة ، ويقعد للناس بدار العـــدل فى مكان يعـــرف بالسبيكة يوم الاثنين ويوم الخميس صباحا ، ومعه الرؤســـاء والاقارب ، ويقرا عشر من القرآن وشيء من الحديث ، ثم ياخذ الوزير القصص من الناس فتقرا عليه ، والنصر فى جانب المسلمين غالبا حينمـــا يحاربـــون النصارى ، وبالبلاد البحرية اصول الحراريق المفرق فى البحر الشامي ، يقاتل فيه الرماة والمهرة ولهم الظفر غالبا ، فاذا جاءوا بالسبي يحملونـــه

الى غرناطة بارزين فياخذ ويهدي ويبيع ، وقد كانت لهم واقعة عظيمة سنة 719 بظاهر غرناطة قتل فيها من الفرنج اكثر من ستين الفا ، وملكـــان ، هما بطرة وجوان عمه ، وعلقت جثة بطرة على غرناطة ، وفديت جيفة جوان بامـــوال طائلـــة .

وقد كتب بعضهم الى ابن الاحمر يهدده ، فكان جوابه : ((ارجع اليهم فلناتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها اذلة وهم صاغـــرون)) ، فاذا تركنا الجزء الخامس ، واتصلنا بالجزء السادس ، فاننا :

في الصفحة 6 نجده يذكر من القاب الكتاب لقب ((الأتقى)) فيقول انه من القاب ملوك المغرب ، يكتب اليهم بها من الابواب السلطانية .

وفي الصفحة 22 يذكر ان الفائز من القاب ملوك المغرب ، كما ذكر ان الفقيه ، يعظم به جد التعظيم أهل المغرب بخلاف غيرهم .

وفي الصفحة 30 ذكر ان المكرم من القاب ملوك المغرب ، وكذلك المجد من القاب ملوك المغرب .

وفي الصفحة 51 ذكر ان زعيم الموحدين ، من القاب صاحب تونس على تخصيص الموحدين ، والمراد بهم اتباع المهدي بن تومرت الذين من بقاياهم ملوك تونس ، وكان المهدي قد سماهم الموحدين تعريضا بذم من كان قبله ببلاد المغرب ، ممن يدعي التجسيم .

وفي الصفحة 65 ذكر أن قدوة الموحدين من الالقـــاب الخاصـــة لصاحب تونس لوقوع الموحدين في اصطلاحهم على اتبـــاع المهـــدي بن تومـــــرت .

وفي الصفحة 84 ذكر ان ((الريد اراغون)) من الالقاب التي اصطلح عليها لبعض ملوكهم ممن يملك اراغون ، وعن الروض المعطار،ان بلاد اراغون اسم بلاد غرسية بن شانجة ، ثم نقل في الصفحة التالية ، عن التثقيـــف لابن ناظر الجيش ، في القاب الاذفونش صاحب طليطلة من الاندلس ،،، .

والريد فى لغتهم بمعنى الملك ، كما تقدم ، فى الكلام على ريد افرنس فى القـــاب الملـــوك .

وفى الصفحة 310 قال : « وكما كتب صاحبنا الشيخ علاء الديـــن البربيري رحمه الله عن الظاهر برقوق صاحب الديار المصرية ، جوابـــا لصاحب تونس من بلاد المغرب ، واستشهد فيه لبلاغة الكتاب الوارد عنه بقولـــــه :

وكلام كدمـــع صـــب غريـــــب رق حتى الهواء يكثف عنـــــده

راق لفظا ورق معنى فاضحـــــى كل سحر من البلاغـة عبـــــده

وعلى ذلك جرت ملوك المغرب من بني مرين وغيرهم ، كما كتـــب بعض كتاب السلطان ابي الحسن المريني عنه الى السلطان الملك الناصر بن قلاوون »»، كتابا يخبره فى خلاله ان صاحب بجاية خرج عن طاعته ، ففزاه ، وأوقع به وبجيوشه ما قمعه ، مستشهدا فيه بقوله :

ان عادت العقرب عدنا لهـــا وكانت النعل لها حاضـــرة

وفى الصفحة 443 جعل « الطرف السادس » فى الكتـــب الصادرة عن خلفاء بني امية ، لكنه قال : ولم اقف على شيء من المكاتبات ... عنهم ثم جعل « الطرف السابع » فى الكتب الصادرة عن الخلفاء الموحديـــن ، اتباع المهدي بن تومرت »»، وهي على اسلوبيـــن ، الاسلـــوب الاول ان تفتتح »، بلفظ « من فلان الى فلان » وكان الرسم أن يقال مـــن اميـــر المؤمنين فلان ، ويدعى له بما يناسبه ، الى فلان ، ويدعى له بما يليق به»، ثم يوتى بالسلام ، ثم يوتي بالبعدية والتحميد والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، والترضية عن الصحابة ، ثم عن امامهم المهدي ، ثم يوتي على المقصود ، ويختم بالسلام ، والخطاب فيه بنون الجمع عن الخليفة ، وميم الجمع عن المكتوب اليه ، كما كتب عن عبد المومن خليفة المهدي »، الى الشيخ ابي عبد الله محمد بن سعد « من امير المؤمنين أيده الله بنصره وامده ، بمعونته ، الى الشيخ ابي عبد الله محمد ابن سعد وفقـــه الله ،

ويسره لما يرضاه ، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، أما بعد فالحمد لله الذي جعل له الاقتدار والاختيار ،،،)) (وختمت بهذا والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وكتب فى السادس عشر من جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة من مراكش حرسها الله الى ابن مردنش يذكره بما فعل ببلنسية وأورقة بالاندلس) .

الاسلوب الثاني ان تفتتح بلفظ أما بعد ، والامر فيه على نحو ما تقدم ،،، كما كتب أبو الميمون عن المستنصر بالله ،،، الى بعض ،، نقض العهد أما بعد حمد الله الآمر بالوفاء بالعهود والصلاة ،،، والرضى ،،، وعن خلفائه ،، والدعاء لسيدنا ،، والسلام عليكم ورحمة الله (بلا تاريخ للاندلس)

ثم طرأ بعد ذلك الاكثار من القاب خلفائهم ،، والمبالغة فى مدحهم واطرائهم

وفى الصفحة 469 وما بعدها وردت رسالة لابن الخطيب عن يوسف ابن فرج النعري الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما هي عادةالملوك

وفى الصفحة 524 وما بعدها ، ورد الطرف السادس فى المكاتبات الصادرة عن الملوك الى خلفاء بني أمية بالاندلس ، فذكر انها كانت بالافتتاح بالدعاء بطول البقاء ، مع الاطناب فى الاطراء ··· والخطاب بأمير المؤمنين، منعوتا بمولاي وسيدي ونحو ذلك ، والتعبير عن المكتوب عنه بلفظ الوحدة من تاء المتكلم ونحوها ، كما كتب ابو المطرف بن المثنى عن المنصور الي هشام ، إطال الله بقاء أمير المؤمنين ،،،

العبد المخلص والمولى المتخصص ،،، فيما يفي بتمكين الامامة المهدية ، والخلافة المرضية ،،، وبعد أبقى الله أمير المؤمنين (يخبره بجريان الصلح بينه وبين الموفق ؟) فانهضت الى حضرته العالية ذا الوزارتين عبد الرحمن بن مطروح رسولي ،،، واطلا لعز منته ،، ان شاء الله

وفى الصفحة 526 ورد الظرف السابع فى المكاتبات الصادرة الى خلفاء الموحدين بالمغرب ، فذكر ان لافتتاح المكاتبات ضربين الاول ان

تكون من ملك لآخر ، فتفتح بالدعاء المناسب ، ويعبر المكتوب عنه بنون الجمع ، ويخاطب المكتوب اليه بامير المؤمنين ، كما كان من القاضي الفاضل ،عن صلاح الدين الى يعقوب المنصور، سنة 585 يستجيشهعلى الفرنج القاصدين بلاد الشام والديار المصرية :

فتح الله بحضرة سيدنا امير المؤمنين ، وسيد العالمين ، وقسيم الدنيا والدين ، ابواب الميامن ، واسباب المحاسن ،،، كان من اوائل عزمنا ، وفوآتح رأينا ، عند ورودنا الديار المصرية ، مفاتحة دولة سيدنا، وان نتيمن بمكاتبتها ، ونتزين بمخاطبتها ،،، لا سيما بعد ان نبنا عنه نيابتين ، فالاولى تطهير الارضين المصرية واليمنية ، من ضلالة اغضت عيو نالانام عن قداها ،،، ونيابة ثانية فى تطهير بيت المقدس ممن كان يعارض برجسه تقديسه ،، لله المنة ،، فهنالك غلب الشرك ،،، واستجاش كافر من أهله كافرا ،،، ولما مخض النظر زبده ،،، لم نر لمكاثرة البحر الا بحرا من اساطيله المنصورة ،،، ويمكنه ـ أدام الله تمكينه ـ ان يمد الشام منه بعد كثيف ... ويمكنه أن يكف شطراً لاسطول طاغية صقلية ... ويعتقله فى جزيرته ،،، ويقيم على الكفر قيامة يطلع بها شمس النصر من مغربها ،،، وما رأينا أهلا لهذه العزمة الا حضرة سيدنا ،،، وقياما لسلطان التوحيد القائم بالموحدين ، وقد استشرف المسلمون طلوعها من جهته ،، أعز الله الاسلام بما يزيد حضرة سيدنا من عزها ،،، وبما يجرده من سيوفها ،،، وقد أوفدناه على باب حضرة سيدنا ،،، وأودعناه السر فكان صدرا .

الضرب الثاني ، ان تكون المكاتبة صادرة عن بعض الاتباع ،،، ويعبر المكتوب عنه عن نفسه بلفظ الافراد ، وعن الخليفة بامير المؤمنين ، كما كتب أبو الميمون ، عن بعض اهل دولتهم الى بعض خلفائهم ، جواب كتاب ورد بالكشف عن عامل ثغر شقورة : اطال الله بقاء امير المؤمنين ،،، كتبته ـ ايد الله أمره ـ صدر جمادى الاولى ، سنة أربع وعشرين وخمسمائة ؟ ،،، والله ييسر الجميع الى ما يقضي حقوق النعمة ويقيم فروض الخدمة .

وفي الصفحة 532 وما بعدها ، تعرض للاسلوب الثاني ، أن تفتتـــح المكاتبة بألقاب الخليفة نفسه «، معبرا عن المكتوب عنه بالعبد »، وهـــو ضربان : الاول ، أن يوصف الخليفة بالمقام ، كما كتب أبو الميمون الى الناصر لدين الله ، أحد خلفائهم : المقام الاعلى المقدس المكرم الامامي الطاهر الزكي »، عبدكم المتقلب في نعمتكم ««، كتب «« من موضع كذا »، وخدمة العبد هذه تنوب عنه في تقبيل ذلك المقام الاسمى »، بحول الله ، لا رب غيره .

الضرب الثاني ان يعبر عنه بالحضرة ، كما كتب ابو المطرف عـــن صاحب أرغون من الاندلس الى المستنصر بالله ، يستأذنه الوفادة مغاضبا لاهل مملكته »، الحضرة الامامة المنصورة الاعلام ، الناصرة للاسلام ««، خضع سيدنا ومولانا الخليفة الامام المستنصر بالله «« نشأة أيامها الغر »، عبدها وابن عبدها فلان ، سلام الله الطيب المبارك وتحياته تخص المقام الاشرف الاعلى ورحمة الله وبركاته ، وبعد فكتب العبد «« من بلنسية «« والله يبقي عز الاسلام ببقائه ، ويعيننا على امتثال أوامره المباركة ، معشر عبيده وأرقائه «« وقد تقرر «« أمر الباسك ؟ وطال مالـــه في البـــلاد الارغونية «« ورأى ان يلجأ بحاله الى المقام الباهر الانوار «« فوصل هذا الموضع قبل مقدم العبد عليه «« والظاهر من حنقه على أهل أرغون «« أنه أن صادف وقت فتنة معهم ووجد ما يؤمله من احسان الامر العالي ... فينتهي الى غاية غريبة الآثار ، مفضية به الى درك الثار ، وكثير من زعماء أرغون أقاربه وفرسانه «« وللمقام الكريم أعلى الرأي فيه «« وهو سبحانه يديم سعادة جده والسلام .

وفي الصفحة 536 تعرض للاسلوب الثالث ، ان تفتتح بأوصـــاف الخلافة والثناء عليها ، ونسختها على ما كتب به ابن الخطيب عن ابن الاحمر صاحب الاندلس الى المستنصر بالله ابي اسحاق خليفة الموحدين يومئذ بالانـــــدلس ؟

« الخلافة التي ارتفع عن عقائد فضلها الاصيل القواعد الخلاف «« خلافة وجهة تعظيمنا اذا توجهت الوجوه «« أمير المؤمنين أبي اسحاق ابن الخليفة «« ابي يحيى ابي بكر ابن السلطان الكبير «« ابي زكريـــا ابن

الخليفة ،،، ابي اسحاق ابن الخليفة ،،، المستنصر بالله أبي عبد الله بن ابي زكريا ابن عبد الواحد بن أبي حفص ،،، سلام كريم كما حملت نسمات الاسحار ، أحاديث الازهار ،،، يخص خلافتكم الكريمة النجار ،،، اما بعد حمد الله ،،، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسوله ،،، والرضى عن آله واصحابه ،،، والدعاء لخلافتكم العلية المستنصرية ،،، فانا كتبناه اليكم ... من حمراء غرناطة ... والحمد لله حمدا يعيد شوارد النعم ،،، وخلافتكم هي المثابة التي يزهى الوجود بمحاسن مجدها ،،، والى هذا اعلى الله معارج قدركم ،،، فانه وصلنا كتابكم الذي حسبناه على صنائع الله لنا تميمة ... وقرانا منه وثيقة ود هضم فيها عن غريم الزمان دين ... انا انشأناهن انشاء ، فأهلا به من عربي أتى يصف السانح والبارح ؟... فلقد تخارق فى الجود ، مقتديا بالخلافة التي خلد فخرها فى الوجود ،،، وأكرم به من حكيم أفصح بملغوز الاكسير ،،، ببديعه ، او خلف جرجير الروم ، قبل منازلة القدوم ، على وديعه ، أو أسهمه ابن أبي سرح ، فى نشب للفتح وسرح ، او حتم له روح بن حاتم ببلوغ المطلب ، او بلغ الحظوظ بخدمة آل الاغلب ، او خصه زيادة الله بمزيد او شارك الشيعة فى أمر ابن ابي يزيد ، او سار على منهاج ، فى مناصحة بني صنهاج ، وفضح بتخليد امداحهم كل هاج ... فما كاس المدير على الغدير ، بين الخورنق والبدير ، تقامر بنرد الحباب ، عقول ذوي الالباب ، وتفرق كسرى فى العباب ، وتهدى وهي الشمطاء نشاط الشباب ، وقد أسرج ابن سريج والجم ، وافصح الغريض بعد ما جمجم ، وأعرب الناي الاعجم ، ووقع معبد بالقضيب ، وشرعت فى حساب العقد بنان الكف الخضيب ، وكأن الانامل فوق مثالث العود ومثانيه ، وعند اغراق الثقيل بثانيه ، واجابة صدى الغناء بين مغانيه ، المراود تشرع فى الوشي ، او العناكب تسرع فى المشي ،،، وسئل من انت فى قواد الكتائب واولي الاخبار والعجائب ، فقال : انا المهلب بن أبي صفرة ،،، ويا لله من ابتسام غره ، ووضوح يمن فى طره ،،، وان ولع الناس بامتداح القديم ،،، فجيء بالوجيه والخطار ، والذائد وذي الخمار ، وداحس والكائن الا بجر وزاد الركب ، والجموح واليحموم ، والكميت ومكتوم ، والاعوج وحلوان ، ملاحق والغصبان ،،، فكم بين الشاهد والغائب ، والفروض والرغائب ،،، وعلمنا ايها الملك الاصيل ، الذي كرم منه الاجمال والتفصيل ، ان الثناء يوازيها

لكلنا لك بكيلك ··· أو قلنا : هي التيأشار اليها مستصرغ ساف المستنصر:
((ادرك بخيلك)) حين شرق بدفعه الشرق ،،، ورای ان مقام التوحيــــد
بالمظاهرة على التثليث ، وحزبه الخبيث ، هو الاولى والاحق ··· وجـــدد
برسم هذه الهدية ، مراسيم العهود الودية ، والذمم الموحدية ، لتكـــون
علامة على الاصل ، ومكذبة لدعوى الوقف والقصر ،،، وحضر بين يدينــــا
رسولكم فلان فقرر من فضلكم ، ما لا ينكره من عرف علو مقداركم ،،، وقد
كان بين الاسلاف رحمةالله عليهم ورضوانه ود ابرمتمن أجل الله معاقده··
وتعاهـــد بالجميل توجع لفقده فاقده ، ابي الله الا أن يكون لكم الفضل
فى تجديده ،،، انما نكل الشكر لمن يوفي جزاء الاعمال البـــرة ،،، وان
تشوفتم الى الاحوال الراهنة ، وأسباب الكفر الواهية بقدرة الله الواهنة،
فنحن نطرفكم بطرفها ··· فجعلنا العدل فى الامور ملاكا ، والتقيد للثغور
مسواكا ، وضجيع المهاد ، حديث الجهاد ،،، وأقرضنـــا الله قرضـــا ،
وأوسعنا مدونة الجيش عرضا ،،، ونبذنا الى لطاغية عهده على سواء ،،،
فتحركنا اولى الحركات ،،، الى حصن آش البازي المطل ،، حتى فرغنـــا
بحول من لا حول ولا قوة الا به ابراجهالمنيعة واسواره، وكففنا عن العباد
والبلاد اضراره ، بعد ان استضفنا اليه حصن السهلة جاره ،،، وعملنـــا
بيدنا فى رم ما ثلم القتال واقتدينا بنبينا صلوات الله عليه وسلامــــه فى
الخندق لما حمي ذلك المجال ،،، وكنا اغزينا الجهة الغربية من المسلمين
بمدينة برغة التي سدت بين القاعدتين، مالقة ورندة الطريق ··· فيسر الله
فتحها ··· فشفى الثغر من بوسة ··· ثم أعملنا الحركة الى مدينة الجزيرة
على بعد المدى ،،، مدينة بنتها حمص فاوسعت الدار ،،، فكبسناها كبسا
،،، واستولى على الالاف العديدة من سبيها الاسار وانتهى الى اشبيليـــة
الثكلى المغار ،،، وعدنا والارض تموج سبيا ،،، وكان الى غزو مدينة جيان
الاحتفال ، قدنا اليها الجرد ،،، وهذه المدينة هي الام الولود ،،، وكرسي
الملك ومجنبته الوسطى ،،، والليل من خوف الصباح ،، قد شابت غدائره،
والنسر يرفرف باليمن طائره ، والسماك الرامح يثأر ثغر الاسلام ثائره ،
والنعائم راعدة فرائص الجسد ، من خوف الاسد ، والقوس يرسل سهم
السعادة ··· والجوزاء عابرة نهر المجرة ، والزهرة تغار من الشعرى ،
العبور بالضرة ، وعطارد يسدي فى حيل الحروب ،،، والمشترى يبدىء
فى فضل الجهاد ويعيد ،،، وزحل على الطالع منزحـــل ، وعن العاشـــر ،

مرتحل ،،، ولما فشا سر الصباح ،،، أطللنا عليها اطـــلال الاســـود على الفرائس ،،، فنزلنا بساحتها العريضة المتون ،،، فاقتحم الربض الاعظم لحينه ،،، ثم دخل البلد بعده غلابا ،،، وسبقت رسل الفتـــح ،،، تنقـــل البشرى ،، الى آذان المنابر ،،، ولسان الانتقام ، من عبـــدة الاصنـــام ، ينادي يا لثارات الاسكندرية تشفيا من الفجار ،،، ثم تحركنا بعدها حركة الفتح ،،، وقصدنا مدينة أبدة وهي ثانية الجناحين ، وكبرى الاختيـــن ، ومساهمة جيان ،،، وصبحتها طلائع الفاقرة ، وأغريت ببطون اسوارهـــا عوج المعاول الباقرة ، ودخلت مدينتها عنوة السيف ، فى أســـرع مـــن خطرة الطيف ،،، ثم تاهبنا لغزو أم القرى الكافرة ،،، قرطبـــة وما ادراك ماهية ،،، حيث آثار العامري المجاهد ، تعبق بين تلك المعاهد ،،، حيث المصلى العتيق قد رحب مجالا ، وطال منارا ، وأزرى ببـــلاط الوليـــد احتقارا ·· أقل كرسيهخلافةالاسلام ، وأعار بالرصافةوالجسر دار السلام··· ولما وقفنا بظاهرها المبهت المعجب ،،، والركائب واقفة من خلفنا بمعزل، تتناشد معاهد الاسلام : قفا نبك من ذكرى حبيب ومنـــزل ،،،، فكـــان بين الفريقين أمام جسرها الذي فرق البحر ·· حرب لم تنسج الازمان على منوالها ··· من قاسها بالفجار افك وفجر ، أو مثلها بجفر الهباءة خرف وهجر ، ومن شبهها بحرف داحس والغبراء فما عرف الخبر ··· ومـــن نظرها بيوم شعب جبلة ، فهو ذو بله ، أو عادلها ببطن عاقل ، فغير عاقل ، أو أحتج بيوم ذي قار ، فهو الى المعرفة ذو افتقار ، أو ناضل بيوم الكديد، فسهمه غير السديد ،،، وقال لسان النصر : ادخلوا عليهم الباب ،،، وعلت الرايات من فوق تلك الابراج المستطرفة الاسوار ، ورفرف على المدينة جناح البوار ، لولا الانتهاء الى الحد والمقدار ، والوقوف عند اختفاء سر المقدار ،،، فلولا عائق المطر ، لحصلنا من فتح ذلك الوطن على الوطر ،،، وسألنا من ساءله اسد بن الفرات ، فافتى برجحان الجواز ، فعم الاكتساح والاستباح جميع الاحواز ،،، وعدنا والبنود لا يعرف اللف نشرهـــا ،،، والجياد من ردها الى المرابط والاواري رد العواري حنقة ،،، وتعود من ميادين المراح والاختيال تحت حلل السلاح عود الصبيان الى المكاتب ·· والله على تيسير الصعاب وتخويل المنن الرغاب قادر ،،، ،،، ،،، وقارنت رسالتكم الميمونة منه لدينا حدق فتح بعيد صيته ،،، وهـــو أن ملـــك النصارى لاطفنا بجملة من الحصون كانت من مملكة الاسلام قد غصبت ،،،

وهي للروم خطة خسف قلما ارتكبوها فيما نعلم من العهود ··· والى الله علينا وعليكم عوارف الجود ، وجعلنا ··· من الركع السجود ·

عرفناكم بمجملات أمور تحتها تفسير ··· لنسركم بما منح الله دينكم·· ولكم مزية القدم ورسوخ القدم ، والخلافة مقرها ايوانكم ، وأصحاب الامام مالك رضي الله عنه مستقرها قيروانكم ،،، والوقائع الشهيرة فى الكفر منسوبة الى أيامكم ، والصحابة الكرام فتحة اوطانكم ، وسلالة الفاروق عليه السلام وشائج سلطانكم ،،، والله يتولى عنا من شكركم المحتوم ، ما قصر المكتوب منه عن المكتوم ··· والسلام الكريم ··· يخصكم ،،، ورحمة الله ،،

وننتقل الى الجزء السابع ، فنجد فى الصفحة 30 الطرف الحادي عشر ، فى المكاتبات الصادرة عن ملوك المغرب ، فذكر انهم انفردوا بأن المخاطبة تقع بميم الجمع مع الانفراد ، كما تقع عن المتكلم نون الجمع مع الانفراد .

انهم يلتزمون الدعاء ، كان يقولوا كتبنا اليكم كتب الله كذا

انهم يترضون عن الخليفة القائمين بدعوته

انهم يذكرون اسم المكتوب اليه فى اثناء الكتاب ،،، وكتبهم تختم بالسلام غالبا ، وربما ختمت بالدعاء ونحوه

ان الخطاب عندهم يقع بلفظ الرئاسة ، مثل ان يقال : رياستكم الكريمة ، ولها حالتان :

ان تفتتح المكاتبة بلفظ من فلان الى فلان ، ويدعى للمكتوب اليه ، ثم يقع التخلص الى المقصود ، باما بعد ،، ويختم بالسلام ، كما كتب ابو بكر بن هشام عن أبي محمد بن هود ، فى قيامه بالدعوة العباسية ،، الى أهل بلد من رعيته :

منفعلان الى اهل فلانة، ادام الله كرامتهم وآثارهم بتقواه ، وعرفهم عوارف نعماه ، وكنفهم فى كنفه المنيع وحماه ، وجعلهم ممن وفق الله رضاه ، وحف بخير ما قدره وقضاه ، بسلام

اما بعد حمد الله على متتابع واسع فضله ،،، وقد بلغ ـ بلغكم الله املكم ـ تحرك ذلك الخائن للاضرار بالبلاد ،،، ونحن نعرض عنه أعراض من يرجو متابه ،،، وهو متخبط فى اهوائه ،،، فوجب علينا ،،، ان نعاجل حسم علله ،،، وقد كنا عند الفراغ من مصالح البلاد الغربية ،،، نظرنا فى أعدا دجموع من اجناد الغرب ،،، لتاخذ الجموع كلها من محو اثر هـــذا الخائن بنصيب ··· واذا وجب على أهل هذه الجهات أن ينفروا فى هذه الدعاة خفافا وثقالا ··· كان الوجوب فى حقكم وجوبين ··· لما يخصكم من هذه المصلحة التي أنتم أولى من يجتلي صورها ··· فليكن استعدادكـــم بحسب ذلك ،،، وكونوا واقفين على قدم التاهب ، الى أن يكون الاجتياز من هنالكم ،،،

وتعرض فى الصفحة 34 وما بعدها للاسلوب الثاني ، المفتتحة فيه الكاتبات بأما بعد ، وهو ضربان :

الاول ان تعقب البعدية بالحمد لله ، كما كتب ابو عبد الله بن الجنان عن ابن هود : أما بعد حمد الله معلي منار الحق ورافعه ،،، والصلاة على سيدنا محمد عبده ورسوله ،،، فانا كتبنا اليكم ـ كتب الله لكم عزة قدحها بالثبوت فائز وسعادة قسطها للنماء حائزـ ·· وقد وقفنا على كتابكم معلما بخبر فلانة ، وما رأيتموه من المصلحة فى تحصينها ،،، لكن أهم الامـــور عندنا ،،، الرفق بالرعية ،،، وعلى أثر وصول كتابكم وصلنا كتاب أهل فلانة المذكورة ، يشكون ضرر الخدمة المتصرفين فيهم ،،، فانه اذا كان الناظر فى خدمة ممن لا يحسن سياسة الامور ، أعاد التسكين تنفيرا ،،، وقـــد خاطبنا أهل فلانة بما يذهب وجلهم ،،، واشعرناهم بانا قد استوصيناكـــم بهم خيرا ،،، وأنتم ـ ان شاء الله ـ تستانفون نظرا جميلا ،،، وتقدمـــون عليهم من تحسن فيهم سيرته ،،، ومثلكم لا يؤكد عليه فى مذهب تحسن عواقبه ،،، ان شاء الله تعالى والسلام

الضربالثاني، أن تعقب البعديةبذكر المقصود من غير خطبة، كماكتب ابو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي ، ابن الابار ، عن أبي جميل ، أما بعد فالكتاب ـ كتب الله لكم ملء الجوانب قرارا ، وارسل عليكم سمـــاء المواهب مدرارا ـ من فلانة وليس الا الخير الدائـــم ،،، والحمـــد لله

الجسيم فضله ،،، واعلموا انا نرعاكم ، كما رعي أولنا أولاكم ، وقد عيـــن لموضعكم كذا وكذا ، فانفذوا الينا بعضكم معجـــلا ،،، والحركة الكبرى ــ يمنها الله ــ قد شرع في أسبابها ··· ولا غنى فيما يدار في ذلك عن فلان وقد خوطب بالوصول ›› ووجه اليكم فلان واليا عليكم ›› ووراء هذا مـــن كريم العناية وجميل النظر ، ما يقضي لكم بالفلج والظفر ،،، ان شاء الله تعالـــى والســـلام

وفي الصفحة 37 تعرض للاسلوب الثالث ، أن تفتتح ((بكتابنا اليكم)) من موضع كذا ›› أو ((هذا كتابنا اليكم)) أو ((كتابنا اليكم)) ونحوه كمـــا كتب ابن عميرة ، عن ابن هود : كتابنا اليكم ــ أطلع الله عليكم من البشائر انورها جبينا ، وأوضحها مبينا ــ من فلانة في يوم كذا ، سلام عليكـــم ، فاني احمد اليكم الله ›› ونصلي على سيدنا محمد ›› ونـــردد مرفـــوع الدعوات للامام الخليفة المستنصر بالله أمير المومنين ،،، والحمـــد لله الذي انعم علينا بتقليد امامته ،،، وما زلنا منذ كان النزول على هذا الحصن ،،، حتى اذعنوا لما عرفتم به من النزول ،،، والحمد لله الذي رد حقنـــا المغتصب ،،، وعرفناكم بهذا الخبر الذي هو غذاء للروح ،،، اعاننـــا الله واياكم على شكر احسانه ،،، بمنه والسلام

وفي الصفحة 39 وما بعدها ، تعرض بعد ما انتهـــى من تصويـــر المكاتبات الصادرة عن ملوك المغرب ، في حالتها الاولى في الزمن المتقدم والى الحالة الثانية ، ما كان عليه علامة كتاب المغرب ، ابن الخطيب وزير ابن الاحمر ، صاحب حمراء غرناطة من الاندلس ، من التعبير عن المكتوب اليه بميم الجمع ، والتزام الدعاء بمعنى الكتابة ، عند قولهم ((كتبنا اليكم)) والعادة أن يكون كتاب السلطان في طومار كامل ، ويكتب صاحب العلامة علامة السلطان في آخره ، ويطوى طيا عريضا في نحو ثـــلاث اصابـــع معترضة ، ثم يكسر ويطوى نصفين ، ويكتب العنوان بالالقـــاب ويحـــزم بدسرة من الورق ، ثم يختم بخاتم السلطان ، على شمع احمر ، وهي على ثلاثـــة اساليـــب :

الاول ، ان تفتتح باللقب اللائق بالمكتوب اليه ، وهو على اضرب :

الاول ان يبتدأ بلفظ المقام ، وهو مختص بالكتابة الى الملـــوك ، وينعت بما يليق به ، ثم يقال ، محل أخينا أو والدنا السلطان ، ويوتـــي بالقابه ، ثم يسمي ، ثم يقال من فلان ، ويفعل فيه كذلك الى منتهى نسبه، ويدعى له بالبقاء ثم يقال ، معظم قدره او مقامه وما أشبه ذلك ، ويذكـــر اسـ م المكتوب عنه ، ثم يقال ، أما بعد حمدا لله ،، فانا كتبناه اليكـــم ،، ويوتي على المقصود ،،، ويختم بالسلام بعـــد الدعـــاء ، كما كتـــب ابن الخطيب ،، الى أبي عنان ، عن ابن الاحمر ، عند موت الطاغية ملك قشتالة من اقليم اشبيلية وطليطلة وقرطبة ، بعد نزوله على جبل الفتح من مملكة المسلمين لمحاربتهم : المقام الذي أنارت آيات سعده ،،، مقام محل أخينا الذي نعظمه ونرفعه ،،، السلطان أبي عنان ، ابن السلطان أبي الحسن ، ابن السلطان ابي سعيد ، ابن السلطان أبي يوسف بن عبد الحق ،،، معظم قدره الامير عبد الله يوسف ابن أبن أمير المسلمين أبي الوليد اسماعيل بن فرج ابن نصر سلام كريم مشفوع بالبشائر والتهاني ،،، أما بعد حمد الله مطلع انوار الصنائع العجيبة متألقة الغرر ،،، الكريم الذي يجيب دعوة المضطر اذا دعاه ، ويكشف السوء وما أمره الا واحدة كلمح بالبصر ... فما ((يعلم جنود ربك الا هو وما هي الا ذكرى للبشر)) والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله ذي المعجزات الباهرة والآيات الكبر ... والرضى عن آله واصحابه الكرام الاثر ،،، والدعاء لمقامكم الاعلى باتصال المسرات وتوالي البشر ،،، فانا كتبناه اليكم ـ كتب الله لكم من حظـــوظ فضلـــه واحسانه أجزل الاقسام ،،، ـ من حمراء غرناطة ـ حرسها الله ـ واليسر بفضل الله طارد الازمات بعدما قعدت ... ثم ما عندنا من الاعتداد بايالتكم.. الا الصنع العجيب ،،، والى هذا ايدكم الله على أعدائه ،،، وعرفكم مـــن اخبار الفتح ،،، فانا كتبنا اليكم نحقق لديكم البشرى ،،، علما بما عندكم من فضل الاخلاق ،،، والعناية بامور هذا القطر ،،، وقد تقرر لدى مقامكم ما كانت الحالة آلت اليه بهذا الطاغية ،،، فتملا تيها وعجبا ، وارتكب من قهر هذه الامة المسلمة مركبا صعبا ،،، وجبل الفتح الذي هو باب هـــذه الدار ،،، قد رماه ببوائقه ،،، ويسر له ما يجاوره من المعاقل املاء من الله لايامه ،،، وطال الحصار ، وعجزت عن نصره الخيل والانصار ،،، فجبر الله الخواطر لماعظم بها الانكسار.. وهبت نواسم الفرج، عاطرة الأرج.. وبينما نحن نخوض من الشفقة على ذلك المعقـــل ،،، ولـــولا المتعلـــق

باسبابكم فى أنواء تلك العياهب ، وما خلص الى هذه البلاد من مواهبكم الهامية المواهب ،،، وكتبكم التي تقوم عند العدو مقام الكتائب ،،، لما رجع الكفر بصفقة الخائب ،،، ورمى الله العدو بجيش من جيوش قدرته ،،، وأهلك الطاغية حتف أنفه ٠٠ وحمى الجزيرة الغربية وقد صارت نهبـــة طغاته ٠٠٠ نطقت بتبار محلاته ألسنة النار ٠٠ ((يخربون بيوتهم بأيديهـــم وايدي المومنين فاعتبروا يا أولي الابصار)) وولوا يحثون التـــراب فوق المفارق ،،، ورأوا أن حصن ((اسطبونة)) لا يتاتى لهم به امتناع ،،، فاخلوه من سكانه ، وعاد فيه الاسلام الى مكانه ،،، ولو تمسك به العدو لكـــان المسلك الى الجبل ــ عصمه الله ــ مسدوداً ٠٠٠ وأما البلد المحصور ، فظهر فيه من عزمكم الامضى ما صدق الآمال والظنـــون ،،، من صلـــة الامداد علي الخطر ، وتردد السابلة البحرية على بعد الوطن وتعذر الوطر ،، عرفناكم بما اتصل ،،، ووجهنا اليكم بكتابنا هذا من ينوب عنا فى هـــذا الهناء ٠٠٠ القائد الفلاني أبا الحسن عباداً ٠٠ والله يصل سعدكم ، ويحرس مجدكـــم ، والســـلام

وفى الصفحة 45 وما بعدها ، وردت رسالة اخرى له الى السلطان عثمان بن يغمراسن ٠٠٠ عند بعثه بطعام الى الاندلس ، شاكراً له ، مخبراً بفتح حصن من حصون الاندلس ، هكذا :

المقام الذي تحدثت بسعادته دولة اسلافه ٠٠٠ مقام ولينا فى الله ، وصفينا الذي يسهب القول فى شكر جلاله ،،، السلطان أبو سعيد عثمان ابن الامير ابي زيد ، ابن الامير ابي زكرياء ابن السلطان ابي يحيى يغمراسن ابن زيان ، مع ذكر القاب كل منهم بحسبه ، ابقاه الله للدولة الزيدانية

اما بعد حمد الله جامع الشمل ، والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله الصادح بآياته ،،، والرضى عن آله وصحبه وأنصاره ،،، فانا كتبناه اليكم ــ كتب الله لكم سعداً ثابت الاركان ،،، ــ من حمراء غرناطة ــ حرسها الله ــ ،،، وعندنا من الاعتداد بكم فى الله عقود مبرمة ،،، ولدينا مـــن السرور ، بما سناه الله من أسباب الظهور ٠٠٠ ما لا تفى العبارة ببعض حقوقه الملتزمة ، والى هذا ــ أيدكم الله ــ فاننـــا ورد علينا فـــلان ،،، صادرا عن جهتكم الرفيعة الجانب ،،، طلق اللسان بالثناء بما خصكم الله

به ،،، فحضر بين ايدينا ملقيا ما شاهده من ازدياد المشاهد ،،، واستبشار المعاهد بعودة ذلك الملك الرفيع الجلالة ،،، ووصل صحبته ما حملتـــم جفنه من الطعام ، برسم امنة هذه البلاد الاندلسية ··· وأخبر أن ذلك انما هو رشة من غمام ··· فأثنينا على قصدكم الذي لله أخلصتموه ··· وسنى الله سبحانه بين يدي وصول ما به تفضلتم ،،، أن فتح جيشنا حصنا من الحصون المجاورة لغربى مالقة يعرف بحصن قنيط ··· ودفع الله مضرته عن الاسلام وأهله ،،، فجعلنا من ذلك الطعام ،،، طعمة حماته ، فمن الله نسأل أن يجعله في ذاته وذريعة الى مرضاتهومرادنا ،،، أن تحسبوا هذه الجهة كجهتكم فيما يعرض من الاغراض ، لنعمل فى تتميمها بمقتضى الود·· والله يصل سعدكم ، ويحرس مجدكم والسلام

وفي الصفحة 47 وما بعدها ، أتى بالضرب الثاني ، وهو ان يقـــع الابتداء بالمقر ، وينعت كان يقال مقر فلان ، وينعت بالالقاب ، ثم يذكـــر المكتوب عنه ، ثم يقال : أما بعد الى أن يوتي ((فانا كتبناه)) اكم من موضع كذا ، وكذا ، حتى يختم بالسلام ، كما نجد في هذه لابن الخطيب عـــن سلطانه الى سلطان مكة هكذا :

المقر الاشرف ··· منبط اسماعيل ، صلى الله عليه وسلم ··· مقر السطان الجليل ،،، ابن الحسين وحافد سيد الثقلين ،،، عجلان ابـــن السلطان ابي الفضل رميثة بن محمد بن ابي سعيد الحسني ،،، ينهي اليه أكرمالتحيات ·· فلان، كان الله لهفى غربتهوانفراده، وتولى عونهعلى الجهاد فيه حق جهاده ،،، أما بعد حمد الله ،،، والصلاة والسلام على سيدنـــا ومولانا محمد عبده ورسوله ،،، والرضا عن آله وأحزابـــه ،،، والدعـــاء لشرفكم الاصيل المناسب الطاهر ،،، فانا كتبناه اليكم - كتب الله لكـم عناية تحجب الاسواء ،،، - من حمراء غرناطة دار الملـــك الاسلامـــي بالاندلس - حرسها الله ووفر جموع حاميتها المثاغرة - ،،، والحمد لله ،،، وجانبكم موفى حقه من التعظيم ،،، ومستند ودكم ((قل لا اسالكم عليه اجرا الا المودة فى القربى)) والى هذا ،،، فان الجهاد والحج اخوان ،،، وطننا - والحمد لله - على هذا العهد المخصوص بكمال هذه المزية ،،، وهذا النسب واشجة عروقه ،،، ونحن نعرفكم باحوال هذا القطـــر ،،، فاعلموا أن الاسلام به مع الحياة فى سفط حرج ،،، والاعـــداء لرد مـــا استخلصه الفتح الاول مجموعه ،،، والشهداء تنوش أشلاءهم القشاعم ،،،

والصبيان تدرب على العمل بالسلاح ،،، وعدد المسلمين لا يبلغ من عدد الكفار عشر المعشار ،،، الا ان الله عز وجل حل بولايتنا المخنق المشدود ،،، فتحركنا حركات ساعدها ـ ولله المنة ـ السعد ،،، ففتحنا مدينـــة ((برغة)) الفاصلة كانت بين البلاد المسلمة ··· وتبعتها بنات كن يرتضعن أخلاف درتها ··· ثم نازلنا ((حصن آتش)) ··· فرفع الله أصره الثقيـــل ، وكان من عثرة الدين فيه المقيل ، ثم قصدنـــا مدينة ((الجزيـــرة)) ··· فاستبحناها عنوة ،،، ثم كانت الحركة الى مدينة ((جيان)) ،،، ففتحها الله على يدينا عنوة ،،، وغزونا بعدها مدينة ((أبدة)) أختها الكبرى ،،، وكانت أسوة لها في التدمير ،،، ثم نازلنا مدينة قرطبة ، وهي أم هذه البلاد الكافرة ،،، فكدنا نستبيح حماها المنيع ،،، لولا عوائق الامطار ،،، وبلغ من صنع الله لنا ،،، ان لاطفنا النصر بحصون أربعة لم نوجف عليها ركابا ،،، وقـــد ظهر لنا أن نوجه الى المدينة المقدسة ، صلوات الله على من بها وسلامه رسالة نعرفه بهذه البركات الهامية من سماء عنايته ،،، ومرادنا ان تعرض بمجتمع الوفود تذكرة تستدعي الامداد بالدعاء ،،، ثم تصحـــب ركـــاب الكريمة ،،، ورحمة الله وبركاته
الزيارة ، الى أبواب النبوة ،،، وأنتم تعلمون ،،، ما يليق بحسبكم الوضاح ،،، فانتم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح ،،، وهو سبحانه يتولاكم بما يتولى به أعز شعاره ،،، والسلام الكريم ،،، يحيى معاهدكـــم

ثم قال المؤلف : وربما قدم على لفظ المقرصلة يعتمـــد عليها في البداءة ، كما كتب عنه في معنى ذلك ، الى أمير المدينة المنورة ،،، يعتمد المقر الاشرف ،،، أبقاه الله منشرحا بجوار روضة الجنة صدره ،،، اما بعد حمد الله الذيفضل البقع بخصائصها الكريمة··· والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله الكريم ،،، والرضا عن آله وصحبه ،،، والدعاء لمقر أصالتكم الشريفة ،،، فانا كتبناه اليكم ـ كتب الله لكم من مواهب الصنع الجميل أغياها ،،، من حمراء غرناطة ـ حرسها الله ـ ونعم الله يحـــوك حللها الجهاد ،،، والحمد لله كثيرا كما هو أهله ،،، والى هذا أجـــزل الله مسرتكم بظهور الدين ··· فاننا نعرفكم أننا فتح الله علينا ·· فتوحا حوزت من مملكة الكفر البلاد ،،، حسب ما تنصه مخاطبتنا الى نبينا الكريم الذي شرفكم الله بخدمة لحده ،،، ووجهنا صحبتها من النواقيس التي كانـــت

تشيع نداء الضلال ،،، ما يكون تذكرة تحن بها القلوب الى هذه الطائفـــة المسلمة اذا رأتها ،،، وهذا كله لا يتحصل على التمام الا بمشاركة منكـــم تسوغه ،،، وأنتم تعلمون فى ذلك بما يناسب مثلكم من الشرفاء الامجاد ، والله عز وجل يواليكم بنعمه ،،، والسلام الكريم يخصكم عودا على بدء ، ورحمة الله تعالى وبركاته

وفى الصفحة 56 وما بعدها ، جاء الضرب الثالث ، وهو أن تفتتح المكاتبة بلفظ الامارة ، بأن يقال الامارة التي نعتها كذا ،،، امارة محل ،،، ويدعى له ، ثم يقال ، معظم امارته ، أو معظم أخوته فلان ، سلام عليكـــم ورحمة الله وبركاته ، اما بعد حمد الله ،،، ثم يقال ، فانا كتبناه اليكم ،،، كما كتب ابن الخطيب عن ابن الاحمر الى ابي علي الناصر ابن السلطان ابي الحسن المريني بفاس ، عندما أرسله والده الى ناحية لعمارة تلك الناحية وأصلاحها ، مهنئا له بما أجراه الله على يديه ، هكذا :

الامارة التي لها المكارم الراضية ··· امارة محل أخينا ··· الامير الاجل ،،، ابو علي الناصر ابن محل أبينا ،،، السلطان الجليل ،،، أبو الحسن ابن السلطان ،،، أبي سعيد ابن أمير المسلمين ،،، أبي يوسف بن عبد الحق ابقاه الله والسعود اليه مبتدرة ،،، الامير عبد الله بن يوسف ابن أميـــر المسلمين أبي الوليد اسماعيل بن فرج بن نصر ، سلام كريم ،،، يخـــص اخوتكم الفاضلة ،، ورحمة الله وبركاته

أما بعد حمد الله الذى شرح بالتوكل عليه صدورا··· والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله ،،، والرضا عن آله واحزابه ،،، والدعاء لامارتكم ،،، فانا كتبناه اليكم ـ كتب الله لكم سعدا متجددا ،،، ـ ولا زائد بفضل الله سبحانه ،،، الا ما يرجى من عوائد الله الجميلة ،،، وعندنا من التعظيم لتلك الامارة الرفيعة ما هو أشهر من الشهير ،،، فلا نزال نعتد لجانب أخوتها بالعداد الكبير ،،، والى هذا أيد الله امارتكم ، فقد علم الغائب والشاهد ،، ما عندنا لكم من الحب ،،، واننا تعرفنا ما كان من قدومكم السعيـــد على أحواز ((المرية)) ،،، وأن محل والدنا ،،، قدم منكم بين يديه مقدمة اليمن والاستبشار ،،، بخلال ما يتلاحق بها ركابه العالي قدره على الاقدار ، وان مخايل النجح لامارتكم الرفيعة قد ظهرت ،،، وأنكم أخذتم فى تسكيـــن

الاوطان ،،، فكتبنا اليكم ،،، نهنئكم ،،، ونستفهم عن أحوال أخوتكـــم ،، ولولا العوائق المانعة ،، لم نغب المخاطبة ،،، ومجدكم يقبـــل الاعـــذار الصحيحة ،،، والله تعالى يصلح بكم الاحوال ، ويسكن الاهوال ،،، وغرضنا أن تعرفونا بما لديكم من المتزيدات والصنائع المتجددات ، وبما عندكم من احوال محل أبينا ،،، وقد كتبنا اليه صحبة هذا كتابا ،،، أن يصـــل الى حضرته العلية تحت عنايتكم ،،، وهو سبحانه يصل سعدكـــم ، ويحرس مجدكم ،،، والسلام الكريم عليكم ورحمة الله وبركاته

وفى الصفحة 60 وما بعدها تعرض للاسلوب الثانى :

وهو أن تفتتح المكاتبة باسم المكتوب اليه أو المكتوب عنه ، وهذا على ضربيـــن :

الاول أن تفتتح باسم المكتوب اليه تعظيما له ، كان يقال ، الى فلان، وينعت ، ثم يوتي بالسلام، ثم أما بعد ... فانا كتبناه اليكم كذا ، من موضع كذا ، ويتخلص الى المقصود ، بلفظ ((والى هذا)) ... ويختم بالسلام ، كما كتب ابن الخطيب عن سلطانه الى الامير ((يلبغا)) الخاصكي ، أتابك العساكر المصرية ، فى الدولة الاشرفية ، شعبان بن حسين : الى الامير المؤمن على أمر سلطان المسلمين ،،، تاج الخواص ،،، كافـــي الكفاة ،،، يلبغا الخاصكي ،،، سلام كريم ،، يخص امارتكم ،،، أما بعد حمد الله ،، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله العظيـــم الشـــان ،،، والرضا عنآله وأصحابه ،،، والدعاء لامارتكم السعيدة ،،، فانا كتبنـــاه اليكم ،،، من حمراء غرناطة ،،، دار الملك بالاندلس ،،، ولا زائد الا الشوق الى التعارف بتلك الابواب الشريفة ،،، والى هذا فاننا كانت بين سلفنا ،،، وبين تلك الابواب السلطانية ... مراسلة ينم عرف الخلوص من خلالها .. ونغتنم فى عودها الحميد مكانكم ،،، فخاطبنا الابواب الشريفة فى هـــذا الغرض ،،، ونؤمل الوصول فى خفارة يدكم ،،، ومثلكم مـــن لا تخيـــب المقاصد فى شمائله ،،، وهذه البلاد مباركة ، ما أسلف أحد فيها مشاركة، الا وجدها فى نفسه وماله ودينه وعياله ، والله أكـــرم من وفى لامرىء بمكياله ،،، ويتولى اعانة امارتكم ، ويجعلكم ممن أنعم الله عليهـــم مـــن المجاهدين ، والسلام الكريم يخصكم ، ورحمة الله وبركاته

الضرب الثاني ، أن تفتتح باسم المكتوب عنه ، وهو على صنفين :

الاول ما يكتب به الى بعض الملوك ، فيقال من فــلان الي فــلان ، بالالقاب والنعوت ، ثم السلام ، ثم أما بعد حمد الله ، ثم فاننا كتبناه اليكم، ثم يقال ، فان كذا وكذا ،،، ويختم بالدعاء والسلام ، كما كتب ابن الخطيب عن سلطانه الى بعض ملوك المغرب ، يهنئه بدخول بجاية فى طاعته :

من أمير المسلمين عبد الله محمد ابن مولانا أمير المسلمين ابــي الحجاج ابن مولانا أمير المسلمين أبي الوليد اسماعيل بن فرج ابن نصــر أيد الله أمره ،،، الي محل أخينا الذي نصل له أسباب الاعظام ،،، فلان ابن السلطان فلان ، بالالقاب اللائقة بكل منهم ،،، سلام كريم ،،، أما بعد حمد الله الواهب الفاتح ،،، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله المبتعث لدرء المفاسد ،،، والرضا عن آله وأصحابه ،،، والدعاء لسلطانكم الاسمى ،،، فانا كتبناه اليكم ،،، من حمراء غرناطة ،،، والاسلام بهذا الثغر الجهادي مرعية ذممه ،،، وقد اتصل بنا ما كان من دخول حضرة بجايــة ــ حرسها الله ــ فى طاعتكم ،،، وعقدكم منها ومن أختها السابقة الذمام،، لا يجمع بينهما الا ملك همام ·· ومن جمع الله لــه بين البــر المتراكض الخيول ··· وبين البحر المشهير بنجدة الاسطول ··· بجاية وما بجاية ؟ ،،، واذا كانت عقائل النعم تخطب أكفاءها ،،، فأنتم أهلها الذين لكم تدخر ،،، ونحن نهنئكم بما منحكم الله من انفساح الايالة ،،، بسلطان ألقى عنانه الى مثلكم ··· ولنا فيكم ــ علمالله ــ ود تأسسبناؤه··· وغرضنا الذي نؤثره على الاغراض والمقاصد ،،، أن تتصل بيننا وبينكم المخاطبــة ،،، والله عز وجل المعين على ما يجب لودكم من بر تكفل واجبه ،،، وهو سبحانــه يصل سعدكم ويحرس مجدكم ، والسلام الكريم يخصكم ورحمــة الله وبــركــاتــــه

الصنف الثاني ، ما يكتب به الى الرعايا ، فيخاطبون باوليائنا ، كما كتب ابن الخطيب عن سلطانه الى المرية ، بالبشارة بموت الطاغية بجبل الفتــــح

من الامير عبد الله يوسف ابن مولانا أمير المسلمين ابي الوليد اسماعيل بن فرج بن نصر ، أيد الله أمره ... الى أوليائنا فى الله تعالى ... القائد بالمرية ، والقاضي بها ، والفقهاء ، والاشياخ ، والوزراء والامراء ، والكافة والدهماء من أهلها ... سلام كريم ... ورحمة الله وبركاته

أما بعد حمد الله فاتح أبواب الامل ... والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله الذي دعوته هي العروة الوثقى ... والرضا عن آله وصحبه ... من حمراء غرناطة ... ولا زائد بفضل الله سبحانه الا ما أمن الارجاء ومهدها ... وأنتم الاولياء الذين نعلم منكم خلوص الاهواء ... والى هذا فقد علمتم ما كان الحال آلت اليه من ضيقة البلاد والعباد بهذا الطاغية ... حتى طفح بسكر اغترارة ... وتوجهت الى استيصال الكلمة مطامع أفكاره ... ونازل جبل الفتح فشد مخنق حصاره ... وانتهز الفرصة بانقطاع الاسباب ... والامور التي لم تجر للمسلمين بالعدوتين على مالوف الحساب ... واننا صابرنا بالله تيار سيله ... فرحم الله انقطاعنا الى كرمه ... فجلا بفضله سبحانه ظلام الشدة ... ورماه بجيش ... قدرته ... واظهر فينا قدرة ملكه ... فقد كان سد المجاز بأساطيله ... ورمى الجزيرة الاندلسية بشؤوب شره ... فلم يخلص الى المسلمين من اخوانهم مرفقة الا على الخطر الشديد ... وبينما شفقتنا على جبل الفتح تقيم وتقعد ... اذ طلع علينا البشير بانفراج الازمة ... وموت شاة تلك الرقعة ... وأنه سبحانه اخذ الطاغية أكمل ما كان اغترارا ... وأهلكه برغم أنفه ... وتلاحق بنا الفرسان من جبل الفتح ... فاخبرت بانفراج الضيق ... وأن النصارى دمرهم الله جدت فى ارتحالها ... اللهم لك الحمد على نعمك الباطنة... وعجلنا تعريفكم به ساعة استجلاله... وعرفوا بذلك من يليكم من الرعية ... والله سبحانه يجعله للمسرات عنوانا ، ويطلع علينا وعليكم وجوه صنعه غرا حسانا ، والسلام الكريم يخصكم ورحمة الله وبركاته .

محمد ابن تاويت تطوان

دراسات معجمية :

كتاب السماء والعالم

عبد العلي الودغيري

المعجـــم العربـــي بالاندلس :

لئن كان المعجم العربى ، قـد نشأ بالمشرق خلال القرون الاربعـة الاولى ، وقامت حوله مدارس متعددة عملت على دفعه وتطويره ، فـان للاندلسيين — مع تأخر ركبهم — اسهاما قيما فى هذا الميدان اللغوى ، يمكـن تأريخ بدايته بمنتصف القرن الرابع الهجرى ، وهى الفترة الموافقة لظهور أول معجم من معاجم الالفاظ الشاملة يؤلف فوق تراب الجزيرة الايبيرية ، ونقصد بـه كتاب (البارع فى اللغة) (1) لابى على القالى (ت 356 هـ) . وقد كان لهذا الكتاب فضائل على الحركة المعجمية بالاندلس ، اذ شرع الابواب أمام العلماء فيما تلاه من الزمن ، وشجعهم على اقتحام هذا الميدان . ولما كان كتاب القالى من المعاجم المؤلفة على طريقة العين ، سار الزبيدى (ت 379هـ) فى ركب أستاذه ، فألف المختصر المشهور تلبية لطلب الحكم المستنصر سنة

---

1) يجمع المؤرخون على ان القالى مات ولم يتم تنقيح كتابه ، فلذلك الف الحكم المستنصر لجنة لاخراج البارع من الصكوك والرقاع ، وتنقيح ما لم يكن أبو علي قد نقحه منه ، ويذكر القفطى فى الانباه أنه ابتداه سنة 337 هـ واتمه سنة 355 هـ ، ويقول ابن خير ان ابتداءه كان سنة 339 هـ .

362 هـ — وهو وان لم يكن فى الحقيقة تأليفا مبتكرا بالمعنى الدقيـــق ، الا أن التغييرات التى أدخلها على كتاب الخليل منهجا وموضوعا، كافية لتجعله قريبا من التأليف المبتكر (2) . وقد نوه به ابن خلدون (3) وابن حزم (4) ، واعتمده ابو زيد عبد الرحمن بن عبد العزيز التادلى فى « كتاب الوشاح وتثقيـــف الرماح » كمصدر اساسى للرد على صاحب القاموس .

ثم الف فى المعاجم بعد الزبيدى ، أبو غالب تمام بن غالب المعروف بابن التيانى (ت 436 هـ) كتاب (الموعب فى اللغة) ، وقد ذكره أبو الحســن الشارى فى فهرسته وقال ان سبب تأليفه هو اخلال الزبيدى بكتاب العين ، لحذفه منه شواهد القرآن والحديث والشعر ، ثم نوه به فقال انه أتى فيــه « .. بما فى العين من صحيح اللغة الذى لا اختلاف فيه على وجهـــه ، دون اخلال بشىء من شواهد القرآن والحديث وصحيح أشعار العرب ، وطرح ما فيه من الشواهد المختلفة والحروف المصحفة ، والابنية المختلة ، ثم زاد فيه ما زاده ابن دريد فى الجمهرة ، فصار هذا الديوان محتويا على الكتابين جميعا » (5) وقرنه بعد ذلك بكتاب البارع وقال : « .. وهما من أصح ما الف فى اللغة على حروف المعجم » (6) ، ونحن لا نعرف الترتيب الذى اختاره ابن التيانى لمعجمه ، غير أن القرائن المجتمعة من تسميته أحيانا بتلقيـــح (أو تنقيح) العين ، واقتفائه اثر كتاب الخليل ومختصر الزبيدى ، وغير ذلك من الاوصاف المذكور بها ، قد تفيد أنه اتبع نظام العين ، وأنه واحد من أعيـــان هذه المدرسة التى جددت رسومها فى بلاد الاندلس .

وفى القرن الخامس أيضا نلتقى بكتاب من أهم كتب المدرسة ، بل هـــو آخر حلقة فى هذا المسلسل الطويل ، وهو (المحكم) لعلى بن اسماعيل بن سيدة (ت 458 هـ) ، وقد قيض لهذا الرجل أن يفيد من الجهود السابقة ، وخاصة جهود الزبيدى فى مختصره ، فأحكم تنظيم كتابه ، وأتقن تأليفه حتى ليعد الذروة التى انتهت اليها مدرسة العين .

---

2) انظر المعجم العربى لحسين نصار (309/1) ، ومقدمة المختصر للزبيدى .
3) المقدمة (126/4)
4) نظرات فى اللغة عند ابن حزم لسعيد الافغانى ص 48 — 49
5) المزهر : 88/1
6) نفس المصدر 89/1

ومن الكتب اللغوية التى ربما سارت على نهج مدرسة العين : كتاب (المبرز فى اللغة) لابى عبد الله محمد بن يونس الحجارى (ت 362 هـ) (7)، وصفه ابن خير الاشبيلى فقال : « .. وهو كتاب كبير مثل المحكم لابن سيدة » (8) ، ففى قوله (مثل المحكم) ما يفيد أنه معجم ، وربما أفاد أيضا انه مؤلف على طريقته .

تلك هى المعاجم الاندلسية المعروفة التى سارت على طريقة العين ، وحين نترك هذا الاتجاه لنأخذ فى البحث عن المعجمات المؤلفة حسب الترتيب الالفبائى العادى ، ربما تصيبنا الخيبة ونحن لا نستطيع ان نذكر منها غير كتاب واحد معروف ، هو (معجم ما استعجم) لابى عبيد البكرى (ت 437هـ) وهذا الكتاب مع كونه من المعاجم المخصصة للمواضع والامكنة ، فانه لا لا يشابه بقية معاجم البلدان ، لطابعه الادبى واللغوى ، واهتمامه الخاص بتحقيق أسماء المواضع التى وردت فى الشعر العربى والاحاديث وكتب السير والتواريخ وأيام العرب ، وذلك بشرحها وذكر اشتقاقها اللغوى والاستشهاد عليها ، وهو فى الاصل مرتب حسب الحروف الالفبائية فى الاستعمال المغربى .

وهناك كتاب ذكره ابن فرحون فى الديباج (ص 176 — 177) ونسبه لابى محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الاشبيلى المعروف بابن الخراط (ت 581 هـ) وقال انه ضاهى به كتاب الغريبين للهروى وأخرجه فى 25 مجلداً . فاذا كان هذا الوصف يجعلنا نميل الى القول بأنه معجم من المعاجم التى اهتمت خاصة بالجمع بين غريب القرآن وغريب الحديث كما صنع ابو عبيد الهروى (ت 401 هـ) الذى رتب كتابه ترتيبا هجائيا ، فاننا مع ذلك لا نستطيع القطع بمنهج ابن الخراط فى كتابه ، لانه من التراث الضائع .

على ان الاندلسيين وان لم يهتموا بالتاليف حسب الطريقة الالفبائية العادية — وقد يكون ذلك نتيجة غلبة تيار مدرسة العين التى رسخ القالى دعائمها بالاندلس — فانهم قد اولوا شطرا من عنايتهم لدراسة المعاجم

7) انظر ترجمته فى الصلة : 547/2 (الدار المصرية)
8) فهرسة ابن خير : ص 357

المشرقية الالفبائية ، وخاصة منها كتاب الصحاح للجوهرى ، ومن هـــذه الدراسات نذكر :

— كتاب الجمع بين الصحاح والغريب المصنف لابى اسحاق البطليوسى (ت 646 هـ) (9) .

— حاشية محمد بن على الشاطبى (ت 648 هـ) على الصحاح (10) .

— نقود أبى العباس أحمد بن محمد المعروف بابن الحاج الاشبيلى (ت 651 هـ) على الصحاح (11) .

— تتمة الشيخ عبد الله بن محمد الانصارى البسطى الاندلسى (من القرن السابع) لكتاب (التنبيه والايضاح عما وقع من الوهم فى كتاب الصحاح) الذى ابتداه ابن القطاع الصقلى وابن برى المصرى (12) .

وبازاء ما سبق عنى الاندلسيون بنوع آخر من المعاجم وهى الخاصة بالابنية والصيغ فألف جماعة منهم فى الافعال مثل القالى (فعلت وأفعلت) ، وابن القوطية (ت 367 هـ) (كتاب الافعال) ، وابن طريف المتوفى فى حدود سنة 400 هـ (كتاب الافعال) ، وابى منصور محمد بن على بن عمـــر الجيانى (من القرن الخامس) . (كتاب الافعال) (13) ، وجمال الدين محمد بن مالك النحوى (ت 672 هـ) : (لامية الافعال) وهو مشهور ، ومحمد بن يحيـــى المعروف بابن هشام الخضراوى (ت 646 هـ) : (كتاب فصل المقـــال فى أبـــنية الافعـــال) (14) . وألـــف كل من القالى وابن القوطيـــة فى (المقصور والممدود) ، وذلك على اختلاف هؤلاء جميعا فى الترتيب والتنظيم، وتفاوتهم بين الاختصار والاستقصاء .

---

9) كشف الظنون : 600/1
10) نفس المصدر : 1072/2
11) نفسه : 1072/2
12) الذيل والتكملة : 96/6
13) كشف الظنون : 133/1
14) التكملة : 660/2 — (الحسينى) — وكشف الظنون : 1261/2

واخيرا فان للاندلسيين مشاركة ذات اهمية فى معاجم المعانى المصنفة حسب الموضوعات ، ويسميها بعضهم بالمعاجم المبوبة . وغير خاف أن هذا الصنف من كتب اللغة قد سار فى اتجاهين : اتجاه الرسائل ذات الموضوعات المحددة أو المتخصصة ، وهى تتضمن المؤلفات الموضوعة فى خلق الانسان، والابل ، والخيل ، والشاء ، والمطر ، والبئر ، والشجر .. وغيرها . واتجاه الكتب الجامعة لكل الرسائل السابقة ، ككتاب (الغريب المصنف) لابى عبيد (ت 224 هـ) . وبعض الباحثين يذهبون الى أن الاتجاه الاول كان هو السابق الى الوجود ، ثم أعقبه او نتج عنه المعجم الشامل الذى ذهب فيه العلماء الى الجمع والاستقصاء عوض التخصيص والتحديد ولكن هذا لا يعنى أن الاتجاه الاول قد انقرض نهائيا بظهور المعجم الكامل ، والدليل على ذلك أن التاليف فى الرسائل اللغوية ذات الموضوعات المحددة قد استمر طويلا بعد ظهـــور المعاجم الشاملة فى الالفاظ والمعانى . وفى الاندلس أيضا ظهر هذان النوعان من الكتب اللغوية جنبا الى جنب ، فألف القالى صاحب (البارع) ــ وهــو معجم شامل ــ كتاب (الابل ونتاجها وجميع أحوالها) (15) ، وكتاب (حلى الانسان ، والخيل وشياتها) (16) ، وهما من الكتب المفقودة . ثم ألف بعد القالى جماعة من العلماء فى موضوع الخيل والشيات ، كتبا ورسائل وأراجيز، نذكــر منها على الاخص : (حلية الفرسان ، وشعار الشجعان) لعلى بن عبد الرحمن بن هذيل من القرن الثامن الهجرى .

والمشهور عند الدارسين قدامى ومحدثين ، من معاجــم المعانــــى الاندلسية ، كتاب (المخصص) لعلى بن اسماعيل بن سيدة المرسى ، الذى أفاد فيه من الكتب والمعاجم اللغوية السابقة ، وألفه لمجاهد العامرى صاحب دانية ، وأعجب الناس به كثيرا .

---

15) ذكره ابن خير (ص 355) وقال انه فى خمسة أجزاء ، وذكره غيره كالزبيدى فى الطبقات (ص 186) ، والقفطى فى الانباه (206/1)

16) ذكره الزبيدي فى الطبقات (ص 186) ، وابن خير (ص 355) وغيرهما .

كتـــاب السمـــاء والعالـــم :

وليس هذا الكتاب أول معجم موضوعي يؤلف فى الغرب الاسلامى كما قال احد المستشرقين المعاصرين (17) ، بل كان مسبوقا بكتاب آخر لم ينل من الشهرة والحظوة ما ناله المخصص ، ولم يصل الينا منه سوى جزء واحد ما يزال ثاويا فوق رفوف المخطوطات ، ذلك هو (كتاب السماء والعالم) لابى عبد الله محمد بن ابان بن سيد اللخمى الاندلسى المتوفى سنة 354 هـ .

وقد وقع حول هذا الكتاب خلاف كبير بين المؤرخين والدارســـين ، نستعرضه فيما يلـــى :

1) فقد نسبتـــه جماعة منهم لاخى المؤلف المذكور ، وهو احمد بن ابان بن سيد (ت 382 هـ) (18) ، كابن حزم فى رسالته (ص 16) ، والقفطـــى فى أنباه الرواة الذى ذكره حين ترجم له (30/1) ثم قال فى ترجمة أبى علـــى الشلوبينى (من علماء القرن السابع) : ان ابا العباس أحمد بن مفرج بـــن الرومية العشاب الاشبيلى ، أخبره أنه « .. لما عزم على الخروج الى المشرق للحج ، ابتاع من عمر الشلوبينى الاندلسى كتاب « العالم فى اللغة » لاحمد ابن أبـــان بن سيد الاشبيلى الاندلسى فى اللغة ، فى أربعين مجلدا ، وهـــو كتاب غريب عجيب ، لا يسوغ لعالم عاشق فى علم العربية أن يخرج مـــن يده » (19) . ومنهم المقرى فى النفح (351/4) الذى ذكر انه رأى بعضـــه بفاس ، والسيوطى فى البغية (ص 126) ، وياقوت فى معجم الادباء (203/2) وحاجى خليفة فى كشف الظنون (1121/2) ، والبغدادى فى هدية العارفين (68/1) .

وأما الحميدى فى الجذوة ، فقد ترجم اولا لاحمد بن أبان بن سيد (ص : 110) ولم ينسب اليه اى كتاب ، ثم ذكر فى (باب من نسب لاحد آبائه ولـــم

---

17) انظر (ابن سيدة المرسي) لداريو كابانيلاس تعريب الاستاذ حسن الوراكلي مجلـــة (المناهل) العدد 1 ص 182 .

18) انظر ترجمة احمد بن أبان فى الجذوة للحميدى ص : 110 — والصلة 14/1 (الحسينى) — والوعاة ص 126 — وانباه الرواة 30/1 — ومعجم الادباء 203/2

19) الانبـــاه : 334/2

أعلم اسمه) تحت عنوان : (أبن سيد) — دون تعريف — الجملة التالية :
« .. امام فى اللغة والعربية كان فى أيام الحكم المستنصر . له فى اللغة الكتاب المعروف « بكتاب العالم » نحو مئة مجلد مرتب على الاجناس ، بدأ بالفلك ، وختم بالذرة . وله فى العربية الكتاب المنبوز بكتاب (العالم والمتعلم) على المسألة والجواب .. ذكره أبو محمد على بن احمد (20) وأثنى عليه ، ولم يسمه لنا ، ولعله أحمد بن أبان بن سيد المذكور فى بابه ، والله أعلم » (21).
وقد نقل عنه ذلك كله ، الضبى فى بغية الملتمس ، دون زيادة (ص : 538).

فهذه طائفة من العلماء — وقد نقل بعضها عن بعض — تواطأت على نسبته لاحمد بن أبان ، ولم يخامر أحدهم شك فى ذلك غير ما لمسناه فى كلام الحميدى من تحرج .

2) ونسبته جماعة ثانية الى ابى الحسن بن سيدة صاحب المخصص ، ومنهم : الشقندى فى رسالته (22) ، وياقوت فى المعجم (232/12 — 233)، والصفدى فى نكت الهميان (ص : 205) .

3) وبعض المحدثين ممن درسوا كتب ابن سيدة ، ذكروا (كتاب السماء والعالم) ضمن مؤلفاته ، ولكنهم نبهوا على أنه ينسب ايضا لاحمد بن ابان . ومنهم محققا كتاب (المحكم) الاستاذان : مصطفى السقا وحسين نصار(23). ومنهم الاستاذ محمد الطالبى (24) ، والمستشرق الاسبانى (داريو كابانيلاس) (25) .

4) وهكذا نجد اخيرا أن أحدا من القدامى او المحدثين لم ينسب الكتاب لصاحبه الحقيقى : محمد بن أبان اللخمى، الا اذا استثنينا منهم ابا جعفر اللبلى

---

20) يقصد شيخه ابن حزم
21) الجذوة : ص 381
22) رسالة الشقندى (ضمن رسائل فى فضل الاندلس نشر صلاح الدين المنجد) ص 34 — وانظر النفح 182/4
23) انظر مقدمة تحقيق المحكم ص 8
24) انظر كتاب الطالبى : (المخصص لابن سيدة — دراسة ودليل) ص 7
25) مجلة المناهل — العدد 4 ص 276

الذى ذكره فى كتابه : (بغية الآمال) (ص 102) ، وقد نقل منه فقـــال : « .. ووجدت أنا حرفا آخر ، وهو : حببت الرجل احبه بكسر الهمزة ، حكاه الامام أبو عبد الله محمد بن أبان بن سيد القرطبى فى كتابه الكبير المسمـــى : « السماء والعالم » .

تلك هى نواحى الخلاف بين المؤرخين والدارسين حول هذا الكتاب الذى كان يظن أنه ضاع برمته ولم يسلم منه شىء . وقد اهتديت أخيرا الى الوقوف على الجزء الوحيد المتبقى منه (وهو السفر الثالث) المحفوظ بخزانة القرويين بفاس تحت رقم : (1947) ، ولا شك أنه من النوادر التى لا نعرف لها مثيلا فى مكتبات العالم وخزائنه ، فتبين لى بما لا يقبل الشك ، أنه لمحمد بن أبان بن سيد ، وليس لاخيه أحمد ، ولا لابن سيدة المرسى ، اذ فيه فضلا عن العنوان الواضح على ورقة الغلاف ، تنصيصات خلال صفحاته ، تدل علـــى نسبتـــه للمؤلف المذكور ، وذلك مثل قوله : (قال ابو عبد الله : حدثنا أبو على(26) ..) و (قال أبو عبد الله : حدثنا شيخنا أبو على ..) . وقد كان القالى أهم شخصية علمية ينقل عنها فى هذا المعجم كما سنرى عما قليل .

وغالب الظن أن الذين نسبوه لابن سيدة من المؤرخين ، قد تشابه عليهم الاسمان المتفقان فى أكثرية الحروف ، فخلطوا لذلك بين (ابن سيد) (27) و (ابن سيدة) (28) . على أن الخلط بين الاخوين أحمد ومحمد أكثر احتمـــالا لاشتراكهما فى اسم الاب والجد . ويبدو لى أيضا أنه من البعيد جدا أن يؤلف ابن سيدة معجمين لغويين متشابهين فى المادة والموضوع وعلى طريقة واحدة ، هى طريقة التبويب حسب المعانى ، اذ أن كتاب السماء ــ كما سنرى ــ شديد

---

26) يقصد شيخه القالـــى

27) وهو بفتح السين وتشديد الياء المكسورة

28) ربما كان من قبيل الخلط بين الاسمين المتشابهين لابن سيد وابن سيدة ، ان المؤرخين نسبوا لكليهما أيضا ، كتابا يسمى : (شرح كتاب الاخفش) . فقد نسبه لاحمد بن ابان كل من السيوطى فى الوعاة (ص 126) ، والحميدى فى الجذوة (ص 381) ، وياقوت فى معجم الادباء (203/2) ، ونسبه لابن سيدة كل من السيوطى (ص 327) ، وابن حزم فى رسالته (ص 16) ، وياقوت فى المعجم (233/12) ، والصفدى فى النكت (ص 205) . ولكن الامرهنا اخف مما وقع لكتاب السماء والعالم ، لان كتاب الاخفش هذا ، قد تعاقـــب على شرحه عدد كبير من الاندلسيين ، مثلما تعاقبوا على شرح جمل الزجاجي ، وكتاب سيبويـــه وغيرهمـــا .

الشبه بكتاب المخصص . واذا كان ذلك مستبعدا ، فأبعد منه أن يتفق أخوان شقيقان ومتعاصران على وضع معجمين يحملان نفس الاسم .

ولما كان اغلب من أرخ لاحمد بن أبان بن سيد ، وعلى بن اسماعيل بن سيدة ، قد نسب لهما كتابا آخر يسمى : (كتاب العالم والمتعلم على المسألة والجواب) او (كتاب العالم والمعلم) (29) ــ وهو كتاب في النحو وقواعــد العربية كما يفهم من الصفات التى حلاه بها هؤلاء المؤرخون ــ زاد ذلك الامر كله التباسا وخلطا ، اذ من السهل لو حذفنا الشطر الثانى من عنوان هــــذا الكتاب وقلنا : (كتاب العالم) ان يوقعنا هذا في لبس ، فنخلط بينه وبين الكتاب الاول الذى ليس موضوعه النحو والعربية ، وليس مصنفا على المسألــــة والجواب . وقد حدث هذا بالفعل اذ وجدنا المؤرخين يسمون المعجم الــذى نحن بصدده تارة بكتاب (السماء والعالم) وتارة يكتفون بالقول : (كتـــــاب العالم) في اللغة . ولكى نحسم هذا الخلاف الطويل نقرر :

1) ان المعجم اللغوى الذى نسب خطأ لاحمد بن أبان ثم لابن سيــدة ، ووصف بأنه كان يقع في مئة مجلد او سفر ، على أغلب الاقــوال(30) ، وأن صاحبه قد رتبه على الاجناس ، فبدأ بالفلك وانتهى بالذرة ، هو كتاب (السماء والعالم) ــ بفتح اللام من العالم ــ أو (كتاب العالم في اللغة) على الاختصار، وهو على التحقيق من تأليف أبى عبد الله محمد بن أبان بن سيد ، والموجود منه السفر الثالث فقط . أما عن القصة التى ذكرها القفطى رواية عن ابــــن العشاب الذى قال انه اشترى كتاب أحمد بن أبان من عمر الشلوبينى ، فهى عندى نتيجة من نتائج ذلك الالتباس الخطير الذى وقعفيه القدماء لتشابه نسب الاخوين ، واشتهار أحدهما ــ وهو أحمد ــ دون الآخر . على أنى لا أكتم أنه يساورنى احتمال أن يكون « بعض الكتاب » الذى رآه بفاس أحمد المقرى المتوفى سنة (1041 هـ) بفاس ، هو « بعض الكتاب » نفسه الذى يوجد منذ القرن التاسع ــ على الاقل ــ بخــزانة هذه المدينة ، واذا صــح هذا الاحتمال الخاطر ، فلا شك أن المقرى واهم في صاحب الكتاب .

---

29) ممن نسب هذا الكتاب لاحمد بن أبان : القفطى ، وياقوت ، ونسبه لابن سيدة كل مــن الشقندى ، وياقوت ، والصفدى في النكت . وقد اختص ياقوت من دون غيره بتسمية كتاب ((العالم والمعلــم)) .

30) وحين ذكره القفطى في قصة ابن العشاب قال انه في اربعين مجلدا (الانباه 334/2)

2) أن الكتاب النحوى الذى ينسب لكل من أحمد بن أبان وابن سيدة ، وقيل فيه انه مرتب على المسألة والجواب ، هو كتاب (العالم والمتعلم) (31) الذى يختلف عن الكتاب الاول مادة وعنوانا ، وان كنا لا نستطيع تحقيق نسبته لصاحبـــه .

اما مؤلف (السماء والعالم) : أبو عبد الله محمد بن أبان بن سيد اللخمى القرطبى ، فان من سوء حظه أن المصادر لم تحتفظ لنا بكثير من أخباره وأسماء آثاره ، بل ان الذين ترجموا له ـــ فيما نعلم ـــ هم ثلة قليلة ومعدودة (32) ، ورغم ذلك نستطيع أن نرسم ملامح من شخصيته العلمية ، فنقول : انه كان من تلاميذ أبى على القالى المشهورين ، أخذ عنه علوم العربية والادب ، وروى عنه من الكتب اللغوية التى أدخلها للاندلس : كتاب الاجناس لابى نصر (33)، وسبعة كتب من تأليف ابن السكيت (34) ، وكتاب الفرق لثابت (35) وكتاب الخيل لابى عبيدة ، وكتاب النقائض له (36) ، وكتاب المفضليـــات (37) ، وغيرها . وقد شارك أخاه أحمد ، وأبا بكر محمد بن الحسين الفهـــرى ، فى تصحيح كتاب العين ومقابلة نسخه باشراف القالى ، وبتكليف من الحكـــم المستنصر (38) . وكان فيما يصفه مترجموه ـــ على قلتهم ـــ عالما بالعربية، حافظا للاخبار والآثار والايام والمشاهد والتواريخ ، فضلا عن اللغة والغريب. على اننا يمكن أن نلمس جانبا من هذه الثقافة الادبية واللغوية من خلال نظرة سريعة فى معجمه الكبير الذى ملأه شعراً ولغة وخبرا وتاريخا ، ولعل هذه الثقافة المتضلعة التى شهد له بها المؤرخون ، هى التى أهلته للمكانة السامية لدى الحكم الاموى ، فقربه وولاه أحكام الشرطة (39) ، واذا كنا لا نستطيع أن نعرف عنه أكثر مما ذكر ، فاننا أيضا لا نعلم شيئا عن مؤلفاته التى يشير اليها

---

31) ذكر محققا كتاب المحكم هذا الكتاب ضمن مؤلفات ابن سيدة ، وسمياه : (كتاب شـــرح العالم والمتعلم) ، فكان ابن سيدة قد شرح كتابا آخر يحمل عنوان (العالم والمتعلم) ويؤكد ذلك المستشرق الاسبانى داريو كابانيلاس فيقول : (ولا شك انه شرح على كتاب العالم والمتعلم المعزو خطأ لابى حنيفة النعمان بن ثابت) ـــ انظر المناهل العدد 4 ص276

32) انظر ترجمة محمد بن ابان فى : تاريخ ابن الفرضى : 67/2 ـــ والوعاة للسيوطى : ص 4 ومعجم الادباء : 117/17 ـــ والوافى بالوفيات : 334/1 .

33 ـــ 34 ـــ 35 ـــ 36 ـــ 37) فهرســـة ابن خير ص : 381 ـــ 382 ـــ 382 ـــ 383 ـــ 390 ـــ حسب الترتيـــب .

38) انظر مقالنا عن (كتاب استدراك الغلط الواقع فى كتاب العين) بالعدد 8 من مجلة المناهل.

39) كان اخوه أبو القاسم احمد بن ابان أيضا يلقب بصاحب الشرطة .

القدامى بقولهم : (والف كتبا) كما يقول السيوطى ، أو قولهم وهم بصـــدد الحديث عن علاقته بالمستنصر : (والف له الكتب وكتب عنه) كما هى عبارة ابن الفرضى وياقوت . بل ان الغريب فى الامر حقا أن لا يكون أحد مترجميه قـد أشار ولو مرة الى كتابه (السماء والعالم) الذى نتحدث عنه ، وأن لا نجد له اى صدى فى كتب المعاصرين له او المتأخرين عنه ، سوى الاشارة التى جاءت عرضا فى كتاب اللبلى (من القرن السابع) وقد تقدم ذكرها . ولكن هذا لا يقدح فى كون الكتاب من تأليفه، فكثيرا ما صادفتنا مثل هذه الظاهرة فى تاريخ الاندلس الذى تعرض لكوارث متلاحقة أودت بالخير والنبيل منه ، ومحقت العديد من معالمه وملامحه . وأما الكتاب فى حد ذاته فلم يصل الينا كاملا حتى نستطيـع الحكم له أو عليه ، حكما علميا دقيقا ، ونستخلص منه سببا قد يكون مما قلل حظه عند العلماء ، وزهدهم فى مطالعته وتداوله وحفظه من الضياع . ولكـن الجزء المتبقى منه لا يدل على أنه كان هزيل المادة قليل المنفعة كما قد يظن ، اللهم اذا تعلقنا بسبب آخر فقلنا ان كتاب المخصص بضبطه واستيعابـه وحسن تبويبه واختصار عبارته ، قد غطى على كتاب ابن أبان ، وحجب سمعته فسقط من أيدى الدارسين والمتعلمين .

ويقع هذا السفر الذى قدر له أن يسلم من ايدى الكـــوارث فى 323 صفحة من القطع الكبير ، وهو مكتوب بخط اندلسى قديم يظن أنه يعود الـى القرن الثامن الهجرى ، وقد خط على صفحة غلافه بحروف كبيرة عنوانه واسم مؤلفه على هذا النحو : (السفر الثالث من كتاب السماء والعالم فى اللغـة ، تأليف الشيخ الفقيه العلامة النسابة النحوى اللغوى أبى (40) عبد الله محمد ابن ابان بن سيد اللخمى القرطبى) . وتحته بخط آخر ، تحبيس لمالكه علـى الخزانة القروية عام 855 هـ . وقد تضمن هذا التحبيس ايضا عنوان الكتاب واضحـا .

وهو يبتدىء بعد الحمدلة مباشرة بذكر (باب ما يقال فى وسط الانسان) وينتهى بباب فى بعض ما تعالجه الاعراب من أطعمة وطبيخ ، وآخر عبارة فيه قول ناسخه : « تم السفر الثالث بحمد الله وحسن عونه وتأييده وتوفيقـه ،

---

40) فى الاصل : (ابو)

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم ، يتلوه بعون الله تعالى باب لغات الثريد وصفاته » (41) .

ونحن باستعراضنا لابواب هذا الجزء وسائر فصوله ، نستطيع تسجيل ملاحظاتنا فى النقط التالية :

1) انه على كبر حجمه لم يتضمن الا بعضا قليلا من الابواب التى تدرج عادة تحت عنوان (خلق الانسان) ، وهى التى تبدأ بالبطن والوسط وتنتهى بالقدم والرجل ، اما غير ذلك من المواضيع التى تتناول الرأس وما يليها الى البطن ، فهى بلا شك قد وردت مضمنة فى الجزئين السابقين . على ان بقية الابواب المذكورة فيه تتناول (اوصاف الانسان) فى كثير من احواله ، كالالوان والحركات والاصوات والمشى ، واختلاف الطبائع ، والقصر والطول ، والاختلاط والاجتماع ، والنوم واليقظة ، والاكل والشرب ، وغير ذلك . فاذا أضفت الى هذا أن المؤرخين كانوا اذا ذكروا كتاب ابن أبان قالوا انه بداه بالفلك وختمه بالذرة ، علمت ان المؤلف ربما كان قد مهد لذكر خلق الانسان ، وهو اول موضوع تتناوله معاجم المعانى العربية فى العادة ، بالحديث عن السماء والافلاك ، وما يكتنف العالم من مخلوقات ، فيكون بذلك قد ابتدا بالكليات وانتهى بالجزئيات والانواع التى ابرزها الانسان .

2) انه قد تضمن فى الاخير أبوابا كثيرة ، ليس من عادة المعجميين أن يدرجوها فى مؤلفاتهم . فقد ذكر بعد (باب من مشى النساء) أسماء المنجمات من نساء العرب ، وعدد منهن 21 امراة منجمة ، ثم أعقبها بذكر (الوفيات لازواجهن) ، والنسوة اللائى كانت احداهن اذا أصبحت عند زوجها كان أمرها اليها — وبعض خلق الانبياء والخلفاء من الصحابة وخلفاء بنى امية .. ثم ذكر بعد ذلك (شيئا من كلام العرب فى اوصاف الرجال والنساء ، وما يستحسن من أخلاقها وخلقهم ، ويستقبح) وقد نقل فى هذا الباب الاخير اغلب القصص والاخبار التى اوردها شيخه ابو على القالى فى اماليه مما يتعلق بهذا الموضوع ، وهى كلها قصص رواها القالى عن ابى بكر بن دريد او أبى بكر بن الانبارى ، ويغلب عليها الطابع التعليمى ، وذلك مثل قصة البنات اللاتى طلب

---

41) فى الاصل : وصفاتها

منهن وصف ما يحببن من الرجال ، او وصف ما يردن من الازواج ، وقصة الاعرابية التى توصى ولدها وهو على اهبة السفر ، وقصة معاوية الذى طلب من أحدهم أن يصف له الناس .. وقد شغلت هذه النقول والاخبار التى استقاها أبو عبد الله من شيخه البغدادى صفحات عديدة من هذا السفر (من صفحة 243 الى صفحة 310) . ولما كان القالى من عادته اذا اورد نصا غريبا فى اماليه عمد فى الختام الى شرح مفرداته وغريبه ، وجدنا المؤلف هو الآخر ياتى بهذا الشرح نفسه ويثبته فى كتابه عقب كل قصة أو خبر يحتوى على شىء من الغريب .

وكل هذا يعطينا فكرة عن الجوانب الاضافية التى تناولها ، مما لا يدخل عادة فى صلب المعاجم ولو كانت خاصة بالمعانى ، من ذكر القصص الطوال ، والاخبار والحكايات ، والايام والتواريخ . فذلك اذن من أسباب تضخم الكتاب الذى قيل انه كان يبلغ مئة مجلد أو سفر .

3) وقد اهتم المؤلف بالنقل عن كثير من العلماء دون ذكر اسماء مؤلفاتهم فى اغلب الاحوال . فممن نقل عنهم : أبو على القالى ، وأبو عبيد ، وابن قتيبة، والكسائى ، والاصمعى ، والخليل ، وابن كيسان ، وابو زيد ، وأبو عمرو الشيبانى ، وابو حاتم ، وابن الاعرابى ، واليزيدى ، وثعلب ، وابن السكيت ، وابن دريد ، وسيبويه ، والسيرافى ، وابن جنى ، ويونس بن حبيب ، والاموى وغيرهم . ثم هو بعد ذلك قد حلى كتابه بأشعار الاعلام والاعراب ، وضمنه اصنافا أخرى من الاستشهادات المختلفة ، بل انه قد يضطر احيانا للاتيان باقوال الفلاسفة والقدماء اذا هو تعرض لموضوع يحتاج اليها . فقد قال بعد ذكر أسماء النفس وقبل الشروع فى شرحها : ((.. قال أبو عبد الله : قد تكلم الناس فى ماهية النفس واختلفت اقوالهم وطالت مخاصماتهم ، ولم نذهب فى كتابنا هذا مذهب اهل الكلام والاخبار عن خواص الاشياء ، وانما قصدنا تفسير اللغات ، وما يتعلق بكلام العرب ، ولولا ذلك لاتينا من اقوالهم بجملة تربى على احسن ما ذكروه ، واقرب ما فسروه ، ولكنا نقدم ما اتى عن العرب فى النفس على نحو ما له الفنا هذا الكتاب ، ثم نذكر شيئا مما ذكرته الاوائل ، ليقف عليه من قرا كتابنا هذا ويطلع به على ما قالته)) (42) .

---

42) كتاب السماء والعالم ــ السفر الثالث ص 18 .

واذا كان جميع مترجمي محمد بن ابان ، قد اتفقوا على انه مات سنة 354 هـ ، فاننا نجده ينقل فى كتابه أحيانا عن علماء تأخرت وفاتهم عنه بقليل أو كثير . فهو ينقل عن السيرافى المتوفى سنة 368 هـ ، والفارسى المتوفى سنة 377 هـ ، ثم ابن جنى المتوفى سنة 392 هـ . والحق أن هذا الامر ليس مشكلا لانهم جميعا كانوا من المعاصرين له ، وليس النقل عن المعاصرين بدعا ولا محظورا ، على ان ابن جنى الذى عاش بعده 38 سنة — وربما كان هو وحده موضع الاشكال — قد عاصر المؤلف مدة لا تقل عن اثنين وثلاثين عاما (43) وهو عمر كاف ليكون ابن جنى أهلا للنقل عنه . فاذا اضفنا الى ذلك ما كان بين المشرق والمغرب من شدة التنافس وقوة التواصل فى عصر الرجلين ، حتى ان الكتاب الموضوع فى ناحية منهما سرعان ما يجد صداه فى الناحية الاخرى ، لم نر فى الامر ما يدعو للاستغراب . على أن القالى نفسه — وهو استاذ المؤلف وصاحب الفضل عليه فى كثير مما ملأ به كتابه — مات بعد تلميذه بنحو سنتين.

4) وحين نريد مقارنة كتاب ابن ابان بكتاب ابن سيدة ، تكون أول عقبة تعترض سبيلنا هى ضياع أكثر اجزاء الكتاب الاول ، ولكن هذا لا يمنع من عقد مقارنة جزئية بين السفر الثالث من كتاب السماء ، والمجلد الاول من كتاب المخصص ، لاشتراكهما فى المادة والموضوع . وسنلاحظ منذ البداية ان بينهما نقطا كثيرة للالتقاء وأخرى للاختلاف والمفارقة .

فان مما يجمع بينهما الموضوع والهدف الواحد ، وهو التاليف حسب المعانى والتبويب على الموضوعات المختلفة ، فلذلك نجد بينهما شبها كبيرا فى الاشياء التى يتناولانها واتفاقا فى العناوين التى يضعانها فى مقدمة الابواب والفصول ، فيقول ابن ابان مثلا : (باب ما يقال فى وسط الانسان — النعوت المستحسنة فى البطون — وما يوصف به فى الاستقباح ..) ويقول ابن سيدة مثله : (اسماء وسط الانسان — محاسن البطون — باب ما يذكر من قبح البطون ..) بنفس الترتيب . ولكنهما يختلفان بعد ذلك فى طريقة التبويب والتنظيم ، فيقدم الاول ما يراه الثانى واجب التاخير ، ويجمل هذا فى الباب

---

43) اختلف فى مولد ابن جنى ، فجعله بعضهم قبل 330 هـ بدون تحديد ، وجعله آخرون سنة 322 هـ أو 321 هـ ، وهو اوسط الاراء اعتمادا على القول الذى يذهب الى ان الرجل عاش سبعين سنة ، بل ان فريقا آخر جعله سنة 300 هـ أو 302 هـ .

الواحد ما يوزعه الآخر على فصول وابواب شتى ، ويأتى الثانى ببعض ما فات الاول .. وهكذا . وربما كان ابن سيدة أدق تنظيما وأحكم تنسيقا من صاحبه ابن ابان ، لانه قسم معجمه الى كتب للموضوعات الكبرى ، (ككتاب خلق الانسان ــ وكتاب النساء ــ وكتاب اللباس) وفرع عن كل كتاب أبوابا ثم جعل لكل باب عدة فصول وعناوين تندرج تحته ، معتمدا فى ذلك كله على التجانس والتوافق بين الموضوعات ، بحيث يقودك ذكر الموضوع الاول الى ما يتصل به بسبب من الاسباب من الموضوعات الثانية والثالثة .. اما ابن أبان ، فقد اكتفى ــ حسبما يبدو من السفر الموجود ــ بتقسيم المعجم الى ابواب فقط، وربما أدرج تحت الباب بعض العناوين القليلة .

ومما يتفق فيه الكتابان غالبا : المادة اللغوية المشتركة ، على ما قد يوجد بينهما أحيانا من اختلاف بسيط ، مرده الى شىء من الاضافة أو الاختصار على أن مما يميز طريقة ابن أبان فى عرض مادته ، أنه بعد ذكر العنوان يأتى مباشرة بالالفاظ اللغوية التى يشملها الموضوع مجملة دون شرح ، ثم بعد ذلك ينتقل فى الخطوة الثانية الى شرحها واحدة فواحدة ، اما ابن سيدة فهو حين يورد اللفظ الاول يشرحه مباشرة لينتقل منه الى ما يتبعه ، وهكذا حتى يأتى على كل ما تضمنه الباب من الكلمات المفردة . فالاول اذن صاحب طريقة تجمع بين التفصيل والاجمال ، واما الثانى فليس له الا التفصيل وحده مراعاة للاختصار وتفاديا للتكرار . هذا فضلا عن ميل محمد بن أبان الى بسط العبارة أحيانا بينما يميل صاحبه الى الاقتضاب والتركيز ، ولذلك ألغى من حسابه تلك الفصول الطويلة التى أقحمها الآخر فى كتابه مما لا صلة له بالمعجم ، كالقصص والاخبار والروايات ، مع اعتناء خاص بالتصاريف والابنية والمصطلحات المنطقية .

ولكى نتمثل الصلة الوطيدة بين الكتابين ، ونلمح ما بينهما من شبه كبير فى المادة اللغوية ، نورد من كليهما نصا يكون شاهدا على بعض ما قلناه :

أ) قال محمد بن أبان فى فصل بعنوان : (ومن صفات الركب) ص 14 :

« .. ومن صفات الرُّكَبِ : الصَّكّاءُ ، والقَسْطاء ، والطَّرقاء ، والصَّدْفاء ، والفَتْخاء ، والطَّفْحاء .

قال : **الصَّكّاء** هي التي تَصُكُّ صاحبَتَها عند المَشْيِ ، يقال رجلٌ أصَكُّ : بَيِّنُ الصَّكَكِ ، وقد صَكَّ الرجلُ يَصُكُّ صَكَكاً ، وقد صَكِكْتَ يا رجلُ .

ومنها **القَسْطاءُ** : وهي التي يَبِسَتْ وغَلُظَتْ حتى لا تكاد تَنقبض من يُبْسها . يقال : رجل أَقْسط ، فهو مُقْسِط : بَيِّن القَسَط . وأكثر ما يقال في البهائم ، يقال : فرس أَقْسط ، والاسم القَسَطُ .

ومنها : **الطَّرْقاء** : وهي التي لان مَأْبِضاها (44) وانفتَحتْ حتى كادت ركبتُها تَغيبُ في مَفْصِلها واسترخى لذلك خَطْوُها ، يقال : رجل أَطْرقُ : بَيِّنُ الطَّرَقِ .

والفَتَخُ : يكون [في] (45) مَأْبِض الركبة ومَأْبِض الذراع ، وهو لِينُ المفاصل ، وخروجُ بطنها إذا قام الإنسانُ ، وكذلك هو في المَرْفِق .

---

44) هكذا في الاصل ، وفي المخصص : مأبضها

45) في الإصل : (والفتخ تكون مابض ...) وهو تصحيف ، تصحيحه من المخصص

ومنها : **الصَّدَفَاء** : وهو إقبالُ إحدى الرُّكبتين على الأخرى حتى تكادا تماسّان . يقال : رجل أَصْدَفُ وامرأةٌ صَدْفاءُ .

ومنها : **الطَّفَحَاء** : يقال : ركبةُ الرجلِ طافحةٌ أي يابسةٌ [لا يَقْدِرِ صاحبُها أَن يَقْبِضها . و] (46) قد طَفَحَتْ أي : يَبِسَتْ ، والأَركبُ : العظيمُ الركبة » اهـ .

ب) وقال ابن سيدة فى فصل بعنوان : (صفات الركبة) — المجلد الاول السفر الثانى ص 51 — 52 :

« .. ثابت : منَ الركبِ : **الصَّكَّاء** : بَيِّنةُ الصَّكَكِ ، وهي التى تَصُكُّ صاحبَتَها عند المَشْي ، رجلٌ أَصَكُّ . أبو عُبَيد : اذا اصْطكّتِ الركبتان قيل : صَكَّ يصُكُّ صَكَكًا .

ثابت : ومنها : **الطَّرْقاء** : وهي التي لان مَأْبِضُها وانفتحت حتى كادت ركبَتُها تَغيبُ فى مَفْصلها ، واسترخى بذلك خَطْوُها . رجل أَطرَقُ وامرأةٌ طَرقاءُ . أبو عبيد : فيه طَرَقٌ وطَريقةٌ ، أَي ضَعْف واسترخاء ، قال : وقد تُستعمل فى الإبل .

(46) هذه العبارة غير واضحة بالاصل ، وهى هنا ماخوذة من المخصص .

ثابت : **والفَتَخ** فى مَأْبِض الركبة ، وَمأْبض الذراع ، وهو لينُ المفاصل وخُروجُ بَطْنها إذا قام الانسان ، وكذلك هو فى المَرْفق ، وأَنشدَ :

لكنْ كبيرُ بنُ هندٍ يومَ ذلكمُ
فُتْخُ الشمائل فى أَيْمانهمْ رَوَحُ

ورجل أَفْتَخُ ، وامرأَةٌ فَتْخاء .

ومنَ الرُّكَب : **القَسْطاء** : وهى التى يَبِست وغَلُظَت حتى لا تكاد تَنْقبض من يُبْسها ، رجل أَقْسط : بَيِّنُ القَسَط ، وأكثر ما يقال فى البهائم .

ومنها : **الصَّدْفاء** : وهى إِقبالُ إِحدى الركبتين على الأخرى حتى تكادا تَماسَّانِ . رجل أَصْدفُ وامرأةٌ بَيِّنة الصَّدَف .

ومن الركب **الطَّفْحاء** : يقال : ركبة طافحة أى يابسة لا يقدر صاحبُها أَن يقبضها ، وقد طَفَحَت .

ابنُ دريد : **الفَحَجُ** فى الانسان : تباعدُ الركبتين ، وفى ذَوات الأَربع تباعدُ العُرْقوبَيْن . دابةٌ أَفْحَج (47) .

---

(47) فى الاصل المطبوع : افج — ولاشك انه تصحيف .

صاحب العين : الرَّصَع : تقاربُ ما بينَ الركبتين .
وكذا اللَّصَص : وقد تقدمَ فى الأضراس والفَخِذَين . » اهـ

فالنصان معا يشتركان فى المادة والعبارة ، ولو صرح الثانى بمصادره ، واهملها الاول . على أن ابن سيدة قد أضاف لما ذكره صاحبه من اسماء الركبة واوصافها ثلاثة الفاظ لم يوردها الاخر ، وبيت شعر لم يستشهد به . وهما مع اشتراكهما فى هذه المادة لدرجة كبيرة يختلفان قليلا فى طريقة عرضها كما ذكرنا سابقا .

وبعد : فهل تدل هذه العلاقة التى لمسناها بين الكتابين ، على ان ابن سيدة قد اتصل بكتاب السماء والعالم وأفاد منه فى كتابه ؟

الحق اننا لا نجد من المؤرخين القدامى من يشهد لنا بذلك ، وليس كتاب ابن أبان معدودا ضمن مصادر ومراجع ابن سيدة التى وصلت الينا مثبتة فى مقدمة المخصص (48) ، وليس فى الاعلام الذين نقل عنهم ذكر وارد لابن ابان. ومع هذا فنحن لا يسهل علينا ان نصدق ان ابن سيدة الاندلسى الذى عاش فى القرن الخامس وألف كتابا له شبه كبير بكتاب اندلسى آخر عاش فى القرن الرابع ، ورجع الى قائمة طويلة من الكتب اللغوية والادبية المعروفة والمجهولة وافتخر بها مستدلا على سعة اطلاعه وقيمة كتابه ، لا يسهل علينا ان نصدق انه لم يرجع الى ذلك الكتاب السابق له ، على قرب العهد والزمان به . وليس يقنعنا أن يقال انه لم يثبته فى جملة مراجعه ، أو أنه لم يشر الى صاحبه ضمن العلماء الذين نقل عنهم ، فان مثل هذه الحال ، من اغفال بعض المصادر لسبب من الاسباب ، ليست حالا غريبة ولا مستطرفة .

وكيف نعجب من ذلك ولا نعجب من اهمال ابن سيدة ايضا ذكر بعض مصادره التى اعتمدها اعتمادا اساسيا فى كتابه (المحكم) ، ومنها : (البارع

---

48) ... الانصاف ان ننبه الى ان القائمة التى ذكرها ابن سيدة فى مقدمة كتابه متضمنة مصادره ومراجعه ، لم تصل الينا كاملة ، اذ لحقها التلف فى مواضع كثيرة ، مما حمل ناشري الكتاب على ترك اماكنها بيضاء كما كانت فى الاصل .

فى اللغة) لشيخ مشايخه ابى على القالى ؟ . لقد كان هذا الرجل ــ مع قدره الجليل ــ ذا نفسية معقدة ، وكان معتدا بنفسه الى أبعد الحدود ، حتى لـم يكترث بواحد من سابقيه الى صناعة اللغة بالاندلس الا أبا على القالى ــ كما يقول المرحوم محمد الفاضل ابن عاشور (49) ــ ومع ذلك فقد اهمل الاشارة الى (البارع) حين عدد مصادر كتابه (المحكم) فى مقدمته ، رغم انه استفاد منه ، واستقى اكثر ما فيه من الصيغ والمعانى (50) . بل لقد افاد أيضا مـن مختصر الزبيدى ــ والزبيدى أستاذ والده اسماعيل الذى أخذ عنه أكثر الاصول اللغوية ــ واقتبس منه ترتيب الابواب ، وأخذ منهجه فطبقه علـى كتابـه بتوسع ، ثم لم يجعله من مصادره ومراجعه .

لقد وجدنا تشابها كبيرا بين (السماء والعالم) و (المخصص) ، لم يقف عند العناوين والمواضيع ، بل تعداها الى المواد المشتركة فى كثير من الاحيان. مع ما قد يختص به ابن سيدة من زيادة واستيعاب لتأخره واستفادته من جهود السابقين ، او ما قد يوجد عند ابن أبان من اشياء عمد ابن سيدة الى حذفها أو وضعها فى مكانها المناسب . وهذا امر لابد ان يدل على وجود صلة وطيدة من التاثر بين الكتابين ، ولابد أن يكون المتاثر هو ابن سيدة لتأخره وقرب زمانـه ومكانه من زمان ومكان سابقه .

وختاما ، فانه قد آن الاوان ليحتل كتاب السماء مكانته بين معاجـم الموضوعات والمعانى ، ويأخذ ترتيبه التاريخى ، فلم يعد هناك مجال لقـول بعض الدارسين المحدثين : ان معجم ابن سيدة هو أول معجم موضوعـى يؤلف فى الغرب الاسلامى .

الرباط : عبد العلى الودغيرى

---

(49) انظر مقالته حول السند التونسي فى علم متن اللغة بمجلة المجمع القاهري ج 19 سنة 1965 ص 13 .
(50) انظر المعجم العربى لحسين نصار : 386/1 .

ثبـــت المصـــــادر والمـــراجـــع

1) ابن سيدة المرسى ـ داريو كابا نيلاس ـ
تعريب حسن الوراكلي (منشور بمجلة " المناهل فى الاعداد السبعة الاولى)

2) ابو على القالى واثره فى الدراسات اللغوية والادبية بالاندلس ـ عبد العلى الودغيرى مطبوع على ورق الاستنساخ (1976) .

3) انباه الرواة على أنباه النحاة ـ للقفطى
تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ـ ط. 1 ـ القاهرة 1952 م

4) بغية الآمال فى معرفة مستقبلات الافعال ـ لابى جعفر أحمد بن يوسـف اللبلـى
تحقيق جعفر ماجد ـ الدار التونسية للنشر . 1972 م

5) بغية الوعاة . للسيوطى (بيروت)

6) تاريخ العلم والعلماء . لابن الفرضى
(الدار المصرية للتاليف والترجمة والنشر ـ 1966 م)

7) التكملة لكتاب الصلة ـ لابن الابـــار
(نشر عزت العطار الحسينى) ـ مصر 1956 م

8) جذوة المقتبس للحميدى ـ تحقيق محمد بن تاويت الطنجى ـ القاهرة 1953 م .

9) الديباج المذهب فى معرفة اعيان علماء المذهب . لابراهيم بن فرحون
ط. 1 ـ مصر 1351 هـ

10) الذيل والتكملة للمراكشى ـ ج 6 .
تحقيق د. احسان عباس ـ بيروت ـ ط 1 ـ سنة 1973 م

11) رسالة ابن حزم والشقندى (ضمن مجموعة فى فضائل الاندلس)
نشر صلاح الدين المنجد ـ ط. 1 ـ بيروت 1968 م

12) السند التونسى فى علم متن اللغـة
بحث للمرحوم محمد الفاضل ابن عاشور ـ مجلة مجمع القاهرة ج 19 سنة 1965 م

13) الصلة لابن بشكوال ـ (ط. الحسينى) 1965 م بمصر

14) طبقات النحويين واللغويين . لابى بكر الزبيدى
تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ـ ط 2 ـ دار المعارف بمصـر سنة 1972 م

15) فهرسة ابن خير الاشبيلى ـ ط 2 سنة 1963 م (بيروت ـ بغداد ـ القاهرة) مصورة عن طبعة قدارة زيدين وخوليان ريبيرا سنـة 1893 م بسرقسطة .

16) كتاب السماء والعالم ـ محمد بن ابان بن سيد اللخمى ـ
السفر الثالث ـ مخطوط القرويين بفاس رقم 1947

17) كشف الظنون لحاجى خليفة ـ نشر مكتبة المثنى ـ بغداد

18) المحكم لابن سيدة ـ تحقيق مصطفى السقا والدكتور حسين نصار ـ مصر 1958 م ـ ط. 1

19) المخصص لابن سيدة ـ ط. بولاق الاميرية

20) المخصص لابن سيدة ـ دراسة ودليل .
لمحمد الطالبى ـ تونس 1956 م

21) المزهر فى علوم اللغة للسيوطى ــ نشر محمد احمد جاد المولى وزميليه ــ مصــر

22) معجم الادباء لياقوت الحموى ــ مطبوعات دار المأمون . مصر 1938 م نشر مرجليوت

23) المعجم العربى : نشأته وتطوره ــ د. حسين نصار ــ القاهرة 1956م

24) معجم ما استعجم للبكرى ــ تحقيق مصطفى السقا ــ ط. 1 ــ القاهرة (1945 ــ 1951)

25) المقدمة لابن خلدون ــ تحقيق على عبد الواحد وافى ــ القاهـــرة 1962 م . ط 1

26) نظرات فى اللغة عند ابن حزم الاندلسى ــ سعيد الافغانى ط 2 بيروت 1968 م

27) نكت الهميان للصفدى ــ نشر احمد زكى باشا ــ مصر 1911 م

28) الوافى بالوفيات للصفدى ــ ج 1 ــ نشر هلموت ريتـــر 1962 م . فيسبـــادن .

ع . و

مدفع رباط دار بن قريش

د. عبد السلام الهراس

المغاربة لا يسجلون تاريخهم ، تلك مقولة ترددت على مسامعنا مرارا ، وحاول بعض المتحمسين الفضلاء تنفيذها ، وقد كنا نشايعه اول مرة عندما وجدنا انفسنا امام تراث مهم يحكي جوانب من تاريخنا ، غير ان الحقائق تظل دائما ماثلة رغم الحجج والمبررات والروح الحماسية والاندفاعات . واخيرا ادركنا ان المغاربة لا يسجلون تاريخهم وبخاصة جوانب مشرقة من تاريخهم الحقيقى فالمسجل منه قل من كثر ، ونحن هنا لا نتهم احدا قبل أن نتهم انفسنا ونضع عليها مسؤولية تسجيل ما يجب تسجيله امدادا للاجيال اللاحقة بما ينير لها ماضيها ويعرفها حقيقة التعريف بسالفها حتى تكون على بينة من مستقبلها . ان اكثر الحقائق التى تمر بنا ونمر بها لا تثير فينا احيانا كثيـــرة الرغبة فى تسجيلها والاهتمام بتخليدها رغم ما تثيره فينا من اعجاب ! ! وتزودنا به من معرفة ، فمنذ بضعة سنوات كان احدنا يحدث اخوانا له عن بعض ذكرياته واتصالاته ، مما جعل مستمعا ذا حاسة تاريخية يبادره بالقول — وهو بعد لم يختم حديثه — ان ما نقصه علينا الآن يعتبر حقائق تاريخية هامة لا يحق غيابها عن المكانة اللائقة بها من تاريخنا ، انها تضيف اضافات جديدة ، وتفسر بعض الغوامض ، وتلقى اضواء كاشفة ، ولذلك فاننـــى

كمؤرخ اقدر هذه المعلومات حق قدرها وأستطيع القول لو ان اجدادنا سجلوا بعض ما تفوه به الآن لما ظل فى تاريخنا كثير من الفجوات ، ولما نكبوا فى كثير من المعلومات .

والحق ان كثيرا من الشيوخ والكهول الذين كانوا يحملون من تاريخنا المعاصر اخبارا طوالا ، ويعرفون غرائب وعجائب ، ربما كان بعضهم مشاركا فيها قائداً أو مقودا كانوا يأنفون من التسجيل ويستهينون بما لديهم من ثروات ، وقد يحمل بعضهم على ذلك الورع والفرار من الحديث عن النفس والناس ، خوفا من الوقوع فى محظور وهم قاب قوسين او ادنى من الموت . والحقيقة أيضا أن المغربى القح متصف دائما بالتواضع والتقليل ، مما قد يكون قدمه الى أمته من خدمات ولو كانت جلى ، لان الاسلام رباه على أن يحتسب ذلك كله لله ، لذلك كان اعظم ما فى تاريخ هؤلاء المغاربة هو استمرارهم دائما قادرين على رد التحدى صامدين أمام الامواج والهجمات ، كل ذلك فى صمت غامض وصبر خفى ، ومع ذلك فان هذا التواضع وهذه النزعة الشريفة المتمثلة فى خلق الفرار من مظاهر الكبر والزهو — رغم تقديرنا لهما — قد ضيعت علينا كثيرا من تاريخنا بالاضافة الى ماجناه الاهمال واللامبالاة فى هذا المجال .

وقصة مدفع رباط دار بنى قريش قصة طريفة ورائعة لو جرت احداثها فى بلد يسجل تاريخه لكانت من اروع ما سجل ، ولتزاحمت عليها الاقلام وتدافعت حولها دور السينما ، وقد شاهدنا منذ مدة فيلما يصور قصة مقاومة شعبية اسبانية كان يقودها اسكافى ضدا على المحتلين الفرنسيين ، وكان مع الزعيم الشعبى ضابط انجليزى يصطحب معه مدفع واحد يؤازر به المقاومين الاسبان فى معركة حاسمة . ولم يكن مع المغاربة انجليز ولا ألمان لقد كانوا وحدهم فى المعركة ولم يكن هذا المدفع ثمن سياسة أو عتادا مستوردا خصصت له ميزانية ، وانما كان غنيمة اثر معركة غير متكافئة سحق فيها المجاهدون العزل عدوهم المدجج وظفروا بهذا المدفع وذخائر اخرى ! ! . وقصة مدفعنا متواترة شائعة ، اخبارها مستفيضة لان الجبل كله تقريبا اشترك فى صنعها ولكننا لو اعتمدنا على هذه الاستفاضة واطمأننا لذلك الشيوع لوقعنا فى مثل ما وقع فيه ابن الخطيب الذى لم يسجل

قصة فتح الاندلس معللا ذلك بقوله : ((وحديث الفتح وما فتح الله علـــى المسلمين من المنح ، وأخبار ما أفاء الله من خير على موسى بن نصير وكتب من جهاد لطارق بن زياد مملول قصاص وأوراق ، وحديث أفول واشراق وارعاد وابراق وعظم امتشاش ، وآلة معلقة فى حانوت قشاش)) .

ليت ابن الخطيب امتش لنا شيئا وملأ أوراقا من حديث أفول واشراق اذن لافاد كثيرا ولما تركنا حيارى شاكين لضياع أهم الحقائق وعناصر تاريخ الفتــــح .

وعن رباط دار بنى قريش لم نكن نفتقر الى البحث والارتحال لتوفر المصادر الحية ، ولكننا اليوم أصبحنا أمام وضع يشبه وضعنا بالنسبة للتاريخ الاندلسى ، فقد يصبح هذا الرباط بعد مدة مجهولا جهلا تاما . ان قصـــــة هذا الرباط طويلة ومتشعبة ، وتحتاج اليوم الى القيام بمجهودات كثيرة لتدوين ما يتصل بها من جميع النواحى ، ولا تزال ثمة بعض الفرص لانقاذ ما يمكن انقاذه من هذا الجانب المشرق من تاريخ جهادنا .

وقد قمت مرارا بزيارة هذا الرباط والاتصال بمن بقى حيا من رجالاته ، واهم هؤلاء الفقيه سى سلام الذى ينيف عمره على التسعين ، ولا يزال محتفظا بذاكرة عجيبة ، يحدثك عن تلك الايام التى مرت عليها أكثر من ستين سنة ، كأنما يحدثك عن يومه الحاضر وقد حدد لنا قبور بعض الشهداء اذكر منهم قبر الشهيد الفقيه محمد مهدى الزيانى ، والد أخينا المرحوم الفقيه اليمنى مهدى العبد الوادى ، وكان قد استشهد بأول قنبلة ألقتها الطائرات الاسبانية علـــى الربـــاط .

كان المجاهدون يتوفرون على ((مدفع)) نصبوه على تطوان لضرب العدو والنيل منه الى جانب حرب العصابات التى كانوا يشنونها عليه . فما قصة هذا المدفع ؟ من اين اتى ؟ وكيف أتى ؟ وأى دور قام به ؟ وكيف تآمر الاسبان علـــى اسكاتـــه ؟ ! . .

كان ذلك اثر انتهاء جهاد مرير بقيادة المجاهد الصالح سيدى محمــــد امزيان . . وآثر ظروف قاسية كانت تعانيها القبائل الجبلية التى كان يسودها

جو من الاضطراب والفوضى والتناحر والتقاتل ودعوات العصبية الجاهلية ، وكان الجيش الاسبانى هناك فى سبتة يتحين الفرص ويتربص بالمسلمين الدوائر حتى اذا ما رأى القبائل قد تشاغلت فيما بينها وهبت عواصف الفتن عبر المداشر تدمر وتهلك الحرث والنسل ، بادر بالهجوم على تطوان بقيادة الجنرال الفـــاو ALFAO فاحتلها بجيش قليل ودون اراقة الدماء فكان هذا الاحتلال صدمة عنيفة هزت عواطف المسلمين واشعرتهم بمدى الاخطار الماثلة لاسيما ومآسى الاندلس ما تزال حية فى الذاكرة والمشاعر ، فهب عقلاء القوم واشرافهم بزعامة الشريف محمد ولد سيدى الحسن اتكزارت المعروف بولد ((السيـــد)) ونادوا الى اجتماع عام بين القبائل لتصفية الاجواء بينها ، واقامة صلح عام تلتزم به والاتفاق على دستور يحتكم اليه الجميع افرادا وجماعات ، وكان هذا الدستور مستمداً من الشريعة الاسلاميـــــة واتفقوا على ان يؤسسوا رباطين : رباط دار بنى قريش : بقبيلة بنى حزمر والواقع على بعد 12 كلم من تطوان فى اتجاه الشاون ، ورباط بوريان : بقبيلة وادراس . وقد شاركت فى تعبئة الرباط الاول وتغذيته بالعتاد والرجال قبائل جبلية مثل غمارة ، وبنى سعيد وبنى يدر ، وبنى حزمر ، وبنى احمد وبنـــى حسان والاخماس ، ومدينة الشاون ، وكان الهدف من اقامة هذا الربـــاط ضرب حصار على تطوان وقطع الطريق على الاسبان حتى لا يتوغلوا فى الجهة الجنوبية ، وكانوا يقومون بحرب العصابات الخاطفة حتى لا يتركوا الاسبان فى راحـــــة . . .

وفكر المرابطون فى الاقدام على خطوة حربية اخرى ، وهى ضـــرب تطوان بالمدفع ولم يكن هناك سوى مدفع واحد فى مركز بعيد عن تطوان تحت امرة الشريف الوزانى سيدى حميدو بقرية سنادة بقبيلة بنى يطفت الريفية ، وهذا المدفع كان ضمن عتاد سفينة حربية اسبانية ، وكانت السفن الاسبانية الحربية آنذاك تجوس خلال الشواطىء الشمالية تتجسس وتهدد وتراقب ، وذلك خلال المعارك الطاحنة التى دارت بين الجيش الاسبانى والمجاهدين الريفيين بقيادة الشريف سيدى ((محمد امزيان)) .

وفى سنة 1328 هجرية كانت احدى هذه السفن تقوم بمهمتها العدوانية والاستفزازية المعتادة ، وكان الضباب كثيفا . فظن ربانها آنها سائرة فى

الاتجاه المحدد ، ولم يكن بينها وبين الشاطىء الا مسافة يسيرة ، ورغم ان الوقت كان وقت صباح ، فان السفينة كانت مغلفة بالضباب المانع الرؤية والاستكشاف ، وصدفة كان هناك على حافة الجبل المطل على البحر راعى معز قد سرح معزه وراح كعقاب فوق مرقب يشرف على ما تحته ويتفرج على هذا المنظر العجيب : بحر غاضب هائج تسمع أصداء أمواجه دون أن تتخلص من غموض الضباب ، ونطاق الغلاف المحكم . وصار الراعى ينفخ فى نفير او صور لعله كان محارة كبيرة ، فترامت أصداء النفير الى السفينة فظن الربان أنه فى اتجاه المرسى المطلوب فعزم على الرسو هنالك ، واذا بالسفينة ترتطم بالصخور وتتورط بينها ، وقد حاول التخلص فلم يقدر ، وعندما انقشع الضباب . ووجد البحارة الاسبان أنفسهم فوق سفينة مسجونة بين صخور قرب مرسى بوسكور ((بقبيلة بقيوة)) وقد بادر الرعاة الى اعلام السكان ، فانتشر خبر السفينة المتورطة بسرعة ، واجتمع الريفيون البقيويون لمشاهدة الشفينة الحربية ، وهنالك أحس القائد وفريقه بالخطر فأمطروا المتجمهرين بوابل من الرصاص والقذائف المدفعية ، ويبدو أن رجال بقيوة لم يكونوا فى موقف المتفرجين ، بل هاجموا السفينة بما لديهم من سلاح نارى وحديدى وخشبى وحتى بالمقالع .. وهناك أصيب القائد أحمد بودرة بشظية قذيفة مدفعية فى رجله .. وأخيرا استطاع الريفيون الابطال القضاء على مقاومة السفينة وشل حركة جنودها ، وكان عددهم حسب رواية المجاهد الكبير ((سيدى المكى التهامى الوزانى الغمارى الخالدى)) بارك الله فى عمره حوالى خمسمائة وقد أبيدوا قتلا ، وهكذا استولى المجاهدون على ما فى السفينة من عتاد وذخائر ، ومن جملة ذلك مدفع وأربعمائة قذيفة ، وقد سلموا بعض الغنائم ومنها المدفع ((لسيدى حميدو الوزانى)) شريف زاوية قرية سنادة بقبيلة بنى يطفت .

كانت هذه الواقعة كما يقدر الشريف سيدى المكى الوزانى حوالى 1328 هـ . وعندما اصطلحت القبائل سنة 1330 على انهاء الفتن وتصفية القلوب والانتصاف فيما بينها وتعاهدت على الجهاد ومقاومة العدو الدخيل وتأسيس رباطات استراتيجية حول تطوان ، أشار بعضهم الى ضرورة استجلاب مدفع سنادة ، وقد تكفل الشريف سيدى ((التهامى الوزانى)) — والد سيدى المكى — باحضاره الى دار بنى قريش فقام بالاتصال بابن

عمه ((سيدى حميدو)) الذى زودهم بالمدفع والذخيرة والمدرب ، ففككوا المدفع وحملوه مع ذخيرته على أكثر من مائة بغلة واضطلعت القبائل التى مر بها المدفع بالمساهمة فى حمله وايصاله الى ((الرباط)) وهكذا حملوه من قبيلة بنى يطفت مارين به على قبيلة ((بنى بوفراح)) فقبيلة مسطاسة ، فبنـــى جميل فمتيوة (متيوة غمارة) فبنى رزين ، فبنى خالد حيث أنزلوه منهـــا بسوق الخميس ، والناس يتحلقون حوله بين مهلل ومكبر ومصل على النبى صلى الله عليه وسلم ، وهناك اجتمع جميع قبائل غمارة فركب المكلفون المدفع امام الجمع الغفير ليجربوه أمامهم ، وأطلق ((الطابجى قذيفتين ، وكان الذى تدرب على المدفع المجاهد الطيب أجحـــا)) الذى كان من أبطال غمادة وشجعانهم رحمه الله ، ثم فككوا المدفع مرة ثانية وحملوه عبر قبيلة الاخماس المجاهدة ، وهناك انضم الى هذه المسيرة مجاهدون فى صورة ادالات مـــن قبائل الاخماس وبنى أحمد ، وغزاوة ثم شفشاون وبنى حسان التـــى مـــر بها موكب المدفع الذى أوصلوه الى قبيلة بنى حزمار حيث استقروا معه فى ((رباط دار بنى قريش)) ، وقد اخبرنى العالم الفقيه القاضى ((السيـــد عبد السلام المرابط)) انه انضم الى المسيرة فى شفشاون وهو بعد طالب علم تجاوز عمره العشرين سنة ، وقد تعلقت به قبيلته لنبوغه العلمى وقدرته على القيادة الفكرية فكان امامهم ومفتيهم . وهكذا قطعوا المسافة بين سنادة ببنى يطفت ودار بنى قريش بنى حزمر فى مدة أسبوع تقريبا وارتضى المرابطون أن يولوا القيادة الى ((مولاى التهامى الوزانى الخالدى)) وظل كذلك مدة خمسة أشهر .. .. قاموا خلال ذلك بهجومات خاطفة ناجحة أزعجـــت الاسبان أيما ازعاج كمـــا قنبلوا تطوان بالمدفع مرات ومرات ، وقـــد سقطت بعض القذائف على دار السيد عبد القادر الرزينى التطوانى كما سقطت قذيفة أخرى على خزين بحى النيارين كان يملكه يهودى اسمـــه ((يعقوب)) وبما أن السيد ((عبد القادر الرزينى)) كان محصنا بالحمايـــة الانجليزية ، فقد طالبت الحكومـــة الانجليزية من الحكومة الاسبانية تعويض السيد الرزينى عما أصاب داره من أضرار ، فرضخت الحكومة الاسبانية لهذا المطلب وقدمت الى المحمى المتضرر مائة وثلاثين الف ريال بالسكـــة الاسبانية (130.000) ، أما اليهودى الذى لم تكن له حماية فلم ينل اى تعويض رغم محاولاته وتردده بشكايته على الابواب ! !

كان ضغط المجاهدين قويا على الاسبان ولما لم يفلح هؤلاء فى مواجهتهم بالقوة فقد لجأوا للدس والحيلة والتآمر . وقد ثبت أن القائد محمد بن الغالى التوجكانى)) قام بدور مشبوه فى اسكات المدفع والمراوغة فى قنبلة الاسبان بتطوان ، اذ كان يستلم مبلغا من المال يوجه اليه من طرف الحكام الاسبانيين ، كما اعترف هو بذلك عند التجائه لبنى زروال . واننا ادركنا شائعة بشفشاون مفادها أن بعض الخائنين برباط دار بنى قريش لجأوا الى سرقة ((زكروم)) المدفع مما جعله معطلا غير صالح ، أما رواية المجاهد ((سيدى أحمد الحجاجى بارك الله فى عمره فمفادها أن ((محمد بن الغالى التوجكانى)) كان أمين المدفع مرتبطا بالقيادة العليا المكونة من أمثال ابن حازم)) وولد الطويلب ، والفقيه سيدى عبد الله الكلالى اليحمدى الذى استشهد هناك رحمه الله ، وقد كان يستلم ((عمولة)) تأتيه من تطوان حتى لا يوجه المدفع نحو المدينة . أما ((سيدى المكى الوزانى)) ، فقد روى لى أن ((الضرب)) أصبح ((بالبارود)) بدل ((الكور)) وهناك شائعة أن القذائف كانت فى ظل الخيانة عبارة عن ((خروق)) ومهما يكن من شىء فان القذائف الاربعمائة لم يستخدم منها سوى حوالى أربعين ، أما الباقى فقد ظلت بجانب المدفع الذى اسكتته الخيانة والدناءة .

وعندما احس المجاهدون بالخيانة دبت فى صفوفهم بادر بعضهم الى مغادرة الرباط ومنهم الشريف ((سيدى التهامى الوزانى الخالدى)) مما أتاح للمتآمرين الاستمرار فى خيانتهم . ولما انكشف أمر التوجكانى حاول المجاهدون الفتك به ، غير انه استطاع أن يدبر أمر فراره فاتجه عبر القبائل الجبلية الى بنى زروال فوصل الى قرية ((يارملوذ فخذ بنى يدمى حيث سكنى ((الصوفى الدرقاوى)) ، التجأ الى هناك ، وقد تزوج بامرأة زروالية التى عادت معه الى بلده بقبيلة بنى منصور بعد الاحتلال الاسبانى . وعندما كا ببنى زروال قام بزيارة الشريف المجاهد سيدى محمد الحجالى بقرية حمدان ، وهناك اعترف بما اقترف من خيانة ، فلما عابوا عليه ذلك قال : انى لم افعل ذلك من ذات نفسى وانما كنت مأمورا من رؤسائى قواد المركز حيث كنت أقبض ذلك باسمهم ! ! ، ويبدو أن القضية كانت منظمة تنظيما تجاوز نطاق الرباط ، ونحن نستبعد أن يكون وحده فى ميدان الخيانة ، ولكن احدا من المجاهدين لم يتهم احدا بعينه غير التوجكانى ،

وظلت خيوط الشبكة مجهولة الى الآن ! ! ٠ اما المدفع فقد استولى عليه الشريف مولاى « احمد الريسونى » الذى كانت زعامته بدأت تسيطر علــى مساحات كبيرة من القبائل الجبلية ، تلك هى قصة مدفع دار بنى قريــش الذى كان الاستيلاء عليه والاتيان به من سنادة الى الرباط المذكور حدثا كبيرا ظلت الالسنة تتناقله الى يومنا هذا فأردت تسجيله حسب ما حدثنى بــــه بصفة رئيسية كل من المجاهدين الكبيرين الشريفين « سيدى المكى الوزانى » و « سيدى أحمد الحجالى » بالاضافة الى ما سمعته من نسبية امحمــد المجاهد المعمر الفقيه « سى سلام الحزمرى » ٠

ورغم كلذلكفانىأحس أن ثمة ثغرات وفجوات كثيرة لم أستطع ملأها وربما تكون هناك بعض الاخطاء غير المقصودة ، ولعل بعض القراء الفضلاء سيجدون فرصة مناسبة لتزويد تاريخنا المعاصر بما لديهم من معلومات حول هذا الموضوع الهام وتصحيح ما يجب تصحيحه مما أوردته ، وانى اغتنم هذه المناسبة لاتوجه الى بعض الاخوة الكرام أن يسهموا فى بناء تاريخنا بما عندهم من معلومات قيمةوبخاصة عن دور الشريف العلمى « سيدى محمد ولــد السيد » فى توحيد القبائل وعقدة الحلف المقدس بينها حتى لا يبقى المغاربة يشاع عنهم انهم لا يدونون تاريخهم ٠٠ ! !

فـــاس　　　　　　　　　　　　د٠ عبد السلام الهراس

نقــاء

مسه الطريق

طرفــك الساهم الامين يشيع الدفء فى مهجتى وفى وجدانى

رف فى صبــوة الملاءة وانساب غديــرا يضـــج بالالحـــان

وارتوى منه خافق قلق النبض ارتـــواء مطـــرز الافـــنـــان

يا بياض الرؤى وبسمة أفراح ، ودنيا من الرضى والحنـــان

يالشوق المشوق من سريان الدفء فيه كالمـــاء فى الاغصان

أين تمضى بالقلب ، وهو عليل ، عبر هذا المدى من السريان ؟

ضج فى خاطرى وواكب خطوى ؛ واستقرت لحونه فى كيانى

واستوى صورة من الحب تختال بها الروح فى مــدار الامانى ،

بين شوق الى المنى ، وانتظار مخملى الندى ، عميق المعانى

تحتوينى ارتعاشة الهدب ، لا أرفـــل الا فى فيئهـــا الفتـــان

وأغنى ، والهجس ملء مناجاتى ، ضيـــاء مضاعف اللمعـــان

حين تحنو على الفطيم وتوليه من العطف خالص التحنـــان

ليس يغشى الدجى مداها ، وقد لاحت خيوط الضحى بها للعيان

ما المواعيد عندها حين تبدو ؟ ما الرؤى ؟ ما تناسق الالوان

هى لى شاطىء أسير الى موجه من دون سائر الشطـــآن

هى نفسى أموت فيها وأحيا هادىء البال مطمئن الجنـــان

قد أراحت طويتى بالشذى الساحر فى غابـــة من الخيـــزران

والتقت فى صفاتها زمر النبـــل وأوفـــت بالبـــذل والاحسان

وأفاءت على المنى بالرضى الكامل فى هدأتى وفى هيجانـــى

أوغلت فى الصفاء آمنـــة لا تـــنـــتحى عن نقـــاوة الايمـــان

العـــرائـــش **حسن الطريبق**

التربيّة
ودورها في تنميّة المجتمع

د. رشدي فكار

للحديث عن موضوع « التربية ودورها فى تنمية المجتمع » لابد من البدء بمحاولة تحديد للمفاهيم الثلاثة :

1 ـ التربيـــة
2 ـ التنميـــة
3 ـ المجتمـــع

1) ما هــو مفهوم التربيـــة :

هــل للتربيـــة مفهــوم محــدد ؟ :

التربية لها مفهوم عام ، فهى تعادل « طبيعة التنشئة » وبمفهوم اكثر تحديدا تعنى عملية نقل المعرفة وتعليمها من جيل الى آخر ، على اساس ان هذه العملية تتم فى اطار الحضارات والتراث لضمان استمرار

1) هذا العرض يشتمل على عناصر من محاضرة القاها الكاتب فى لقاء تربوى بالمغرب

التراث والتلقين كتابة أو شفاهة من جيل الى جيل ، بما فى ذلك الادراك والتصـــــرف .

تصـــانيـــف التربيـــة :

التربية تصانيف وانواع : تربية دينية ، سياسية ، تقنية ، عملية ــ الــخ . وحينما تتعقد الحضارات تأخذ التربية طابعا أكثر نسقية ، ونسقية التربية ــ خير ما ترمز به اليها المدرسة ــ تساوى بيداغوجية التربية ، لان كلمة (بيداغوجيا او علم التربية) المكونة من كلمتين : (بيدا) بمعنى الطفل (غوجيا) بمعنى قيادة ، أى قيادة الطفل فى اللغة اللاتينية * على اساس أن البداغوجيا ترتبط بعلم النفس ، والسوسيولوجيا وعلم الاخلاق ، وتنصب على الطفل عبر مراحل نموه ، وانسقة التربية له من المدرسة الى الجامعـــة .

وهناك تعريف آخر التربية ، فهى عملية مساهمة ومساعدة الطبيعة فى تنمية طبيعة الجسد عضليا ، وفكريا ، واخلاقيا ، بهدف سعادتـــه ومسؤوليته الاجتماعية .

مصـــادر التـــربيـــة :

التربية مصادر ثلاثـــــة :

ا) الآبـــــاء

ب) المدرسة والاساتذة

ج) الدنيا (البيئـــــة)

الا أن بعض المفكرين امثال (لــوك Locke حاولوا الاتجاه بالتربية الى القول بان لها آثارا ملموسة ، بينما حاول (كانـــط Kant و (سبنســـر Spencer أن يعطيا الاولوية للطبائع اساسا ، ولكن لا

يعنينا اساسا كيف نشات التربية ؟ فالذى يعنينا ان نضع بعض المقاييس والمفاهيم للتربية وقد سبق ذكرها .

دور التربية فى تنمية المجتمع :

حين نواجه دور التربية فى تنمية المجتمع نميل شخصيا الـــى الاحتفاظ للتربية ـ ما دامت بصدد المجتمع ـ بالاطار البيداغوجى مع المساهمة فى بناء المجتمع بصفة عامة فى نفس الوقت لان التربية التـــى تعنينا فى مجتمعاتنا الفتية حينما نطرحها ليست نسقا بيداغوجيا فقط ، ولكن أيضا محاولة المشاركة فى تنشئة المجتمع فعليا ، ومحاولة مساعدة الطبيعة فى تدعيم الفكر والاخلاق والجسد ، من أجل اسعاد الانســان اجتماعيا ، وبذلك تلعب التربية دورها فى تنمية المجتمع .

2) مفهــوم التنميــــة :

كلمة (التنمية) لا اعتراض عليها مثل ما هو الحال بالنسبة لبعض التعابير الاخرى ككلمة (التخلف) مثلا هذا التعبير الاخير الذى لا وجود له الا فى عقول صانعيــه الذين يكونون جماعة مــن الدهاة المكــرة ، استطاعوا استغلال ذكاء الانسان فى عصر العلم لكى يضعوا مفاهيـــم استلابية تحدد ـ أو على الاقل ـ تبرر لمن هو متأزم كيف ييأس ، وهم يعتقدون أن التخلف تبرير اليأس ، لانه لا يمكن تصور متقدم الا بوجود متخلف ، اذا كان المفروض أن يوجد المتخلف حتى يمكن أن يظل مفهوم المتقدم له مشروعية ، وعليه فاننا لا نطرح قضية (التخلف) بل نستبعدها تماما ، ونضع بدلا منها ـ بكل بساطة ـ « مفهوم التبعية » ، اذ أن مفهوم التخلف من المفاهيم الاستلابية ، والتسمية بالتخلف لم ترتبط باطارها الحقيقى ، وقد اصبحت رؤية « تنمية » يبحث عنها فى كيفية الخروج من التخلـــــف .

كيف نتقدم ؟ وكيف تتم التنمية لنخرج من التخلف ؟ سؤالان كثيرا مــا يطرحان فى بلدان العالم الثالث ، ولكن ما هو التخلف ؟ يجاب على هذا

السؤال الاخير بقول (شمبيتر) لانه هو فى طليعة الواضعين لهذه القضية فى الفكر الاقتصادى على مستوى تحديد مفاهيم تخلف الدول والتنميـــة الاقتصادية . وكانت نظرية اقتصادية تبدو علمية وفى منتهى العبقريـــة والدهاء ، لانها وضعت باسس صارمة كى تكون البديل بعد تصفية الاستعمار شكلا ، لتستغل الفكر وتستنزفه فى السنوات القادمة ، فأعطت (التخلف) واصبح المتخلف يقول ((اذن التخلف يعنى التخلف الاقتصادى)) وكيف تتم عملية الخروج من التخلف الاقتصادى ؟ انها تتم بالتنمية الاقتصاديـــة التى تكون عن طريق الاستثمارات وعن طريق المساعدات الفنية ، وهما بيد الدول المتقدمـــة ـــ

وللاسف استطاعت هذه النظرية ان تعمر ربع قرن من الزمان ، ولم تبدأ الاعتراضات عليها الا فى السنوات القليله الاخيرة وعلى مستوى فـــــردى .

ان المتخلف اذا احتكمنا الى الحقائق الموضوعية والى نوع مـــن النزاهة الفكرية ـــ لا عملية الاستلاب والتعبئة التفميضية ـــ يجـــــد المتقدم فى الحقيقة هو الذى يملك الجوهر واعنى به اولا : ثروة الطبيعة ، وثروة الانسان ، بمعنى عطاء الارض وعطاء الجسد والفكر ولكن لننظر فى المتقدم المزعوم كيف يتقدم نجد انه أخذ من هذا المتخلف المزعوم ايضا ، ثرواته بنهبها وعضلاته عن طريق هجرة العمال الضرورية والاضطرارية من اجل لقمة الحياة ، ثم فى النهاية أخذ منه فكره (هجرة العقول) اخـــذ الثلاثة وجعل منهم التقدم ؟ ! فاصبح هو المتقدم ووصف الآخر بالمتخلف بعد ان افرغه من جوهـــــره .

ثم قد تعترى هذا المتقدم المزعوم بعض الازمات ، كان تتازم عملته مثلا فيلجا الى المتخلف طالبا منه العون ! وعليه لا نعتقد شخصيا علـــى الاقل فيما يعنى الدول الغنية فى العالم العربى ان هناك تخلفا اقتصاديا وتنمية اقتصادية كما قلنا فى مناسبات متعددة ، مع اننا لا نغفل اهمية الاقتصاد بل بالعكس لا يمكن لاى مفكر فى القرن العشرين ان ينكر اولوية العامل الاقتصادى ، ولكن هل المشكلة فى العامل الاقتصادى ؟ كيف يمكن

أن نقول ان العالم العربى الغنى مثلا يعانى من تخلف اقتصادى ؟ بمعنى يعانى من مبدأ الندورة ، لان كلمة اقتصاد_ تساوى مبدأ الندورة ، كونه يتحكم فى الندورة فكيف يعانى منها وهو سيدها ؟ كيف يعانى من التخلف الاقتصادى وهو سيد اقتصاد البشرية تقريبا ! هو يتحكم فى هذه الندورة المجسدة الآن فى المادة الاساسية لكل علم ولكل تكنولوجيا ، ولكل صناعة، اى لكل تقدم ، وأعنى بذلك البترول ومشتقاته والمواد الاولية كالغـــاز الطبيعى ، وكذا الثروات الاخرى التى لا حصر لها فى بطن الارض وفوقها . اذن طرح قضية التخلف الاقتصادى ،من ضياع الوقت ، وخاصة بالنسبة لمن هو فى قمة الشبع الاقتصادى « فالفقراء الحقيقيون من الدول هم الاغنياء انها قضية لا يمكن أن يتصورها مفكـــر ، الا اذا كان مجرد استيـــلاب . وبالتالى لا يمكن تصور محاولة القيام بتنمية اقتصادية فى العالم العربى فى اطار هذا الاستلاب والا فلماذا هذه التنمية الاقتصادية لم تحدث ؟ فالاسس موجودة : الاموال ، بمعنـــى الاستثمارات والايدى العاملـــة ، والارض ، هنا ستطرح اشكاليات متعددة ، تصل بنا الى نتيجة محددة وهى : فى خلال ربع القرن الاخير ، تمت عملية استنزاف فكرى استطاع محركها الاجنبى ان يقنع العالم العربى الغنى انه حتى يتقدم ، مهما كـــان لديه ، لابد أن يطرق الباب فى نهاية العام ، ويقول : « اقرضنى المـــال والفكر فيقرضه فى شكل مساعدة مالية من ماله وفنية من فائض متاعه » وتكون النتيجة أن المشكلة لا تزداد الا تعقدا ، فى حين يكون مقرضه قد تخلص من فائض قدرته الفكرية العاطلة « التى لا يستطيع ان يشغلها لضعف مستوياتها وفائض انتاجـــــه . فى مقابل ذلك يحصل منه على الآلاف المليارات كودائع فى المؤسسات البنكية بدعوى أن هذه المليارات ، لا يمكن استغلالها او تسييرها ، وكل هذا يحدث فى غيبة « العقليـــــة الواعية » التى لا علاقة لها بمبدأ الندرة او الندورة ، ولكن علاقتها بالتربية ، هذا ما فعله اعداؤنا فينا واستطاعوا ان يقوموا بهذه الحيل الماكرة ، وان يقنعونـــا بمشروعيتهـــا .

ان التنمية تنبع اساسا من التربية ، المشكلة ليست بناء العمـــارة والمصنع ، وانما بناء الانسان ، هذا الانسان الذى استطاع فى سويسرا ــ كمجرد مثال ــ دون ان يتوفر على خيرات ولا ثروات كثيرة ان يحول

المستنقعات الى بحيرات جميلة،وكان هذا منذ170 عاما تقريبا ولا أقول أربعة قرون ، كان السويسرى بكل بساطة انسانا يعمل فى خدمة الآخرين ، اما ليحرس البابا بالفاتكان أو ليقوم بعملية الحارس أو رئيس مطبخ لكل السادة من الجيران مثال (سافوا) ونبلائها ، فكان عبارة عن انسان يطرح شغله على الآخرين ، هذا الانسان استطاع فى ظرف قرن وسبعين عاما أن يكون أول انسان نام تقريبا على وجه الارض ، فسويسرا أول دولة متقدمة اجتماعيا فى العالم ! كيف ؟ لان الانسان استطاع أن يبنى الانسان ويقامر عليه كثروة أولى وأخيرة ، وربح ، واستطاع أن يجعل من سويسرا بلدا يحتفظ فى نهاية القرن العشرين بقمة ودائع العالم الذهبية وغيرها لدرجة أن البعض قال « أن ما فى سويسرا من ودائع غطاء العملة الصعبة تصل الى نسبة عالية من ودائع العالم وقدراته النقدية ! كيف ؟ انها التنمية التربوية الاجتماعية على مستوى الانسان ٠

3) كيف تتم عملية التنمية فى المجتمع :

حين طرح هذا التساؤل على هذا المستوى للعالم العربى فى الوضع المعاصر ومشاكله نرى أن القضية هى كيفية بناء الانسان ٠ لماذا ؟ لان المجتمعات العربية ليست مجتمعات القنوط ، ولكنها مجتمعات تطلع وآمال فى المستقبل ، مجتمعات شابة وطبيعة معطاء ، وقد يقول البعض اننا نحتاج الى عقول ؟ نعم ولكن الانسان دائما حينما يريد أن يعيد الثقة لذاته يغوص فى العمق وعمقنا مطمئن ، لسنا لقطاء حضارات وانما لدينا من الاصالة والثقة فى عمق الذات ما يجعل اعادة الكرة ممكنة ، فأجدادنا كانوا سادة حضارة انسانية ، ولم يخطفوها كما خطف الآخرون ، وانما تكونت خلال آلاف السنين ، لان العملية كانت أصيلة ، وليست مجرد لقطة حضارية توليفية ، كما يسميها بعض فلاسفة التاريخ وانما استقرار تاريخى ، فأصالة العطاء اذن موجودة ٠

هناك من يريد ــ بعملية استلابية ــ ان يعتبر عقول العالم الثالث عقول خلقت لرعى الابل والماعز ، ولم تخلق لتتعامل مع التكنولوجيا ومع الذرة والعلم ومع المتناقضات الاجتماعية ، عقول تهوية ووديان خضراء ٠

من هؤلاء دعاة النظرية العنصرية المزعومة ((عدم تعادل الاجناس)) فى جنوب افريقيا ، والنازية ((عنصرية الجنس الارقى والصهيونية البغيضة)) وقد واجهنا شخصيا هذا التزييف وهذا الاستلاب فى مؤتمرات ولقاءات دوليـــــــة . ·

ان قضية التنمية تطرح علـــى مستوى ((العقلية الجماعيـــة)) ، وحينما أقول العقلية الجماعية تتصدر التربية كقدرة اساسية فى تنميـــة المجتمع ، كيف يستطيع المربى ، بمعنى المنشىء والحامل والناقل المعرفة من جيل الى جيل ، أن يتكيف مع عطاء العصر ويكيف الاجيال التى يلقنها هذا العطاء بطريقة واعية تجعل فى استطاعة انسان القرن العشرين أن يتعامل بلغة المعاصرة هذه قضية تربوية ، نقول الانسان العربى انفعالى · لانه نتيجة تراث انفعالى ، ولقد تساءلنا فى هذا المضمار الخاص بسيكولوجيـــة الشخصية العربية ـــ كتراث على مستوى المعلقات ، كيف يستطيع انسان تلقائيا أن يعطيك معلقة بدون أى تحضير ، ان لم تكن له قدرة انفعاليـــة هائلة ؟ وهذا ما لا نجده قطعا عند شعراء الحضارات الاخرـ ، اذن هناك انفعال هائل تراثى يتمتع به الانسان العربى ، فكما أنه يمكن أن يدمر ، يمكن كذلك أن يصل الى الاندلس والى الصين وأن يتجاوز علوم الاوائل ، (حسب التعبير المتعارف آنذاك) ولكن ينبغى اجادة استغلال هـــــذه القدرة الانفعالية الهائلـــــة .

ثم لدينا أيضا النشوة ، والعاطفة ، فالتراث العربى تراث عاطفى لهذا نعطى مثلا أهمية كبرى للايماءة فى تكوين الشخصية العربية باعتبار ان ((عربى)) مفهوما سلاليا تراثيا حضاريا ، فقبل الاسلام كانت لدينا دورة تراثية ، تراث ثقافى هو تراث الشعوب عشائر وقبائل (على أساس أن السلالات العربية انما هى سلالات عرقية أو بيئية والسلالات البيئية أكثر انتشارا وتقدما اجتماعيا من السلالات العرقية أو سلالات الطوطميـــة) وحينما جاء الاسلام ، أعطى ((العربى)) مفهوما حضاريا ، فهى قضيـــــة تراثية ثم حضارية وعندما بدأت تواجه على مستوى الشعوبيات عـــادت لخلفياتها الاولى التراثية ، فأصبحت انعكاسا للنعرة ، والنخوة وحماسات الجاهلية ، اى انها خضعت لقوانين فلسفة التاريخ ، وعلى ذلك فـــان

لدينا دورات ثلاث * دورة تراثية عربية قبل الاسلام ، ودورة حضارية اسلامية ، ثم دورة تراثية عربية اسلامية ، بمعنى أن الاسلام أصبح قدرة لهذا التراث فى انتظار جولة قادمة — ان شاء الله — لتصبح دورة حضارية بمفهوم متجدد . ان الدورة الحضارية الاسلامية السابقة استطاعت أن تحول هذه المقومات للشخصية العربية ، على مستوى التراث الثقافى الى مقومات ايجابية فحينما وضعت أسس التربية لتنمية الانسان العربى المسلم فى اطار دورة الحضارة العربية الاسلامية بعد ظهور الاسلام ، كان من أهدافها امتصاص هذا الانفعال ، وهذه النشوة وهذه العواطف ، لتصبح قدرة تعبئة تكاملية ، تنعكس على الخارج لا على الداخل ، فتمت الدورة الحضارية الكبرى للاسلام انطلاقا من الجزيرة العربية ، ولكن لم تختف نهائيا الحركة السلبية للانفعال والعواطف والنشوة

اننا حينما ننظر نظرة واعية لتاريخنا ، سنلاحظ أن الانسان العربى * كمفهوم تراثى حضارى ، بقدر ما تكون أسس تربيته واعية ، بقدر ما يشع ، وبقدر ما تكون عشوائية ، بقدر ما يدمر ، لان عناصر تدميره هى عناصر اشعاعه وبقدر ما تكون تربيته واعية بقدر ما يستطيع أن يحافظ على روح الجماعة ، وروح الوحدة ، وروح التكامل والوعى ، والعكس بالعكس ، وهذا العكس هو الذى حدث فعلا * ويعانى الانسان العربى من ويلاته ونتائجه السلبية ، لماذا ؟ لان من وكل اليهم أمر وضع أسس التربية فى مجتمعاتنا المعاصرة غاب عنهم منطلق الدعوة والحضارة العربية الاسلامية، الذى ارتكز عليه سيد البشرية محمد رسول (ص) فلو فكر فى أن ينتصر بكسرى على قيصر لابراز شخصانيته لا دعوته الخالدة ، وبقيصر على كسرى ، فان دعوته حسب رأيى ما كان ليصل بها حتى الى دار الارقم ، فالرسول المخلص الامين (ص) حينما تأكد له صدق ما وكل اليه من ربه انطلق من الذات بقدرة الاله العلى الاجل ، فكانت فى دعوته الحقة وفى زوجه خديجة ، وصديقه ابى بكر ، لا فى كسرى ولا فى قيصر ، وهذا استشهاد تاريخى يمكن ان يعطى الآن كمثال فى اعتمادنا على الذات الى جانب ما فيه من عطاء قدسى هائل ، وعطاء الهى روحانى اذن بناء الانسان لا يتم الا من داخل الانسان . ودور التربية فى تنمية الانسان والتنمية الاجتماعية هى ان نبدأ باعادة الثقة للانسان فى ذاته * ان دور المربى

مع الاطفال ومع الشباب ، ان يقنعهم بانهم يستطيعون أن يبنوا انفسهم والا فانه مهما لقنهم من الدروس فلن يكون لصالح ذاتهم ، وسيظلون دائما طفيليين وهامشيين للاخرين .

على المربى ان يطلع الطفل على تاريخ بلاده وما تزخر به ارضه من قدرات وثروات وخيرات وليتجنب كل مرب بث روح الضغينة فى أطفالنا فيما بينهم ، وروح التنافس اللامشروع انطلاقا من الغيرة والحسد ، لان طفل اليوم هو رجل وقائد الغد ، وما نشاهده الآن فى العالم العربى ما هــو الا نتيجة لتربية الاطفال ، فاذا كان من حسن حظ البعض أنه ربى تربية واعية ، فهناك الكثير ممن وصلوا الى ادارة وتسيير المجتمعات ، ولكنهم لا زالوا يعيشون بعقلية غيرة الاطفال فلابد اذن من العودة الى الذات ، ولنا فى رسول الله اسوة حسنة ، فلقد جاء محمد (ص) على هؤلاء النافرين الجامعين لحماسة الجاهلية والنعرة العصبية والفتوة فأنشأ لهم جوا آخر اذ جعل العرب يغيرون من قيمهم الا ما صلح ويستبدلونها بقيم أخــرى جديدة ، تلك التى جاءهم بها بوحى من السماء ، فبعد روح الطبقيـــــة والعنصرية التى سادت العادات العربية صار أبو بكر يجلس الى جانب ضعفاء الصحابة وكذا معاوية لقد كان محمد (ص) يدعوهم الى الاخوة والتكامل وهكذا عمل على توحيد الاله ، وتوحيد العقيدة ، وتوحيد قبلــة الصلاة ، وتوحيد الفئات البشرية فآخى كمثال بين الاوس والخزرج ، مبدأ الاخوة والتكامل والتعاون ومن هنا انطلقت الحضارة الاسلامية ، ولم تنطلق من التمزق والمجاهرة بالانفعالات ، فاصبح هذا الانسان الذى كان أكبــر همه ، واعلى مثله فى الجاهلية ان يدمر ، يتصف بروح الطاعة والانضباط والامتثال ، بفضل التربية الاسلامية ، التى تبنى الانسان ، تلك التربية التى انجبت كمثال القائد العظيم ((خالد ابن الوليد)) الذى قبل بعــــد الانتصارات الهائلة والفتوحات العديدة التى عاد منها مظفرا ان يتنازل عن القيادة بطيب خاطر حينما طلب منه ذلك ليصبح مجرد جندى تحت امرة قائد آخر ، فما احوجنا الآن الى مثل هذه الروح : روح الشمولية ، والتربية المتكاملة ، وامتصاص الانفعال لبناء الامة

ان الانفعال اليوم لم يعد على مستوى القصائد والمعلقات ، وانما على مستوى الارض وتدمير الذات ، نقول : علينا ان نتجه البناء ، ولنخلق

جو يشعر فيه الشقيق فعلا انه شقيق ولكن هذا لن يتحقق بمجرد كلمة تقال ، وانما الشقيق هو الذى يكون ساعة الشدة ــ نعم العون والمدافع ــ لا ان يكون الى جانب الاعداء ويردد مثل شمشون الجبار « على وعلى اعدائى يا رب » ما احوجنا أن نخلق فى نفس الطفل على مستوى أسرته روح التكامل والمودة والاخاء .

وخلاصة القول : ان التربية فى خدمة التنمية لبناء الانسان :

1 ــ عليها أن تكون منطلقة من اثبات الذات ، معتمدة على التكامل والتوحيد فى القدرات ، متجهة الى أسلوب العصر : العلم ، التكنولوجيا ، والصناعة ، ولكن على مستوى الذات لتكون فى خدمة الذات

2 ــ تعتمد التربية فى حركيتها لبناء المجتمع على قدرة سببية بمعنى اننا نحاول أن نشعر الطفل الذى سيصبح رجلا فى الغد ، وبانى المجتمع بأن له هدفا ، وبأنه لم يعش عبثا ، وبأن سعادة ذاته هى فى سعادة اسرته الصغرى والكبرى . وبأن سر هذه السعادة يكمن فى سيطرته على كل ما هو تدمير للذات . . .

هذه مجرد أسس نطرحها كمقاييس مبدئية للتربية والتنمية فى بناء وخدمة الانسان بالعودة الى القرآن .

والتربية حينما نجعلها فى خدمة المجتمع ، لا نهدف فقط التربية على المستوى البيداغوجي المحددة فى المدرسة ، وانما التنشئة المجتمعية برمتها ، اى تدخل فى اطار الاسرة والجماعات ، والطبقات ، هذا مع تسليط الاضواء على جانب تنمية الثروات الطبيعية وثروات الانسان الفكرية فى الخلق والابتكار .

كيف يصبح الانسان ثروة فى حد ذاته دون ان نجعل من الثروة الطبيعية فقط محور الاحتكاك والمراهنة ؟ علينا ان نراهن على الانسان ،

فنعيد صياغة عقليته الجماعية ، اى اعطاؤه اطارا واعيا معبا وهذا يجعلنا نعطى أولوية مطلقة فى خطط التنمية للتربية والتعليم لانهما الاساس .

ان كلمة ((وعـــى)) مع وجود الامية لم تعد مطروحة أساسا ، والا كان وعيا كالهواء اذ كيف تتم توعية من كان غائبا ؟ ومن ثم لا يمكن ان نعيش فى عصر يحتل فيه العامل الاقتصادى الاولوية ، دون الاهتمام بهذه الاولوية فى حد ذاتها ، ولكن أولوية لانسان واع حتى يصبح الاقتصاد سلاحا لـــــه لا ســـلاحـــــا عليـــــه .

الـــربـــاط | د. رشدى فكـــار

قصة أسطورية

الليلة الثانية بعد الألف

أحمد عبد السلام البقالي

فلما كانت الليلة الثانية بعد الالف قالت بلغنى يا شهريار ان (عربــون العملاق) فتح عينيه فى الظلام فلم يدر أين هو .. ومكث مضطجعا يحملق فى الحلكة الدامسـة لحظة ظنها طويلة .. ولما لم يبصر شيئا شعر بخوف شديد من أن يكون قد أصيب بالعمــى .

لم يكن يدرى متى ، ولا أين ، ولا كم نام .. وبحث فى ذاكرته عن حدث ما فلم يجد شيئا . . كانت ذاكرته فارغة كصفحة بيضاء . .

وتحرك فى حذر متأهبا للقعود لينظر حواليه ، فتفرقعت عظامه ، وآلمته عضلاته المتصلبة . . وبعد لحظة من الخدر الثقيل لاح لعينيه شعاع بعيــد فأحيى الامل فى نفسه ، واخذ يزحف نحوه على يديه وركبتيه ..

وما كاد يصله حتى أدرك أنه باب الكهف العتيق الذى كان راقدا فيه .. وجال بعينيه بداخله فراى ان كل ما كان قد صنعه من أدوات وآلات وتحف ، وما اذخره من اطعمة وفواكه كلها بليت او تعفنت او تآكلت واوشكت على

الاندثار لطول عهدها بالصيانة والتجديد .. فلم يتمالك من العجب والاشتغراب واخذ يحرك راسه الكبير ويتساءل : « يا ترى كم قضيت نائما ؟ .. »

وخرج من باب الكهف فبهره منظر الجزيرة الغناء التى كان يسكنها .. كانت الشمس قد بدأت فى الشروق من خلف قتام الفجر البارد ، وبدات اشعتها النضارية السحرية تلمس رؤوس النخيل والتلال المحيطة بالبحيرة البلورية التى كانت تتوسط الجزيرة ، وتضىء الرمال البيضاء الممتدة على طول شطآنها الذهبية .

وقف العملاق ينظر بفرحة غامضة عارمة الى هذا المنظر الذى كان نسيه فى غمرة رقاده الطويل ، فانبهر بجماله ، وأحس بالجوع فتحرك نازلا نحو الوادى الخصيب الاخضر الممتد الى شاطىء البحيرة ..

ومر بالغابة فتجول بين أشجار الفواكه ، وانحنى وقطف عنقود عنب بارد ما يزال ضباب ندى الفجر يكسوه ، والتقط عددا من التفاح الناضج ، وعناقيد الموز ، والكوكو ، والمانجة ، حتى امتلاءت ذراعه وذهب الى ربوة مشرفة على الشاطىء الغربى وجلس يأكل فاكهته ، ويتأمل سطح البحر الذى كان يموج بصفائح أرجوانية وذهبية بفعل أشعة الشمس المائلة .

وعلى صفحة الماء الهادئة لمح نقطة سوداء بعيدة ترتفع وتنخفض ، وتظهر ثم تختفى .. ولم يعرها اى اهتمام ، فقد كان يرى مثيلاتها من حين لآخر .. ومنها ما كان ينتهى الى شاطىء الجزيرة ليجده برميلا فارغا ، أو قطعة مركب حطمته العواصف على الصخور ، أو جثة غريق ألقى به اليم على الشاطىء .

الا أن تلك النقطة حين اقتربت لم تكن شيئا من هذا .. فوقف العملاق مدفوعا بحب الاطلاع ، واقترب من الشاطىء لينظر اليها من قريب ، فاذا بها امرأة ملقاة على طوف خشبى عائم ..

ولم يكد يميزها حتى خاض اليها الامواج بساقين طويلتين ، وانحنى فانتشلها وحملها فى كفه الى البر وهو لا يدرى أحية كانت أم ميتة . وأسرع

بها نحو الكهف فوضعها تحت ظل شجرة على بابه وهرول نحو الغابة فقطف عددا من أنواع الفواكه وعاد بها ، وركع بجانبها يعصر حبات العنب فى فمها لعلها تستجيب وتعود للحياة ..

وكاد ييأس لولا أن صدرها الناهد بدأ يرتفع وينخفض ببطء شديـــد ، فغطاها بلحاف رقيق ، وعاد الى عصر ماء العنب فى فمها فبدأ لسانها يتحرك وانفاسها تنتظم .. ثم فتحت عينيها فاذا بهما فى زرقة ماء البحر وعمقـــه .. وأحس انها فزعت لمنظره فأخذ يطمئنها بصوت حاول ان يسكب فيه كل مـــا لديه من نعومة وحنان ، وقال :

ــ لا تخافى ــ فقد نجوت من الغرق وجدتك طريحة فوق طوف عائم فانتشلتك وها أنت الان على قيد الحياة ــ هل تريدين شيئا ..

وفتحت الفتاة فمها دون أن تنطق بشىء .. واغرورقت عيناها ، فانحنى عليها هامسا ومطمئنا :

ــ لا تقولى شيئا الان ــ ارتاحى أولا ، وسوف أطبخ لك شربة مـــن أعشاب الغابة تعيد اليك صحتك وقوة جسدك .

وتركها وانطلق يجمع الاعشاب البرية ويغنى سعيدا بلقيته الجديدة التى ستسليه وتؤنس وحشته ..

ولم تمض الا ساعتان حتى كان العملاق يصفى الاعشاب المطبوخة فى كوب كبير ويضعه الى جانب الفتاة ، ثم أقعدها وبدأ يسقيها شربـــة الاعشاب الزكية الرائحة .. وسرى دفء المشروب فى بدنها الضعيف ، فجرى الدم فى عروقها يحمل الى جميع اعضاء الجسد الحياة والقـــوة والنشـــاط ..

ولاول مرة انفرجت شفتاها عن ابتسامة ساحرة ، ورن صوتهـــا الانثوى الناعم بكلمات الشكر والامتنان لمنقذها العملاق . فضحك عربون

ضحكة ردد صداها الكهف فرحة بنجاح وصفته الطبية ، وطربا لسماع صوت الانثى الموسيقى ، وسرورا بعودتها الى الحياة ، وقال لها :

ــ انا الذى يجب أن أشكر الله على أن ارسلك الى جزيرتى لتؤنسينى، فلقد طالت وحدتى ووحشتى .

وسألها عن اسمها فقالت انه (ازرا) .

وبقيت الفتاة فى فراشها تشرب من كوب ماء الاعشاب ، وتأكل الفواكه حتى أحست بالقدرة على القيام .

وفى صباح الغد ابدت « ازرا » رغبتها فى الاستحمام فأخذها العملاق الى كهف قريب كانت تفور من حائطه عين معدنية ساخنة ، فخلعت ما كان يلتصق بجسدها من اسمال بالية ، ودخلت تحت شلال الماء الساخن المتدفق فأحست بدفئه يسرى فى كيانها ، وببرد ليالى البحر الطويلة ينسل من عظامها ..

وناولها العملاق « الغاسول » والصابون فغسلت شعرها الذى كان عبارة عن كومة من الخبال المتكدس ، واطلقته حواليها على ظهرها وكتفيها فاذا هو سالف أشقر منساب كالحرير ، يغطى سائر بدنها حتى الركبتين ..

وحين انهت حمامها جاء العملاق « بفوطة » لفها فيها ، وحملها الى كهفه حيث أعادها الى فراشها فنامت نوما ناعما عميقا ..

ولم تمض أيام قلائل حتى استرجعت « ازرا » صحتها ، وبانت العافية على جسدها الممتلىء الغض ، ولمعت بشرتها الناعمة تحت ضوء الجزيرة خليطا من الذهب والعاج .. وفتن بها عربون العملاق رغم انها كانت بالنسبة اليه كدمية لا تتجاوز طول ذراعه فكان يلاحقها بعينيه اينما ذهبت وهى دائبة الحركة والنشاط تجمع الثمار وتطبخ الاكل ، وتنظف الكهف ، وتخيط الملابس لنفسها وله ، وهو يقوم بما يقوم به الرجال من اعمال شاقة مثل الصيد

البرى والبحرى ، وذبح الحيوانات وسلخها ، وقطع الاسمـــاك وتقديدهـــا لموسم الشتاء ..

وكانت ازرا ، حين تنتهى من اشغالها اليومية ، تقعد على ربوة مشرفة على البحر ، وتطلق شعرها لتمشيطه وذهنه وتضفيره فى ضفيرتين تطلقهما فوق نهديها .. وكان عربون العملاق يفاجئها فى حالة سهوم وهى تتأمل الافق الغربى ، وكأنها تنتظر أن ترى شيــئا ..

وجلس مرة الى جانبها على الربوة فنظرت اليه بعينيها الواسعتـــين الزرقاوين وابتسمت ابتسامتها العريضة .. الا أنه لاحظ فى عينيها اثر دموع لم تترقرق ، فاندهش ، واحس بالقلق والحزن يعصر قلبه : ومد يده الكبيرة الى ذقنها الصغير فى لطف لينظر الى وجهها ، وسأل :

ــ ماذا بك يا عزيزتى ازرا ؟ ..

فابتسمت له واجابت :

ــ لا شىء .. لاشىء على الاطلاق ..

ــ فمابالك تبكين ؟

ــ لم اكن ابكى .. كنت فقط انظر الى الغروب ، فراعنى منظره الساجى، واغرورقت عيناى

فابتسم العملاق مسرورا ، وقد زال عنه الكرب والقلق ، وزاد اعجابه بها فحرك رأســـه قائــلا :

ــ ما أروعك يا ازرا ! انت شفافة الظاهر والباطن ــ وما اسعدنـــى بوجودك معى ..

ثم تذكر شيئا فأضاف :

— منذ حللت بالجزيرة وانا اود ان اسألك عن هويتك .. من انت ؟ ومن اين اتيت ؟ والى اين كنت ذاهبة ؟ وماذا حدث لك حتى رماك البحر على شاطىء جزيرتى ؟ لم ارد ان اسألك من قبل خشية ان اثير اشجانك وانت سقيمة البدن ، فيتأخر شفاؤك .. ولكنك الان فى صحة جيدة .. فهل تشبعين فضولى ؟

فقالت :

— من حقك ان تعرف عنى كل شىء يا عربون .. فقد انقذتنى وآويتنى واكرمتنى ، وأرجعتنى الى الحياة بعد أن كنت فى عداد الاموات .. ولست اعرف كيف اجازيك ..

فأمسك العملاق بيديها وقبلهما قائلا :

— لا أريد أن اسمعك تكررين ذلك ؟ فأنا الذى لا اعرف كيف اجازى الاقدار التى حملتك الى ..

فقالت ازرا :

— هذا دليل آخر على كرمك ونبل اصلك ، المهم، ان قصة وجودى فى هذه الاصقاع البعيدة عن وطنى طويلة .. وسأكتفى بأهم ما فيها .. أنا من عائلة عريقة النسب ، مجيدة الحسب .. معروفة بالذكاء والشطارة والمهارة فى كثير من الامور .. ومن اجل مواهبنا العديدة كنا نتعرض للحسد والاضطهاد فى كل بلد نحل به ، فتنهب أموالنا ، وتحرق ديارنا ، ويقتل أبناؤنا ، فنهيم على وجوهنا فى البحر والبر ... وقصة هيامى فى لجة المحيط ليست الا حلقة من سلسلة النكبات التى تعرضت لها عائلتى .. وقد كنا هاربين فى مركب من حاكم جبار أوشك أن يجهز علينا ، فتعرض لنا القراصنة فى عرض البحر وضربوا سفينتنا بالمدافع ، واستولوا على جميع ما فيها من امتعة واموال ، واقتادوا أفراد عائلتى أسرى ليبيعوهم فى أسواق العبيد ..

وهنا وقفت غصة حامية فى حلقها فتوقفت ، واخرجت من حزامها منديلا حريريا أخذت تمسح به دموعها وتنتحب فى صمت ..

ومزقت قصتها قلب عربون وتمنى لوكان معهم على ظهر الباخــرة ، وقـــال :

ـــ لو كنت معكم فى مركبكم لمزقت أولئك القراصنة الانذال اربا اربا .. ولادخلت مدافعهم فى أفواههم وافرغت نارها فى بطونهم ..

وهاج حتى وقف يدك الارض برجليه فاهتزت وكأن بها زلزالا ..

ولما عاد الى الجلوس قالت مطيبة خاطره :

ـــ لا تخشى شيئا على عائلتى .. فمهما تفرقت ستعود الى الاجتماع .. المهم أن تبقى على قيد الحياة حتى ولو كانت رهينة الاسر والعبودية ..

فسأل العمـــلاق :

ـــ وكيف لم يأخذوك اسيرة ؟

ـــ لا ادرى .. لعلهم لم يرونى .. فقد تعلقت بلوح من أخشاب المركب وبقيت متسترة به حتى ذهب مركب القراصنة .. وبقيت وحدى فى عـــرض البحر ، انتظر مرور سفينة مسافرين ، أو مركب صيد .. ولا أدرى كم يوما بقيت جائعة عطشى ، باردة بالليل محترقة بالنهار .. وضعفت حتى اغمــى على .. فكان انت أول ما فتحت عليه عينى بعد ذلك ..

فتنهد العملاق قائلا :

ـــ والحمد لله .. الحمد لله على ذلك ومد ذراعيه فالتقطها من مكانهـــا ووضعها فى حجره كطفلة مدللة :

ـــ من الان فصاعدا لا خوف عليك من اى شىء.. فقد وصلت بر الامان.. وشاطىء السلامة ..

وظلت حياتهما ناعمة هانئة ترفرف عليها اجنحة السعادة وكأنهما آدم وحواء يرتعان فى جنة النعيم ، وهو لا يدرى ما تخبئه له الاقدار ..

وذات مساء ذهب عربون العملاق كعادته الى الربوة ليجالس حبيبته ازرا ، بعد أن عاد من اعمال يومه ليشاهدا الغروب معا ويعود الى الكهف للعشاء والنوم .. ولكنه لم يجدها هناك ..

ووقف يبحث عنها ويمسح شواطىء الجزيرة بعينيه ، وقد بدأ قتام الغسق يكسو أطرافها .. وحين لم يعثر لها على اثر أخذ ينادى باسمها بصوته الجهورى الراعد فتهتز له الارض والاشجار ، وتصفق الطيور النائمة بأجنحتها منتشرة فى الفضاء مذعورة لا تدرى ماذا أصاب جزيرتها الوادعة .

وكاد يجن حين لم يسمع جوابا على ندائه لولا انه لمح شبحا يتحرك على الشاطىء .. فانطلق يعدو نحوه وما كاد يقترب منه حتى سمع « ازرا » تناديه بصوتها البلورى العذب مطمئنة :

— ها أنا يا عزيزى عربون !

فوقف العملاق محملقا نحوها فى غبش الغروب حتى تأكد من أنها هى ، ثم رفع رأسه الى السماء ووضع قبضته على قلبه صائحا :

— حمدا لك يا رب !

ثم اقترب منها قائلا :

— كدت أجن قلقا عليك ؟ ماذا حدث ؟ اين كنت ؟

فمدت يديها نحوه فأمسك بهما وقالت معتذرة بصوت يسيل رقة وحنانا :

ـ انا آسفة يا عزيزى .. لم اكن اعرف اننى ساتأخر عن موعدنا طول هذه المدة . فقد جئت الربوة مبكرة وجلست ارقب الاصيل فاذا شىء يتحرك فوق الماء قرب الشاطىء فقلت انزل وارى ما هو قبل قدومك ..

ـ وماذا وجـدت ؟

ـ مجرد خشبة عائمة .. ولو كنت عرفت انك ستقلق من اجلى الى هذا الحد لما ذهبت .. ثم قادته بيد واحدة نحو الربوة فى اتجاه الكهف وقالـت باسلوب مرح لعوب :

ـ ولكـن الحمد لله علـى ذهابـى .

فتـوقـف العملاق فجاة والتفت اليهـا : ـ

ـ ماذا تعنين ؟ بعد كل ما سببته لى من قلق ؟؟

ـ اعنى انه كان فرصة لمعرفة سر عظيم .

ـ اى سر تعنين ؟

ـ الـم تفهـم ؟

فنظر العملاق فى عينيها الضاحكتين ثم ضرب جبينه بيده :

ـ يالى من مغفل ! !

ـ مغفل لطيف ـ فلولا غيابى عنك لما تأكدت من حبك ..

وتوقفت ثم صححت :

ـ من حاجتك الى وجودى بجانبك ؟

فجذبها نحوه وطوق خصرها بيده ورفعها نحو وجهه قائلا :

— لماذا تراجعت على كلمة (حبك لى) واستبدلتها (بحاجتك) ؟
فاسبلت أجفانها وقالت :

— تلك الكلمة من حقك أنت وحدك .. وليس من حقى أن أنوب عنـــك فيها ، أو أضعها فى فمــك .

فابتسم ابتسامة ذات معنى وغمز لها وقال :

— ولكن من حقك أن تضعيها فى مخى . . أيتها الماكرة ؟

فقهقهت سعيدة فقبلها هو بلطف وحنان كبيرين .

وفى ذلك المساء مدت « أزرا » أمام عربون سماطا فاخرا من المأكـل والمشرب والفواكه والحلويات لم تر عيناه مثلها من قبل .. وزينت كل ذلك بالشموع والزهور والرياحين .. وعطرت أرجاء الكهف بالعود والنـــد .. ولبست ثوبا كانت قد نسجته خصيصا لهذه المناسبة من الحرير الخالص ، وتحلت باللالىء التى أهداها اياها عربون ، ومشطت شعرها النورانى الى الخلف ، ووضعت على أذنها وردة بيضاء ، وتطيبت بعطر تهفو اليه النفوس وينجذب اليه الناس من بعيد ، ووقفت أمام عربون تستعرض جسدهـــا الملفوف فى الحرير والحلى والعطر .. ثم جاءت الى جانبه ورفعت ذراعيهــا فرفعها هو من الارض نحو وجهه فأمسكت برأسه الكبيرة بين يديها ، وطبعت قبلة على جبينه وأخرى على أنفه وشفتيه ، وهو مغمض العينين ، غارق فى نشوة عارمة لا يريد أن يفيق ..

وحين ابتعدت عنه فتح عينيه وتنهد وقال :

— أين كنت تخبئين كل هذا ؟

فقالت وهى تفتح زجاجة قديمة :

— كنت أخبئه لهذه المناسبة .

ولم يفهم فسأل :

— وهل لى أن أعرف ما هى المناسبة ؟

فافرغت من الزجاجة العتيقة كأسا ناولته اياه :

— مناسبة عيد ميلادك يا حبيبى .

وناولته الكأس ودفعت بها نحو فمه قائلة :

— اشـــرب .

فأمسك بيدها ونظر الى الكأس البلورية ، والشراب الذهبى بداخلهـــا تنعكس عليه أضواء الشموع فيرسل أشعة خلابة ، وقال :

— ما هذا ؟

— اشرب .. انه عصير العنب .

— هل هـــو خمـــر ؟

— كلا .. انه شراب زلال .

— أنا لا أشرب الخمر .. فهى حرام على ..

— أعرف ذلك ..

ودفعت بالكأس نحو فمه قائلـــة :

— عيلا ميلاد سعيد !

فشرب هو الكأس حتى نهايته وتلمظ بالتذاذ ، وقال :

ـــ ما الذه من شـــراب !

فصبت له كأسا اخرى وقالت :

ـــ عصرته بنفسى لك من أجود الاعناف ، ولمناسبة عيد ميلادك .

فشرب الكأس الثانية وحرك راسه مستمرئا . وقال :

ـــ لم احتفل ابدا بهذه المناسبة .. فما كنت أعتقد انها جديرة بذلك .

فصبت له أخرى قائلة :

ـــ هى عادة من بلادى

ومدت يدها فالتقطت قطعة لحم وضعتها فى فمه ، وجلست على ركبته تأكل وتطعمه وتسقيه ، وهو ممسك بخصرها النحيل ، ضائع بين ضروب الملذات ، وكأنه بعث فجأة فى جنة نعيم ..

وأتى على جميع ما كان فوق السماط مما لذ وطاب .. وقامت هـــى فغنت له ورقصت ، وأنشدت الاشعار فى تمجيد قوته وطوله وعرضـــه ورجولته وجماله ، وهو يستزيد من المديح والشراب ، ويضحك للفكاهات التى كانت تحكيها له ارزا . ويستسلم لذغذغات يدها الناعمتين وتكبيسهما حتى استلقى على ظهره من السرور والسكر .. ونام فى مكانه نومة الدب فى فصل الشتاء القطبى ..

ولم يدر كم نام .. ولكنه استيقظ من كابوس مرعب كاد يطير عقله .. رأى فى نومه انه مربوط الى الارض بحبال من يديه وقدميه ، وهو لا يستطيع التحرك فى أى اتجاه .. ومن بعيد رأى آلة جبارة ، كأنها دبابة معتدة فى حجم دار كبيرة ، تتحرك نحوه على عجلات شبيهة بأسطوانات المحراث الالى ، حادة قاطعة .. واقتربت منه تلك الآلة المخيفة ، فداسته بأسطواناتهـــا الماضية ، وقطعته شرائح متساوية ، وتركته ينظر الى جسده الممزق ينزف

دما ، وذهبت .. وبعد لحظة عادت لتدوسه عرضا ، وتقطع شرائح جسده قطعا مكعبة ، ثم تبتعد ..

وتبعها هو بعينيه فرآها تدور لتعود ، هذه المرة ، لتفصل راسه عن جسده المكعب ، وتشطره شطرين .. وفتح فمه ليصرخ فلم يجد صوتا .. كان صدره مفتوحا ، ورئتاه فارغتان من الهواء .. وحين لم يبق بينه وبين الاسطوانة القاطعة الا شعرات رفع راسه ، وفتح عينيه وأفاق من كابوسه المخيف ، فاذا هو فى كهفه القديم ، وقد غمره نور الشمس المتدفقة من الخارج .. وحمد الله فى سره على أن ما رآه لم يكن الا حلما .. واغرورقت عيناه بدموع السعادة والفرح بالنجاة .

وترامت الى سمعه قهقهات أنثى فرفع راسه لينظر الى مصدره ، ولكنه أحس بثقل غير عادى على كتفيه ، وبصداع فى راسه ، ووهن فى عضلاته ، وعجز عن تركيز ذهنه ، وجمع شتات أفكاره .. ومن خلال ضباب الدموع فى عينيه استطاع تمييز شكل امراة قاعدة على ركبة رجل .. فاغمض عينيه وفتحهما ليزيل الغشاوة عنهما ، ونظر الى المراة ، فاذا هى حبيبته ارزا جالسة فى حجر رجل فى مثل حجمها ، قصير سمين ، معقوف الانف ، كث اللحية ، وقد طوق خصرها بذراعه ، ووضعت ذراعها حول عنقه ، وهما ينظران اليه ويضحكان ..

وحاول القعود ، فأحس بألم فى خصره لثقل رأسه واكتافه ، فهوى بسرعة الى الخلف بشكل آثار ضجة قهمقهات من ارزا وصاحبها البشع ..

ولاحظ العملاق انهما كانا يشيران الى كتفيه ويضحكان فالتفت ليرى ما يضحكهما .. وما وقعت عيناه على كتفه حتى انقلب قلبه ، وكاد يجن من الرعب ..

كان قد نبت على كتفه الايمن ثلاث رؤوس مختلفة الاحجام والسمات .. فأغمض عينيه وصرخ حتى اهتز الكهف بكل ما فيه ، ووقعت الاوانى من فوق الرفوف ، وتدحرجت الصخور من رؤوس التلال الى قلب الوادى وشاطىء البحيرة .. وفتح عينيه على كتفه الايسر فرأى ثلاث رؤوس أخرى تنظر اليه

فى فزع واستغراب ، فأغمض عينيه بشدة ، وحرك راسه حركات عنيفة ليطرد آثار الخمار الحاد ، ثم فتح عينيه ، وأعاد النظر من جديد الى كتفيه ، فاذا تلك الرؤوس الغريبة ما تزال هناك ثابتة الجذور فى لحمه وعظمه ، تتبادل نظرات الدهشة والتساؤل ، وتنظر اليه وتتلاغط بينها بألسنة لا يكاد يفهم رطانتها ، وكأنها تحتج على ازعاجه لها بصراخه واهتياجه .. فأغمض عينيه مرة اخرى ، واضطجع الى الوراء لعله يعود الى حلمه الاول لينجو من هذا الواقع المريع .. ولكنه لم يزد الا شعورا بالتصاق الرؤوس الستة بكتفيه ، فقد كانت تتناقش فيما بينهما وتتجادل بأصوات عالية ..

ومن بين لغطها سمع ضحكات ارزا الناعمة ، وهمهمة عشيقها العجوز الملتحى الذى كانت تناديه (مار) والذى لاشك كان يسليها بالتنكيت عليه .. وشم عربون رائحة الخيانة قوية من جلد أرزا الذى كان يفوح عطرا وشبابا ، فتحولت فى عينيه الى مخلوقة بشعة توحى بالكراهية والمقت ..

ودار شريط ظهورها على جزيرته الغناء فى مخيلته بسرعة ، فأدرك أن كل ما كانت تفعله كان تابعا لخطة مرسومة تهدف الى الايقاع به .. وتذكر ليلته الاخيرة مع ارزا وكيف استطاعت أن تسقيه شرابا محرما عليه .. لابد أن اللعنة حلت به بسبب ذلك ، فأصبح مسخا عجيبا ، وغولا بسبعة رؤوس..

وصمم العزم على القيام من مضجعه المخزى ذلك ، ليسحق بقدميه (أزرا) الخائنة وصاحبها (مار) القذر ..

ورفع راسه لينهض فارتفعت أصوات الرؤوس الاخرى محتجة على محاولته النهوض دون استشارتها واخذ موافقتها .. وحاول مرة أخرى القيام بكل قواه فوجد انه عاجز تماما على رفع جسده دون رغبة الرؤوس الاخرى التى كانت تنظر اليه بتحدى شديد ..

وأراح رأسه على الارض قليلا واخذ يفكر فى محنته لعله يجد منها مخرجا .. ولم يجد بدا من الدخول مع الرؤوس الستة فى حوار .. فنظر يمينا ويسارا ، وقد اغرورقت عيناه من القهر ، ووقفت غصة حامية فى حلقه ، وهو

ينظر الى تلك الوجوه النابتة فيه ، عاجزا عن التحرك بدونها ، او الانفصال عنها ، وابتلع غصته بصعوبة ، وبل شفتيه بلسانه ، وقال :

— رؤوسى الاعــزاء ..

فارتفعت اصواتهم مستغربة ومعلقــة :

— انه يتكلــم !

— كنت أظنه حيوانا اعجم لا يتقن الا الهمهمة والدمدمة ..

— ومؤدب كذلك ..

فقاطعهم بقولـــه :

— أرجوكم .. ليس هذا وقت المزاح .. الا ترون اننا واقعون فى قبضة هذين القزمين ؟ فاذا لم نتحرك كراس واحد ، وجسد واحد ، فسوف نموت جوعا وعشطا .. ولن يحتاجا الى القضاء علينا .

فنطق احد الرؤوس قائلا :

— والله انه يقول الحق ..

وعلـــق آخـــر :

— كيفما كان الامر ، فأنا احس بالجوع ، ولابد من أن نقوم للبحث عـــن طعـــــام ..

ولكن راسا آخر صاح :

— قبل ان تثقوا فى أقواله ، وتنساقوا وراءه كالقطيع ، يجب أن اذكركم انه هو الذى أوقعنا فى هذه المصيبة ببلادته واستسلامه لشهواته ..

فقال الراس الاول للاخير :

ـــ والله انك محق فيما تقول ..

واخذت بقية الرؤوس تعلق .. بعضها يتهم ، والبعض يبرىء ، وعلت الاصوات ، واخذ الجميع يتكلم ولا احد يسمع . وهنا صرخ الراس الاوسط صرخة راعدة مدوية :

ـــ ارجوكم ! ارجـــوكـــم !

فسكت الجميع الا ما كان من قهقهة (ارزا) وصديقها (مــــار) الذين كانا يتفرجان على المنظر المؤسف المضحك .. فقال الراس :

ـــ ايعجبكم هذا ؟ ايعجبكم أن يضحك علينا الاقزام ، ويتشفوا فينـــــا لعجزنا على الاتفاق على أتفه الاشياء ؟

ونظر يمينا ويسارا ، ثم سأل :

ـــ والآن ؟ هل نقوم لنأكل ؟

فنطق الراس الاول :

ـــ حتى نتفاهـــم .

وقال الثانـــي :

ـــ معـــه الحـــق .

فسأل الاوســـط :

ـــ على ماذا ؟ أليس الهدف واضحا ؟ فنحن جائعون ، ونريد أن نأكل .
فعارض الراس الاول :

— ليس بهذه البساطة ..

— فماذا تريد ؟

قالها الاوسط غاضبا :

— نريد أن نعرف من هو الراس الاول بيننا .. فقد بدأت تأخذ بزمـــام القيادة وتعطى الاوامر كأنك القائد الاعلى .

وأضاف الراس الثانى :

— لا يجب أن ننسى أنه هو المسؤول عن حالنا هذا .

وقال آخـــر :

— تصرفاته السابقة تجرده من جميع حقوقه فى القيادة أو الراى ..

فقال الراس الاوسط :

— أنا لا أرغب فى اية رئاسة ، الامر لا يحتاج الى رئاسة .. كل ما أقوله هو أننا جائعون وينبغى أن نذهب لناكل ..

فقـــال أحـــدهـــم :

— المسألة مسألة مبدأ .. اذا أخذنا رأيك فى الامر البسيط أخذنـــاه فى المعقـــــــــد .

وغرغرت معدة العملاق بقوة وكأنها جوف بركان ، فسكتت الـــرؤوس لتستمع .. ومن بعيد ترامت اليهم اصوات بشرية ، فارتفعت الرؤوس دفعة واحدة لتطل من باب الكهف على مصدرها . فاذا هى آتية من الشاطـــىء .. وزحفوا جميعا بالجسد المضطجع الى خارج الكهف لينظروا ، فاذا علـــى الشاطىء مركبكبير ذو صوارى هائلة، وقد امتدت منه ألواح الى الشاطىء،

وانتظم بينه وبين بستان الجزيرة صف طويل من البحارة يحملون صناديق الفواكه على أكتافهم الى قلب المركب و (مـــار) صديق ارزا واقف مع ربان المركب وفى يده كناش وقلم ، وهو يحسب الصناديق ، ويعد الدنانير التى كان يضعها أمامه الربـــان ..

وفى الحال أدركت الرؤوس السبعة ما يحدث ، وصاح أحدهم :

— انهم يسرقون طعامنا !

فتعالت أصوات الرؤوس :

— الويل لهـــم !

— لابد من ايقافهم عند حدهم !

— لنسحقهم ! لندمر مركبهم .!

— لنفصل رأس القزم الذى جاء بهم عن جسده ..

— لنلقى به فى البحر هو وعاهرتـــه ..

وفى غمرة الحماس المتصاعد وقف العملاق ذو الرؤوس السبعة على باب الكهف ، وأطلقت الرؤوس صرخة مدوية اهتزت لها الارض والشطآن والنخيل .. وسرى الذعر بين البحارة فألقوا ما كان على أكتافهم من صناديق وسلال ملأى بالخضر والفواكه ، وأطلقوا سيقانهم للريح فى اتجاه المركب .

ونظر الربان والقزم (مـــار) و (ازرا) نحو العملاق وقد ظهرت على وجوههم علامات الدهشة والذعر .. وصاح البحار فى (مـــار) :

— ألم تقل لى ان العملاق مـــات .؟

وامتشق سيفه ليقتله ، فصرخ هذا ، ودخل بين ساقيه وانطلق يعدو في اتجاه الغابة الكثيفة وارزا في أثره ..

وكان العملاق يقترب بخطوات واسعة من المركب ، فقفز الربان بداخله .. ووقف يصيح في البحارة الذين كانوا قد رفعوا المرساة ، واطلقوا القلوع فبدأ المركب يبتعد عن الشاطىء بسرعة ، وامرهم أن يلقوا بحمولته من الفواكه الى البحر للتخفيف ، فأخذوا يرمون بالصناديق الى الماء ..

ووقف العملاق على حافة الماء والموج يتكسر على اقدامه ، والراس الاوسط يصيح في بقية الــرؤوس :

ــ تقدموا .. لنخض اليم البحر ونأسرهم ، ونغرق المركـــب ! اذا تركناهــم فسيعــودون .

ولكن العملاق وقف يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، وبدأ النقاش بين الرؤوس منها من يقول :

ــ لا داعي لمطارته .. فقد هرب ..

ــ لابد أنه فهم درسه جيــدا ..

ــ بل انه ذهب ليأتي بآخرين .

ــ انظروا اليه ، انه يلقي بحمولته ..

ــ ليس ذنبه . بل ذنب « مار » القزم ، و « ازرا » .. فهما اللــذان أغريـــاه بالقدوم .

وانحنى العملاق فالتقط بعض الفواكه واخذ يضعها في الافواه الجامعة التي كفت عن الكلام واخذت في المضغ والابتلاع بشراهة والتذاذ ..

وامتلأت معدة العملاق فقصد البحيرة متهاديا يجتر نشوة انتصاره .. فدار حولها والرؤوس السبعة تلغط وتضحك وتغني حتى اعياها المـــرح واللهـــو ..

وفى بقعة ناعمة الاعشاب ، على شاطىء البحيرة ، تمدد العمـــلاق ، وقد ثقلت جفونه ، فنامت رؤوسه السبعة تحت ظلال الحور المتهـــدل ، ونسيم البحـــر العليـــل .

وطال به النوم حتى غربت الشمس ، وهبط الليل ، ولم يعد يسمع فى سماء الجزيرة النائمة الا نقيق الضفادع ، وصراصير الليل ، وتكسر أمواج البحر من بعيد .. ومن بين الاحراش الكثيفة خرجت (ازرا) وصاحبها (مـــار) القزم البدين ، فاستوقفها بجانب نخلة ، وأشار لها بسبابته أن تلتزم الصمت وتقدم على رؤوس بنانه نحو رأس العملاق الوسطى ، فانحنى على أذنـــه اليمنى ، واخذ يقلد صوت الرأس الثانية على الكتف اليمنى قائلا فى امتعاض:

ـــ يا له من دكتاتور هذا الرأس الاوسط !

ورد مقلدا صوت الراس الاولى :

ـــ انه يعتقد أن مجرد توسطه الرؤوس يمنحه حق التصرف فى مصائر الآخرين !

ـــ وليته كان قادرا على ذلك !

واخذ يقهقه وهو يقـــول :

ـــ أرايت كيف كان يتخبط وهو يحاول القيام بنا وحده فى الكهف ؟

فضحك الآخر متذكـــرا ، وأضاف :

ـــ حقيقة كان منظره مضحكا . كانت عيناه جاحظتين ، ومنخراه يتسعان والرغوة تخرج من فمه ، وهو هائج كالبعير المذبوح !

وقلد ضحك الآخر وقال فى اشفاق ساخـــــر :

ـــ عاش من عرف قدر نفســـه ..

وكانت الراس الوسطى قد افاقت على هذا الحديث ، وكتمت انفاسها لتنصت لما يقال .. ومع كل جملة كان الدم يغلى فى مخها ، حتى قال القـزم مقلـدا الراس الثانيـة :

— ليته فقط نظر الى وجهه ذلك البشع !

وأجاب مقلدا الراس الاولـى :

— واسنانه الخربة . لاشك من كثرة السكر !

ولم يعد الراس الاوسط قادرا على كظم غيظه فصوب قبضته اليسرى الى الوجه الاولى ، ثم تلاها بأخرى على الراس الثانية .. وأفاق الراسـان البريئان من نومهما لا يدريان ماذا أصابهما .. ولم تطل مدة حيرتهما ، فقـد صاحت بهما الراس الوسطى زاجرة :

— خذا .. فهذا جزاء من يغتاب الآخرين ! لقد استمعت الى كل ما قلتماه عنى من كلام خبيث .

وزادهما لكما وصفعا وهما يحاولان استيقافه باليد اليمنى واستفهامه دون فـائـدة ..

واستفاقت الرؤوس الاخرى على ضجة العراك ، فبدأت تتساءل فيما بينها عما يحدث على الكتف الايمـن ..

وهنا انتقل القزم بين الراس الثالثة والثانية فى الكتف اليسرى وهمس بينهما ، وكل راس تعتقد أن الراس الاخرى هى الهامسة :

— لقد كشفت الرؤوس اليمنى مؤامرة يقوم بها الراس الاوسط مع جاره الايمن للقضاء على جميع الرؤوس اليسرى .. وهذا سبب الاقتتال ..

وما كادت الرؤوس الثلاث اليسرى تسمع ذلك حتى أوقفت اليـد اليسرى ووجهتها نحو الراس الوسطى التى فوجئت بذلك ، فمالت تنطـح

الرأس اليسرى الى جانبها ، وتحاول استعمال اليد اليمنى لضرب الرؤوس الثلاث اليســـرى ·

وعاد (مــــار) الى (ازرا) التى كانت ترقب مناوراته باعجاب شديد ، وتقفز فى مكانها تحت النخلة وتصفق بيديها فى حماس صبيانى .. وما أن عاد اليها حتى عانقته وقبلته وهو يضحك لنجاح لعبته .. وقال لها :

ـــ انتظرى .. هذه بداية فقط · سترين ما سأفعل به .. سيدفـــع ثمن تلك الفزعة التى أفزعنا على الشاطىء أضعافا مضاعفـــة ..

واخذ بيدها فذهب بها الى رأس ربوة حيث افترش لحافا ، ونصب سماطا ، ووضع عليه أوانى الطعام والشراب ، وجلس الى جانب ازرا يأكلان ويشربان ويتفرجان على العملاق المسجى على الارض ، رؤوســـه السبع تتبادل اللكمات ، والشتائم ، والعض ، والخدش ، واللطم ، والرفس، والصراخ والانين ، والاستغاثة ، والايمان المغلظة ، والعتاب ، والنصائح ، وكل ما يخطر على البال من لغط سبعة أشخاص يتقاتلون فى مساحـــة صغيـــــــرة ..

وطلع النهار ، والعملاق عربون ما يزال مشتبكا مع نفسه ، يلوح بيديه وساقيه فى الفضاء ، ويعوى ويهر ، ويشخر ، ويقضقض أسنانه ، ويمزق ملابسه ، وينتف شعر لحياته ورؤوسه ، ويكسر أسنانه فتفور الدماء على أعناقه وصدره فتزيد من بشاعة منظره ، وشراسته وقلـــة عقله .. و (ازرا) و (مــــار) يتفرجان ويضحكان مرة ، ويشمئزان أخرى ، ويرثيان لحال أحد الرؤوس ، ويشجعانه على الآخر ، ويصفقان للظالــم ليثيرا حفيظة المظلوم ، حتى سئما ذلك المنظر المشين ، ولم يعد يثير فيهما أى شعور من التسلية أو الانتصار .. فقد أصبح العملاق الذى أخافهما فى وقت ما عبارة عن حشرة كبيرة الحجم ، لا ينقصها العقل فقط ، بل حتـــى الغريزة ، غريزة حفظ الذات ، ورفض التناقض .. فقاما ، وذهبا الـــى الشاطىء حيث أوقدا نارا وضعا فوقها نباتا أخضر لتخرج دخانا ، وأخذا فى ارسال الرسائل الى السفن التجارية فى عرض البحر ، عن طريق تغطية النار بلحاف ، ثم رفعه ..

ولم تمض ساعة حتى كان الشاطىء يعج بمراكب التجار والقراصنة ، وقد نزلت منها الى البر صفوف طويلة من البحارة والمسافرين لشـــراء الفواكه والثمار من (ازرا) و (مـــار) ، وملء البراميل بمياه الغدران الصافية ، وجمع الحطب للطبخ والاستدفـــاء ..

وخطر (لازرا) ان تفتح بابا جديداً للكسب ، فهمست فى أذن صديقها (مـــار) ، الذى أعجب بفكرتها غاية الاعجاب ، وتحرك حالا لتنفيذها . . فصعد على جذع نخلة مقطوعة ، واخذ ينادى البحارة والمسافرين حتـــى اجتمعوا حولــه ، فقـــال :

ـــ ايها السيدات والسادة .. أبشركم بأن حظكم اليوم لا يقدر بثمن . ! فسوف ترون اليوم شيئا عجيبا لم تروه ابدا فى حياتكم . ! ولم تسمعوا به الا فى كتب الاساطير .. وسوف تعودون الى بلادكم لتحكوا عنه لابنائكم وأحفادكم .. بثمن رمزى ، ستتمكنون من التفرج على عملاق .. اى نعـــم عـــمـــــــلاق !

وترددت بين الحاضرين أصوات الدهشة والاستغراب ، وصدرت عن النساء شهقات العجب والخوف ، ولكن الجميع كان مأخوذا بالفكرة ، فـــأضـــاف (مـــار) :

ـــ اى نعم .. ايها السادة والسيدات ، انه ليس عملاقا عاديا .. بل هو « غـــول » ! اى نعم ، غول بسبع رؤوس !

فسرت موجة من العجب بين الواقفين ، ورفع أحدهم يده ليسأل :

ـــ هل هـــو مأمـــون ؟

فـــرد (مـــار) :

ـــ فى غايـــة الامــــــان ..

وسألت امـــراة :

ـــ هل هــو داخـــل قفــص ؟

ـــ لا .. بل اكثر من ذلـــك ..

فســـأل آخــــــر :

ـــ هل هو فى قيود وأصفـــاد ؟

فأكـــد (مـــار) :

ـــ بـــل فى أشـــد من ذلـــك ..

ـــ فى بـــئـــر عميقـــة اذن .

ـــ أعمـــق مـــن ذلـــــك !

ـــ هل هو ميت ، ومحشو بالتبـــن ؟

ـــ كلا بل هو حـــى يـــرزق !

ثم رفع يديه ليسكت الضجيج وقال :

ـــ سأزيل قلقكم ، سأحل اللغز ، العملاق فى عراك مع نفسه !

ثم رفع يديه مرة أخرى ليسكت التساؤلات :

ـــ الم اقل لكم ان له سبع رؤوس ؟ .. اذن فكل راس تقاتل الاخرى .. كل راس لها راى مخالف لرأى الاخرى .. وتعمل على شدخها او ذبحها والتخلص منها .. منظر يستحق أن تشد اليه الرحال من جميع أرجاء الارض .. وانتم المحظوظون لانكم اول من سيراه .. ومن رآه لا يمكن أن ينساه .. فتعالوا اذن ، دينار واحد فقط لكل بالغ .. ونصف دينـــار للصبيان .. تعالـــــوا ..

وأخرج الجميع دنانيرهم ، فنشرت (ازرا) ذيل فستانها ، كاشفة عن ساقيها الجميلتين ، ووقفت تجمع الدنانير باسمة تشكر الزبناء ، وهم يمرون امامها صفا واحـــدا طويـــلا ..

وحين تم الدفع ، تقدمهم (مـــار) القزم مهرولا نحو البحيرة ، يحكى لهم عن حماقة العملاق وغرابة شأنه ، حتى أشرفوا على شط البحيرة ، فطالعهم منظره العجيب ، وهو يصارع بيديه وساقيه ، ويتدحرج مـــن جانب لآخر ، فترتطم بعض رؤوسه بالحجارة أو فروع الشجر ، فتصدر عنها أصوات غريبــــة ..

ووقف جمهور البحارة والمسافرين فى حلقة واسعة حوله وهو يتخبط ويركل ، ويتكبكب وهم ينظرون اليه ، فى ارتياع أولا ، لضخامة حجمه ، ودوى الاصوات والصرخات والدمدمات الصادرة عنه .. وتحول الارتياع الى استغراب واندهاش .. وبدأ بعض البحارة يضحكون ويقتربون منه .. وتجرأ أحدهم فاقترب من احدى الرؤوس وصاح فى أذنه :

ــ عيــب يــا هذا ! كفــى خصامـــا !

وقفز بحار آخر جرىء فأمسك بالاذن الكبيرة بكلتى يديه ولواها وتعلق بها متأرجحا وهو يصيـــــح :

ــ الا تستحيــى يــا ولــد !

فقهقه الحاضرون ، واخذ الصبيان يقتربون منه ، متجاهلين صياح أمهاتهم ، فيجذبون شعره او ينخسونه بأعواد حادة ، فتنظر اليهم الرؤوس بعيون حمراء اتعبها السهر ، والجوع ، والعطش ، والعراك المتواصل ، دون أن تستطيع دفعهم عنها او اخافتهم ..

واخذ المتفرجون يعلقون على المعارك ، ويتراهنون فيما بينهم بمبالغ مالية على من يسدد الضربة القادمة ، ولأية رأس .

وجاء وقت الغذاء ، فجاء (مـــار) و (ازرا) بأطباق مليئة بالمشروبات والحلويات والفواكه ، وتجولا بين المتفرجين يبيعان لهم ويجمعان الدنانير .. وأكل الناس وشربوا ، وخلع الصغار ملابسهم وأخذوا يسبحون فى ماء البحيرة الصافى ، وقد أمنوا الغول المنطوى على نفسه ، لا يدرى مـــا يجرى حوله . . ونام الكبار بعد الغذاء غير عابئين بأصوات الرؤوس المتصـــارعــــــة ..

وفى المساء، حين اقترب موعد رجوع المسافرين الى مراكبهم، اجتمع بعض البحارة الشباب ، كانوا يتقارعون كؤوس النبيذ ، وقرروا فيما بينهم أن يأخذوا من العملاق تذكارا يعرضونه على الناس فى بلادهم عند عودتهم .. فاجتمعوا على ساق العملاق ، وتعلق بها عدد منهم حتى تبثوها علـــى الارض ، فخلعوا حذاءه واخذوه بعيدا .. وجاءت جماعة أخرى من مركـــب آخر ففعلت نفس الشىء بالحذاء الاخرى .. وخرجت جماعة من رجـــال مركب ثالث فقصدوا حزام العملاق وفسخوه ، واستلوه من تحته ..

وفى هذه اللحظة فقط خطرت الفكرة بذهن (مـــار) فنادى جماعـــة البحارة وجمعهم حوله ، وهمس لهم بشىء وهو لا يكاد يبين من سخسخة الضحك ، فلم يفهموه الا بصعوبة .. وحين أدركوا قصده انفجروا هـــم الآخرون ضاحكين ، وأسرعوا فى الحال لتنفيذ الفكرة .

واجتمعت كل طائفة منهم حول ساق فانزلوهما ، وأمسكت كل فرقة بكم سروال العملاق وأخذوا يسحبونه من تحته بسرعة ونظام تدربوا عليه فى نشر قلوع مراكبهم .. ولم تمض لحظة حتى كان العملاق عارى الساقين والفخذين ، مكشوف العـــورة .

فاحدث ذلك اهتياجا شديدا بين جمهور الحاضرين .. وقام من كان قاعدا ، وأفاق من كان مقيلا ، وازدحم الكبار والصغار والنساء والصبيان ليتفرجوا على العملاق .. وصرف الرجال نساءهم وابعدوهن عن المنظر غير اللائق .. وعلت موجة هائلة من القهقهات كانت تشبه العويل لعنفها ..

وفى هذه اللحظة حدث شىء غريب .. هدأ العملاق ، وكف عـــن الحركة والضجيج .. وتوقفت الرؤوس عن الصراخ والشتائم .. ونظرت العيون الحمراء الدامية حواليها فرأت جمهور الاقزام الآدميين حولها تحمل حذاء العملاق وسراويله ..

وسرى الرعب بين البحارة والمسافرين وهم يرون العيون الهائلة تتركز عليهم ، وقد بدأ الغضب يتوقد فيها ، فأخذوا يتراجعون الى الخلف ..

ورأى (مـــار) القزم ما حدث ، فنزل الى وسط القاعة قافزا ضاحكا مهرجا .. واقترب من أحد الرؤوس وولاه ظهره ، والتفت فخاطب المتفرجين :

— هل اخافكم هذا المسخ ! ؟ لقد قلت لكم انه مشلول .. مشلول الارادة .. لا يستطيع الحركـــة ..

واقترب من الراس فجذب شعره ، وصفعه على خده ، وانتقل الى اخرى فركلها ، وبصق فى عين الثالثة .. وانتقل الى الرابعة راقصا مغنيا غير عابىء بنظرات العملاق التى كانت تتغير بسرعة ..

ونظر عربون بعيونه الاربعة عشرة الى ما آلت اليه حاله من ضعف وهوان .. وأدرك انه كان أضحوكة الزمان .. والعوبة فى يد الخائنة (ازرا) والقزم (مـــار) .. وفرجة رخيصة للصعاليك والغوغاء ، فسرت فى بدنه المنهوك رعدة الثورة لكرامته المهدورة ، وكبريائه الجريح .. ولم يدر ، فى فورة ما بقى فى نفسه من عزة وشهامة ، كيف استطاع النهوض والوقوف على قدميه دون معارضة أو تخاذل أو احتجاج أو جدال أية رأس من الرؤوس السبـــــــع !

وما أن وقف وسط حلقة المتفرجين ، حتى دب الرعب الشديد بينهم وهم ينظرون الى جسده الذى كان فى حجم ناطحة سحاب .. فأخذوا يصرخون ويفرون من بين قدميه كالنمل فى اتجاه مراكبهم بالشاطىء .. وانحنى هو فالتقط سراويله ولبسها ، ثم لبس حذاءه ، ووقف يبحث عن عدويه ،

(ازرا) و (مــــار) حتى رآهما يتسلقان سفح جبل البركان ، ويختبئان من نظراته بين الاشجار ، والاحراش ..

واحست جميع الرؤوس بنشوة عارمة والعملاق يقف على رجليه مرة اخرى وينظر الى العالم من ارتفاعه الحقيقى بعد زمن طويل قضاه فى مستوى الحشرات والديدان ..

ولم يطل تفاؤله .. فما كاد يأخذ الخطوة الاولى فى مطاردة (ازرا) و (مــــار) حتى صاح أحد الرؤوس :

ـــ يجب أن نطارد الغوغاء الذين نزعوا سراويلنا وحذاءنـــا !

فقالت الراس الوسطـــى :

ـــ بل يجب مطاردة الخائنين الغادرين ، (ازرا) و (مـــار) ، قبل أن يفلتا منا فى الادغال .. انهما قيد خطوتين فقط .

وصرخت راس اخرى مشيرة نحو البحـــر :

ـــ أنظروا .. انهم يركبون سفنهم ليبتعدوا داخل البحر .. اذا لم نلحق بهم الآن ونغرقهم فسوف يذهبون ليأتوا بغيرهم للتفرج علينا .

وحاورتها الــراس الوسطـــى :

ـــ المهم القضاء على راس الفتنة .. (مار) و (ازرا) .. فهما اللذان جاءا بهم لجزيرتنا ليتاجرا معهم فى خيراتنا ، ويفرجاهم على سوءاتنا . .

وطال الحوار .. وجسد العملاق عربون الفارع يدور نحو اليمين مرة ، ونحو اليسار أخرى ، دون أن يتحرك خطوة فى أى اتجاه .. وكثر اللغـــط واللجاج والضجيج ، وتكلم الجميع دون أن ينصت أحـــد . .

وابحرت المراكب وابتعدت ، ثم رست فأدلت مراسيها ، ووقفت تراقب العملاق وسط الجزيرة من مسافة آمنــة .

وارتفعت أصوات الرؤوس السبع ، وتمسكت كل راس برايها ، فحاولت الرأس الوسطى ادراج نقطة نظام ، وطلبت الكلمة ، فسكتت بقية الرؤوس على مضض ، ولمجرد الفضول وحب الاطلاع ، فقالت الوسطى :

ـــ لماذا لا نبت فى القضايا المطروحة بالتصويت . . ونأخذ براى الاغلبية؟
فقــال احدهـــــا :

ـــ أنا موافق .. ولكن ليس على الاغلبية ، بل على الاجماع ..
فأسقط فى يد الرأس الوسطى ، وقالت فى يأس :

ـــ الاجماع مستحيل ! مستحيل يــا ناس . ! وهو الذى أوصلنا الــى مــا نحن فيه من خلاف وتخبط !

ـــ لن نقبل الا بالاجماع ! فماذا لو اتفقتم ضــدى ؟

وصاحت راس أخرى فى مــرارة :

ـــ ها أنتم أضعتم علينا فرصة الانتقام من الغوغــاء السفلة الذين مرغوا كرامتنا فى التراب .. انظروا اليهم .. لقد ابتعدوا عن متناولنا ..

وحاولت الراس الوسطى الاجابة فاغرقتها أصوات الرؤوس الاخرى .. وأحست بصداع شنيع من شدة الجوع والعطش والارهاق من طــول الصراع ، والنزيف الدموى من جروح الطعنات ..

وأحس العملاق بالضعف والوهن .. وارتعدت فرائصه من الفراغ الداخلى ونضوب الطاقة .. ولم تعد ساقاه تقويان على حمله ، فانثنــت ركبتاه ، وهوى من ارتفاعه الهائل على الارض ، فاهتزت جنبات الجزيرة كلها لسقوطه .. وسرت فى البحر اهتزازة ارتفعت معها الامواج تحت

المراكب الراسية .. وهلل الركاب وكبروا لسقوط الغول المخيف ، وطلبوا من ربابنتهم العودة بهم الى الجزيرة ..

ومن فوق قمة جبل البركان كان (مـــار) القزم و (ازرا) يتفرجان على العملاق عربون الذى انهار انهياره النهائى ا فنزلا يتدحرجان ليسبقـــا السفن الى الشاطىء ، وليأخذا من المسافرين ضريبة الفرجة الجديدة ..

— ⁂ —

وحين أفاقت رؤوس العملاق من غشيتها الطويلة ، وجدت جمهورا أكبر من المتفرجين ، فأدركت انه لابد أن تكون مراكب أخرى قد حلـت بالجزيرة بمسافرين جدد .. ورأت أن (ازرا) و (مار) قد ضربا حـول جسده سياجا من حبال حتى لا يقترب منه الاطفال ..

ووقف (مار) و (ازرا) على منصة مكسوة بالزهور والاعلام ، وهما يتعاقبان على مكبر صوت ، فتغنى هى أغانى جميلة بصوت حنون ، وتعزف على القيتار ، ويتناول هو الميكروفون فيحكى أساطير مضحكة ومزريـــة عن العملاق ما سمع بها هذا فى حياته .. وجمهور المتفرجين يأكل المكسرات ، والشطائر ، والحلويات ، ويشرب النبيذ والبيرة ، ويتفرج على العملاق الذى كان الآن عاريا ، فيضحك لنكات (مـــار) ، ويتمايل مع أغانى ازرا غير شاعر بما كان يعتمل داخل صدر العملاق ، الذى أصبح فى نظر نفسه فى حجم دودة ميتة ، من أسى وقهر ويأس ..

وحول الكتف اليسرى ، جهة البحيرة ، بعيدا عن المنصة ، كـــان جماعة من البحارة الشباب ، وصيادى التذكارات من المسافرين ، قـــد اجتمعوا حول أصغر راس فعلقوا عليها سلالم الحبال ، وأخذوا يحزونها بالمناشير والشواقير ، وهى تصرخ ، حتى انقطعت حبالها الصوتيـــة ، وانفتحت حنجرتها ، وفار الدم من وريديها غزيرا ونزل الى البحيرة فى شبـــه غـــديـــــر ..

ولاحظ (مـــار) ذلك فنزل من فوق المنصة بسرعة ، واقبل نحو الجماعة صائحا فيهــــم :

ـــ مـــاذا تفعلـــون ؟

ولم يلتفت اليه البحارة ، فاقترب صارخـــا :

ـ كفوا عن القطع حالا ! هل تسمعون ؟

فوضع أحد البحارة شاقوره وجاء نحوه مهددا بقامته المديدة :

ـــ ومـــا دخلـــك انـــت ؟

فقـــــال (مـــار) :

ـــ العمـــلاق فى ملكـــى !

فضحـــك البحـــار الخشن والتفت الى رفاقـــه :

ـــ اسمعوا ما يقوله هذا القزم : العملاق فى ملكـــه !

ونظر اليه من فوق وقال ساخرا :

ـــ اذا كان ملكك فلماذا لا تأخذه وتذهب به الى دارك ؟ فما دام ملقى بالعراء وهو ملك مشـاع .

واستمع العملاق الى الحوار وكأنه يبتلع جمرات ملتهبة كانت تقف طويلا فى حلقومه .. وفكـــر :

« هكذا أصبحت ملكا مشاعا يتنازعنى القراصنة والاقزام ، وفى بدنـــى من القوة ما يسحقهم بجرة قدم ، لو أننى فقط استطعت جمع شتـــات فكرى ، واملاء عزمى على هذا الجسد الضائع . ! »

وعاد البحار الى الضرب بشاقوره على رقبة الرأس ، وأعاد القزم الكرة على الجماعة واخذ يصيح بهم :

ـ لا تقطعوا الرأس ! أرجوكم ، اقطعوا كل شيء ، ولا تمسوا الرؤوس .

ولكنهم استمروا فى عملهم غير عابئين بصياحه .. ولولا أنه ابتعد فى الوقت المناسب ، لكانت الرأس تدحرجت عليه وسحقته تحت ثقلها .

وسمعت ضجة انكسار مفاصل عنقه ، فتنبه جمهور المتفرجين الى ما يحدث حول الكتف الايسر ، فتسارعوا نحوه وتدافعوا بالايدى والاكتاف ليروا ما يحدث ..

وكانت جماعة البحارة والمسافرين الذين حزوا الرأس قد ربطوها بحبال سميكة واخذوا يسحبونها بصفين طويلين فى اتجاه الشاطىء ..

وكاد (مار) أن يقع على وجهه وتدوسه جماهير المتفرجين وهو يندب حظه ، وينذر الجميع بغضب العملاق وشر انتقامه .. وانضم عدد أكبر من الرجال والشبان الى صفوف جر الحبال ، فسحبوا الرأس بسرعة الى رمل الشاطىء ، والجميع فى اثرهم يهتفون ويصفقون لابطال العملية ..

وبقى العملاق مسجى بالعراء وحده .. وفتحت الرأس الوسطى عينين متهرئتين فى وجه متهضم بدأ عليه الكبر فجأة ، وشاب شعره ، فنظر الى حيث كانت الرأس المبتورة واغمض عينيه على دمعتين ساخنتين .. وفى تلك اللحظة خطرت بباله فكرة انعشته .. لعل فى فصل تلك الرأس خيرا .. فقد كانت من اشد الرؤوس مشاكسة وعنادا .. ثم خطر له أنه لم يبق عليه الا اقناع خمس رؤوس بدل ست . وتمنى لو استمر حز الرؤوس حتى لا تبقى الا رأس واحدة .. ثم تساءل :

وماذا لو ضربت عنقه هو ؟ واجاب : لا بأس ! المهم هو الا تبقى على الجسد الا رأس واحدة .. فتنتشله من العدم الذى يسعى اليه ..

وبات تلك الليلة ينعم بتفاؤل غريـــب ..

وكان البحارة والمسافرون قد عادوا الى مراكبهم ، استجابة لاوامــر الربابنة لقضاء الليل بها بعيدا عن شاطىء الجزيرة ، خشية أن يقف العملاق فجــأة كما فعل من قبل ..

وفى الفجر استيقظ عربون العملاق على صوت صراخ حاد غريب ينبعث من جهة الكتف اليسرى وفتحت الرؤوس عيونها نحو مصدر الصراخ ، فاذا براس جديدة نبتت فجأة أثناء الليل فى نفس المكان الذى قطعت منه الراس الاخرى .. ونظرت الرؤوس الست الى الوجه الجديد بخيبة أمل شديدة ، فقد كان أبشع ، واشرس ، واخبث شتائما وقذفا من جميع الرؤوس القديمة !

ونظرت اليه الراس الوسطى بوجــه مريض ، ورددت فى داخلهــا :

« كــل يــوم ترذلــون » !

— *** —

ومرت الايام ، والشهور والاعوام .. وتعاقبت أفواج الســـواح والمتفرجين ، وصيادى التحف والعجائب .. وكل فوج يمر يترك على جســد العملاق آثاره .. فمنهم من يحفر اسمه ، ومنهم من يرسم قلبا يخترقــه سهم ، ويكتب تحته اسم حبيبته ، ومنهم من يضع مجرد تاريخ مــروره بالجـــزيـــــرة ..

وتساقطت رؤوس العملاق تساقط الفاكهة الناضجة ، وقطع بعضها ، ونبتت فى أماكنها رؤوس جديدة لم تعرف جسد العملاق الا طريح الارض ، يأكل مما ترسله العواصف من أوراق الشجر وفواكهها ويشرب مما تمطره السحـــــاب ..

وبقيت بعض الرؤوس تردد ذكريات قديمة ، أشبه ما تكون بأساطيــر الاولين ، عن بداية تاريخ العملاق ، وكيف كانت له راس واحدة ، وكيف

كان قادرا على القيام والتمشى فى أرجاء الجزيرة ، والاستمتاع بخيراتها . . وكيف كانت قامته الهائلة تفزع اللصوص ، والقراصنة ، والفضوليين ، وتبعدهم عن الجزيرة الخضراء الغناء .. وكيف أصبحت الجزيرة ، بعد سقوطه ، مرتعا للناهبين والطامعين ، فتراكمت عليها الازبال والقاذورات ، وذبل نباتها ، ونهبت خيراتها تحت سمع العملاق وبصره .. وهو عاجز عن التوفيق بين رؤوسه السبع المتناطحة المتناحرة المتشاتمة المتهافتة . .

— *** —

وادرك شهرزاد الصباح ، فسكتت عن الكلام المباح ..

الربــاط : **احمد عبد السلام البقالى**

إحراق كتاب "الاحياء"
في الغرب الإسلامي

محمد اليعقوبي البدراوي

عرف الادب والفكر عموما تطورا متواصلا عبر ممر العصور فى ظل الاسلام بالاندلس ، وخاصة منذ الاستقرار السياسى بفضل تشجيع الخلفاء للحركة الفكرية التى كانت ، أول الامر ، تستمدمادتها من الشرق وتضيف اليه من عبقريتها حتى اشتد ساعدها . وهذا الاخذ كان يتسم باليقظة والحذر ، أى يأخذ الاندلسيين ما يتفق ومذهبهم السياسى والعقائدى ويرفضون ما دون ذلك . فتوفر لهم علماء وأدباء ومكتبات زاخرة بأنفس المجلدات شجع عليها الخلفاء ، من بينهم الحكم الذى « كان محبا للعلوم ، مكرما لاهلها ، جماعا للكتب بأنواعها بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله » (1) وكذلك المنصور الذى كان شغوفا بالبحث والمناظرة مع العلماء والادباء بجانب شغفه بالحرب . وكان لابد من الذين يشجعون الادب والفكر ، أن يحموه من كل دخيل يمس نظامهم السياسى أو عقيدتهم الدينية حتى لا يقع خلاف بين المسلمين يؤدى الى اجتثاث شجرة الاسلام فى الاندلس ، ولذلك أمر المنصور « بأن يستخرج من المكتبة الاموية العظيمة سائر كتب الفلاسفة والدهريين ، وأن

(1) نفح الطيب للمقري ، تحقيق احسان عباس ، المجلد الاول دار صادر بيروت 1388 هـ ، ص : 385 .

تحرق بمحضر من كبار العلماء » (2) وهذا الاحراق قام به المنصور كي يرضى الفقهاء والدهماء حسب قول المستشرق سيمونية (3) .

واذا رجعنا الى قضية الاحراق عند الموحدين الذين اطلقوا العنان للفكر ولن يكونوا يعملون بآراء الفقهاء ، نراهم كذلك يحرقون الكتب المالكية لا لشيء ، الا لانهم يحاربون كل عقيدة لا تتفق ومذهبهم (الموحدي فماذا يقول أمثال سيمونية) ؟ .

اما في عهد المرابطين ، فان هذه الظاهرة ، اي ظاهرة الاحراق قد ندد بها كثير من المؤلفين ، بينما هي حادثة عادية الفها الاندلسيون من قبل ومن بعد . ماذا أحرق في عهد المرابطين ؟ ولماذا كان هذا الاحراق يمس كتابا بعينه ؟ وما محتواه ؟ تلك أسئلة ـــ للوفاء بهذا العرض ـــ تستلزم الجواب

الغزالي ولد بطوس سنة 450 هـ وهو عصر كان الشرق الاسلامي فيه مضطربا يتلقف الخلافة العباسية البويهيون والسلاجقة ، بينما كان الصليبيون يطلون من وراء اسوار القدس مستغلين ضعف المسلمين بسبب الخلافات السياسية والمذهبية و « أصبح الناس في المشرق يرقبون في شغف واهتمام ذلك التوفيق والظفر الذى اقترن باسم يوسف حتى أن الامام الغزالي رأى في هذا الامير الامام الامثل الذى طالما تمنى أن يراه ، كما رأى في الدولة الجديدة مدينته الفاضلة » (4) فكان لابد للغزالي ان يتأثر بهذه التيارات والاحداث حيث « قدم نيسابور ولازم امام الحرمين وجد واجتهد حتى برع في المذهب والخلاف . . . والجدل والمنطق ، وقرأ الحكمة والفلسفة وأحكم كل ذلك . . . » (5) فأصبح عمدة للمدرسة النظامية منذ سنة 478 هـ يفتي ويدرس وينقد « ثم ترك جميع ما كان عليه في ذي القعدة سنة 488 هـ

---

(2) دولة الاسلام فى الاندلس لعبد الله عنان ، القسم الاول ، الطبعة الثالثة ، مؤسسة الخانجي القاهرة 1380 هـ ، ص : 527 .

(3) نفس المرجع نقلا عن :
Simonet : Historia de los mosarabes de Espana p : 351

(4) قيام دولة المرابطين ، أحمد حسن محمود ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة 1957 ، ص : 323 نقلا عن ابن خلكان ج 2 / 370 .

(5) احياء علوم الدين ، القاهرة ج 1 ص : 4 .

وسلك طريق الزهد والانقطاع وقصد الحج فلما رجع توجه الى الشام . . . واجتهد فى العبادة وزيارة المشاهد . . . » (6) ويقول المستشرق ديبور عن هذه المرحلة من حياة الغزالى التى أنجبت كتاب الاحياء : « . . . وفى أثناء مرض أصابه ، هتف به هاتف باطنى فاشتغل بالعزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة استعدادا للقيام بمهمته ، وربما كان ينوى الظهور بمظهر مصلح دينى سياسى ، وبينما كان الصليبيون يتأهبون فى المغرب لمهاجمة الاسلام كان الغزالى يتهيأ لان يكون مناضلا روحيا عن الدين الاسلامى (7) .

تلك هى الظروف النفسية والاجتماعية التى احاطت بأبى حامد عند تأليف كتاب الاحياء فيما بين سنتى 489 و 495 وهو من اشهر كتب الغزالى يتألف من اربعة مجلدات تتناول اربعة مواضيع هى : العبادات والعادات والهلكـات والمنجيـات .

اراد به صاحبه ان يحيى علوم الدين غير انه اثار ضجة كبرى وخاصة فى الغرب الاسلامى لتركه قانون الفقه وميله الى التصوف ، بينما الاسلام فى ذلك العهد ، كان فى حاجة الى من يحث الناس على الجهاد لرد الصليبيين فى الغرب والشرق ، لا الى من يؤلف فى عزلة ليتفلسف فى الفقه . ذكر ابـو الفرج ابن الجوزى فى كتابه « المنتظم فى تاريخ الملوك والامم » ان ابا حامد « اخذ فى تصنيف كتاب الاحياء فى المقدس ثم أتمه فى دمشق » الا انه وضعه على مذهب الصوفية وترك فيه قانون الفقه مثل انه ذكر فى محو الجاه ومجاهدة النفس أن رجلا اراد محو جاهه ، فدخل الحمام ، فلبس ثياب غيره ثـم لبس ثيابه فوقها ، ثـم خرج يمشى على مهل حتى لحقوه فأخذوهـا منـه » (8) وهناك قول آخر لامام فى الفقه يقوم كتاب الاحياء وصاحبه يقول محمد بن على المازرى الصقلى « . . . وقد تكررت مكاتبتكم فى استعلام مذهبنا فى الكتاب المترجم باحياء علوم الدين ، وذكرتم أن آراء الناس منـه

---

(6) سيرة الغزالي جمع وتحقيق عبد الكريم العثمـان ، دار الفكر بدمشـق ص : 65 ، نقـلا عـن وفيـات الاعيـان .

(7) تاريخ الفلسفة فى الاسلام ، ديبور ، تعريب عبد الهادي أبو ريدة ، مطبعـة لجنـة التأليف 1957 ، ص : 325 .

(8) سيرة الغزالي ، تحقيق عبد الكريم العثمان ، ص : 60 ، نقلا عن المنتظم فى تاريخ الملوك والامم ، لابن الجوزي ، مادة وفيات 505 هـ .

قد اختلفت ، فطائفة أنتصرت وتعصبت لأشهاره ، وطائفة حذرت منـــه ونفرت ، وطائفة لكتبه أحرقت . . . اعلموا أن هذا (يعنى الغزالى) رايت تلامذته ، فكل منهم حكى لى نوعا من حاله ، قام مقام العيان ، فأنا أقتصر على ذكر حاله وحال كتابه ، وذكر جمل من مذاهب الموحدين والمتصوفـة واصحاب الاشارات والفلاسفة ، فان كتابه متردد بين هذه الطوائف . . . هو بالفقه أعرف منه بأصوله واما علم الكلام الذى هو أصول الدين فانه صنف فيه وليس بالمتبحـر فيها . ولقد فطنت لعدم استبحاره فيها وذلك انــه قرأ علوم الفلسفة قبل استبحاره فى فــن الاصول . . . وعرفنـى صاحب له أنه كان له عكوف على رسائل اخوان الصفا . . . وذكر بعـد ذلـك كتب أبى حيـان التوحيدى ، وعندى انــه عليه عول فى مذهـب التصـــوف » (9) .

يلاحظ من قول المازرى أن هناك مواقف متعددة من كتاب « الاحياء » فى العالم الاسلامى وموقف الطائفة التى أحرقت الكتاب هو الذى يهمنا . ونحن نعرف أن الاحراق وقع فى المغرب والاندلس فى عهد على بن يوسف ، لكن ، من المسؤول الحقيقى عن هذا الاحراق ؟

ذكر ابن القطان الذى عاش فى بلاط المرتدى حادثة احراق الكتاب فى نظم الجمان ، قال : (فى اول عام 503 هـ عزم على بن يوسف عن اجماع قاضى قرطبة أبى عبد الله محمد بن على بن حمدين وفقهائها ـــ على احراق كتاب أبى حامد الغزالى رحمه الله تعالى المسمى « الاحياء » فأحرق فى رحبة مسجدها على الباب الغربى على هيئته بجلوده بعد اشباعه زيتا ، وحضر لذلك جماعة من أعيان الناس ، ونفذت كتبه الى جميع بلاده آمرا باحراقه حيثما وجد ، وأخذت منه نسخ مــن ايدى أصحابها كان معول الغزالـى عليهـــا . . .) (10)

يتبين من كلام ابن القطان الذى لا يخلو من حقد على المرابطين ، أن على بن يوسف هو الآمر بحرق الاحياء دون ذكر الاسباب ، ونراه يبالـغ

(9) سيـــرة الغزالـي ، ص : 79 .
(10) نظم الجمل لابن القطان ، تحقيق محمود علي المكي ، منشـورات كليـة الآداب الربـاط ـ تطـوان ، ص : 14 .

حين يرجع زوال ملك الملثمين الى هذه الحادثة « وقد كان احراق هؤلاء الجهلة لهذا الكتاب العظيم الذى ما ألف مثله سببا لزوال ملكهم وانتشار سلكهم واستئصال شأفتهم . . . » (11) وفى جهة أخرى من نفس الكتاب يقول ابن القطان فى ابن حمدين المتهم الرئيسى فى احراق الكتاب — (من ذلك وفاة القاضى أبى عبد الله بن حمدين . . . وحزن الناس عليه وكان محببا لهم وللملثمين ، وكان قد حاز فى المكانة لديهم ما لم يحزه غيره ممن سلك ، وكان جميل الطريقة ساعيا فى كل خير — قطع الضرائب والمعاون على أهل قرطبة وسن كل طريقة جميلة وسيرة حسنة لان ابن تاشفين كان لا يخالفه فى شىء) (12) .

هذه شهادة تكفى لتبرىء ابن حمدين من بعض الاعمال كالاحراق لكن الامر يزيد تعقيدا اذا اعتقدنا أن ابن تاشفين كان لا يخالفه فى شىء حيث يفهم ضمنيا من هذا القول أن الاول هو المفتى فى احراق الاحياء وتكفير صاحبه دون اثارة سخط الجمهور لانه كان يحبه ، ويدعم هذا الاستنتاج ما جاء فى كتاب « بيوتات فاس » الذى يرجع قرار الاحراق الى قضاة قرطبة ، وهذا هو الارجح نظرا لما كان للفقهاء من مكانة فى ظل حكم على بن يوسف الزاهد ، يقول : « وزعم بعضهم أن سبب انقراض دولة لمتونة هو دعوة أبى حامد الغزالى عليهم ، وذلك أنه لما الف كتابه المسمى « الاحياء » وجه به الى جامع قرطبة ،فلما وصلها تكلم فيه فقهاء قرطبة لما فيه من الاحاديث الموضوعة التى لا أصل لها ، وقالوا هذا الكتاب يضر المسلمين ؛ الصواب احراقه ، فاتفق علماء قرطبة على احراقه . . . وأما قاضيها ابن حمدين فقال بكفر مؤلفه ، ثم كتب علماء قرطبة الى على بن يوسف يأمرونه بأن يأمر باحراقه فى جميع بلاد الاندلس والمغرب ، فلما بلغه كتاب علماء قرطبة واتفاقهم على احراق كتاب الاحياء للغزالى أمر باحراقه فحرق فى كافة بلاد المغرب وبلاد الاندلس . . . » (13)

نستنتج من هذا القول المفصل الذى لم ينقل من نظم الجمان أو من المعجب الذين يحملان على المرابطين :

---

(11) نظم الجمل ، ص : 16 .
(12) نظم الجمان ، ص : 18
(13) بيوتات فاس الكبرى بمشاركة ابن الاحمر ، الرباط / 1972 ، ص : 33 — 34 .

1 ــ ناقش الكتاب فقهاء قرطبة وحدهم وعثروا على أحاديث موضوعة .

2 ــ افتوا فى احراقه وأشرفوا على التنفيذ فى قرطبة .

3 ــ هـــى فتوى جماعية ولم يكن أى قاض مسؤول عنهـــا بمفرده الا التكفيـــــــر .

4 ــ أمر الفقهاء على بن يوسف بتعميم الاحراق بعدما نفذ فى قرطبة .

اما على بن يوسف فهو نزيه عن هذا بشهادة أحد خصوم المرابطين وهو عبد الواحد المراكشى صاحب كتاب « المعجب » .

حين قال : (. . . وكان حسن السيرة ، جيد الطوية نزيه النفـــس بعيدا عن الظلم كان الى أن يعد من الزهاد والمتبتلين أقرب منه الى أن يعد من الملوك والمتغلبين ، واشتد ايثاره لاهل الفقه والدين ، وكان لا يقطع أمرا فى جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء ، فكان اذا ولى أحدا من قضاته كان فيما يعهد اليه الا يقطع أمرا . . . فى صغيرة من الامور ولا كبيرة الا بمحضر أربعة من الفقهاء) (14) . لا يمكن أن نفسر منزلة الفقهاء عند المرابطين بضعف الامراء او جهلهم كما يعتقد البعض ، وانما يرجع الفضل فى قيام هذه الدولة وتحمل أعبائها الى الفقهاء ورائدهم عبد الله بن ياسين فلا عجب ان لم يكن يقرب من أمير المسلمين ويحضى عنده الا من علم الفروع . . . وقـــرر الفقهاء عند امير المسلمين تقبيح علم الكلام وكراهة السلف له وهجرهم مـــن ظهر عليه شىء منه وانه بدعة فى الدين وربما أدى أكثره الى اختلال فـــى العقـــائـــــد (15) .

من هذا يتبين لنا ان الفقهاء هـــم المشرعون للسياسة المرابطيـــة و « سموا فى نفوس المغاربة الى مرتبة الزعماء الذين يدافعون عن الضعفاء المغلوبين » (16) وهؤلاء الفقهاء كانت المالكية هى معقلهم منذ زمن مبكر فى

(14) المعجب للمراكشي ، تصحيح العريان والعالمي ــ القاهرة ــ 1950 ، ص : 171 .
(15) نفـــس المرجـــع ، ص : 173 .
(16) قيـــام دولـــة المرابطيـــن ، ص : 99 .

العدوتين فوقتهم من شرور الفتنة التى كانت مشتعلة فى الشرق ومصداق ذلك ما رواه الرحالة ابن جبير حين قال : (انه لا اسلام الا ببلاد المغرب لانهم على جادة واضحة وما سوى ذلك بهذه الجهات الشرقية فأهواء وبدع وفرق ضالة أو شيع الا من عصم الله عز وجل من أهلها) (17) .

واذا قامت الدولة المرابطية على أساس نشر المذهب المالكى والعودة بالمجتمع الاسلامى الى عهد الرسول ، فلان الاسلام دخلته شوائب حتى كادت أن تقضى عليه ، وهذه الدولة قامت منذ نشأتها على أساس اصلاح دينى قبل كل شىء وتوجهت أعمالها فى سبيل احياء الدين والدفاع عنه ، فحورب البرغواطيون المرتدون فى المغرب وقضى على النصارى فى وقعة الزلاقة بالاندلس مما أهل المرابطين لحماية الثغور الى أن « أصبح الناس فى المشرق يرقبون فى شغف واهتمام ذلك التوفيق المظفر الذى اقترن باسم يوسف حتى أن الامام الغزالى رأى فى هذا الامير الامام الامثل الذى طالما تمنى أن يراه ، كما رأى فى الدولة الجديدة مدينته الفاضلة » (18) والغريب أن اعجاب الغزالى بالمرابطين اقترن بسخطه عليهم حسب المصادر التى تناولت سقوط هذه الدولة كالمعجب ونظم الجمان ، وما ذلك الا لان كتاب الاحياء أحرق ببلاد المغرب والاندلس فى عهد على النزيه النفس والبعيد عن الظلم كما وصفه المراكشى نفسه .

واذا اتفق الفقهاء على قرار الاحراق ونفذوه فى كتاب الاحياء ، فلان الروح الانهزامية التى الف فيها هذا الكتاب بالمشرق لا تتفق والظروف التى كانت تحيط بالمغاربة كالوضوح والبساطة فى العقيدة والوحدة السياسية والانتصارات العديدة . فالدين عند المرابطين دين عمل وجهاد . أما أبو حامد ، فقد ألف كتابه « الاحياء » فى مرحلة العزلة من حياته ساخطا على مجتمعه المتخاذل فى الشرق ، وكما قال فيه محمد بن الوليد الطرطوشى : « . . . دخل فى علوم الخواطر ، وأرباب القلوب ووساوس الشيطان ثم شابه بآراء الفلاسفة ورموز الحلاج وجعل يطفى على الفقهاء والمتكلمين ، ولقد كاد أن ينسلخ من الدين ، فلما عمل الاحياء عمد يتكلم فى علوم الاحوال

---

(17) نفس المرجع ، ص : 98 .
(18) نفس المرجع ، ص : 323 ، نقلا عن ابن خلكان ، ج 2 ص : 370 .

ومرامز الصوفية وكان غير أنيس بها ولا خبير بمعرفتها ، فسقط على أم رأسه وشحن كتابه بالموضوعات » (19) . يتبين من هذا القول ان الغزالى خلط دراسته الفقهية بالفلسفة والتصوف وهى ثقافة عصره آنذاك . فـ «بلغ الفلاسفة وأراد أن يتقيأهم فما استطاع» (20) وبهذا جاء مفهومه للفقيه مخالفا للرسالة التى كان يتحملها الفقيه فى الاندلس . قال الغزالى فى كتابه « الاحياء » :

« ولقد كان اسم الفقه فى العصر الاول مطلقا على علم طريق الآخرة ومعرفة دقائق آفات النفوس ، ومفسدات الاعمال وقوة الاحاطة بحقارة الدنيا وشدة التطلع الى نعيم الآخرة واستيلاء الخوف على القلب . . . انما الفقيه الزاهد فى الدنيا الراغب فى الآخرة البصير بدينه المداوم على عبادة ربه ولم يقل فى جميع ذلك الحافظ لفروع الفتاوى » (21) فأول الدوافع اذن لحرق الكتاب هو مفهوم الفقيه عند الغزالى وهو الفقيه الزاهد فى دنياه ، بينما فقيه الغرب الاسلامى ، لم يكن يعرف هذه الروح الانهزامية لا فى مذهبه المالكى ولا فى حياته العملية التى فرضت عليه المشاركة بالفتوى والسيف لحماية الدين والثغور حيث اشترك كثير من الفقهاء فى الموقعة يعظون الناس ويشدون عزائمهم . والبرهان على تلك المفاهيم الصوفية ، جاء أبو حامد بأحاديثه ضعيفة تارة وموضوعة تارة أخرى مثل : « روى أنس بن مالك قوله صلى الله عليه وسلم » لان أقعد مع قوم يذكرون الله تعالى منذ غدوة الى طلوع الشمس أحب الى من ان أعتق أربع رقاب . وقال صلى الله عليه وسلم : « لا يفقه العبد كل الفقه حتى يمقت الناس فى ذات الله وحتى يرى للقرآن وجوها كثيرة » . (22)

هذا هو ما دفع أبا الفرج بن الجوزى الى كتابة اعلام الاحياء بأغلاط الاحياء فنبه الى الاحاديث الموضوعة « وذكر فى كتاب الاحياء من الاحاديث الموضوعة وما لا يصح غير قليل وسبب ذلك قلة معرفته بالنقل فليته عرض

---

(19) سيرة الغزالي ، ص : 78 .
(20) نفس المرجع ، ص : 66 . (قول ابي بكر محمد بن عبد الله بن العربي) .
(21) احياء علوم الدين ، ص : 32 .
(22) نفس المرجع ، ص : 32 .

تلك الاحاديث على من يعرف وانما نقل نقل حاطب ليل » (23) والاحاديث الموضوعة أبرزتها مصادر أخرى مثل « بيوتات فاس الكبرى » ، فلما وصل كتاب الاحياء الى جامع قرطبة « تكلم فيه فقهاء قرطبة لما فيه من الاحاديث الموضوعة التى لا أصل لها وقالوا هذا الكتاب يغر المسلمين الصواب احراقه » .

هذه المصادر التى تنقد كتاب الاحياء قليلة بالنسبة لجميع الكتب التى أثارت قضية الاحراق ولم تتعرض للسبب وانما لفتت عواقب الاحراق واسهبت فيها ، فاتهم المرابطون بمحاربة المفكرين عموما ومحيى الدين خصوصا ، فكان هذا هو سبب زوال ملك هؤلاء الجهلة حسب المراكشى وابن القطان اللذين يعرف موقفهما بوضوح من المرابطين وعلى العموم فالمراجع التى كتبت بعد سقوط الدولة المرابطية ، تأثرت بذلك العداء المر الذى شنه الموحدون على أعدائهم المرابطين فشوهوا تاريخهم وطمسوا معالم آثارهم وحاربوهم كما يحارب الكفرة والفساق فرموهم بكل نقيصة ، واتهموهم بالكفر والالحاد ، ولم يستطع المؤلفون ان يبرأوا من هذه النزعة العدائية، فلم يذكروا الحقيقة كاملة، سكتوا حيث تجب الافاضة فى الحديث واوجزوا حيث تجب الاطالة » (24) .

كيف يبيح الاندلسيون لهذا الكتاب الانتشار فى بلادهم التى تواجه العدو الزاحف عليهم ، بحزم وشجاعة حجهم الثغور وعبادتهم الجهاد تحت علم واحد يسجلونه فى كتاب التاريخ بدم الاستشهاد ولا يخرجون عن الطريق التى رسمها لهم الكتاب والسنة .

أقدم المرابطون على احراق كتاب الاحياء رغم ما يعرف فيهم من تسامح فى مواقف خطيرة تمس دولتهم منها .

1 — معاملتهم الحسنة للمعتمد الذى خلعوه من ملكه فبدلا من أن يقتلوه كما فعل هو بابن عمار ، اكتفوا من اخراجه من بلاده فتحامل عليهم الادباء

(23) سيرة الغزالي ، ص : 60 ، نقلا عن أبي فرج الجوزي .
(24) قيام دولة المرابطين ، ص : 160 .

لانهم كانوا يجدون فى حياة الترف المنحل التى كان ملوك الطوائف غارقين فيها ــ مرتعا خصبا ومعينا يروون منه أطماعهم وشهواتهم (25) .

2 ــ **طلب مالك بن وهيب من على بن يوسف قتل ابن تومرت** عندما مثل امامه فأجابه : « علام نأخذ رجلا من المسلمين ونسجنه ولم يتعين لنا عليه حق ؟ وهل السجن الا أخ القتل ؟ ولكن نأمره أن يخرج عنا من البلد وليتوجه حيث شاء » (26) . فكيف سمح لبعض أن يتهموا المرابطين بالجهل ومحاربة الفكر حين اقدموا على احراق الكتاب الذى « تتجلى فيه عناصر كثيرة غريبة عن مبادىء الاسلام الاولى ، يمكن ردها الى الحكمة الوثنية من طريق علماء النصارى واليهود ، ومن طريق الفلاسفة الاسلامى من بعدهم » (27) . فاذا قبل العقل الشرقى فكر الغزالى ، فلان المسلمين هناك كانوا فرقا متعددة غزتهم كثير من التيارات الدخيلة فمزقت وحدتهم الدينية والسياسية حتى أصبحوا فريسة الصليبيين .

أما المغاربة ، فحافظوا على وحدة مذهبهم الدينى فى ظل وحدة سياسية متينة تضمن لهم الصمود أمام حروب الاسترداد . ولهذا ، لا يمكن بأي حال من الأحوال أن نعتبر احراق « الاحياء » وصمة سجلها التاريخ على الدولة المرابطية التى كرست حياتها للجهاد فى سبيل اعلاء كلمة الحق ، فنأسف عندما نجد اغلب البحاثين والمؤرخين يطعنون فيها سواء كانوا قدماء أم محدثين ، عرب أم مستشرقين وذلك لان :

1 ــ اغلب الكتب التى الفت بعد سقوط المرابطين ، كانت تعمل لصالح الموحدين . فأصبح كثير من الباحثين يعتمدون عليها كمصادر .

2 ــ وجدها بعض المستشرقين ذريعة للحط من شأن المرابطين الذين تعصبوا للاسلام وحاربوا عدوهم .

---

(25) وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين ، تحقيق محمود علي مكي ، معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد ، المجلدان : 7 ــ 8 / 1959 ــ 1960 .
(26) المعجب ، ص : 186 .
(27) تاريخ الفلسفة ، ديبور ، ص : 326 .

3 ـ راى بعض الباحثين المشارقة فى الدولة البربرية العامل الذى ساهم فى ابادة الحضارة العربية بالاندلس ، وهذا خطأ فاحش .

ومهما قيل عن المرابطين فى الحط من شأنهم ، فان التاريخ سجل لهم ما لا تستطيع طمسه الادعاءات فى اعلاء كلمة الحق .

فـــاس **محمد اليعقوبى البدراوى**

1 ـ المصـــــادر :

1 ـ البيان المغرب فى أخبار الاندلس والمغرب لابن عذارى المراكشى ، دار الثقافة ـ بيروت ـ 1967 . ج 4 .

2 ـ بيوتات فاس الكبرى بمشاركة ابن الاحمر ، دار المنصور ـ الرباط 1972 .

3 ـ الحلل الموشية فى ذكر الاخبار المراكشية مطبعة التقدم الاسلامية ـ تـونـــس .

4 ـ المعجب فى تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشى ، تصحيح محمد سعيد العريان والعالمى ، مطبعة الاستقامة بالقاهرة ـ 1950 .

5 ـ الاستقصاء للناصرى ـ مطبعة دار الكتاب ـ البيضاء ـ 1954 . ج 1 .

6 ـ نظم الجمان لابن القطان تحقيق محمود المكى منشورات كلية الآداب بالرباط ـ المطبعة المهدية تطوان .

7 ـ نفح الطيب للمقرى تحقيق احسان عباس ـ بيروت ـ 1388 هـ ج 1 .

8 ـ وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين تحقيق محمود المكى ـ معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد ، المجلدان : 7 ، 8 ـ 1959 ـ 1960 .

9 ـ احياء علوم الدين لابى حامد الغزالي ـ مطبعة الحسينى ـ القاهرة .

2 ــ المـــراجــــــع :

1 ــ تاريخ الفكر الاندلسى ، بالنثيا ترجمة حسين مؤنس ــ القاهرة ــ 1955 .

2 ــ تاريخ الفلسفة فى الاسلام ديبور تعريب ابو ريدة ــ مطبعة لجنة التأليف والتربية والنشر ــ 1957 .

3 ــ تدهور الشعر باشبيلية ، غارسيا غوميــز .

4 ــ قيام دولة المرابطين ، حسن احمد محمود ــ القاهرة ــ 1957 .

5 ــ سيرة الغزالى ، جمع وتحقيق عبد الكريم عثمان ــ دمشق .

6 ــ دولة الاسلام فى الاندلس ، عبد الله عنان ط 3 ، القاهرة ــ 1380 هـ .

7 ــ مواقف مع الغزالى فى احياء علوم الدين لابى بكر ذكرى ــ دار الفكر العربــى ، ط 1 ــ 1965 .

8 ــ تطوان معهد مولاى الحسن للابحاث المغربية الاندلسية ، عدد 5 ــ 1960 .

9 ــ تطوان مقال للامبروسوهويسى ، عدد 3 ، 4 سنة 1958 ــ 59 ؛ ص 153 .

10 ــ مجلة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية فى مدريد ، العدد 3 المجلــد الاول ــ سنة 1955 .

م. ي. ب.

ذيلٌ وتعليق
حول قضية المعتمد بن عبّاد
"القسم الثامن"

عبد الرحمن الفاسي

اذا كان المعتمد قد رزق من الناس حبا ـ كما قيل ـ فـان أغلب المؤرخين من قدامى ، كالنويرى وابن الاثير ، ومن محدثين باستثناء الاخصائيين ، لم يتمثلوا عقابيل جريرته ، ولا وقعوا على وجه السداد والتدبير ، فيما أقبل عليه أمير المسلمين ، فما احتكموا الى ميزان ، ولا اقتروا الابعاد فى الزلة والجزاء ، وانما ظلوا من بعيد ومن قريب ، يرنون الى مقومات شخصية وجمالية المعتمد بن عباد ، فأخذتهم سورة التأسى للنكباء ، وهالهم ما نزل بالملـك الشاعر مـن قضـاء .

وآخرون منهم ، وان قربتهم الدار ، وكانوا أدرى بالشعاب فقد عطفتهم حرفة الادب الى ذلك المنعطف ، وبينهم من دحرجته الى منحدر خساسات الوقيعة ، وزلات اللسان ، وعد عن أبـى

الوليد الشقندى (1) وما نصب قريحته له ، صدورا عن عصبيته الاندلسية ، فقد أخذت العاطفة أيضا بخناق آخرين، فانصاعوا لها، ويخيل اليهم فيما يسطرون عن الرجلين ، أنهم سائرون على النهج المختار ، فى اعطاء كل ذى حق حقه ، على مستقيم القسطاص ، وبحيدة ووقار ، فقال ابن الخطيب فى « أعمال الاعلام » (2) : (واتصلت أيام المعتمد على الله أحسن أيام . . . الى أن ناله ضيم من صاحب قشتالة « أدفونش » ، فى شأن الضريبة التى كان يؤديها اليه ملوك الاندلس ، وابن شاليب اليهودى المتولى لقبضها منه ، بحيث أسمعه ما يكره ، فغضب رحمه الله) .

وما أنصف ابن الخطيب مهمة التاريخ ، فما اتصلت أيام المعتمد أحسن أيام الى ذلك العهد البعيد ، فتلك أيام غير الايام ، والنظرة اليها من أى زاوية ، وبالنسبة الى المعتمد ووالده المعتضد الداهية ، تبين أنها مرحلة أخيرة فى اختيار أخير مرير ، وذلك بعد خشية عبادية مزمنة من برابرة العدوة ، كانت تطمو على ألسنتهم ، وتلح عليهم فى مضاجعهم ، وهى أيضا أصل قول المعتمد الشهير : رعى الجمال خير من رعى الخنازيـر .

ولكن من يرى مثل مؤرخنا الاندلسى أن اعطاء الجزية من مثل ابن عبـاد ، انما هو تقية (3) وأن مـن لا يرى فى هيمنـة « أذفونش » على حركات وسكنات ابن عباد ، ضيما وهوانـا

---

1) انظر رسالتـه الشهيرة فى « نفـح الطيـب » .
2) جزء الاندلـس ، ص : 185 ، ط : الربـاط .
3) انظر ترجمة المعتمد فى الجزء الثانى من « الاحاطـة » ، ص : 110 .

وهضيمة ، ومن يرقب بعين الرضا ويذكر بالتنويه ابن عمار وزير المعتمد بن عباد ، وهو على حد ما قيل عنه : (طاعة له فى معصية (4)) لا ينتظر منه الا أن يرى الحسن فى ما ليس بحسن ، وحبك الشىء يعمى ويصم ـ كما يقال ـ ونفس الحال قائمة مع البغض سواء بسواء ، كما سنسمع من أبى محمد عبد الواحد المراكشى فى المقام :

لقد جاء المراكشى ، صاحب « المعجب » بأعجب من هذا عن أيام المعتمد (5) فقال : (ولم يزل المعتمد هذا فى جميع مدة ولايته ، والايام تساعده ، والدهر على ما يريده يؤازره ويعاضده).

وان تعبير المراكشى بجميع المدة ليوحى بأن وجهته الموحدية قد أطبعت على حاسته التاريخيه ، فلم يستبن من أيام المعتمد غير مسعداتها ، ولم يستروح من قبل زمانه غير صفوه واعتداله ، الى أن بغتته داهية المأساة ، وأنزلته (من فلكه الى الفلك) التى رست به الى طريق منفاه ، وكأنى بالمراكشى يقول بالمفهوم الخفى عن أمير المسلمين فى هذه الفقرات : فيال هامن نفس رتع فيها الطمع ، فسلت سيف البطش ، وقوضت الايوان للانتزاء والامتلاك وقد أفصح المراكشى بمثيلات لها فى غير ما موضع من كتابه بصريح المنطوق ، وبليغ المفهوم ، حتى ان لفتات البيان لا تطاوعه الا حين يسرح قلمه فى مباهج حياة ابن عباد .

---

4) كتاب « التبيان » (مذكرات الملك عبد الله) ، ص : 80 .
5) « المعجب » ص : 75 ، ط : سلا .

وعلى نحو من هذا مع احتراس مدخول ، درج صاحب « قلائد العقيان » بملء اللسان ، فقال ــ وهو مجرد مثال ــ :
(وكانت (6) أيامه مواسم ، ولياليه كلها درر ، وللزمان أحجال وغرر) .

وكذلك أسعفت ابن خاقان الفواصل والاسجاع ، فبكى واستبكى ، ولز الناكب والمنكوب فى قرن واحد ، حتى لكأن النازلة لا تتعدى محلها ، فهى لا تعدو صراعا بين محروم من بواعث المحبة ، مقدور عليه فى الطيبات ، وبين من بسط الله له فى نعيم دنياه ، وبرأ نفسه الزكية للانعام والافضال .

وان الواقع فى أمر المعتمد على هدى خبره ومخبره ، وبمواكبته فى سرائه وضرائه ، وفى ظفره وانكساره ، وفى سكرته وصحوته ، ليعرض علينا (أعياده ومواسم أيامه) مآتم فى خلده وسره ، فما أسعدته أيامه فى جميع مدة ولايته كما شاء ، ولا آزرته وعضدته كما أراد ، فقد انقضت عليه الاحداث المكدرة منهومات ، مسعورات ، منذ فاز بخطيبته قرطبة الحسناء ، واذا كان الشؤم **ففى ثلاث !**

واذا راجعنا الذاكرة فستتالى فيها الاحداث السالفة مسرعات ، ولكننا سنعرفها بسماتها ، وسنشهدها الآن من قريب وهى مجتمعة وجاهزة للتعداد ، فنرقب مبلغ وقعها على نفس الرجل الذى حاول أن يشيح عنها ، ويتحصن منها بدريئة الرجال ، ليفرغ

---

6) « قلائد العقيان » ، ص : 4 ، تصحيح الحرائرى .

الى نداماه وحظاياه ، غير أن تكسر النصال على النصال فوق ظهره ، واعوالها من خلال شرفات قصره ، قد قوض مع توالى الايام ، سكينة الصرح الغافى على رنين الاشعار والالحان ، والعابق بشذى العطور والخمور والنساء .

فمنذ أفشل « أذفونش » حملته على الحاضرة غرناطة ، وأطبق على مطامع الملوك الثلاثة ، وهزأهم بمناوراته ، التى أفضت الى فرض حمايته على الملك عبد الله ، والى تسخيره لشن الحملات على مملكة بنى عباد ، لم تهدأ أطراف هذه المملكة من مناوشاته ، الى أن غاب (7) الوزير ابن عمار عن ساحة الاحداث .

ثم فى سنة 466 ، وفى معترك تلك المناوشات ، منى المعتمد على الله ــ كما عرفنا ــ بفادحة الهزيمة المنكرة ، التى تبددت فيها كتائبه قددا ، وفرت فلولها أمام جيش المامون عند الجولة الاولى فى مرسية (8) .

وفى نفس هذه الموقعة رشقه أول سهم فى كبده بوقوع ولده الرشيد فى يد ابن « ريموند » معتقلا ورهينة ، وقد كان السهم

---

7) كتاب « التبيان » (مذكرات الملك عبد الله) ، ص : 72 ــ 82 ــ 96 مع العلم بان صاحب كتاب « التبيان » قد درج على ان يدخل فى ذهن القارىء ان المعتمد هو الذى كان الطامع والمعتدى باثارة من وزيره ابن عمار .

8) مجلة « المناهل » ، العدد : 3 ، ص : 354 ــ « الحلة السيراء » ج : 2 ، ص : 144 ــ مخطوطة القسم الثانى من « الذخيرة » ، المتعلق بغرب الاندلس (ترجمة ابن عمار) .

ذا حدين ، واتسع جرحه ناغرا غائرا ، حتى أثخن برضوضه الدامية فى مخالصة ابن عمار ، المتربعة فى السويداء ، وذلك أصل ما جاء به ابن بسام (9) فى التعليق على الهزيمة وذيولها من اعتقال وافتكاك : (وابن عمار صاحب ذلك الرحيل ، والملوم فى أمره والمجهول ، وفساد حاله عند المعتمد يتزايد ، وتدابره يتساند) .

وما من شك فى أن نجوم هذا الاستيحاش قد فتح فى نفس الوقت أذن المعتمد بن عباد لتذمر حظيته اعتماد ، ونقمة أولادها (10) من تسلط ابن عمار ، وقد كان ــ كما قيل ــ يعامل أفراد الاسرة العبادية ، وكأنهم غرباء فى عقر الدار ، ولكن أمر الرجل كان يومئذ فى الريعان ، ومصاير الدولة معقودة ، بما فى يده من نقض وابرام ، فما هنالك غير تمتمة لاغية بين الوالدة والاولاد ، وما بعدها غير تحريك المعتمد هامته ، تسليما بما ينفضونه فى أذنيه صباح مساء : ومن نكد الدنيا على الانسان ، أن يرى عدوا له وما من صداقته بد ، وما من مخالصته منجاة .

وكان مفهوما أن المامون سيغتنم ضعف ابن عباد اثر تلك المذبحة الشنعاء ، ليجهز عليه بداهية تالية ، قبل أن يفيق من ذهوله، ويضمد جراح فلوله .

---

(9) مخطوطة القسم الثانى من « الذخيرة » لدى ترجمة ابن عمار ، ونقله ابن الابار فى « الحلة » ، ج : 2 ، ص : 144 ، وقد مرت بنا الفقرات الاولى منه فى ذيل سابق .

(10) كتاب « التبيان » (مذكرات الامير عبد الله) ، ص : 72 .

ففى جمادى الآخرة من السنة الموالية 467 (11) اختطف من المعتمد قرطبة على تلك الصورة المشجية (12) التى انطبعت فى الاذهان ، مع صورة أميرها ولده عباد ، شلوا مبتور الرأس فى العراء ، وهى قصة استيلاء المامون بن ذى النون على قرطبة بوثبة ابن عكاشة (13) التى مرت بنا عند تفصيل الرواية التاريخية

---

11) « اعمال الاعلام » ، جزء الاندلس ، ص : 184 ، ط : الرباط .

12) انظر فى مخطوطة القسم الثانى من « الذخيرة » لابن بسام ، ورقة : 168 ، من نسخة الخزانة الملكية ، رقم : 7753 نص رسالة ردد ابن بسام نسبتها بين ابن الباجى وبين ابن الوكيل كاتب ابن صمادح وكتبت بعد النازل الشنيع اثر دخول ابن عكاشة قرطبة ، وهى على لسان المعتمد ـ انظر « قلائد العقيان » ، ص : 12 ، ط : الحرائرى . ـ « اعمال الاعلام » ، ج : الاندلس ، ص : 184 ، ط : الرباط .

13) وصف ابن الخطيب ابن عكاشة بأنه : (بهمة من البهم) ، ولا شك انه يعنى من بين المدلولات اللغوية لهذا اللفظ المنسجمة مع بساط كلامه ، انه : بقرة ، ناظرا الى وجه الشبه بينهما فى بلوغ النقمة به الى حد التمثيل بوالى قرطبة الظافر ابن المعتمد ، كما رأى ايضا وجه الشبه فى تحيز ابن عكاشة للاجلاف على الاشراف شان البقر الذى لا يفرق بين جوهر الاشياء ، وعمد المستشرق دوزى (ملوك الطوائف) ترجمة كيلانى ص : 227 ، فعرف به من خلال جميع المدلولات اللغوية لكلمة « بهمة » التى اطلقها عليه ابن الخطيب ، فوصفه بفارس حديد القلب ، وهى تقابل معنى الشجاع الذى لا يدرى من اين يؤتى ، وهو احد اطلاقات « البهمة » لغة ، وزاد دوزى : (وكان من اللصوص المتحرفين بالوعر والجبل) . وقد استروح دوزى هذا ايضا من الاطلاق المجازى لكلمة « البهمة » ، حيث قالوا : (ويستعار « البهم » ، وهو جمع « البهمة » للاعراب اصحاب البوادى المنتجعين للغيث) ، والعجب ان دوزى ، وهو ناشر قسم الاندلسيين من كتاب « الحلة السيراء » ومصححه ، قد لجأ ـ كما ترى ـ الى استيحاء التعريف بابن عكاشة

قبل صفحات (14) ، ولئن كان الرزء قد أذهل المعتمد وأخرسه ، كما حكى الرواة ، وعدل المعتمد ، كما قال ابن خاقان : (عن تأبينه الى البحث عن مفرقه وجبينه ، فلم تحفظ له فيه قافية ، ولا كلمة للوعته شافية) ، فالملحوظ فى سيرته أنه أغرق أساه فى الدنان ، ووصـل كؤوس الانتشاء بكؤوس الاستشفاء ، وناور أحزانـه فواراها بالافضال وورف الايناس ، وباتراع أيامه ولياليه بدفقة العقار ، ونفحة الازهار ، وتلك احدى الصور التى تطالعنا عند أولئك المؤرخين من بين مظاهر سعده ، وابتسام عهده ، ولكن رؤيتهم تخطت ــ كما هو واضح ــ ما يتراءاه فيها الباحث المتجرد ، وما يبدهه من جهامة فى دنيا ابن عباد ، حين كان يتسعر النكد بخلده

من المدلول اللغوى للفظة اطلقها عليه ابن الخطيب بوحى تاسيه لابـن عباد ، مع ان ابن عكاشة مذكور باسم حكم بن عكاشة فى « الحلـة السيراء » صلب ترجمة ولده حريز بن عكاشة الاديب الشاعر الذى ورد ذكره فى « مطمح الانفس » فى صلب ترجمة الوزير ابى مروان بن مثنى ، فما كان حكم بن عكاشة بهمة ، كما قال ابن الخطيب ، وكما استوحـى منه دوزى ، ولا كان مجرد مغامر كما وصفه الاستاذ ليفى برفنصال ، وانما كان واليا للمامون ابن ذى النون باحد الحصون ، ثم ان الامـر يتعلق بوثبة انتقامية ، حسبما افاد ابن الابار ، الذى ذكر ان ابـن عكاشة هذا ، كان من بين اصحاب ابن السقاء وزير ابى الوليد بـن جهور ، ومن غاشيته فى قرطبة ، وامتحن بالسجن باثر بطش عبد الملك بن جهور بابن السقاء وزيره ، انصياعا لاغراء المعتضد بن عباد الـذى كان يرى فى ابن السقاء الوزير حجر عثرة فى سبيل الظفر بماربه فـى قرطبة ، ومن هنا اصبح الانتقام لشخصه ولوزيره ابن السقـاء اداة طيعة فى يد المامون ابن ذى النون ، الذى استغل نقمته على ابن عباد ، فحرضه على خطة الانتزاء على قرطبة .

14) مجلـة « المناهـل » ، العدد : 5 ، ص : 357 .

على وقع أحداث تنهش كبده ، وتنخر قواه وجلده ، فيتداعى لها تماسكه رويدا رويدا ، وتنبض فى شخصيته بوادر التلاشى يوما بعد يوم ، ويدب اليه الانكسار آناء الليل وأطراف النهار .

وتصرمت ستة أشهر بعد جمادى الآخرة من 467 ، بطيئات ثقيلات ، فما زحزحتها عن صدره هزة الحميا ، ولا غاصت بها جرية بحور القوافى فى ساحة بنى عباد ، وفجأة ، وعلى غير انتظار، وافاه النبأ بادبار المامون عن دنياه ، حسبما عرفناه ، وذلك لاثنتى عشرة ليلة بقين من ذى القعدة عام 467 ، فكان لبغتة السرور — فيما يبدو — رجة فى نفسه ، تجاوزت حد التأثير المعتاد لفواجىء المسرات ، واذا هى هزة نفسية غيرت الرجل من حال الى حال ، وبغتة الفرج بعد الشدة لها وقع أى وقع فى نفس الانسان ، وعلى حد فقرات سالفات تلمح الى ما قد يبده الباحث من تصرفات المعتمد فى معترك الاحداث (15) : (فان غصة المامون بن ذى النون بمنية عمره قرطبة أنعشت المعتمد ، وسرت عنه ، فانجاب عنه ذهول المصاب بفلذة كبده وبجنده ، واستيقظت عزماته كرة أخرى على اشراقة ارهاصات الاقدار التى أنزلت بغريمه المامون الجزاء ، ودحرجته بين الصفائح والتراب ، وهكذا زفرت نوازع أخذ الثأر زفرتها فى خلد العبادى الموتور ، فتفاقم فيه الحنق وتأججت عواطف ضغنه على بنى ذى النون ، فلم يكن له فكاك من لعنة العصر التى أصلت فى جيله الخنوع

---

15) مجلة « المناهل » ، العدد : 6 ، ص : 466 .

أدفنش ، واستعداده لالقاء يده فى يده ، والاستظهار بــه فى مــآربـــه) .

وقد عرضت علينا القصة التاريخية بمنطوقها ومفهومها فى الفصول السالفات ما جلى عن ذلك التأثير المعهود فى النفوس ، وهى الآن تحدثنا بما يعرض علينا المعتمد ، وكأنه تقمص بهذه المفاجأة السارة روح والده العظيم ، فبدا وكأنه هو هو : أسد الجزيرة الرابض بلبدته وبراثنه فى (عريسته) ، وقد هدر فيه الدهاء ، وألقى شراكه لمداخلات (16) أهل قرطبة ، فهو يريغ قنائصه على بعد المسافات ، واذا هى العواطف تنقاد له ، فيسترد قرطبة بعد أيام معدودات ، وكانت من سنة 467 ، حسبما يسجله ابــن الخطيب فى « أعمام الاعلام » ، أو فى سنة 469 ، كما عند ابــن خلدون (17) فى « العبر » ، وقد حدد ابن الخطيب التاريخ بالشهر واليوم ، فقال (18) : (واستولى ابن عباد على المدينة لثلاث ليال بقين من ذى قعدة من السنة المذكورة) ، وهو يشير بالسنــة المذكورة الى سنة وفاة المامون بن ذى النون ، حيث قال بعــد ذكر اعتلاله بقرطبة : (وتوفى فيها لاثنتى عشرة ليلة بقيت مــن ذى القعدة سنة 467) ، فلا مجال للقول بطرو تصحيف علــى أرقام السنة ، لاسيما وقد قال باثره : (ومن بعد ذلك اتصلت بها طاعة ابن عباد ما ينيف على ست عشرة سنة) ، وأحسب أن

---

16) « أعلام الاعلام » ، جزء الاندلس ، ص : 185 ، ط : الرباط .
17) الجزء : 4 ، ص : 159 ، ط : الاميريــة .
18) نفس المصــدر والصحيفــة قبلـــه .

زيادة التحديد لا تعد مرجحة (19) فى المقام ، لان ضبط التواريخ ليس بمطرد عند الرجلين اذا لم يكن الامر يتعلق بعصرهما ، حسبما هو معروف من صنيعهما ، كما أن طبيعة الاحداث ، سواء بالنسبة الى المعتمد ، أو الى « أدفنش » ، لا توحى بما يرجح أحد التاريخين لان وفاة المامون بن ذى النون قد دلت على وجهة معروفة المبدأ والمنتهى عند كل من الغريمين ، فمرحلة ما بين التاريخين واضحة المسالك والمقاصد فى حساب الفريقين .

وهكذا فقد أتيح لابن عباد باسترداد قرطبة أن يبتز ثأره (20) من ابن عكاشة بالتمام والكمال ، وبيد نفسه ، وكأنه يورى زنده بزناد ، فيتعقب الاثيم الفار ، وعلى وقع سنابك الخيل فوق قنطرة قرطبة التاريخية يلتمع رمح عبادى خطار ، ليطيح بابن عكاشة مضرجا بنجيعة الفوار ، وكانما لم يطفىء المعتمد لهيب جرحه بما أطفأ فى غريمه من شعلة الحياة ، والتماعة التطلع الى الامتلاك (21) ، وكأن فوران الدم فى مرأى جاحظتيه ، قد أجج بواعث الاحنة فى نفسه ، فانطلق وراء الجم الجزيل ، فى مهيع الاخذ

---

(19) ومثله التحديد الذى جاء به صاحب « المعجب » ، (ط : سلا ، ص : 75) ، حيث ورد فيه أن تغلب المعتمد على قرطبة واخراجه ابن عكاشة منها قد كان يوم الثلاثاء لسبع بقين من صفر سنة 471 ، وهو تاريخ لا تسمح باعتماده أحداث هذه السنة ، ولا ينسجم مع ظروفها ، والواقع أن صاحب « المعجب » قد وهم فى كثير من تواريخ قضية المعتمد ابن عباد كما يعلم من مقابلته مع غيره من المؤرخين .

(20) « الحلة السيراء » ، ج : 2 ، ص : 177 — « اعلام الاعلام » ، جزء الاندلس ، ص : 185 ، ط : الرباط .

(21) « الحلة السيراء » ، ج : 2 ، ص : 177 ، تحقيق : حسين مؤنس .

بثأره الكبير ، وما قصده القاصد فى غير طليطلة القادر ، والانسياح والامتداد ، أمانة الآباء فى أعناق الابناء من بنى عباد .

وأتيح له أيضا بهذه الوثبة الى قرطبة ، وبفورة وثبته النفسية ، أن يندفع للغارة على المملكة الذنونية ، وقد قال المؤرخ أبو مروان عبد الملك ابن الكردبوس التوزى (22) :

(فأول من استهدف لمطالبته (أى القادر بن ذى النون) ابن عباد ، لما كان بينه وبين جده من العداوة والبغضاء ، فحصل له قرطبة ، وسائر أعمالها « كطلبيرة » و « غافق » وما بينهما) .

ونقع أيضا على فقرة لابن الابار (23) لدى ترجمة الاديب حريز بن عكاشة (الابن) تفيد أنه التجأ اثر ظفر المعتمد بوالده حكم بن عكاشة الى القادر ابن ذى النون ، صاحب طليطلة ، فولاه « قلعة رباح » (وأن أهل « فحص البلوط » (24) أسروه ، وسيق الى المعتمد ، فمن عليه ، وأطلقه (25)) .

---

22) « تاريخ الاندلس » لابن الكردبوس ، تحقيق : أحمد المختار العبادى ، ص : 79 .

23) « الحلة السيراء » ، ج : 2 ، ص : 179 ، تحقيق الاستاذ حسين مؤنس .

24) فحص البلوط » منطقة من أعمال قرطبة ، ويسميه الادريسى « اقليم البلاط » ، وفيه يقع « حصن غافق » ، الوارد فى نص ابن الكردبوس السابق .

25) من الواضح أن القادر راعى فى تولية حريز بن عكاشة ماتته الذنونية ، وذلك نكاية فى المعتمد الذى نكل بوالده ، ولا يبعد أيضا أن تكون التولية

وورد عند المستشرق دوزى (26) باثر ذكر استرداد المعتمد بن عباد قرطبة عنوة ، وظفره بابن عكاشة :

(وأعقب غزو وفتح قرطبة فتح كورة طليطلة وأراضيها الممتدة بين الوادى الكبير ووادى « يانه ») ، وزاد دوزى : (وهذا فى الحقيقة يعنى نجاحا كبيرا باهرا ، ونحن لو حاولنا أن نقارن بين المعتمد وغيره ، لرأيناه أقوى ملوك الطوائف وأكثرهم نفوذا وامتداد سلطان) .

ويفهم من نص ابن الكردبوس ودوزى أن بداية تسرب المعتمد الى المملكة الذنونية كانت فورية ، وباثر استيلائه على قرطبة مباشرة ، ولا مانع من أن يعتبر نص ابن الابار أيضا مفيدا لهذا ، وذلك لما يتوقع من أن حريزا ولد ابن عكاشة اللاجىء

فى « قلعة رباح » بالذات لها قصد ومراد ، فمن « قلعة رباح » قامت اسطورة رجعة هشام المؤيد التى توكأ عليها العباديون فى تدعيم دولتهم فى اشبيلية، ففى توليةولد عدو المعتمد عليها تلميحمزعج الىاسطورية المملكة الاشبيلية ، ولكن المعتمد قابلها بلفتة من أصالته الملوكية التى رجحت بغمزة الولد الصبيانية ، والظاهرة بشقيها تشير الى الصراع المزمن الذى ما زال قائما بين المملكتين ، كما تشير الى انها أرثت ما فى نفس ابن عباد ، ونكأت جرحه فى مصابه بفلذة كبده ، ولو أنه فى الظاهر راعى المائة الادبية فى حريز ، فمن عليه ، واطلق سراحه .

26) « اسبانيا الاسلامية » ، قسم ملوك الطوائف ، ترجمة كيلانى ، ص : 237 .

الى مملكة بنى ذى النون ، قد تعقبه الطلب منذ ظفر المعتمد بوالده عنـــد القنطرة (27) .

---

27) الافادات المشار اليها فى هذه النصوص هى محل الشاهد فى المقام ، وقد يعنى هنا أيضا التعليق على مدلول آخر فى هذه النصوص لا تصاله بما سنستقبله من أحداث ، ولهذا يلاحظ :

أ و لا : أن قول دوزى أو مترجمه (فتح كورة طليطلة) يعتبر غير منطبق على الحقيقة التاريخية ، فما قال أحد من المؤرخين ، ولا افادت طبيعة الاحداث أن المعتمد بن عباد فتح كورة طليطلة عقب غزو فتح قرطبة مباشرة ، أو فيما بعد هذا التاريخ ، أى عندما ضعف القادر ابـــن ذى النون بهجمات ((أدفنش)) ، فحتى فى هذه الظروف التاخرة عما نحـــن فيه الآن ، لم يحصل المعتمد غير الاراضى الجنوبية ، وهى التى تصدق عليها الفقــرة الاخيرة مـــن نص المستشرق دوزى ، وأعنى قولـــه : « وأراضيها الممتدة بين الوادى الكبير ووادى ((يـــانة)) » ، وهذه الاراضى الجنوبية داخلة فى كورة قرطبة ، وليست فى كورة طليطلة ، ولكنها فى جنوبها ، فافادة دوزى غير محققة ، لا من الناحية التاريخية ، ولا من الناحية الجغرافية اللهم الا أن تكون كلمة قرطبة قد حرفت الـــى طليطلة ، لا سيما والمعروف أن أصل نص دوزى فرنسى ، وترجم الـــى الانجليزى ، ومنه بواسطة كيلانى الى العربى ، فقد يكون وضع طليطلة فى موضع قرطبة من سهو المترجم ، أو من عمل الطابع .

ثانيـــا : أن ((طلبيرة)) فى نص ابن الكردبوس السابق هى طلبيـــرة الملكية ، الواقعة على الضفة الجنوبية لنهر وادى ((يانـــه)) ، فهـــى فى نطاق الاراضى الجنوبية لمملكة القادر ابن ذى النون ، التى أتيـــح للمعتمد أن يستولى عليها ، وتدخل فى الاراضى التى قال دوزى انهـــا بين الوادى الكبير ، ووادى ((يانـــه)) ، وبهذا ، فهى ليست طلبيرة القديمة ، ولا بطلبيرة ((لارينا)) الملكة ، التى قال الدكتور أحمد المختار العبادى انها هى المقصودة فى نص ابن الكردبوس حسبما سجلـــــه الدكتور فى التعليق رقم 1 بالصحيفة 79 ، وفى التعليق ايضا رقم 3 بالصحيفة 87 ، من ((تاريخ ابن الكردبوس)) ، ولا يصح للاستـــــاذ

وأما « أدفنش » ، فقصده القاصد أيضا فى طليطلة القادر حفيد المامون ، والتربع فى قصرها المسحور ، وقد تخلص من عهد حمايتها ورعايتها بفتوى الكهنوت (28) فهو فى حل من القيود والعهود ، ولن يستفرغ اليوم من طاقته أى جهد فى هذه الظروف (فالنفسيات والقابليات والاستعدادات) فى الرقعة الاسلامية من الجزيرة قد أسلست مقادتها ، وأبانت عن ليونتها وطواعيتها ، وابن عباد قد كشفته احنته الحمراء نحو ابن ذى النون ، وأربه فى اتصال طاعة قرطبة هو مطلب عمره الذى لن يهون ، ففيه بلسم جرحه الذى يسترخص فيه كل نفيس وغال ، ان فى الحال أو فى المـــآل ! وحتى لو اشتطت قشتالة ، وطلبت بيض الانق ، فسيحبو اليها ابن عمار وهو ينق نقيقا فى الحال ، ويورى بمطامعه مساوما على أى طلب طلبنـــاه .

ذلك ما تعكسه مرآة حوادث العهد عن اتجاهات القاهـــر والمقهور ، وما يجيش فى خبايا الصدور ، وليس بالعسير على من

العبادى ما فى التعليقين ، لان طلبيرة « لارينا » (الملكة) ، التى عينها من بين الطلبيرات الثلاث تقع مثل طلبيرة القديمة على نهر التاجه ، وكلاهما من أعمال طليطلة ، فى حين أن ابن الكردبوس يقول (ص : 79) انها من أعمال قرطبة ، ويبدو أن الدكتور العبادى قد اخذ بقول دوزى ان فتح كورة طليطلة قد أعقب غزو فتح قرطبة ، ولنتذكر انـــه مما لا يتصور تجاه تحفز « ادفنش » للاستيلاء على طليطلة ، ان يكون المعتمد تطلع الى قطع نهر « التاجه » ، فضلا عن التخويض فيه ، حتى يفتـــح « طلبـــيرة » « لارينا » ، وهى لا تبعد بأكثر من مائة وخمسين كيلومتراً عن الحاضرة طليطلة .

(28) مجلـــة « المناهـــل » ، العدد : 6 ، ص : 467 .

من استوعب الاخبار ، وتعقب خطوات حركة الاسترداد فى عهد « فرذلند » وولده « أدفنش » ، واستكنه طرائقهم عند عزم الابتزاز والانتزاء ، وفى معترك الحرب والسلام ، وفى المناورات والمداورات ، أن يتكهن بأن « أدفنش » مقدم على حملته التمهيدية المعهودة لكسر النفسيات بروادف الاتاوات ، والاجلاب على الحاضرة بارسال تلو ارسال من جباة المفروضات ، ثم يتلوها زحف وحصار ، حسبما تفرضه وسائل الاستدراج ، ومقتضيات الضغط والارهاب ، فمرحلة السياسة ما زالت قائمة حتى الآن ، ولم تحن بعد ساعة الاجلاب بالخيل والركاب ، ان على قرطبة ، أو على طليطلة ، وفى الاملاء لمغاورات المعتمد تراب بنى ذى النون ، ما يتيح مساومته بقدر ما حصل فى يده ، وبحجم ما غدى به نهم نفسه ، ولبى به هتفات نقمته .

وسار « أدفنش » فى خطته ، مثلما اندفع ابن عباد فى انطلاقته .

ومن اليسير أن نستجلى صورة من هذا فى فقرات رقاع صدرت عن المعتمد الى عماله فى مثل هذه الفترة التى كان ينوء فيها « أدفنش » بحربه النفسية ، ويسير بها الى أقصى غاياتها التصعيدية ، ويقول ابن بسام (29) انه شاهد هذه الرقاع تكتب ببيوت أحد الاشراف ، وأورد صورتين منها ، وقد مرت بنا احداهما (30) شاهدا على انسانية المعتمد بن عباد ، وأحيلت دلالات

---

(29) مخطوطة « الذخيرة » ، القسم الخاص بغرب الاندلس ، نسخة الخزانة الملكية ، رقم : 7753 ، ورقة : 160 .

(30) مجلة « المناهل » ، العدد : 4 ، ص : 299 .

بقية فصولها على هذا المقام ، والرقعتان معا من انشاء ذى الوزارتين أبى بكر ابن القصيرة (— 508 هـ) ، ومضمنهما استعجال العمال فى تحصيل الاموال لمواجهة مطالب « أدفنش » المترادفة على الدوام ، وافاداتهما تكاد تكون متماثلة لانها من الاوامر المعممة ، ولكن فى كل واحدة منهما زيادة ليست فى الاخرى، وذلك ما اقتضته طبيعة المخاطبين بهما من العمال ولامراء ، فالرقعة الثانية تقول فى طالعة تختلف مع الاولى ببعض الكلم ، وبزيادة فقرات لغرض التأكيد :

(الحال مع العدو قصمه الله بينة لا تخفى ، ومداراته ما لم تكن مضاهاته أولى وأخرى ، وقد التزم له فى الصلح المتفق معه عليه ، جملة مال رسم عليك منه — بعد النظر لحالك ، والتحاشى من الاجحاف بمالك — **فعجل النظر فيه** ، وابعثه **بكتاب تجاوب على ظهره** ، وبحسب تعجيلك أو تأخيرك يكون الاستدلال على طيب نفسك ، وصدق ضميرك ، فتدارك بالمشاركة فى هذا الخطب الملم المهم ، الذى **لا محيد عنه** ، ولا بد منه) .

وتضف الرقعة الاولى باثر ذكر العدو كما مر بنا :

(وقد كان فل الله حده ، وفض جنده ، قد اعتقد الخروج فى هذا العام الى بلدنا عصمها الله ، بأكثف من جموعه فى العام الفارط وأحفل وأبلغ فى استعداده وأكمل ، الا أن الله يسر من انابته ما يسر ، ونظر لنا من حيث لا نستطيع أن ننظر ، ووقع الاتفاق معه على جملة من المال تقدم اليه ، ونستكف الشر المرهوب لديه) .

وقد تجلت فى هذه الرقاع ـ كما ترى ـ صبغة التأكيد على ما يفيد الاستعجال ، ويمثل هذا فى التركيز على اقناع العمال المخاطبين بالحاح الضرورات ، وعلى تحريك ضميرهم الإنسانى والقومى والمهنى ، وتعليق الاعتراف بطيب النفس ، وصدق الضمير ، على مبلغ التعجيل بالتنفيذ ، ولفت النظر الى الاعتداد به فى الحكم على سريرة المخاطبين ، والاهابة للمشاركة فى درء الخطر الداهم ، والخطب الملم .

وهذا المهيع فى الخطاب ، يعبر عن صريح الالحاح ، وينضح بما تمور به نفس المعتمد من مخاوف فى هذه الظروف الحرجات ، واذا كان له ما يبرره من كلب « أدفنش » ، واجحافه فى جمع الجزى ، ومن سوابقه فى الاناخة بالضغوط ، فهو يعبر أيضا عن ارتباك نفسى ، وعن نشوء استعداد للتلاقى ، وعن انفتاح طارىء للتفاهم على ما يؤمن للمعتمد مآرب قضاها ، وما زالت أخرى تعتمل فى نفسه اعتمالا .

واذا كان ابن بسام لم يحدد تاريخا لهذه الرقاع ، ولربما فهم من صنيعه ـ ولو أنه غير منضبط ـ أنها مما يمكن أن يكون قد صدر عن المعتمد بعد هذه المرحلة ، وفى ظروف أشبه ما تكون بهذه الظروف المتأزمة ، فان الضغط المنتظر من « أدفنش » الآن لمجابهة التحدى العبادى بفتح قرطبة ، ولكبح جماح مطامحه فى تراب طليطلة ، ولاستدراجه لتأمين مآرب اشبيلية بتأمين مآرب قشتالة . . لن تكون وطأته بأقل شدة حتى من وطأة ظروف سفارة ابن شاليب اليهودى المعروفة ، وذلك حين أقسم « أدفنش » أن

يشنها على ابن عباد عوانا ، وأن لا يرفع عنه عقالا .

وعلى كل حال ، فلم يكن هذا أول حصار يعنت ابن عباد ، ولا هى أول توقعات زحف قشتالى يصيب سكان مملكة العباديين بالهلع والفزع ، ولكن مؤرخينا قد درجوا على أن لا يعنـوا الا بتسجيل الحوادث الكبرى ، أو التى ترتبت عنها فتنة أو قيـام دولـة .

واننا لنجد الملك عبد الله يقول (31) عرضا وبلهجة عادية ، وهو يقص علينا خلافه مع أخيه تميم : (ووافق ذلك الزمـان اشتغال المعتمد بأمر « أدفنش » ، فانه نازل اشبيلية لتباعات تسبب بها ، وضاقت الحال من أجلـه) .

ويعنينا الآن زحف شهير يفترض أن « ادفنش » قام به فى هذا التاريخ ردا على مبادرة ابن عباد الى احتلال قرطبة ، وردعـا لتطاوله على المملكة الذنونية ، وذلك أن هذا الزحف قد انتهـى بحصار كل من قرطبة واشبيلية (32) فى جولة واحدة ، واقترن ذكره بقصة رقعة الشطرنج ذات البهاء ، التى رفعت عن المسلمين البلاء ، وببراعة الوزير ابن عمار ، التى هزج بها صرير الاقلام ، وكل الظواهر التى سايرها البحث فى جرية الاخبار ، أو تراءاها فـى

---

(31) كتاب « التبيان » (مذكرات الملك عبد الله) ، ص : 91 .

(32) « المعجـب » ، ص : 69 ، ط : سـلا .

سرائر الرجال ، تتيح تحديد تاريخ هذا الحصار بأواخر سنة سبعين وأربعمائة ، أو أوائل سنة احدى وسبعين بعدها (33) .

وتتلخص القصة فى أنه عندما أحيط بالحاضرتين ، وخيم « أدفنش » بنفسه فى أرباض اشبيلية ، طلع على مخيمه الوزير ابن عمار فى سفارة عبادية ، وهى مما يتوقع فى مثل هذه اللحظات ، حين لا يبقى متنفس لغير كلمة كسيرة يختار بها أهون السبل لتصريف القضاء ، والنزول عند احدى خطتى خسف يلجىء اليهما الاعداء .

وقد كان ابن عمار (طبقة عالية) فى لعب الشطرنج ، ويعلم أن « لادفنش » به ولعا وهواية ، فأوحت اليه ألمعيته أن يدرع لسفارته الحربية برقعة شطرنج تخلب ببديع صنعها النهية والبصر ، وتلوى « بادفنش » عن حصار ابن عباد الى حصار الشاه .

---

33) لم يحدد صاحب « المعجب » تاريخا، ومثله دوزى، ولكن صنيعهما فى السياق يشير الى ان خروج ابن عمار الى مرسية (471) قد كان بأثر قصة حصار قرطبة واشبيلية ، فيقول صاحب « المعجب » بعد نهايتها مباشرة : [« ثم » ان المعتمد حدث له أمل فى التغلب على مرسية واعمالها ، (ص : 70 — 71) ، واتبع دوزى فصل قصة هذا الحصار بالفصل الحادى عشر [ص : 143 ، من ترجمة كيلانى) فاستهله قائلا : (لم يقنع ابن عمار بما وفق اليه من انقاذ مملكة اشبيلية من مخالب « ادفنش » ورد عادية هذه الطاغية عنها ، بل رغب فى أن تمتد حدود المملكة ، وتتسع رقعتها ، واتجهت اطماعه الى ولاية مرسية) .

ونهد السفير للقاء كماة ميادين الجلاد ، ببياذق الابنوس والصندل الفواح ، وبأفراس اقبال وادبار ، على رقعة عـــود رطب ونضار .

وطار خبر عجيبة سفرة الشطرنج ، فانتفش لها شعـر « أدفنش » ، وهفا لها بمخيلة طفل لا تنى تلف وتدور ، وسرعان ما صدرت أوامره بالفسح فى الرحابة لسفير ابن عباد ، فقد جاشت بخبر الرقعة هوايته على مداها ، ونبضت فى ذهنه مآرب فى السفير قضـــاهـــا .

وأدرك ابن عمار من بسطة الترحاب ، أن غلة الهواية بلغت حميها اللاهب ، ورمت بشواظها اللاغب ، وأن « أدفنش » علـى فورة من جيشان منازعه ، ولا رادع ولا زاجر لها فى جـده ولعبـــه .

ومثل بين يدى « أدفنش » ، واذا بمناورات حصار الرقعة تشرع فى المجال ، والقنيصة تحوم على موقع الشراك ، وكأنه معها علـى ميعـاد ! !

وتكلـــم « أدفنـش » :

لقد لألأت فى معسكرنا بدائع الرقعة ولما تكتحل بها الاجفان ؟ فهلا طلعت علينا بحريزتك ، فنشهد دورا من مهارتك فى اللعبة ، وطرائف من غرائب صناعة الرقعـة .

وجاش مأرب ابن عمار فى كلمات متحديات مترفقات :

ـ هى حريزتك وغنيمتك ، وأنت رب الحرب والنزال على كل رقعة ، وفى كل ميدان ، فلتكن بيننا على بساطها جولة ، فـان ظهرت على ـ ومثلك لا يقعقع له بالشنان ـ فالسفرة لك غنيمة ، وان قدر ونزل ، وكانت الاخرى ، فالحكم لى عندها لو تشاء .

فأجاب « أدفنش » : ولكن الملوك لا تتعاقد على غرر ، ولا تنزل على مجهـول من أحكام أو شروط .

وأدرك ابن عمار أنها قولة المتمنع الراغب ، وأن حبل الشرك ما زال عالقا برجل الطائر ، فشد على كلماته وأجاب :

اننى على شرطى ولـك الخيـار .

فتظاهر « أدفنش » بأنه واقف عند حد ما قال ، ولن يزيغ عن شرعة الملوك بحال ، وأبدى أن مهما يشغله الآن ، والموعد متروك ليوم آت .

ومكروا به فكادوه بالانتظار ، ومكر ابن عمار ، فأهال سيب نضاره فى الجيوب ، وأرسل وعوده السخية نهشا بالضمائـر والرؤوس ، فانقلب الخاصة والغاشية الى كبيرهم ، مهونـين شأو ابن عمار فى مهارة اللعبة ، ومتندرين بما يحلم به من ظهور وغلبة ، وتساءلوا منفردين ومجتمعين : وماذا عسى أن يشرئب

اليه ابن عمار ؟ وهل نراه يشد حكمه بأمراس فى السماء ؟ وأى مرتقى يمتنع على قدم ملك الملوك ، فلا تناله همته القعساء ! !

وهزت النغمة أعطاف « أدفنش » فاستطال فيه الغرور ، وعرته نخوة التأبى على الدنية تلقاء تحدى الرسول ، فما رآه غير هر يستأسد ، وبغاث يستنسر ، فأنى لذهن مشوش ، ورسول مملكة تتداعى بالهلع والخوف ، أن يرصد بوارق الظواهر على بساط الرقعة ، وأين منه التركيز لملاحقة أبعاد الجولة ؟ وان ضبطها لمعقود بصفاء البال ، وهناءة الاحوال .

واستدعى ابن عمار ، وأبيح له شرطه فى الحال ، ولكنه كان أعرف بضمائرهم وعهودهم ، فذكر أسماء جملة من النبلاء لشهود الجولة ، وأعلى أن تحكيم الرجال تدبير متعارف فى تقاليد اللعبة ، فلا ضير من الاخذ فى هذا اللقاء ، بما هو من صميم الاعراف .

وكان لابن عمار ما اراد .

ونصبت السفرة ، فزاغت فيها الابصار ، وتمثل « أدفنش » فيها مائدة سليمان بكل الصفات والقسمات ، عائدة الى دنيا قشتالة بعد لحظات .

واندفعت البياذق ، وشالت الفيلة بخراطيمها عن يمين وشمال ! وصهلت الافراس ! .

وشيئا فشيئا أخذت الهامات الصلع تتحلق على السفرة ، وءاض النزال الى احتدام .

وما هى الا جولة ، حتى وثب أحد الافراس وثبة النهاية والتمــام ، وريعت الابصـــار ! ! فشاه « أدغنش » محاصر بين الحافرين ، فلا منفذ له لقدام ، ولا الى وراء ! !

ورفـــع « أدفنش » جبينـــه ، وهو يتفصد عرقـــا !

ويحق هنا أن ندع التعبير عن خاتمة القصة الى صاحـــب المعجب الذى امتلأت نفسه سرورا ببراعة ابن عمار ، فعمد الـــى زيادة البيان عن طريق التمثيل والحوار ، فقال (34) :

(وكان ابن عمار طبقة بالاندلس ، لا يقوم له أحد فيها ، فغلب « الاذفونش » غلبة ظاهرة لجميع الحاضرين ، لم يكـــن للعلج فيها مطعن ، فلما حقت الغلبة ، قال له ابن عمـــار :

— هل صح أن لـــى حكمـــى ؟ قـــال :

— نعـــم ، فمـــا هـــو ؟ قـــال :

— أن ترجـــع من ها هنا الى بلادك ! !

فاسود وجه العلج ، وقام وقعد ، وقال لخواصه : قد كنت أخاف من هذا ، حتى هونتموه على فى أمثال لهذا القول ، وهم بالمكث والتمادى لوجهه ، فقبحوا ذلك عليه ، وقالوا له : كيف يجمل الغدر ، وأنت ملك ملوك النصارى فى وقتك ، فلم يزالوا به حتى سكـــن وقـــال :

---

(34) « المعجـــب » ، ص : 69 — 70 ، ط : ســـلا .

ــ لا أرجع حتى آخذ اتاوة عامين خلاف هذه السنة ،
فقـــال ابـــن عمـــار :

ــ هـــذا كلـــه لـــــك .

وجاءه بما أراد ، وكف الله بأسه ، ودفعه بحوله ، وحســـن دفاعه عن المسلمين) .

والواقع أن صاحب المعجب قد احتفل بهذه القصة احتفالا انفرد به ــ كما يظهر ــ وسال قلمه بفيض من صور ومشاهـــد انثالت على ذهنه انثيالا ، وكان فى ذلك مستجيبا لعواطفه الدينية ، التى جاشت لظروف نكدات ، عانى فيها المسلمون بالجزيرة ضروبا من الشر والبلاء ، فتزاحمت الصور فى ذهنه ، فكانت كل افادة فى روايته موحية بمشهد تسرح فيه الافكار ، فيمثـــل للقارىء أو السامع بظلاله ، وبأشخاصه ، وبما يجرى من حركات وسكنات ، حتى انه ليعمد الى تسجيل الحوار ، وكأنه كان شاهد ذلـــك النـــــزال .

ولقد سدت هذه الظاهرة عند صاحب المعجب بقوة ايحائها مسد طريقته فى البيان ، وزخرفة العبارات ، التى يجنح اليهـــا حين تهزه المواقف ، وتحركه العواطف والمنازع ؛ كما نرى فـــى عباراته السائرة عن المعتمد وأيامه ، وساحة شعرائه ، وعـــــن خلوات ندمانه ، واقتران ليله بنهـــاره .

وأحسب أن ظاهرة تداعى المشاهد من خلال قراءة هـــذه القصة التى يرويها المراكشى ، قد أثارت قلم المستشرق دوزى ،

وانسجمت مع طريقته الادبية التصويرية فى تسجيل التاريخ ، فنسج على هيكل قصة المراكشى بمشاهدها وحوارها أقصوصة كاملة بجميع مقوماتها من الحدث الى العقدة الى حلها ، وقد انتظمت هذه الاقصوصة فى خاتمة الفصل العاشر من القسم الخاص بملوك الطوائف فى كتابه « اسبانيا الاسلامية » ، ومن فصول الاقصوصة هذه الصورة التى يعرضها لتلك اللحظات الحرجات ، حين صح لابن عمار حكمه ، وظهرت غلبته ، واسود وجه « أدفنش » (وقام وقعد) كما صور المراكشى . وصدورا عنه ، كتب دوزى (35) :

(فالتفت ابن عمار الى الملك وقال :

— الآن لى أن أطلب حسب الشرط ما أريد ، فأجابه الملك :

— بلا شك ، فماذا تطلب ؟ قال :

— أطلب أن تعود الى مملكتك ، وتكف عن القتال .

فهاج هائج « الأذفونش » ، وأخذ يذهب ويجىء فى خيمته ، وهو يخطو خطوات واسعة ، ثم جلس ، ثم نهض قائما ، وهو فى أشد حالات الهياج والقلق ، ثم قال لجماعة من النبلاء القشتاليين الذين غرروا به :

---

35) انظر ص : 238 ، من ملوك الطوائف ، ترجمة كيلانى .

ـــ ها أنذا قد وقعت فى الشرك ، وأنتم كنتم السبب ، وهذا أخوف ما كنت أخافه من طلبات هذا الرجل ، لولا أنكم طمأنتمونى، وأنـــا الآن أجنى ثمرة مشورتكم الممقوتة .

وبعد صمت دام لحظـات قـال :

ـــ وما الذى يعنينى من شرط التزمت به لهذا الرجل ، أنـا لا أحفل بأمر مثل هذا البتة ، وسأواصل زحفى .

فقـال القشتاليـون :

ـــ ان فى هذا رجوعا عما قطعته من العهد على نفسـك ، ومساسا بالشرف ، وهل تحب أن يتحدث الناس عنك ـ وأنـت ملك ملوك النصارى ـ أنك نقضت عهدك ، ورجعت فى قولك ؟

وبعد لأى ، هدأت ثائرة « الأذفونش » ، وسمحت نفسـه فى النهاية أن يقـول لهـم :

ـــ سأفى بمضمون الشرط ، وأنجز ما وعدت به ، ولكننى لا أرجع بجنودى الا بعد أن آخذ الجزية عن هذا العام مرتين :

فقـال « ابـن عمـار » :

ـــ سيكون ـ أيها الملك ـ ما تريـد .

وبادر « ابن عمار » فحمل اليه مبلغ الجزيتين ، وهكذا نجى الله المسلمين من الخوف بتدبير هذا الوزير الكبير ومهارته)

ومن الواضح أن تكثيف عناصر التصويــر فى نص دوزى بالنسبة الى أصل الرواية عند المراكشى ، ليشير الى أن الحاسة الادبية عند هذا المستشرق قد طغت فى معرض هذه القصة على حاسته التاريخية ، وأن الجو الاسطورى ، الذى ظهرت فيه روح العروبة على العجمة ، قد أخذ بذوقه واستأثر بنفثات قلمه ، فركن الى تسجيل الحوار ، وتصوير ما تنبض به الاذهان ، ولو قدر لحاسته التاريخية أن تنتفض فى المقام ، لكان من المنتظر أن ينتصب تساؤل فى الحال ، وذلك عن مدى ومبلغ الواقعية والحقيقــــة التاريخية فى قصة الشطرنج هذه ، وما ترتب عليها من جلاء القوات القشتالية عن تراب قرطبة واشبيلية .

والواقع أن دوزى لم يكن باحثا بقدر ما كان راويا ، وحظ الحقيقة أو الاسطورة فى هذه القصة لا يغير شيئا من مجــرى الاحداث ، ولا من طبيعة الاشياء ، وذلك لان الحصار ــ كمــا عرفنا ــ بالنص ، وباستقراء ظواهر الاحداث والتصرفات منــذ الفتنة الكبرى حتى الآن ، مما لا سبيل الى انكاره ، وذكر قرطبة مع اشبيلية فى النطاق المضروب عليهما ، من شأنه أن يؤكد واقعيته ، لان قرطبة هى أصل فاقرة اشبيلية فى هذا الحصار ، وأيضا ، فان على وضعيتها يتوقف شروع « أدفنش » فى مسيرته الــى طليطلة ، كما لا سبيل أيضا الى انكار جلاء الجيوش القشتالية عن قرطبة واشبيلية ، لان الحاضرتين قد ظلتا معابيد المعتمد ، حتى الكائنة عليه على عهد حركة الانقاذ المرابطية .

وبهذا ، فالتساؤل لا ينصب الا على ما فاجأتنا به حكاية الشطرنج مع أن ثمن الجلاء عن الحاضرتين ، لا يعدو مبلغ الاتاوة عن سنتين .

ومرد هذا التساؤل الى ضرورة اعتبار الحقائق التالية فى المقام :

أو لا — ان تحرق « أدفنش » للسمو الى طليطلة ، وأهداف زعامة حركة الاسترداد فى الاستيلاء على عاصمة القوط الدينية، لن تسمح فى هذه الظروف بالذات بالمهاودة على مجرد المفروضات ، وتسبيق الاتاوات ، فما كان ليخفى على زعيم الحركة ما كان يبدو جليا يومئذ من ضعف ملك طليطلة وعجزه ، ومن نضوب حيلته ، واستشراء فساد الاحوال فى حاضرته ، ومن تصاعد الاضطراب فيها الى درجة ظهور بوادر الثورة ، حسبما يصفه لنا ابن بسام فى الذخيرة (36) ، وتلك كانت فرصة الفرص التى تقدم « لأدفنش » الحاضرة المنشودة غنيمة باردة ، فلا يصح فى حسبان الباحث ، ولا فى حساب حركة الاسترداد ، أن يفك الحصار عن الحاضرتين ، ولما يبت بعد فى موقف المعتمد ابن عباد ، الذى ظل وحده شاردا عن صف ملوك الجزيرة ، ماضيا فى التتالع بالانتزاء والامتلاك ، مجاذبا ملك قشتالة أطراف المملكة الذنونية ، وكأنه معه على ميعاد ، أو فى سباق نحو الحاضرة التى أينع فيها الجنى ، وحان القطاف ! !

---

36) القسم الرابع ، المجلد الاول ، ابتداء من ص : 116 .

ثانيا ــ ان افادات مؤرخى سيرة « أدفنش » تنسجم مع ما يتوقع منه تلقاء الظروف التى تجتازها عاصمة بنى ذى النون ، فقد ذكروا أنه (37) (أخذ منذ سنة 1078 م ــ 471 هـ) يحشد العدة والمؤن ، ويغير على أراضى طليطلة ، ويعيث فيها سفكا وتخريبا ، وينسف خضراءها وزروعها) .

ويعنى هذا أن « أدفنش » قد كان أنهى فى التاريخ المذكور ــ الذى أعقب الحصار ــ خطة الغزو النفسى والمرحلة السياسية للاستيلاء على طليطلة ، وخطا بعدها خطوته التالية بالخطة العسكرية والغزوات الحربية .

وكل هذا يضعنا فى الفصل التالى ، أمام بحث ما تحكيه المصادر الاجنبية عن قيام اتفاق (38) أرضى رغبات النفوس عند الطرفين ، وغدى نزوات العزمات عند الفريقين .

واذا صحت الصفقة ، فيكون ابن عمار قد فاز فيها بخاتم سليمان التى فتحت له طريق الملك فى مرسية ، فأغذ السير اليها ، وساق الجنائب فى نفس العام للتربع على أريكتها .

(يتبع)

الرباط **عبد الرحمن الفاسى**

---

37) « دول الطوائف » ، الطبعة الاولى ، ص : 381 للاستاذ محمد عبد الله عنان .

38) « دول الطوائف » للاستاذ محمد عبد الله عنان ، الطبعة الاولى ، ص : 108 ــ 382 .

في مكتبة المناهل

صفحات دراسية من القديم والحديث

صدر هذا الكتاب الجديد لاستاذنا الدكتور الجرارى ، عن دار الثقافة بالبيضاء فى 176 صفحة من القطع المتوسط . وهو يتضمن أبحاثا ومقالات ، كان قد حاضر الاستاذ ببعضها فى كلية الاداب بفاس ، ونشر بعضها الآخر بمجلة ((دعوة الحق)) وجريدة ((العهد الجديد)) ، ورغم أن هذه المحاضرات والمقالات تبدو لاول وهلة متنوعة المواضيع والعصور الادبية ، ومكتوبة على فترات مختلفة ، فانها حين جمعت بين دفتي كتاب واحد وروعى فى جمعها الترتيب الزمنى حسب الاعصر الادبية التى تتناولها والمواضيع التى تطرقها ، جاءت كأنها حلقات محكمة يشد بعضها بأطراف بعض . فالكاتب يبدأ أولا ببحث طويل يسميه : (مقدمة فى الادب العربى) يتعرض فيه لمفهوم هذا الادب ومصادره وتاريخه ومناهج دراسته ، فيكون ذلك بمثابة تمهيد أو مدخل لموضوعات الكتاب الآتية . ثم يتبعه ببحث ثان عن الشعر الجاهلى والصعاليك، ويقسم الحديث فيه الى قسمين : يتعرض فى القسم الاول لبداية الشعر الجاهلى وما وصل منه ، ويثير بعض قضاياه المعروفة كقضية الوضع والانتحال ، وقضية المصادر من رواية وكتابة . ويحلل بعض خصائصه الفنية والموضوعية ، ثم ينتهى الى ذكر اقسام شعرائه وتصنيفاتهم . ويتناول فى الجزء الثانى من بحثه ، طائفة الشعراء الصعاليك فيذكر أسباب ظهورهم ،

ودورهم فى الحياة العربية الاجتماعية والادبية ، وقيمة شعرهم بالنسبة للشعر العربى عامة والجاهلى منه خاصة . ثم يختم بذكر خصائص هذا الشعر ومميزاته .

ويأتى بعد شعر الصعاليك بحث ثالث بعنوان : (الغزل العربى بين الجاهلية والاسلام) . يعرض فيه الكاتب لتطور الغزل العربى بين هذين العصرين ويذكر فيه أنواعه وخصائصه وأسباب وجوده ، وهو تلخيص لآراء الباحثين السابقين فى الموضوع .

ومن الشعر القديم ينتقل الى النقد والبلاغة فيعالج تاريخ النقد الادبى عند العرب منذ نشأته الساذجة الى أن تطور فى العصر العباسى واختلط بالبلاغة فأصبح عبارة عن قواعد وتقسيمات منطقية .

والموضوع الخامس هو بحث فى (مناهج الاندلسيين فى دراسة النحو) وقد استعرض فيه النشاط النحوى بالاندلس منذ نشأة الدراسات اللغوية بها الى عصر السقوط ، ملاحظا أن النحو نشأ هنالك كبقية العلوم خاضعا للشرق الى القرن السادس الهجرى حيث ظهرت ثورة ابن مضاء القرطبى الظاهرى على فكرة العامل والقياس والعلل والتمارين ، وقد ساعده ، فى هذه الثورة على النحو المشرقى مذهب الدولة الموحدية العام . ثم تعرض لنشاط اهم النحاة بعد ابن مضاء كابن مالك وأبى حيان ، الى انهيار الاندلس وهجرة العلماء نحو بلاد المغرب .

ومن الاندلس أو الغرب الاسلامى فى القديم ، ينقلنا الكاتب الى المغرب العربى فى العصر الحديث ، وذلك من خلال مقالة عن (تجديد الشابى بين روافد الشرق والغرب) . وفيها يتعرض لثقافة الشاعر التونسى التى لم تشبها لوثة اجنبية رغم حملته على الادب العربى القديم ، وتعلقه الشديد بالادب الغربى . وقد حاول الكاتب فى هذا المقال أن يثبت تأثر الشابى بمدرسة المهجر ومدرسة (ابولو) على غرار ما فعل غيره ، وانتهى فيه الى القول بان الشاعر استطاع ان يرتفع عن مستوى التقليد والتاثر الى مستوى الاصالة والابداع ، فكان شعره صورة لنفسه حتى انه يكاد يكون مدرسة خاصة فى الشعر العربى .

وللدكتور الجرارى بعد ذلك وقفة عند (المسرح الكلاسى) ، وتطور المذهب الكلاسى فى الادب منذ اليونان والاغريق الى القرن السابع عشر حين ظهرت فلسفة (ديكارت) وما تبع هذا المذهب من تيارات أخرى . ووقفة ثانية عند (أدب اللا معقول) ، ومفهومه وأسباب ظهوره فى الادب الاوربى وما أحدثه من ضجة بين نقاد العرب المحدثين فى مصر . ووقفة أخيرة عند (قضية الشعر) من حيث تطور مفهومه عند العرب منذ أحدث بشار وأبو نواس وأبو تمام التغيير الاول ، الى أن جاء الاندلسيون بموشحاتهم وأزجالهم ، وما انتهى اليه الامر فى العصر الحديث من صراع بين القديم والجديد ، وتحزب فريق لهذا الشكل وفريق لشكل آخر ، وقد أحب الكاتب أن يخرج من مقاله الاخير ، بفكرة اعتدالية فقال قولة المنصف بأن التجديد ليس أمرا موقوفا على الشعر المطلق أو الحر كما أن التقليد ليس خاصا بالشعر العمودى دون سواه ، بل الاصالة والجدة شيئان موجودان فى كل شكل من الاشكال الشعرية الجادة .

وهكذا فقد صنع الدكتور الجرارى خيرا حين جمع هذه الابحاث والمقالات فى كتاب يصبح مرجعا لطلاب الدراسات العربية فى الادب القديم والحديث .

مذكرات المسيرة الخضراء (1975)

للاستاذ عبد المجيد بن جلون

كانت المسيرة الخضراء أهم حدث عرفه المغرب سنة 1975 م ، ان لم يكن أهم حدث عرفه بعد سنة 1956 م . وقد جندت الاقلام الصادقة لتحليله وشرحه والتهميش عليه ، فكانت المعركة متنوعة السلاح ، وكان الجند مختلفى اللباس والمواقع . ولا تحسب بعد هذا أن دور الاقلام ظل محصورا فى تغطية الحدث ووصف الملحمة ، بل ان الكتابات الوطنية المخلصة هى التى سبقت الحدث ومهدت له وهيات النفوس لتقبله وافتدائه بالنفيس

والرخيص · ثم حين صار حدثا وحقيقة صاحبته بالتحميس والتكبير ، وهى اليوم ما تزال فى المعركة — وقد خبـا الاوار — تريد أن تجعل من الحدث العظيم تاريخا طويلا ونهرا متدفقا لا ضفة له ، وتريد أن يستمر المغرب فى مسيـرة خضراء دائمـة ·

ومن الكتابـات الجيـدة ذات النكهـة الخاصـة ، التى صاحبـت المسيرة فى كل أطوارها ، هذه المذكرات التى صدرت عن شركة الطبع والنشر بالدار البيضاء فى كتاب يضم 146 صفحة للاستاذ عبد المجيد بن جلون ·

والكتاب عبارة عن مقالات كنا قد قرأنا اغلبها منشورا ضمن المذكرات الاسبوعية التى اعتاد الكاتب أن يخرجها فى جريدة العلم . وقد صدرها بقطعة شعرية فيها اشادة بالشعب المغربى ودفاع عن وحدة وطنه وغيرته على مقدساته · ثم وزع هذه المذكرات على ثلاثة عناوين حسب المراحـل فالمرحلة الاولى هى مرحلة (ما قبل المسيرة) . وقد كتب فيها عن سمات الشعب المغربى وجيشه الباسل ، فأما الشعب فهو شعب عريق فى التاريخ والحضارة والثقافة والقيم الانسانية ، واما الجيش فهو سليل الابطال الذين قهروا الاعداء فى معارك الزلاقة ووادى المخازن وأنوال وغيرها . ولذلك فان المغرب بشعبه وجيشه حين يتقدم اليوم لتحمل مسؤولية تاريخية انما يريد أن يضيف لامجاده مجدا ولاعياده عيدا .

واما المرحلة الثانية ، فهى التى تضم مجموعة من المقالات تحت عنوان (اثناء المسيرة) وفيها يكتب عن الظروف التى صاحبت الحدث التاريخـى الكبير وعن التحام القيادة بالقاعدة لافتداء الوطن وتوحيد التراب . وعـن ردود الفعل عند الاسبان والجيران . ويكتب عن قيمة الحدث فى نفسه فيقول : انهـا (مسيرة أعمق من أن يتحدث عنها بصيغة الماضى ، لانها انطلاقة الى المستقبل) ، ويقول : (ان المسيرة الخضراء معلم جديد ناصع فـى تاريخ المغرب الطويل . واذا كانت الشعوب تؤرخ بالاعوام التى حدثت فيها وقائع كبرى كالحروب والمجاعات والكوارث الطبيعية ، فان الاجيال القادمة من المغاربة سوف تؤرخ بعام 1975 عام المسيرة الخضراء كحد فاصل بين عهدين فى التـاريـخ) .

والمرحلة الثالثة ، عند الكاتب هى مرحلة (ما بعد المسيرة) الخالدة ٠ وفيها يكتب عن الصدى الذى خلفه الحدث لدى جيراننا الجزائريين . فلقد عمدوا الى الانتقام من المغرب لانه استرجع جزءا صغيرا من أرضه ، اغتصبه الاسبان كما اغتصبوا غيره من الجيوب ، وهكذا بادر حكام الجزائر الى شن الحملات الدبلوماسية والاعلامية فى كل محفل من المحافل الدولية بمناسبة وغير مناسبة ٠ أما المغاربة فقد تشبثوا بالحزم والاخلاق أثناء المسيرة وعليهم أن يلتزموا بعدها بهذا الحزم وهذه الاخلاق لبناء مستقبل فسيح الامال .

كتاب تنبيه الأكياس

تأليف المرحوم : محمد بن التهامى افيلال

صدر هذا الكتاب فى سبتمبر سنة 1976 م . عن مطبعة (ديسبريس) بتطوان فى 135 صفحة من القطع المتوسط الا أن حجمه الحقيقى لا يعدو 84 صفحة ، وما زاد على ذلك فهو عبارة عن تقاريض عديدة ألحقها بآخره السيد الحسن بن عبد الوهاب صهر المؤلف وناشر الكتاب الذى قدم لـه بصفحات فيها حديث عن عنوانه ونسخه الخطية وموضوعاته ، وتنبيهات أخرى تتعلق بجهود المؤلف فى محاربة البدع والعادات الفاسدة ، وما قام به نساء تطوان وفضلاؤها ، وكذا ما قام به رجال فاس سنة 1926 م على عهد الباشا البغدادى فى سبيل القضاء على العوائد المتفاحشة بخصوص الافراح التى غالى الناس فى التباهى بها .

أما المؤلف فهو من مواليد سنة 1884 م بتطوان وقد تدرج فى عدد من المناصب السامية بوزارة العدل اذ شغل منصب المستشار الاول بها ومنصب قاضى القضاة ، ثم استقل بتسييرها مدة سنة . وهو من علماء المغرب المشهورين فى المنطقة الشمالية على عهد الحماية . وله فضلا عن هذا الكتاب مؤلفات اخرى لم تطبع ولعل أهمها هى مذكراته بشؤون وزارة العدل

التى يوجد بعضها عند صهره ابن عبد الوهاب ، وقد كان الفراغ من تأليف الكتاب الذى نحن بصدده سنة 1350 هـ = 1932 م ولكنه لم يقدر لــه أن يرى النور الا فى أواخر هذه السنة الماضية . وذلك بعد وفاة المؤلف بنحو ثمان سنوات (توفى أفيلال سنة 1968 م) .

ويمكن لقارىء هذا الكتاب الذى يدل عنوانه على موضوعه : (تنبيه الاكياس للاقتصاد فى المآتم والاعراس .) أن يخرج منه بفكرة واضحة وهى أن صاحبه كان من رجالات السلفية التى عرفتها بلادنا كما عرفهــا الشرق العربى فى نهاية القرن الماضى ومطلع هذا القرن . فهو سلفى لانه يسلك طريق السلفية المصلحين فى الدعوة الى الرجوع لتعاليم الاسلام الصحيحة . ومحاربة ما غشى هذا الدين من أنواع الزيف والخرافات التى غطت على حقائقه ومنابعه الصافية ، وأظهرت للجهلة من الناس أن ديننا الحنيف مقتــرن بالاسطورة والشعوذة والفولكلور ، وهو مصلح اجتماعى لانه بذل جهده فى ارشاد الناس وتبصيرهم بما يصلح مجتمعهم ويهديهم الى النهج الــذى كان يسير عليه سلفنا وأجدادنا . ولذلك تراه يشير الى كل عادة سيئة وبدعة مضللة وعرف ممقوت بأصابع الاتهام . وهو أيضا فى منهج كتابه لا يتخلى عن طريق السلفية فى الاعتماد على المأثور من الاحاديث والسنن ، والمعروف من الآيات القرآنية وأقوال الصحابة والائمة . وهكذا يختار نصوص الاحتجاج وينتخب الادلة ليحارب بها ما ينكره على الناس من العوائد المستهجنة .

وقد تعرض لعوائد الزواج المغربى فرأى أنها من أسباب تخلفنــــا وتقهقرنا ، مقارنا حالنا بحال الاوربيين وغيرهم من الامم المتقدمة التى لــم تركن الى شىء من هذه العوائد ، بل اشتغلت ببناء المدارس والمستشفيات والمعامل والمصانع ، فى حين انهمكت شعوبنا الاسلامية فى تبذير الاموال الطائلة فى هذه التوافه والعوائد .

وهو لا ينكر على الناس مغالاتهم فى الافراح فقط (من أعراس وحفلات العقيقة والختان وغيرها .) بل ينكر عليهم أيضا المغالاة فى الأتراح والمآتم

واذا كنت قد أشرت سابقا الى ان صاحب الكتاب يعتبر من المصلحين الاجتماعيين . فهذا لا يناقض عندى أنه لم يبلغ فى ذلك ما بلغه رجـــال الاصلاح العظام فى المشرق العربى . بل ان ملامح كثيرة من القصور كانت ما تزال واضحة فى بعض آرائه الخاصة بالمرأة . فهو وان كان يدعو مثلهم الى تعليمها ، الا ان التعليم عنده مقصور على أمور الولادة وتربية الاطفـــال وتدبير شؤون البيت (ص : 58) ولو كان المؤلف مطلعا على آراء الكواكبى وقاســم أمين وغيرهما من أفذاذ الاصلاح لما رأيناه يقيد تعليم المرأة بشىء . ولا يحــد معارفهــا بحــدود ، بــل لدعــا هــو الآخــر الــى رفــع الجهــل عنهــا ودفعهــا الــى كــل ميادـيـن المعرفــة لتسهم فى تقــدم البشرية باطلاعها على كل ما يتـاح للرجل الاطــلاع عليه . وهو حين ينكر على المرأة أشياء كثيرة منافية للشـــرع مثل الاستهتار فى الزينة والتبرج والتباهى باللباس والحلى . يقرن هذه الاشياء بخروجها ومشاركتها للرجل فى كثير من الامور . وفى ذلك يستشهد بأقوال بعــض القدماء : (للمرأة فى عمرها ثلاث خرجات : خرجة لبيت زوجها ، وخرجة لموت ابويها ، وخرجة لقبرها .) ص : 78 .

وعلى كل حال : فالكتاب بالجملة يعتبر بذرة من بذور الفكر الاصلاحى المغربى . وان كان هذا الاصلاح لا يمس الا جانبا اجتماعيا محددا وهـــو الخاص بالعوائد الفاسدة فى المآتم والافراح . وهى ظاهرة طالما تشكــى الناس منها والشباب الفقراء منهم خاصة ، غير أنه لا غنى لمن يؤرخ للفكر المغربى الحديث من الاطلاع عليه والافادة منه ، رغم ما فى آراء صاحبه مــن قصـــور .

عبد العلي الودغيري



المؤتمر العربي الثامن للآثار

احتضنت مدينة مراكش فى الفترة ما بين فاتح فبراير 1977 الى غاية 9 منه ، المؤتمر العربي الثامن للآثار ، الذي اشرفت على تنظيمه وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، بتعاون مع المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم .

وقد افتتح هذا المؤتمر الاستاذ الحاج محمد أبا حنيني وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية بقاعة المجلس البلدي بحضور وفود الدول العربية الشقيقة المشاركة فى هذا المؤتمر والمدير العام المساعد للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم الدكتور ناصر الدين الاسد ، ورجال السلطة المحلية وعدد من الشخصيات العلمية والجامعية .

وفيما يلي نص خطاب السيد الوزير الذي ألقاه بهذه المناسبة :

خطاب السيد وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية

بسـم الله الرحمن الرحيم

أيها الاخـوة

أعـد مـن أجـمـل حـظـوظـي ، أن أقـف بـين أيـديـكـم فـي هـذه اللـحـظـة الـتـي تنطلق منها أعمال مؤتمركم ، حاملا اليكم تحية المغرب ، ملكه وحكومته وشعبه وترحيبه بحلولكم فى هذا الوطن الذى هو امتداد لاوطانكم ، وسروره بانعقاد اجتماعكم الثامن ، المفضى ان شاء الله الى أكفل النتائج بالرضاء وأدعاها الى الارتياح .

لقد وردتم على اخوة تعلمون ما يصلهم بكم من وثيق الصلات ، ويشج بينكم وبينهم من محكم الاواصر والعلاقات ، ويشد أفئدتكم الى أفئدتهم من مودة صادقة خالصة ، واخـاء ثابـت متـين .

وان ودادا يتسم بهذه السمة ، واخاء صريحا صحيحا كهذا الاخاء ، لخليقان بأن يضفيا على لقائنا وأعمالنا ، فى « بهجة » حواضر المغرب ، ملاءة عطرة ناضرة ، كناضر الروض البهيج .

واذا كانت وفادتكم وفادة الفطاحل الاعلام ، الذين يبتهى بهم العرفان ، وتعتز بهم العروبة وتسر بطلعتهم القلوب ، فـان

ابتهاجنا ليضاعفه ويذكيه ، مشاركة أخ لنـا نجلـه جميعا كل الاجلال ، ونكبره بالغ الاكبار ، لما توافر له من عظيم الفضل ، وأعطى من مزايا القلب والعقل ، ذلكم الاخ الابر ، الذى عجمناه وبلوناه ، فصدق الظن وأوفى على الحسبان ، هو الاستاذ الكبير، الدكتور ناصر الدين الاسد ، المدير العام المساعد للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، وانى موقن بأن وجوده بيننا ، سيسبغ على لقائنا هذا ، ما هو أهله من جد وفاعلية ، ويمد أعمالنا المشدودة الى أوسع الآمال ، بأقوى الانفاس وأبعد الابعاد ، فله الشكر المحض الوفير ، والثناء الغض الكثير .

ولامراء فى أن حضور منظمة اليونيسكو ، متمثلا فى وفد من أدعى الوفود الى التجلة والاحترام ، دليل ساطع على ما توليه هذه المؤسسة العالمية من اهتمام مرموق ، وعناية ظاهرة ، بشؤون الآثار فى الاقطار العربية ، ويسعدنى كثيرا أن أهتبل فرصة هذه الكلمة ، للتنويه بالجليل من مشاركتها ، والاشادة بالجزيل من مـؤازرتـهـا .

أيهـا الاخــوة

لا شك أنكم اخترتم هذه المدينة متبوأ لمؤتمركم ، لانكم تعلمون موقعها من تاريخ هذه البلاد ، ونصيبها مـن أحداث الذياد والدفاع عن الاسلام ، وحظها من استهواء للنفوس واجتلاب للاعجاب ، وليس بعازب عنكم أنها كانت فى حقب متطاولة من

حقب تاريخنا ، قاعدة لسلطان واسع عريض ، أنقذ الاسلام والمسلمين ، وثبت على مدى قرون أقدام المجاهدين المؤمنين ، فكانت دارا لنفوذ سياسى ، ترامت أطرافه ، وتباعدت أعطافه ، ومنطلقا لانتشار العرفان ، ومنتدحا لاشعاع الحضارة ، حتى نالت من خصيب العمران ، وذائع الصيت ، ونابه الشان ، ما وسم المغرب كله زمنا غير قصير ، وأعلمه باسمها بين الممالك والامصار ، وأبقاها على تجرم الازمان ، تنازع الافئدة والانظار ، وتجاذب عشاق الطريف والعجيب من مختلف المنازل والديار ، ولا غرو أن يخلف بين أسوارها ، وفى القريب والبعيد من ضواحيها ، ما تعاقب عليها من أمجاد ، آثارا يمر بها الزائر فيستمتع برؤيتها ، ويتأملها العارف الذاكر ، فترتد اليه منها صور قرون خاليات ، وعصور حافلة بالعبر والعظات .

وها أنتم أيها الاخوة ، مجتمعون فى هذه المدينة المترعة بالآثار ، المستجيشة للذكريات ، وقد كان فى وسعكم أن تختاروا غيرها ، وتؤثروا عليها من ديار الملك وقواعده ، مستقرا مليئا بحظ غير يسير من الآثار الاسلامية ، مجاورا لبقايا حضارات تقدمت اشراق الاسلام على جبال المغرب وسهوله ، وان ما هو منتشر بهذه البلاد من مختلف الآثار ، ظاهر على وجهها أو مستتر فى أعماق بطونها ، ليستدعى أن نبذل فى سبيل التنقيب والترميم ، والصيانة والمحافظة ، جهودا متواصلة تمتد من الشمال الى الجنوب ، وتتلاحق بين الشرق والغرب ، ولو كانت هذه الجهود بسيطة يسيرة ، لخفت الوطأة وقلت الاعباء وهان

الامر ، ولكنها جهود معقدة تقتضى أن تصرف بخبرة خاصة ، ومعرفة دقيقة ، وتوالى مصحوبة بدرس الدارسين ، وبحث العارفين ، وامعان نظر الذين راضوا صعب المقارنة والقياس ، وتمرسوا بغض الاستعجام ورفع الالتباس ، ثم ان هذه الجهود يجب أن تعرف على نطاق واسع ، وتطرح على صعيد مناقشة فارع ، وهى الى هذا مفتقرة الى سند وطيد ، ومال عتيد .

ولا شك أن جهود المغرب فى هذا المضمار ، تماثل وتضارع جهود كثير من اقطارنا العربية ، التى أدركت ما يجب للآثار من عناية متوالية ولمست ما يتعين أن تحاط به من رعاية واعية ، وتحظى به من حدب دائب ، وبر سابغ ، ولا جدال فى أن ما يحزبنا من نقص ، ويشق علينا من خصاص ، هنة لا نمتاز بها وحدنا ، ولا نختص بها دون سوانا ، وانما هى ظاهرة مشتركة ، وقسمة مشاعة بين اقطار غير معدودة .

فاذا كان ما لدينا من وسائل الخبرة التى تنتقل فى البلاد الغربية من طور الى طور ، بسرعة مذهلة ، ومن أسباب المعرفة التكنولوجية التى تتسع آفاقها يوما بعد يوم ، ومن ذرائع المال الذى تلح الحاجة اليه باتصال ، لمزاولة ما نبتغيه من متباين الاعمال ــ اذا كان كل هذا لم يرتفع بعد عندنا الى مستوى حرصنا وحدبنا وبرنا ، فان مهادنا مازال مفتقرا الى تمهيد ، وطريقنا مضطرا الى تعبيد .

اننا نجتمع من أجل الآثار حينا بعد حين ، لنهتم أعظم اهتمام ، ونصدر العديد من التوصيات ، ثم نتلاقى بعد ذلك لنستبين مراحل الانجاز والتنفيذ ، وقد أتيح لنا أن نحقق معتمدين على هذا المنوال ، شيئا غير قليل مما دعينا الى تحقيقه ، بيد أنني أسائل نفسي أحيانا هل يعود النهج المتواضع عليه ، بكل ما نأمله من فائدة ، ونتوق اليه من عائدة ، وهل من سبيل غير هذه السبيل ، تفضي بنا على أساس ضبط شديد ، وتنظيم محكم ، الى غايات أكثر وضوحا ، ونتائج أجدى نفعا ، وأوفر مردودا .

ان أقطار العالم تتجه اليوم ، لبلوغ ما تبتغيه من نمو اقتصادي ، ونمو اجتماعي ، الى وضع خطط تبث في طياتها من المشاريع ما تراه بعد الانتقاء والترجيح والترتيب ، كفيلا بتحقيق الاهداف والمطامح ، وقد تصل على ضوء هذه الخطط الى جميع غاياتها المنشودة ، وقد لا تصل من مقاصدها الا الى شأو بعيد أو قريب ، غير أنها تسير في طريق نموها ورقيها على بينة من أمرها ، وبصيرة من أمانيها ، وهذا النمط من التنظيم للاعمال ، يغري بمزاياه ، ويدعو الى اتخاذه مثالا يحتذى فيما يتصل بالآثار ، وفيما يجب أن يتناول من وجوهها بالانتقاء والاختيار ، والتقديم والتأخير ، والرعاية السابقة التي تتلوها رعاية لاحقة ، وأوجب ما يجب فيما نعتقد ، أن يعار جانب التكوين بمختلف درجاته ومراتبه ، اهتمام الاقطار المفتقرة الى اطارات التنقيب ، واطارات الدرس والبحث ، واطارات المختبرات

والمتاحف ، واطارات الترميم والمحافظة . فاذا أضفنا الى هذا الاهتمام اهتماما آخر لا يقل عنه شأنا ووزنا ، آخذين على أنفسنا أن نقوم خلال مدة نتفق على تحديد مداها ، بأعمال حفر وتنقيب فى جهات نعينها ، وأعمال تعهد وترميم وصيانة لآثار نبينها ونعلنها ، وأعمال تيسير لاسباب العرض والاستفادة ، فاننا راكبون لامحالة ، بحكم هذا الاهتمام وهذا الالتزام ، جددا لا ينحرف ذات اليمين أو ذات الشمال ، ويبقى بعد ذلك علينا ، أن نضمن ما قر غليه العزم ، وتصدت له الارادة ، فصلا يضم الى فصول ، وبابا يوصل بأبواب ، من كتاب خطة مرسومة منظومة ، تتولى المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم تأليفه ، والسهر على تنفيذ ما نص عليه من أهداف وصرح به من مشاريع ، ولست أنكر ما يقيمه وضع هذا التصنيف على متن الطريق من عقبات ، ولا ما يتطلبه تذليلها من جهود ، الا أن مزايا التخطيط المتمثلة فى وضوح أهداف كل قطر ، وفى الالتزام المسطور بالانجاز ، وفى الوقت المتاح لكل دولة أن تفكر وتحرر ، وللمنظمة العربية أن تمارس التنسيق ، وتتصرف الى استنباط النتائج واستخراج التوجيه ، وفى ابراز ما يسلكه كل قطر من مسالك ، ويتوسل به من وسائل ، وفى اطلاع الدوائر الاسلامية والدوائر الغربية ، على الموارد والمصادر من دأبنا ؛ وفيما يمكن أن يلاحظ على أسباب أخذنا وردنا ، كل هذه المزايا حرية ان اقتنعتم بها ، بأن يتناولها مؤتمركم بالنظر السديد والرأى الرشيد .

يسعدنى مـرة أخرى أيها الاخوة ، أن أنقل اليكم تحيـات صاحب الجلالة الحسن الثانى أطال الله بقاءه ، وتحيات حكومته وشعبه ، وأحمل اليكم ترحيب العاهل الكريم صاحب المآثـر والآثار ، وترحيب حكومته وشعبه ، باجتماعكم والتئامكم فـى هذه المدينة ذات الرواء الاصيل ، والمجد الاثيل .

وفقكم الله لصالح الاعمال ، وييسر لكم سبل النجاح ، انه ولى التوفيق والتيسير .

محمد باحنيني

* * *

وبعد حفلة الاستقبال التي اقامها المجلس البلـدي على شـرف المؤتمرين ، استمرت اعمال المؤتمر ثمانية أيام متتالية شاركت فيه عدة شخصيات من ممثلي الدول العربية ، ومنظمة اليونسكـو ، وباحثيـن وأساتذة جامعيين ، بالاضافة الى ممثلين عن عدة منظمات الآثار العربيـة والدولية ، وقد تناول المؤتمرون بالبحث والدرس مشاريع التنقيـب ، وامكانات التعاون لتكوين الاطر ، واستعمال المناهج الحديثة فى ميدان البحث عن الآثار بالوطن العربي ، وكيفية ترميمها والمحافظة عليها .

كما استمع المؤتمرون الى جميع التقارير التي تقدمت بها الوفـود العربية وكلها متعلقة بالآثار .

وقد تميز نشاط أعضاء المؤتمر بحضور عدة معارض ومحاضـرات وندوات علمية ، كما نظمت على شرفهم سهرة فنية كبرى بسينما بلاص ، اثر عودتهم من الرحلة الاستطلاعية التي قاموا بها الى اقليم ورزازات .

وتجدر الاشارة الى أن الدول المشاركة فى هذا المؤتمر هي :

الاردن ، الامارات العربية ، البحرين ، تونس ، الكويت ، ليبيـا ، مصر ، العراق ، المملكة العربية السعودية ، سلطنة عمان ، السـودان ،

قطر ، فلسطين ، اليمن الديموقراطية ، الجمهورية العربية اليمنية بالاضافة الى المغرب وممثلين عن منظمتي اليونسكو والاليسكو .

هذا ، وقد قرر المؤتمر العربي الثامن للآثار عقد المؤتمر التاسع للآثار القادم بصنعاء ـ عاصمة الجمهورية العربية اليمنية فى ربيع سنة 1979 وذلك بطلب من ممثل هذا البلد فى المؤتمر .

الوفود العربية تبعث ببرقية شكر وامتنان إلى جلالة الملك

بعث الدكتور ناصر الدين الاسد المدير العام المساعد للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم والدكتور عبد الهادي التازي رئيس المؤتمر العربي الثامن للآثار ببرقية الى جلالة الملك الحسن الثاني باسم الوفود المشاركة فى المؤتمر هذا نصها :

صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني :

بمناسبة انعقاد المؤتمر الثامن للآثار بمراكش احدى العواصم العريقة وحواضر العلم والثقافة فى ربوع مملكتكم الزاهرة ، تتشرف الوفود المشاركة فى المؤتمر والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بالاعراب عن أصدق مشاعر التقدير لجهدكم البطولي ومواقفكم العربية ، ويقدمون آيات الشكر لمقام جلالتكم وحكومتكم الرشيدة ، ولشعبكم المغربي الاصيل ، على كرم الضيافة وحسن الحفاوة والوفادة التي لقيناها فى هذا الجزء الغالي من وطنها ، وتشيد بالجهود التي يبذلها فى مضمار الحفاظ على الآثار وعلى التراث الحضاري والثقافي عامة .

وان أعضاء الوفود ليسترجعون بهذه المناسبة ذكرى المغفور له والدكم العظيم ، الذي استضاف المؤتمر العربي الثالث للآثار بمدينة فاس، ويسألون لروحه الرحمة جزاء لما قدم لشعبه المغربي وللامة العربية ، ويتوجهون الى الله أن يكلأ جهود جلالتكم وجهود اخوانكم الملوك والرؤساء العرب فى سبيل رفعة أمتنا وتوحيد كلمتها واعلاء شأنها .

مأدبة عشاء على شرف الوفود المشاركة

اقام الاستاذ الحاج محمد ابا حنيني وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية، مساء يوم الاربعاء 12 صفر الخير 1397 الموافق 2 فبراير 1977 بقصر الحمراء بمراكش مأدبة عشاء تكريما للوفود المشاركة فى المؤتمر العربي الثامن للآثار ، حضرها رجال السلطة المحلية ، ورئيس المجلس البلدي ، وعدد من رجال الثقافة والبحث ، كما شاركت فى احياء هذا الحفل فرق فلكلورية من مراكش ، وجوق المعهد التطواني للطرب الاندلسي .

وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية ينصب مدير دار الحديث الحسنية

اشرف الاستاذ الحاج محمد ابا حنيني وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية عشية يوم الخميس 16 ربيع الثاني 1397 موافق 7 ابريل 1977 على تنصيب الدكتور فاروق النبهان الذي عينه صاحب الجلالة مديرا لدار الحديث الحسنية .

وقد حضر حفلة التنصيب بعض الوزراء فى حكومة صاحب الجلالة وعدد من سفراء الدول العربية المعتمدين بالرباط وجمهور من العلماء والادباء والمثقفين وعدة شخصيات أخرى .

وبهذه المناسبة القى السيد وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية خطابا نوه فيه بكفاءة السيد مدير دار الحديث الحسنية الجديد ، وبالمكانة التي تتمتع بها هذه الدار لدى صاحب الجلالة ، كما أشاد بالمجهود الذي بذله المدير السابق فى سبيلها .

وفيما يلي نص الخطاب الذي ألقاه السيد الوزير بهذه المناسبة :

خطاب السيد وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية

بسم الله الرحمن الرحيـــم

حضــــرات الســـادة :

عهد الي صاحب الجلالة الحسن الثاني أدام الله ناضر زمانه ووأطد سلطانه بتسليم مقاليد هذا المعهد الموسوم باسم العاهل الكريم الظافر بالسابغ من كلاءته ورعايته الى مديره الجديد العالم النحرير الدكتور فاروق النبهان ، وأني لمبتهج شديد الابتهاج ومعتز عظيم الاعتزاز بأن يضفى علي شرف هذا التسليم ويختار للحظوة بهذا المنصب الجليل صديق مبجـل عزيز ، واذا كانت الاعراف جارية فى مثل هذه المناسبة بتقديم من يقـــع عليه الاختيار وتسند اليه المهام الى الملا من ذوي الصلة والعناية ، فما أراني اليوم فى حاجة الى ركوب مسلك مألوف والاخذ امتثالا للعادة بعرف معروف ، ذلك ان الدكتور الفاضل أغنى بما فيه بلاغ للسائلين ، فقد قدم نفسه أحسن تقديم الى مختلف طبقات المثقفين فى مشارق الارض ومغاربها بما ألقى من دروس وألف من تآليف وتحدث به من أحاديث وعرف الناس بالواسع من درايته والدقيق من بحثه والصحيح من استنتاجه والمتصل من كفاحه ونضاله اعلاء لكلمة الدين وتبيينا لاعلاق الفكر الاسلامي وترغيبا فيما انجبته العبقرية الاسلامية من ثقافة غنية مخصاب وأبقته من تــراث شامـــخ بهيـــــج .

حضـــرة الدكتـــور الاخ العزيـــز :

انك تتسلم اليوم دار الحديث الحسنية بعدما خطت خطى موفقة وسارت مراحل محمودة هيأ اسبابها وتولى تحقيقها جهـــد مشاع وداب مشترك بين مديرها السابق الاخ الفاضل العالم مولاي مصطفى العلـــوي وبين الجلة الاعلام من العلماء القائمين بأمر التثقيف والتوجيه فى رحابها

العامرة ، لقد أعطى سلفك غاية ما يملك من عطاء وبذل جهابذة العلماء من ثرائهم العلمي بكرم وسخاء رغبة منهم في ارساخ دعائم هذه المؤسسة الناشئة وحرصا منهم على ان تؤدي ما ناط بها صاحب الجلالة أيده الله من رسالة تنقشع على لألائها الظلماء ، واني لمغتبط سعيد بان تتاح اليوم لي هذه الفرصة المستطابة للتنويه بما أبلاه سلفك المفضال من بلاء حسن وبما حظيت به هذه الدار من جهود موسومة بسمة الاخلاص مصروفة الى جعلها منهلا ممتازا بين مصادر العرفان وموارده ، ويسعدني الى هذا ان أعرب للمدير السابق ولصفوة العلماء الذين ءازروه وعززوه عن جزيل الشكر وجميل الثناء ..

حضرة الاخ الكبير :

إن الامل عظيم ان تتقلب دار الحديث الحسنية بالسديد من نظرك والحكيم من تدبيرك في أطوار تتلاحق متجددة وتتساوق على جادة التوفيق متعددة حتى تنتصب بعد ادراكها الشأو البعيد منارا للسالكين الى علوم الدين سبلا منطلقة من أقطار متباعدة متباينة .

لقد أفضى اليك صاحب الجلالة الحسن الثاني أطال الله بقاءه بالاهتمام البالغ الذي يوليه لدار الحديث وبالاغراض التي يتطلع الى ادراكها ، من خلال اعتلاق الطلبة بالكتاب العزيز والسنة النبوية وأوضح لك يوم أفضى اليك بهذا كله ما يستجيشه من طموح الى أن تصبح هذه الدار الموقوفة على كتاب الله وسنة رسوله صلوات الله عليه وسلامه حصنا حصينا يقي العقول والافكار مكاره الغزو والتوهين ومركزا وثيق الاركان من مراكز التألق والاشعاع ومنطلقا وطيدا لاصلاح النفوس المعتلة والضمائر المدخولة ثم أنتهى الى نفسك من البيان الملكي آن الغاية المطلوبة أن يعطي هذا الصرح من المناعة ويمد به من الاسباب ويضفي عليه من الجلال ويكسب من الوزن والفاعلية ما يرد التيارات المناوئة للدين مفلولة الحد داحضة مدحورة لا تستطيع وان اجتهدت أن تحدث في المجتمع السليم ما تبتغيه من شنيع الاثار .

وتلقيت حديث أمير المؤمنين المخلص الوفي للثقافة الاسلامية وتراث المسلمين بالبشر الطافح والشعور الذي تشتد المسرة باشتداده

ويتوطد العزم باحتداده ، ولم يتسع فى نفسك هذا الابتهاج ولم يداخلك ما داخلك من هذه الرؤية الحازمة الا لان حديث العاهل الثابت الايمـــان صادف هوى فى قلبك غضا غضيرا ووافق المألوف من اهتمامك والمعهود من آرائك ومشاربك والشائع فى تصانيفك ودروسك وأحاديثك ، وكان من حسن حظي أن استمعت الى العاهل العظيم وهو يحادثك وطالعت ما تهللت به قسمات وجهك وخلصت الى ما سرى من أثر فى وجدانك فاستبشـــرت بالاختيار الواقع عليك واستيمنت بالتوافق بين المقاصد الملكية السامية والغايات التي يتولاها منك جهد جهيد واعتناء طارف وتليد وأيقنت ان دار الحديث الحسنية المؤسسة على التقوى ورضوان من الله موعودة بأجمل حـــال وأسنـــى مثـــال .

واني اذ احيي فى شخصك أيها الاخ العزيز العالم الذي أحببناه منذ عرفناه وطفقنا نسر بطلعته وحديثه كلما لقيناه وحادثناه لاعد من أسباب سعادتي أن أجدد لك فى هذا الحفل الحفيل تهنئتي بما حظيت به من ثقة سامية غالية وأردد ما شافهتك به من يقين بأن الله سيسدد خطاك وينجح مسعاك ويكتب لدار الحديث الحسنية بجميـــل تصريفك ولطيف تأتيـــك المصير المعلم بالاشراف على مدى العصور والازمان .

انه ولي التوفيق والتيسير وهو نعم المولى ونعم النصير .

محمد باحنيني

* * *

كما القى الدكتور فاروق النبهان المدير الجديد للدار خطابا مسهبا تحدث فيه عن اعتزازه بالثقة الكريمة التي أولاها اياه صاحب الجلالة فى الاشراف على دار الحديث الحسنية وعن المشاريع التي يعتزم القيام بها لصـــالحهـــا .

وقد اختتمت الحفلة بخطاب السيد مولاي مصطفى العلوي المديـــر السابق لدار الحديث الحسنية والذي تحدث فيـــه عن المنجزات التى تحققت فى عهده لصالح دار الحديث الحسنية .

اجتماع المجلس الحاكم للمركز الاقليمي لصيانة الممتلكات الثقافية في الدول العربية

انعقد ببغداد عاصمة الجمهورية العراقية فى الفترة ما بين 18 و 25 ابريل 1977 الاجتماع الاول للمجلس الحاكم للمركز الاقليمي لصيانة الممتلكات الثقافية فى الدول العربية .

وحرصا من وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية على أن يكون المغرب حاضرا فى جميع المؤتمرات والندوات التي تعقد خارج الوطن ، فقد شاركت فى هذا اللقاء الهام بوفد يتكون من :

السيد مصطفى اعشي : مندوب وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية بمراكش .

السيد ادريس الدخيسي : من مصلحة احياء التراث الوطني بالوزارة.

ومن أهم اعمال هذا الاجتماع تكوين (المجلس الاداري) الذي انتخب فيه السيد مصطفى أعشي نائبا لرئيس المجلس الاداري .

هذا ويعتبر المركز الاقليمي لصيانة الممتلكات الثقافية فى الدول العربية والذي مقره بغداد ، خامس المراكز الاقليمية التي انشاتها اليونسكو فى مختلف ارجاء المعمور . فالاول بنيجريا لصالح افريقيا ، والثاني بمكسيكو لصالح امريكا اللاتينية ، والثالث بالهند لصالح دول آسيا ، والرابع بطكيو لصالح دول شرق آسيا .

الأسبوع الثقافي للمملكة العربية السعودية بالمغرب

توطيدا للروابط العريقة ، والعلاقات الاخوية والثقافية المتينة التي تربط المغرب بالمملكة العربية السعودية الشقيقة ، نظم بالمغرب اسبوع ثقافي سعودي افتتحه ــ مساء الجمعة 24 ربيع الثاني 1397 موافق 15 ابريل 1977 ، بمسرح محمد الخامس ــ الاستاذ الحاج محمد أبا حنيني وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية ، وسفير المملكة العربية السعودية بالرباط السيد فخري شيخ الارض .

وقد بذلت وزارة الاعلام السعودية مجهودات مشكورة لتقديم هذه التظاهرة الثقافية الى الشعب المغربي تقديما يدعم الاواصر التاريخية والحضارية المتأصلة بين البلدين الشقيقين ، وعينت للاشراف عليها نخبة من ذوي الكفاءات فى مختلف الميادين ، كالادب ، والموسيقى ، والمسرح ، والسينما ، والفنون الشعبية والتشكيلية .

كما أن وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية عملت ــ من جهتها ــ على اشاعة هذا البرنامج الثقافي فى عدد كبير من المدن المغربية، وكان محتويا على سهرات موسيقية ، ومحاضرات ، وقراءات شعرية ، وعروض سنمائية، ومعارض للكتب ، والفنون التشكيلية .

وحضر حفلة تدشين هذا الاسبوع بعض أعضاء الحكومة المغربية ، ورجال السلك الدبلوماسي العربي والاجنبي ، الى جانب مجموعة كبيرة من الشخصيات الثقافية والصحافية والعلمية .

حفلة تكريم على شرف أعضاء الوفد السعودي

أقام السيد وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية ، الاستاذ الحاج محمد أبا حنيني مساء يوم السبت 11 جمادى الاولى 1397 موافق 30 ابريل 1977 مادبة عشاء على شرف أعضاء الوفد السعودي بمناسبة الاسبوع الثقافي للمملكة العربية السعودية الشقيقة بالمغرب، حضرها بعض الوزراء المغاربة ، وسفير المملكة العربية السعودية وعميد السلك الدبلوماسي السيد فخري شيخ الارض ومجموعة من الادباء والمثقفين والصحفيين .

وقد القيت أمام الحاضرين قصائد من شعراء مغاربة ، وسعوديين قوبلت بالاستحسان .

ويسر ((المناهل)) أن تثبت فيما يلي قصيدة الشاعر المغربي الاستاذ علي الصقلي التي القاها في هذه المناسبة :



على نغم المحبة والتصافي ... تغنى القلب ملتهب الشغاف

وطار على جناح الشوق يلقى ... مواكب اخوة نجب لطاف

ترنح بين أحنائي طروبا ... وهزته العلى هز ارتجاف

ولم يك خفقه الا نشيدا ... بعيد الجرس ، جياش الهتاف

كذلكـــم الهـوى أسمـى ذراه ... هـوى قد شـب فى ظل ائتـلاف

وبشـر بالفضيلـة والتآخـى ... وأزرى بالرذيلـة والتجافـى

ومن كضيوفنـا الأنجـاد أصفى ... لنا ، بين الورى ، من كل صاف ؟!

ومن أندى يـدا ، وأبـر وعـدا ... ومن أوفى لدى الروع المخاف ؟ !

❋ ❋

أحبائـى ، وفى أكناف حلـم ... بلقياكـم ، كموج العطـر ضاف

على عرصاتـناها تـد طالعـتـم ... طلوع السعـد فى ركب الزفـاف

ووافيتـم كمثـل العيـد يدنى ... قطـوف الامنيـات اذا يوافـى

وفى خطواتكـم أمـل وعـزم ... وسـر من مضاء غيـر خـاف

وفى دعواتكـم تأكيـد حـب ... يفيض كدافـق السيـل الجراف

❋ ❋

أحبائـى مـن الحرمين ، أهـلا ... بكـم رسل الثقافـة والقوافـى

كبيت اللـه بيـت الفكر رمتـم ... فمن سعى يحـث الـى طـواف

ومن حرم السجال بـدون مكـر ... الى حرم الفلاح بـلا جنـاف

ومن فـن كنفح « البيت » طيبا ... الـى فـن كزمزمـه المعافـى

لذا كـم منسـك للفـن يبقـى ... أسير جميلكـم ، رهن اعتـراف

أليس الى الروائـع قـد أضفتم ... لنـا من آيكم أسمـى مضـاف

فلم يغـد المحيط سوى خليـج ... زهت فيه الضفاف على الضفاف

ونـال الفـن غاية مـا تمنـى ... وذاق الفكر من أغنـى الصحاف

وأولاكـم أديـب العرب أغلـى ... فرائـده كؤوسـا مـن سـلاف

هنيئـا لا يريـم بمـا ارتشفتم ... وخيـر الراح يزكو بارتشـاف

فمن للضاد فـى شرق وغـرب ... بـراع مثلـه للضـاد و ا ف

* *

أحبائـى ألا أعظـم وأكـرم ... بكم وبنـا مثـالا جـد كـاف

بنينـا بالمحبـة خيـر مجـد ... وشدنـا صرحه بيـد العفـاف

وقادتنـا علـى درب المعالـى ... نفـوس حـرة دون اعتسـاف

فلم نـك فى الخنـى طلاب سبق ... ولم نك فى البذاء ذوى احتراف

ولسنـا بالسخـاف اذا رأينـا ... ولا عنـد الملمـة بالضعـاف

وفى الاسلام كـم مثـل عظـام ... لمن لم يغـر بالمثـل العجـاف

وفى أبطالـــه للعـرب ذكـرى تحض علـى التحـام والتفاف

ومـا بالعـرب من داء عصـوف بحولهـم سـوى داء الخـلاف

عسى الايام تكشفه ، ولـم لا ؟ فكـم من راحـم فيها مشافـى

* *

أحبائـى سـلام كالخـزامـى يضوع شـذاه من أقصى مطاف

وان قلت ، الوداع ، فذاك يعنى الى لقيا ، علـى أمل انعطـاف

الربـاط **علـى الصقلى**

زيارة وزير التعليم العالي الشيخ حسن عبد الله آل الشيخ للمملكة المغربية

جلسـة العمـل التمهيديـة

تلبية للدعوة التي وجهها وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافيـة الاستاذ الحاج محمد اباحنيني ووزير التعليم العالي الدكتور عبد اللطيف ابن عبد الجليل ، الى وزير التعليم العالي السعودي الشيخ حسن عبد الله آل الشيخ ، انعقدت بمقر وزارة الثقافة جلسة عمل بتاريخ 25 مايو 1977 فى الساعة الحادية عشرة والنصف ، حضر الجلسة بالاضافة الى الوزراء المشار اليهم السيد فخري شيخ الارض سفير المملكة العربية السعودية

وعميد السفراء العرب . والدكتور محمد عمر زبير مدير جامعة الملك عبد العزيز بجدة، والمرافق الخاص للوزير الدكتور سعيد سويلم المالكي، والسيد محمد ابن عبد السلام الملحق الثقافي بسفارة المملكة العربية السعودية ، والكاتبان العامان لوزارتي الثقافة والتعليم وعدد من الموظفين السامين بالوزارتين .

افتتح الجلسة السيد وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية بتحية عبر فيها عن الابتهاج والسرور بحلول الوزير السعودي بالمملكة المغربية ، مشيرا الى ان هذه الزيارة ستزيد من تمتين أواصر الاخوه والصداقة ، كما انها ستكون فاتحة عهد لنشاط ثقافي مثمر داخل البلدين الشقيقين ، يمتد اشعاعه الى ربوع العالم الاسلامي ، ثم أعطى الكلمة للسيد وزير التعليم العالي المغربي ، الذي رحب بنظيره أعمق ترحيب ، وتمنى بدوره أن تتمتن العلاقة بين وزارتي التعليم العالي فى مجال تبادل الخبرات والاساتذة ومجال أعداد برامج مشتركة بين الجامعات ، وأشار الى أن الفرصة ستتاح فى جلسة العمل التي ستعقد بوزارة التعليم العالي يوم الجمعة 5 مايو ويحضرها المشرفون على المؤسسات الجامعية فى البلدين الشقيقين ، ليتدارسوا امكانات التبادل والتعاون ، ثم أشار السيد وزير التعليم العالي الى المجهود الجبار الذي تبذله المملكة العربية السعودية فى مجال التعليم العالي والثقافة الاسلامية .

وبعد ذلك أشار السيد وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية ، الى ان روابط التعاون وثيقة بين البلدين مستدلا بما لقيه الاسبوع الثقافي من اقبال ونجاح ، مما يؤكد محبة الشعب المغربي للشعب السعودي ، ورجا تحقيق خطوات أخرى ، ثم أعرب عن عزمه على تنظيم أسبوع ثقافي مغربي بالمملكة العربية السعودية فى العام القادم بحول الله .

كما عبر كل من السفير السعودي والملحق الثقافي ، عن اعتزازهما بالعناية الفائقة التي لقيها الوفد السعودي فى الاسبوع الثقافي الذي نظمته المملكة بالمغرب فى الايام القريبة الماضية ، وتمنيا أن تكون الزيارات لفترة أطول وبطريقة منظمة تكفل الفائدة للاطر الفنية والمسرحية .

وتدخل السيد وزير التعليم السعودي في موضوع تبادل الزيارات بين شباب البلدين ، مؤكدا ان هذه الزيارات تعمق العلاقات الاخوية وتفتح طريق التعاون أمام الاجيال في المستقبل البعيد ، وأثنى على الحفاوة التي لقيها الطلبة السعوديون بالمغرب مشيرا الى شوق الجامعيين السعوديين لزيارة المغرب نظرا للزيارات المفيدة التي قام بها زملاؤهم ، وما حملتـه اليهم التقارير من معلومات قيمة ، جعلتهم يحملـون كل تقدير للشعـب المغربي العربي الاصيل ، ثم عبر عن تفاؤله في أن تسفر زيارته عن علاقات وطيدة في المجالين الثقافي والجامعي ، وحيى صاحب الجلالة على جهوده التي تؤكد أن المغرب قلعة من قلاع الاسلام الحصينة ، وأكد ان الواجب يقتضي العمل على تقوية الصلات بين البلدين في حقل العلم والثقافة .

ورد السيد وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية قائلا : ((نحـن ملتزمون بنفس المبادىء ونسعى لغاية واحدة وهي القضاء على التيارات الجارفة التي تريد أن تقوض دعائم الاسلام ، وأعتقد أنه من واجب بلدينا الملتزمين أشد الالتزام بالقيم الاسلامية أن تتوثق العرى وأن يأخذ كل منا بيد أخيه ، حتى نجنب العالم الاسلامي شر التيارات الهدامة)) .

وعن توجيه الشباب تحدث السيد وزير التعليم المغربي بان المغرب يشعر بنفس المسؤولية نحو الشباب ، وينصب اهتمامـه على وضـع الخطط الكفيلة بتوعيته وتثقيفه وتحصينه من كل التيارات الجارفة .

وعقب السيد مدير جامعة الملك عبد العزيز السيد عمر زبير ، بأن الجامعة التي يديرها حاولت ترجمة القيم الى واقع حي أشبـه بالتجارب العملية فنظمت لقاءات أساسها فتح الحوار بين الطلاب والاساتذة تطرح فيه الموضوعات للنقاش يخرجون الطلاب منها بتجربة أكثر اقناعا وأكبـر ترسيخـا في الاذهـان .

وشرح السيد الوزير السعودي بان الطريقة تتم على الشكل التالي : يدعى المحاضرون المتمكنون من العلم والقدرة على التاثير . ويعد الطلبة اسئلة بكامل الحرية وتقدم للمحاضرين ليجيبوا عنها ، وكثيرا ما تظهر هذه

الاسئلة الصراع الذي يكون فى شكل كفر بالمبادىء او انحراف أو بعد عن الديـــن .

وعقب السيد وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية ، بان زعمـــاء الشيوعية يملكون الاداة الجدلية والتنظيم ، فيستطيعون بذلك بث مـــا يريدون من أفكار فى الطلاب ، ولذلك فاننا نعقد أملا كبيراً على دار الحديث الحسنية ليتخرجمنها اساتذة علماء بأسرار الشريعة ومقاصدها، وعلىء'م بطرق التبليغ والاقناع ، مما يدل على اننا نسير معا فى طريق واحد يؤدي الى هدف واحد .

وعقب السيد الوزير السعودي بأن اللجوء الى التنظيم والى نكران الذات وتوحيد الكلمة من العوامل الاساسية لتحقيق ما نريده .

وذكر السيد وزير الدولة فى الشؤون الثقافية بان المسؤولية تقع على اساتذتنا لان اتصال بلادنا بالغرب فى وقت مبكر وتأثر شبابنا الذي لم يكن يملك حصانة أو رصيدا من قيم ودين أوجب عليهم أن يبذلوا جهـــدا كبيرا لارجاع شبابنا الى حظيرة الاسلام .

ونبه السيد السفير الى ان البدء لا بد أن يكون من القاعدة . وخطة صاحب الجلالة الحسن الثاني لتعميم المدارس القرآنية امر أساســـي . وهنا اقترح السيد الملحق الثقافي أن تقوم السعودية باستقدام علمـــاء أقطاب من العالم الاسلامي لزيارة المملكة المغربية . وهنا عقب الوزيـــر السعودي بأن مجالات العمل لا حصر لها ، وذلك أمر يقتضي تحديد صلة مدروسة بتكوين لجنة مشتركة تضع خطة تتدارسها بالتنـــاوب فى كـــلا البلدين ، ثم يتفق على تنفيذها فى زمن محدد وينفذ كل جانب ما يلتزم به.

ثم تحدث السيد الوزير السعودي عن افتتاح المعهد العالي للدعوة الاسلامية بالرياض والذي سلك سبيلا جديداً بحيث فتح أبوابا فى وجـــه الاطباء والمهندسين والجيولوجيين ، ولم يقتصر على المتخصصيـــن فى

الشريعة ليدرسوا أساليب الدعوة الى الله ، وقد اختير للمعهـــد خيـــر الاســـاتـــــذة .

وأعرب السيد وزير التعليم العالي المغربي عن رغبته فى التعرف على هذه التجربة واتاحة الفرصة لانتظام الطلاب المغاربة بالمعهد المذكـــور والاستعانة ببرامجه ومناهجه فى مشروع معهد الفكر الاسلامي والحضارة الاسلامية الذي سيحدث بمدينة الدار البيضاء بأمر من صاحب الجلالـــة الحسن الثاني رعاه الله . وهنا اقترح السفير السعودي أن يتعاون المغرب مع المملكة العربية السعودية فى انشاء مركز للدعوة بغرب افريقيا نظرا للعلاقات التاريخية والدينية التي تربط بين المغرب وافريقيا .

ونبه السيد وزير الدولة المكلـف بالشؤون الثقافيـــة الى ان دور الاسلام فى القارة الافريقية عظيم ، وان صاحب الجلالة يـــرى أن الدعوة الاسلامية فى افريقيا ستؤدي الى الاستقرار السياسي . وأكد أن تكوين المتخصصين في العلوم والتقنيات تكوينا اسلاميا ، عمل عظيم سيعـــود بالنفع العميم على الامة الاسلامية جمعـــاء .

وقد توقع السيد الوزير السعودي لهذا اللقاء نتائج كبيرة ذاكرا أن من صميم واجب بلدينا أن يعملا فى تعاون محكم على نشر الاسلام وثقافته وحضـــارتـــه .

ثم تعرض الوزيران فى النهاية الى ضرورة العمل على نشر الكتاب الاسلامي بسائر اللغات ، والتعاون فى مجال الطبع والنشر لتحقيق نهضة اسلامية شاملة يمتد مفعولها الى جميع بقاع العالم . وفى نهاية الجلســـة دعا الوزير السعودي زميليه لزيارة السعودية قصد الاطلاع على المشاريع العلمية والثقافية ، وحرصا على تمتين عرى الصداقة والتعاون بين البلدين الشقيقيـــن .

الاتفاقية المبرمة بين وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، ووزارة التعليم العالي بالمملكة المغربية ، وبين وزارة التعليم العالي بالمملكة العربية السعودية

استجابة للدعوة الموجهة من طرف السيد وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية الاستاذ الحاج محمد ابا حنيني والسيد وزير التعليم العالي الدكتور عبد اللطيف بن عبد الجليل الى صاحب المعالي وزير التعليم العالي بالمملكة العربية السعودية الاستاذ الشيخ حسن بن عبد الله آل الشيخ .

وتبعا للاتفاق المبرم بين الوزراء الثلاثة فى الجلسة التمهيدية المنعقدة بمقر وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية صباح الاربعاء 6 جمادى الثانية عام 1397 الموافق 25 ماي 1977 .

انعقدت بوزارة التعليم العالي بالرباط جلسة عمل تحت الرئاسة الفعلية لوزيري التعليم العالي السعودي والمغربي حضرها المسؤولون عن الثقافة والمؤسسات التعليمية العليا الذين زودهم الوزيران بالمرامي والاهداف السامية التي ستكون فى المستقبل القريب بحول الله ، مجالا لتمتين أواصر الاخوة والتعاون ودعم الثقافة الاسلامية والاسهام فى النهوض بها بواسطة المؤسسات العلمية العليا والمراكز الثقافية داخل البلدين الشقيقين وخارجهما .

* * *

التوصيات المتفق عليها من طرف اللجنة الموسعة المؤلفة من ممثلين عن المملكتين الشقيقتين : العربية السعودية

والمغربية ، المجتمعة بمقر وزارة التعليم العالى بالربـــاط
مســاء يــوم الجمعة 8 جمــادى الثانية عــام 1397
الموافق 27 مــايــو 1977

انطلاقا من المفاهيم الموحدة التي تجمع المملكتين الشقيقتين العربية السعودية والمغربية من أجل دعم نهضة ثقافية مبنية على أسس متينـــة عمادها الالتصاق بالتراث والقيم والمثل الاسلامية والاعتزاز بها .

توصي اللجنة ــ الموسعة المؤلفة من ممثلي الجامعات والمؤسسات العلمية العليا وممثلي شؤون الثقافة فى القطرين الشقيقين والمجتمعـــة بمقر وزارة التعليم العالي بالرباط مساء الجمعة 8 جمادى الثانية عام 1397 الموافق 27 مايو 1977 ــ بأن تكون مجالات التعاون كما يلي :

فى شــؤون التعليــم العالــي

1) الاهتمام بتحديد فلسفة عامة للتعليم العالي مستمدة من روح التعاليم الاسلامية الخالدة تكون منطلقا للاسهام فى نهضة اسلامية رائـــدة شاملـــــة .

2) تبادل المناهج والبرامج ووسائل البحث العلمي .

3) تبادل الاساتذة فى مختلف فروع المعرفة بين الجامعات والمؤسسات العلمية العليا والمعاهد التابعة لها .

4) تبادل الزيارات بين الاساتذة والخبراء .

5) تنظيم ندوات علمية وفكرية حول موضوعات يتم تحديدها من طرف اللجنـــة المختصـــة .

6) التعاون فى مجالات البحث العلمي والتربوي .

7) تبادل الكتب والنشرات بين المؤسسات العلميـــة العليا ومراكـــز البحـــث .

8) دعم المراكز التي تعني بنشر اللغة العربية وآثرائها وتطويعها لمقتضيات العصر .

9) تبادل الزيارات التدريبية والتثقيفية بين الطلاب .

10) تبادل المنح الدراسية حسب حاجات الطرفين .

وفى شؤون الثقافة واحياء التراث :

أن يتم التعاون فى المجالات الآتية :

1) احياء التراث وصيانته حسب الطرق الفنية والعلمية التي يملكها الطرفان .

2) العمل على توجيه الطلاب والدارسين الى البحث فى التراث وتدريبهم على تحقيقه والاستفادة منه وتشجيعهم على ذلك .

3) التعاون على تسهيل تبادل تصوير المخطوطات وتبسيط نظم الاستفادة منها .

4) التعاون فى مجال جمع الوثائق والكتب ذات النفع المشترك .

5) التعاون فى مجال الطبع والنشر وتحقيق التراث .

6) التعاون على صيانة المآثر الاسلامية وتشجيع الدارسين المعنيين بالبحث فى التاريخ الاسلامي وحضارته .

7) تبادل الاسابيع الثقافية ، والمعارض والانشطة الفنية .

8) دعم الجمعيات التي تعني بنشر التراث والثقافة الاسلامية .

9) التعاون على نشر الحضارة والثقافة الاسلامية خارج البلدين الشقيقين .

واتفق الطرفان على أن يعد الطرف المغربي التصورات العلمية لتوامة الجامعات والمؤسسات العلمية ذات الاختصاص الواحد ، على أن يعد الطرف السعودي التصورات العلمية الكفيلة بتبادل المعلومات المستمرة بين المراكز الثقافية والعلمية .

كما أوصيا بأن تجتمع اللجنة المؤلفة باقتـــراح من الطرفيـــن فى الاسبوع الاخير من شعبان عام 1397 بالمملكة العربية والاسبوع الاول من ذي القعدة من نفس السنة بالمملكة العربية السعودية لتدارس التوصيات الآنفة الذكر وتحديد كيفية تنفيذهـــا .

وحرر بالرباط بتاريخ 8 / 6 / 1397
الموافق 27 / 5 / 1977

مأدبة عشاء

على شرف وزير التعليم العالي السعودي

أقام السيد وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية ، مساء الجمعة 8 جمادي الثانية 1397 موافق 28 ماي 1977 مأدبة عشاء تكريما لوزيـــر التعليم العالي بالمملكة العربية السعودية الشيخ حسن عبد الله آل الشيخ حضرها بعض الوزراء فى حكومة صاحب الجلالة والوفد السعودي المرافق للشيخ ، وأعضاء من وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ووزارة التعليم العالي وصفوة من الشخصيات العلمية والثقافية .

وبهذه المناسبة القى الاستاذ الكبير السيد الحاج محمد أبا حنيني ، وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية الخطاب التالي :

خطاب السيد وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الانبياء والمرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين

معالي الاخ الكبير ــ حضرات السادة

اصبح من المألوف المعتاد ، فى مناسبة كمناسبتنا هذه ، ان يتلقى الوزير المضيف ، أخاه الضيف الذي تتشرف به الديار بوجـــه متألـــق

بالبشر ولسان رطب بالترحيب وقلب طافح بالكبير من المسرات والكثير من الاماني ونحن اذ نجري فى الاحتفاء بك ايها الاخ العزيز وبمـــن فازوا بحظ مصاحبتك ، على المألوف من جميل العادات، فان فى قلبنا لك ولبلادك، من ذخائر المودة الخالصة ، ونفائس التقدير والاكبار ، ما يتجاوز الآفاق المعهودة بين المرتبطين بروابط الاخاء ، وما ذلك الا لان صلتنا بكم ايها الاخ الكريم ، بالاضافة الى انها آصرة أخاء وثيق العرى ، ثابت على مدى الازمان ، صلة موسومة بسمة التعاطف والتحاب ، المتبادلين بين عاهلينا العظيمين ، ممتازة بصفة خاصة ، تجعل من شعبي بلدينا شعبين دائبين على الالتزام بمبادىء وقيم ومثل عليا واحدة وعلى الوفاء والاخلاص لتراث ثـــرى مجيـــد .

وانتم الى هذا وذاك وفد الحرمين الشريفين ورسل منبـــع أعظـــم الرسالات ، ومصدر اسنى الحضارات ، ومنطلق التبديل الـــذي بـــدد حنادس الجهالات والجاهليات واشاع النور وهاجا فى اكنـــان النفوس ، ومهد للعالمين سبل الهداية ووطأ للمؤمنين أكناف العز والسيادة .

وفى هذا كله ما يعلق النفوس بكم اشد اعلاق ويضفي على اخائنـــا لكم افوافا مسبكرة من صفاء ووفاق ، وفى هذا الاطار المعطر بأوفى وأكرم ما يتناط بالسرائر من مشاعر ، ويجمع قلوبا الى قلوب ، والبابا الى الباب، وفدتم ضيفا على المملكة المغربية، ملكها وحكومتها وشعبها، وان ابتهاجنا بمقدمكم لشديد ، وان وطنكم المغرب بحلولكم لمغتبط سعيد .

واذا كانت وفادتكم الميمونة ، من الوفادات التي تقترن عادة بالنظر فيما هو خليق بالتمتين والتعزيز ، وتثبيت الخطى على الصعيد المفضل، لاختيـــار احسن الوسائل واحمد العواقب ، فان المحادثات والمباحثات بيننا لكفيلة بأن تشد كثيرا الى كثير ، وتتبع خيرا جزيلا بخير وفير ، وتزيد استحكاما ما هو مستحكم مريـــر .

فنحن مطمئنون أقوى ما يكون الاطمئنان، الى ما سيستقر عليه رأينا ويؤول اليه حديثنا ، وان من رعاية الله لنا ان تناط بنا مسؤولية السهر على شؤون تعد من أجل الشؤون قدرا وخطرا ، وان نتولى بالاهتمام البالغ

ما وكل الله الينا من تصريف وتدبير وبالاقبال على الاعمال الواجبة بنيـــة صادقة وضمير لا يزعجه تعنيف ولا تبكيت .

واملنا عظم ان تجد ايها الاخ الوزير فى تضاعيف هذا اللقاء الذي اردناه قبل كل شيء فرصة جديدة لصلة رحم ماسة ، فسحة للاستراحة ومستزادا للاستجمام .

واننا لنسأل الله ان يطيل بقاء عاهلينا العظيمين صاحب الجلالة خالد ابن عبد العزيز وصاحب الجلالة الحسن الثاني ويهب لهما توفيقا مشفوعا بتوفيق لما يؤمن لبلدينـــا اطراد الرفاهية والازدهار ، ويكفل للاســـلام والمسلمين المناعة والحصانة وطلاوة الحال وغضارة المئال .

شكر الله لك ايها الاخ العالم المفضال ، تلبيتك الكريمة للدعوة التي اشتركت انا وصديقي وزير التعليم العالي الدكتور عبد اللطيف بن عبـــد الجليل ، في وضعها بين يديك وعرضها أمام عينيك ، وكتب الله لـــك السلامة فى الحل والترحال ، وثبت خطاك على النهج السليم ، والمركب القويم ، ويسر جهودك لكل مطلب وسيم ونفع عميـــم .

محمد اباحنيني

* * *

وبعد ذلك رد السيد وزير التعليم العالي السعودي الاستاذ الكبيـــر حسن عبد الله آل الشيخ بكلمة شكر فيها السيد وزير الدولة المكلـــف بالشؤون الثقافية على الكلمات التي قالها فى حقه ، كما أكـــد على تبادل الزيارات بين المملكتين الشقيقتين حيث وصفها بأنها ستساعد على تمتين أواصر الصداقة بين البلدين ثم أبرز التقدير الذي يكنه الشعب السعودى وعلى رأسه جلالة الملك خالد بن عبد العزيز نحو المغرب وعاهله جلالـــة الملك الحسن الثاني منوها بالتقدم الذي حققه المغرب فى شتى المجالات، وفى الاخير جدد شكره للسيد وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية لما لقيه الوفد السعودي طوال مقامه بالمغرب من حرارة الاستقبال وحســـن الضيـــافـــة .

كتاب "فن علم الخط العربي" يفوز بجائزة الأكاديمية الفرنسية

أحرز كتاب « فن علم الخط العربي » لمؤلفه الدكتورين محمد السجلماسي وعبد الكريم الخطيبي ، جائزة الاكاديمية الفرنسية . والكتاب يتناول فى فصوله الخمسة مختلف مظاهر علم الخط العربي ابتداء من القرن التاسع الى يومنا هذا ، كما يعتمد على وثائق ونصوص قديمة ودراسات فى هذا الموضوع .

نتيجة جائزة الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق لسنة 1977

بناء على البلاغ الصادر عن وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافيه حول جائزة الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق ، تسلمت الوزارة كثيرا من المخطوطات والوثائق من مختلف أنحاء المملكة ، وعينت لها لجنة من المختصين .

وقد تفرغت هذه اللجنة لفحصها ، ودراستها ، وتقييمها . وبعد ما أتمت أعمالها انعقد اجتماع بين وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية وأعضاء اللجنة ، اطلع الوزير خلاله على نتائج فحص اللجنة ودراستها للمخطوطات والوثائق وتطبيق المقاييس المحددة ، وانتهى الاجتماع بالنتيجة التالية :

أولا : الاحتفاظ بالجزائزة الاولى والثانية .
ثانيا : منح الجزائزة الثالثة لكل من السيدين :

1) محمد البيطار الفلكي من مراكش لثلاث مخطوطات هي :

أ ـ زاد المسافر الى معرفة وضع فضل الدائر .
ب ـ المختصر الكامل فى علم البحر .
ج ـ مجموع يشتمل على ثلاثة كتب :

1 ـ ايضاح الادلة فى مراصد الركلة .

2 ـ الادلة الكلية فى الاحكام النجومية لابن قنفد .

3 ـ الاحكام الفلكية .

2) الحاج العربي بن سعيد من سلا ، لمجموعة من الوثائق مختلفة الاهمية عددها 549 .

ثالثا : منح الجائزة الرابعة لكل من السيدين :

1) محا العثماني من مراكش لمخطوطتين :

أ ـ ديوان للشاعر الزجال عبد القادر بوخريص .
ب ـ الجزء الاول من شفاء الاسقام (فى الطب) لخضر حاجي .

2) الحاج محمد السقاط من الدار البيضاء لثلاث مخطوطات :

أ ـ كتاب علم السير فى البحر .
ب ـ مجموع يشتمل على عدة فهارس .
ج ـ مجموع يشتمل على فصول بما أمر السلطان محمد الثالث بالعمل به فى أحكام القضاة والمدرسين وائمة المساجد واستفتاء فقهاء مصر .

رابعا : منح ست وخمسين مجموعة من الوثائق والمخطوطات مكافأة تشجيعية متدرجة فى قيمتها .

وبهذه المناسبة ، ستنظم وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية معرضا للمخطوطات والوثائق الفائزة فى هذه السنة ، ابتداء من الساعة السادسة والنصف من مساء يوم الثلاثاء 28 جمادى الاولى 1397 الموافق 17 ماي 1977 ، وذلك ببهو مسرح محمد الخامس . وسيستمر هذا المعرض لمدة عشرة أيام .

وتأمل وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية أن يرد عليها بمناسبة المباراة المقبلة لنيل الجزائزة من الوثائق والمخطوطات العدد الكثير القيم الذي من شأنه أن يفيد الباحثين والدارسين لتراث المغرب وتاريخه .

الأسبوع الثقافي الموريتاني بالمغرب

في نطاق التبادل الثقافي بين الجمهورية الاسلامية الموريتانية الشقيقة ، والمملكة المغربية ، نظم بالمغرب اسبوع ثقافي موريتاني ابتداء من 23 يونيه 1977 الى 29 منه ، افتتحه بمسرح محمد الخامس وزيرا الثقافة المغربي والموريتاني الاستاذان الحاج محمد ابا حنيني ، وسيدي أحمد ولد الداي .

حضر هذا الحفل بعض اعضاء حكومة صاحب الجلالة ، ورجال السلك الديبلوماسي الى جانب مجموعة كبيرة من الشخصيات الثقافية والصحافية والعلمية .

وقد بذلت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية مجهودات لتقديم هذه التظاهرة الثقافية للشعب المغربي تقديما يدعم الاواصر الاخوية القائمة بين القطرين الشقيقين .

واشتمل برنامج هذا الاسبوع الثقافي على معارض ، وسهرات فنية ، وعروض سنيمائية ، ومحاضرات وقراءات شعرية .

تصويب

الكتب السماوية والعلم

وقعت في العدد الثامن من مجلة « المناهل » زلات طباعية في مقال « الكتب السماوية والعلم » ، ننبه القارىء اليها :

في الصفحة 33 ، وردت في الفقرة الاخيرة عبارة ... اعوجاج عنق النخلة « والصواب عذق النخلة » .

في الصفحة 56 ، يحذف السطر 13 ويبدل بالعبارة التالية : « يحملها اليها الدم الدوار ، وهكذا فان الدم يجمع المواد » .

في الصفحة 61 ، اقرأ : هو ان جزءا ضئيلا « **عوضا عن جزء ضئيلا** »

المناهل

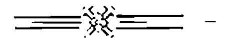


تصـــدرهـــــــا :

وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافيـــة

زنقة غاندي ـ الرباط ـ المغـرب

التليفون : 318،91 / 92 / 93



AL - MANAHIL

Publication du
MINISTERE D'ETAT CHARGE DES AFFAIRES CULTURELLES

Rue Ghandi - Rabat (Maroc)
Tél. : 318-91/92/93

مطبعة فضالة ـــ المحمدية (المغرب)



ثمن النسخة : 2،50 د .